
Bibliotheca Alexandrina
0137820

اقرأ

توفيق الحكيم

من ذكريات الفن والقضاء

دار المعارف بمصر

توفيق الحكيم

من ذكريات الفنّ والقضاء

اقرأ ١٢٦

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٦ – أول يونيه ١٩٥٣



عندما دون وكيل النائب العام . « يوميات نائب فى الأرياف » لم يقصد نائباً بالذات ولا قرية بالذات . ولكنه صور نماذج بشرية واجتماعية مما قد ينطبق على كل بقعة فى ريف مصر .

وهو فى هذا الكتاب ينحو نحواً آخر . فهو يقصد نائباً معيناً وحياة بعينها لها ميولها ونوازعها وظروفها التى قد لا تتكرر كثيراً فى عين المحيط ، وإن كان الإطار الذى تتحرك فيه هذه الذكريات هو نفس الإطار الاجتماعى الذى يعكس صورة من حياتنا فى الأقاليم .

٧

الوزير جعفر

عندما كنت وكيلا لنيابة البندر بمدينة (. . .) من عواصم الأقاليم ، لم يكن شيء ينغص على حياتى غير رئيس النيابة . فقد كان رجلا ليس له فى الدنيا غير هوايتين : تدخين الشيشة وإيذاء الغير . كان الشر للشر هو مذهبه الفنى فى الحياة ولا يعنينى هنا تطبيق مذهبه فى مجال العمل الرسمى . فهذا أمر قد يكون له فى نظره ما يبرره . فالقسوة على المتهمين ، وتضييق الخناق عليهم فى كل وجه من أوجه دفاعهم ، والتلذذ بمرآهم وهم يقعون فى حبائل أسئلته ووسائل استجوابه المشروعة وغير المشروعة ، والذهاب أحياناً إلى حد تعذيبهم بالجوع والعطش طوال أيام التحقيق . . . كل ذلك داخل فى نطاق عمله الذى لا شأن لى به هنا . إنما أقصد بالشر معاملته لنا نحن معاونيه ومرؤوسيه وزملائه . خصوصاً من كان يظنهم بغير سند أو ظهير من عظيم أو وزير . وكنت عنده من هؤلاء الذين لا يعتمدون على غير عملهم ، فكان يخفف أثقال العمل عن أصهار الكبراء من الزملاء ،

ليلقيها على كاهل ضعيف مثلى . ما من ليلة تركنى أنام فيها بملء جفنى فى بيتى . فقد كان يرسل إلى خفراء الدرك يوقظوننى لأضبط واقعة حريق تافهة ، هى فى أغلب الأحيان من اختصاص معاون الإدارة . وما كان يطيق أن أسأله يوماً أسافر فيه للراحة أو الاستجمام . مرة واحدة سمح لى فيها بليلة واحدة أمضيها فى الإسكندرية . ولست أدرى كيف سمح بذلك . فقد كان شارد الفكر وقتئذ من غير شك . سألته الأجازة وهو يدخن الشيشة على قهوته المعتادة فى ميدان المديرية . فقال :

— الصبح تكون هنا .

فأكدت له أنى لا أحتاج إلى غير سواد الليل . فأنا مولع بسماع الموسيقى السمفونية . وقد علمت أن جوقة موسيقية تعزف برنامجاً حافلا لبيتهوفن فى كازينو سان استفانو . . فتحرقت شوقاً لسماعها . أنا المحروم منذ زمن طويل من متع الفن الرفيع الذى أحبه وكادت تقضى عليه حياتى الشاقة بين جرائم الأرياف وجهالة أكثر الزملاء . وسافرت وما كدت أستقر ساعة فى الإسكندرية ، حتى أفاق الرئيس من إغفائته ودخان شيشته ، وكبر عليه الأمر ، واستهول حصولى على يوم راحة ، فأطلق فى

أثرى إشارة تليفونية مستعجلة إلى المحافظة يدعونى فيها إلى العودة فى نفس الليلة — ولو بأى قطار بضاعة متهيىء للسير — بحجة قيام مظاهرات فى المدينة تستوجب مباشرة التحقيق . وعدت أدراجى دون أن أذهب لسماع الموسيقى . . فوصلت المدينة فى أول الليل . . فلم أجد بالمدينة أثراً لمظاهرات ولا لحوادث . وجعلت أستفسر فى أقسام البوليس المختلفة فما ظفرت بغير جواب واحد : كل شىء هادئ فى المدينة ، ولم تتحرك نملة . ولم يحدث ما يستوجب حضورى . فأدركت أن غريزة الإيذاء هى وحدها التى تحركت فى نفس رئيس النيابة .

* * *

مرت الأيام هكذا كئيبة ثقيلة ، إلى أن جاء صيف شديد القيظ ، وجاءت معه فى تلك المدينة فرقة تمثيلية على رأسها ممثل قديم ، كنت أعرفه وأقدره يوم كانت لى مسرحيات تمثل فى جوقة عكاشة بالقاهرة . فرحت فرحاً شديداً بمجىء هذه الفرقة . فقد كانت نسيما من أنسام الفن الجميل يرطب صحراء هذه الحياة الجافة . فقلت فى نفسى : لا بد من الذهاب الليلة لمشاهدة التمثيل ومقابلة صديقى الممثل القديم « عمر أفندى » كما كنا

ندعوه . وعدت إلى منزلى ، وكان فى طرف من أطراف المدينة ، لأتغدى وأنام قليلا استعداداً للسهر . لا فى المسرح وحده . بل فيما بعد المسرح من تحقيقات وانتقالات وحوادث مما سيخبئه لى القدر القاسى بالتآمر مع رئيس النيابة الذى لا تنام عينه عن أذية . لا سيما إذا عرف أن فى المدينة فرجة . وأنى ذاهب أمتع نفسى .

تناولت غدائى . واستلقيت على فراشى ، وكان الجو حاراً ، وكنت البارحة ساهراً فى تحقيق قضية ابتلانى بها بالطبع هادم راحتى . فلم تمض دقيقة حتى كنت أغط فى نوم عميق . ولكن نومى لم يطل فقد أفقت منه مذعوراً على صوت طرق شديد على الباب . نهضت فوجدت ما هو منتظر : أحد سعاة النيابة أرسله الرئيس ليدعونى إليه فوراً .. فسألت الساعى وأنا أتميز من الغيظ :

— يطلبنى الآن ؟ فى هذه الساعة ؟ ما السبب ؟ . . .

فقال الساعى وهو ينشف عرقه المتصبب بكمه :

— والله ما أعرف .

نظرت فى الساعة فوجدتها لم تجاوز الثالثة بعد الظهر إلا

بقليل. ماذا يصنع هذا الرجل الآن ؟ وفى مثل هذا الحر الشديد؟ إنى أعرف أنه لا ينام بعد الظهر على الإطلاق . هو ولا ريب يدخن الشيشة على القهوة . ولكن الساعى أخبرنى أنه دخن شيشته وفرغ منها على خير ، ثم ذهب إلى مكتبه فى دار النيابة وأيقظ السعاة وأحضر الكتبة من بيوتهم ، وشرع يخلق لهم الأعمال الشاقة خلقاً منتهزاً فرصة القيظ المهلك . فكرت لحظة ملياً . ثم نظرت إلى الساعى المسكين وهو يبلع ريقه الناشف ، بعد أن قطع الطريق الطويل الأجرد بين دار النيابة وبيتى ، فى هذه الشمس المحرقة . . . ثم قلت له :

ـــ الدنيا حر بره ؟ . .

فأجاب على الفور :

ـــ جهنم ! . .

فأشرت إلى الدهليز الرطب وقلت له :

ـــ اقعد واسترح . . عندك هنا قلة ماء باردة ! . .

فما تمالك الساعى أن صاح فرحاً :

ـــ الله يعمر بيتك ! . .

وتركته ودخلت إلى حجرتى ، واستلقيت على فراشى كما

كنت ، وأغمضت عيني ، كأنما لم يحدث شيء ولم يأت أحد ، واستغرقت فى نومى العميق . . ومضى وقت قد يجاوز نصف الساعة ، وإذا الباب يطرق مرة أخرى . فاستيقظت فوجدت ساعياً آخر من سعاة النيابة قد أرسله الرئيس وقد استبطأ الساعى الأول . فابتدرت الساعى الثانى قائلا :

– الدنيا حر فى السكة ؟ .

فقال وهو يلهث :

– موت أحمر ! .

فأشرت إلى الدهليز الرطب وقلت :

– اقعد واسترح مع زميلك .. واشرب من القلة الباردة ! ..

وتركته يشكرنى من أعماق قلبه . . وعدت إلى حجرتى وفراشي ونومى . . . ومر وقت لا أدرى مداه . . قد يكون أيضاً حوالى نصف الساعة ، وإذا الباب يطرق مرة ثالثة . وإذا بساع ثالث يوفده رئيس النيابة ليستعلم عن الخبر . . فخرجت إليه وبادرته بالسؤال المعهود :

– كيف حال الطقس فى الطريق ؟ .

فقال وهو يستند إلى الحائط من الإعياء ، وقد كان أكبر

من سابقيه سناً وأضعف صحة :

— هلاك والعياذ بالله ! . .

فأشرت إلى الدهليز وقلت :

— اقعدوا كلكم استريحوا . . . الدهليز رطب ، والقلة باردة ! . . .

فجعل الساعى العجوز يستمطر الدعوات المباركات . فتركته ودخلت حجرتى واستلقيت على فراشى . ولكنى لم أنم هذه المرة . . بل جعلت أحصى عدد سعاة النيابة الموجودين الآن تحت تصرف رئيس النيابة . . وأقول فى نفسى : إنهم ثلاثة لا أكثر ، وقد أرسلهم كلهم . . وأنه لا شك سيفطن عما قليل إلى أن من يرسله لا يعود . . فما النتيجة ؟ . . النتيجة أحد أمرين : إما أنه يرسل إلى نقطة بوليس بأكملها دفعة واحدة . . ولن أستطيع بالطبع إجلاسها فى الدهليز إلى جانب القلة. وإما أن يأتى هو بنفسه ليكشف الخبر . . . والأمران ولا ريب محرجان غاية الحرج . والأصلح أن أجد لنفسى مخرجاً بترك البيت فى الحال حتى لا أواجه موقفاً دقيقاً يعرضنى لضرر أفدح . فنهضت لساعتى وارتديت ملابسى . ومررت بالسعاة فى الدهليز وقلت لهم :

ـ البيت بيتكم . . أبقوا فى مكانكم هنا هادئين ناعمين . . ولا تعودوا لرئيس النيابة الآن فيعنفكم ويعاقبكم . . انتظروا حتى يتحسن الجو وانعموا بالساعة التى أنتم فيها . . وإذا جاءكم أحد أو سألكم سائل فقولوا إنكم هنا فى انتظارى .. وإنكم لم تجدونى فى منزلى . . وليكن ما يكون . . وعلى رأى المثل الريفى : لقد « لغمطنا راس الحمارة طين » ! . .

* * *

خرجت من منزلى وأنا أقول فى نفسى : ما دمت قد رفعت راية العصيان ضد رئيس النيابة فلأفعل ما بدا لى مدة عشر ساعات على الأقل . فهو الآن لا يعرف لى مقراً . فأنا مختف عنه . هارب من بيتى . ولم أترك عنواناً . وهو أمر لا يجب أن يحدث لعضو من أعضاء النيابة العمومية . فحركة عضو النيابة كحركة عضو الجسم لا بد أن يعرف الرأس خط سيرها فى كل حين . ماذا أفعل بوقتى الآن ؟ . سأتنسم الحرية أولا ... آه ما أجمل الحرية ! . ولو لبضع ساعات ! . حرية التنقل دون أن تترك لأحد عنوانك . حرية الحركة دون أن يكون فى أثرك ساع أو خفير . الآن أستطيع أن أعيش فناناً . . كما كنت فيما مضى

بضع ساعات . . . سأذهب إلى التمثيل فى المساء . ولن يكون هناك رئيس النيابة بالتأكيد . فأنا أعرفه تمام المعرفة . إنه يحتقر التمثيل كل الاحتقار . وأذكر — يوم رآنى أحقق فى قضية كان أحد شهودها من الممثلين — أنه قال لى : « قبل أن تسمع شهادة هذا الممثل حرر له محضر تشرد » ، نعم إنه لم يذهب إلى التمثيل فى حياته . ولن يذهب الليلة بل سيكتفى بالجلوس فى قهوته يدخن شيشته ، ويفكر فيما ينزله بى من كوارث بعد هذه الفعلة. وماذا يهم ؟ . حسبى أنى سأعيش فى جو الفن ساعات ، تنعش نفسى مدى أعوام . .

مشيت فى الطرقات على غير هدى فى انتظار المساء . وكانت المدينة تعج بأهل الريف القادمين من القرى المجاورة والبعيدة . فنحن فى أسبوع مولد من أهم موالد المدينة . ولم أر من الحكمة أن أجلس فى قهوة . فقد يعثر بى رسل رئيس النيابة الذين قد يطلقهم بحثاً عنى فى جميع قهاوى البلد . وخطر لى بادئ الأمر أن أذهب إلى مسرح البلدية حيث تمثل الفرقة هذا المساء ، فأسأل عن الممثل عمر أفندى . ولكنى أعرف عادات الممثلين . فهو الآن ولا شك نائم فى فندقه ، استعداداً لسهر

الليل . فمن الخير ألا أزعجه . وليكن لقاؤنا بعد انتهاء التمثيل .
لم يبق أمامى إذن إلا التسكع فى شوارع المدينة وساحة المولد ،
بدون وجهة ولا مقصد . وهو ما لا يمكن أن يقع لوكيل نيابة فى
مدن الأقاليم إلا فى غفلة من الزمن ومن رئيس نيابته . . .
سرت فى الطرق أنظر إلى الناس والأشياء نظرات بريئة صديقة ،
لا تخفى اشتباهاً ولا ارتياباً . نظرات مواطن بين مواطنين .
لا نظرات محقق بين متهمين . ولأول مرة منذ اشتغالى بعملى
القضائى أشعر بإنسانيتى . أشعر بأنى جزء من جماعة . لا فرد
متسلط على جماعة . . .

ووقع نظرى على الإعلانات الكبيرة تكسو الحيطان ،
عن فرقة التمثيل وعن رواية « هرون الرشيد » التى تعرض الليلة .
فرجعت بى الذاكرة أعواماً طويلة إلى الوراء . يوم كنت أسير
فى شوارع القاهرة أتأمل إعلانات جوقة عكاشة فى مسرحيتى
المسماة « العريس » . كان اسمى بالخط الصغير جداً فى أسفل
الإعلان يملؤنى زهواً ، ويخيل إلى أن كل من فى الشارع قد أعطى
من قوة البصر ومن شدة الاهتمام ماجعله يقرأ هذا الاسم الصغير .
لعلى أسخر من تلك الفكرة اليوم . ولكن ماذا يهم ؟ . . لقد

كنت فى ذلك الوقت أومن بكل سذاجة الشباب الأول أنى فنان. وهذا الإيمان ليس بالشيء القليل . إنه على الأقل كان يمنحنا شعوراً عجيباً لذيذاً ، قلما تستطيع الحياة أن تعيده إلينا على هذا النحو ، فى أية مرحلة أخرى من مراحل العمر .

وطفقت أستعرض فى رأسى صوراً مما جرى أيام إخراج مسرحيتى . لقد كان عمر أفندى هو المتولى أمر إخراجها . ولن أنسى حدبه على هذه المسرحية وعنايته بكل شئونها . . . كان من أبطالها الممثل القديم المرحوم « محمد بهجت » . وكان عليه أن يرتدى بذلة فاخرة تليق بدور الثرى الذى يمثله . فلما اقترب موعد التمثيل جاء لابساً خير ثيابه ، فإذا هى فى نظر المخرج لا تصلح لدور ثرى . . . فصاح فيه عمر أفندى : « بذلتك هذه تلبسها لتقول بها أمام المساجد لله يا أسيادى ! » فأجاب بطل الرواية : « هذه ملابسنا بصفتنا عظماء الممثلين ، فإذا أردتم أن نكون عظماء من الأغنياء فألبسونا من عندكم ! » وكان الجواب مقنعاً . وسعى عمر أفندى لدى مدير الفرقة زكى عكاشة فأذن بشراء بذلة جديدة « جاهزة » من محل فى العتبة الخضراء ، على حساب الفرقة ، ليرتديها بطل الرواية . وظهر

« محمد بهجت » فى تلك الليلة على المسرح فى بذلة أنيقة فخمة تليق بثرى من خيرة الأثرياء . وانتهى التمثيل . وجاء اليوم التالى فإذا محمد بهجت يختال بالبذلة الجديدة فى شوارع القاهرة ، فضبطه مدير الفرقة صائحاً فيه : « ما هذا ؟ . اخلع حالا هذه البذلة . . . هذه بدلة الشغل تلبسها فقط ليلة الرواية فوق خشبة المسرح ، ثم تسلمها بعد ذلك لتوضع فى المخزن مع « الأكسسوار » . . شأنها شأن ملابس عطيل وسيف قلب الأسد وتاج ملك النمسا . . . »

* * *

جاء الليل وحان موعد السهرة . فذهبت إلى مسرح البلدية ، فوجدت العساكر محيطة ببابه ، فأدركت أن مدير المديرية سيشرف الحفلة . فانسللت إلى شباك التذاكر وحجزت لى مقعداً فى القاعة وسط الصفوف . ودخلت وجلست . وجعلت أتصفح وجوه النظارة . كان أغلب الجلوس فى المقاعد الخلفية من القرويين الذين نزلوا المدينة لمناسبة المولد . فقد كثرت الزعابيط واللبد . أما الصفوف الأمامية والوسطى فكانت تعج بالموظفين والأعيان .ولم يلبث المدير أن دخل مقصورته فى صحبة وكيل

المديرية وحكمدار البوليس ، فدبت حركة وسمعت همهمة بين النظارة واتجهت الأبصار إلى مكان الحكام . ثم علا صوت الدقات الثلاث فوق خشبة المسرح ، وارتفع الستار عن رواية هرون الرشيد . وظهر عمر أفندى فى دور الوزير جعفر . فعرفت فيه الممثل العظيم الذى أنضجته السنون . وما كادت الحفلة تنتهى حتى خرجت باحثاً عن باب الممثلين ، وقابلت صديقى الممثل القديم . فكانت مفاجأة له وأى مفاجأة . وانتظرته حتى خلع ثياب الوزير ، وأزال المكياج ، وخرجنا معاً نجوب المدينة ونتذكر الماضى . . .

* * *

مشينا فى ساحة المولد بعد منتصف الليل . وقد اشترينا كعكاً وبيضاً وجعلنا نأكل ونحن نسير بغير هدف ، ونضحك من أعماق القلب . ولم نلتفت إلى شيء من متاجر المولد ولا ملاهيه . بل كان كل همنا الحديث فى الفن . . . قلت لعمر أفندى : احك لى عن ماضيك البعيد الذى لا أعرفه . . . قص على كيف تعلقت بفن التمثيل ؟ . . . اغمرنى فى جو الفن ! . حدثنى عن التمثيل فى أول عهدك به ؟ . . كيف كان حاله ؟..

فلفظ ضحكة مكتومة ساخرة نعرفها منه وقال : لو فتحت هذا الموضوع فلن ننتهى منه قبل الفجر .

فقلت له : فليكن ! . . وهل لدينا أهم من هذا ؟ . .

فقال لى : أليس لديك شغل غداً ؟ . . إنك لم تخبرنى ما عملك اليوم ؟ . .

والواقع أنى لم أكن قد أخبرته بعد بوظيفتى . فقلت له : سأخبرك فيما بعد عما أعمل . أما الساعة فنحن للفن . . . أخبرنى كيف أحببت الفن ! . .

فتنهد عمر أفندى طويلا ثم قال : اسمع يا سيدى ! . . أقول لك حالا . . . وقضم عنق كعكته الثانية ، وقال :

كان ذلك فى عام ١٣٠٠ هجرية . وقد علق بذهنى التاريخ الهجرى . لأن نشأتى الأولى كانت نشأة دينية . فقد كان والدى رحمه الله من أئمة المساجد . فألحقنى بمكتب خان جعفر لأتعلم القراءة والكتابة وأحفظ القرآن الشريف ؛ فيكون لى من بعده عمله بالمسجد . وقد ألبسونى منذ صغرى العمامة والجبة والقفطان وصيرونى شيخاً صغيراً اسمه « الشيخ عمر » ولكن شاء الحظ السيئ أو الحسن ، لست أدرى ، أن أسمع

وقتئذ من بعض أصدقائى عن شىء اسمه « التشخيص » ، وزينوا لى مشاهدته . فذهبت معهم إلى بولاق ، ورأينا رواية يقال لها « الملك بختنصر » يمثل فيها المرحوم محمود حبيب فبهرنا التمثيل والغناء والملابس المزركشة بالقصب . أشياء لم نشاهد لها مثيلا فى حياتنا . ولم أدفع فى كل ذلك غير قرش واحد ، أجر الدخول فى « الترسو » . ورجعنا إلى منازلنا فى حى سيدنا الحسين ونحن نقلد الممثلين طول الطريق . ووالينا حضور التمثيل كل ليلة لمدة شهرين والرواية لا تتغير . وأصبح التمثيل شغلنا الشاغل وألهانى عن دروسى ، فكنت أتلقى الضرب والتعنيف من أهلى ، ولكن ما يكاد يأتى المساء حتى أنسى كل آلام الضرب وأهرع إلى مشاهدة التمثيل . . . وسمعنا بعدئذ عن جوقة القرداحى التى كانت تمثل على مسرح الأوبرا الخديوية ، وكان من بين أعضائها الشيخ سلامه حجازى . . . لكن وأسفاه ! . . كان أجر الدخول أربعة قروش فى « الترسو » . فلم أستطع مشاهدتها غير ليلة واحدة . كانت الرواية التى يعرضونها فى تلك الليلة هى « عايدة » . لقد كنت أشاهدها وأنا كالمذهول . . ما كل هذه المناظر والملابس والتماثيل والعسكر والأحباش . . . عدت

إلى البيت ولم أنم فى ليلتى . لقد قضى الأمر وتمكن منى الداء وصحت فى فراشى من أعماق نفسى : لا بد أن أكون ممثلا ! . .

فقلت لعمر أفندى وأنا أقضم كعكتى : وقد صرت بالفعل ممثلا قديراً . . .

فقال : انتظر . . انتظر . . . بعد أى جهاد . . .

فقلت له : نعم أخبرنى كيف بدأت ؟ . .

قال : فى تلك الأيام ظهرت جمعيات تمثل فى الأوبرا الخديوية . فرجوت من صديقى الذى قادنى إلى التشخيص أن يحتال لنا حتى نشاهد عن قرب جمعية من هذه الجمعيات . فمضى ثم عاد بعد يومين يبشرنى بالحصول على إذن بحضور « بروفة » إحدى المسرحيات . ولم يكد الليل يقبل حتى كنا فى صالة البروفة نرقب مشدوهين نسيم أفندى غبريال المنبراوى المخرج الفنى العظيم المتخصص فى ترتيب المواكب والزفف وانتقاء الملابس والألوان . . . كان فى تلك الليلة يدرب ممثلين على رواية « جنفياف » التى سيمثلونها بعد أسبوع بدار الأوبرا فى حفلة خيرية تحت رعاية الخديوى توفيق باشا بإشراف سعادة باسيلى بك مفتش الأسماك المصرية . . ولقد رأيت المخرج يعلم

شاباً دور خادم فى الرواية ، مكرراً له الجملة مرات والشاب لايفقه ، حتى ضجر منه المخرج ويئس ، وأنا أغلى من الغيظ ، حتى انفجرت أخيراً صائحاً كالمجنون : « أنا أمثل هذا الدور يا أفندى ! » فدهش الحاضرون لجرأتى وحماستى . ورحب المخرج بالفكرة . وأمر الشاب أن يعطينى الدور لأحفظه . فقلت له : « إنى حفظت الدور من مجرد الإصغاء » . فعجب الجميع لذلك وطلبوا إلىّ أن أتقدم وأؤديه. فأديته فى الحال كما كان يعلمه المخرج منذ لحظة ، وإذا بى أسمع تصفيق الاستحسان يدوى فى المكان ، وصياح الحاضرين « برافو ! برافو ! » . . إلا الشاب المسكين فقد أخذ يبكى ويقول محتجاً : « إزاى أتعب فى حفظ الدور وتعطوه لواحد جاى النهارده ؟ »

وجاءت ليلة التمثيل فى الأوبرا ، فدخلتها وأنا كالمحموم أهذى من الفرح ، وعجبت لاتساع المسرح وكثرة الحجرات والمرايا والسلالم والأبواب ، ولكنى ما شعرت قط بخوف ولا هزة ولا رعشة ، ومثلت دورى ، فسمعت التصفيق ولم أر أحداً . حتى فطنت إلى أن الصالة غارقة فى الظلام ، وأن المسرح وحده هو المضاء . فلا يستطيع من فوقه من الممثلين أن يميز وجود الجمهور

فى القاعة . كان نجاحى تلك الليلة لا شك فيه ، على الرغم من صغر الدور . وفتح لى هذا النجاح الباب . لا أقول إلى المجد دفعة واحدة ، بل إلى قبولى فى جمعيات التمثيل بغير عناء ، فما كاد يمضى أسبوع حتى تلقفتنى جمعية تمثيلية تدعى « جمعية الاتحاد الوطنى » كانت تتأهب لإخراج رواية « هند بنت الملك النعمان » تأليف الشيخ محمد بصره أحد مشايخ الأزهر الشريف . ووزعت الأدوار ، وأسند دور « هند » بنت الملك إلى الشيخ محمد حامد الطالب بالأزهر الشريف والكاتب فى محل تجارى بالغورية ، ليقوم به تمثيلا وغناء بصوته الرخيم . أما أنا فكان نصيبى دور الممثلة الثانية . واستمرت البروفة أربعة شهور كاملة ، تمكنا خلالها من إتقان أدوارنا . وكان كل فرد منا يحفظ ، لا دوره فقط ، بل كل أدوار الرواية . . كان كل شىء معداً أحسن إعداد . . وإذا الجمعية تفاجأ بحضور زائر أجنبى هو الموسيقار الكبير أدرينكو تورتى يعرض عليها الاشتراك معه فى تنفيذ فكرة خطرت له . هى إخراج رواية عربية يضع هو موسيقاها ويغنيها أعضاء الجمعية . فقد بلغه أن من بينهم مغنين ذوى أصوات ملائكية . ثم يترجم الرواية إلى

الإيطالية . واشترط أن يظهر فى الرواية المحمل الشريف وأن تظهر فيها بعض العادات المصرية . . . كانت صفقة رابحة للجمعية . إذ أبدى الرجل استعداده لبذل المال بسخاء ، وإخراج الرواية على مسرح الأوبرا فى فصل الشتاء ليشاهدها السياح . وجاءت مسألة البحث عن المؤلف . فقلنا من يكون غير الشيخ محمد بصره مؤلفنا العظيم ، فقدمناه إلى الموسيقار الإيطالى فاتفق معه على الموضوع . ولم يمض بالفعل شهر حتى تم تأليف رواية « المحمل الشريف » . وهنا قامت فى وجوهنا عقبة ، لقد أصر الموسيقى الإيطالى على أن تكون ألحان الرواية موافقة لموسيقاه الإيطالية التى وضعها . وكان هذا مستحيلا لما بين التلحين العربى والغربى من فروق . خصوصاً فى تأدية الآذان والإنشاد والأذكار والشعر العربى الرصين الذى نظمه المؤلف الأزهرى ! . . ولكن الرجل كان شديد العناد ، محتما أن تكون الألحان كما وضعها هو بلا تغيير ولا تبديل . ولم ننجح فى إقناعه وخفنا أن تفلت من أيدينا الصفقة . فأذعنا وسلمنا أمرنا لله ، وشرعنا نجرى التدريبات . وسعى الرجل من جهته حتى حصل على التصريح بالتمثيل على مسرح الأوبرا ، وبدأ ينفق المبالغ

الطائلة فى إعداد الملابس والمناظر . وكان لا بد من ظهور ميدان المنشية والقلعة على المسرح ، فأعد كل هذا بالخشب لا بالقماش أو الورق ، واتفق مع ديوان الحربية على استعارة مائة من الجنود السوارى بخيولهم لتظهر على المسرح ، واستأجر عدداً عظيما من الجمال والحمير وعربات الحنطور والكمبيل والكارو وتختروانات ومزمار وكل ما كان يرى فى مهرجان المحمل ، حتى باعة الذرة والترمس والقرداتية . ستقول لى كيف يمكن إظهار كل هذه الجموع على المسرح ؟ . . . المسألة بسيطة : خلف الأوبرا باب كبير مرتفع قليلا عن الشارع يؤدى إلى المسرح ، فإذا وضع أمام هذا الباب عارضة من الخشب المتين ذات منحدرين على شكل سلم مزدوج ، أمكن لهذه الجموع أن تجتاز المسرح وتخرج منه ، وتكرر هذه العملية عشرات المرات وأخيراً تم كل شىء . ولم يبق إلا أمر واحد تذكرناه : هو مواكب مشايخ الطرق بالأعلام والبازات والأثواب المختلفة . فأشرنا على المسيو أدرينكو أن يذهب إلى السيد البكرى ويستأذنه فى ذلك وبهذا تكمل كل مظاهر المحمل . فلم يبطىء وأسرع إليه وعاد بأذنه وهو يتهلل بشراً . ولم يبق بعد ذلك غير تحديد

الموعد وطبع التذاكر ، وانتظار أكياس الذهب تتدفق فى جيوب الإيطالى . وإذا بخطاب خاص يصله من السراى ، فتوجه وهو يطير من الفرح لمقابلة الخديوى توفيق، ممنيا النفس بالرعاية التى سيسبغها سموه على حفلاته . ولم تطل غيبته . فقد عاد إلينا بعد قليل . فرأينا ويا لهول ما رأينا . . . رأينا هذا الموسيقى الإيطالى الممتلىء فرحاً يعود إلينا شاحب الوجه مقصوم الظهر ، فقد صدر إليه الأمر العالى بعدم تمثيل الرواية لما فيها من تعريض بالدين . وضاعت آمال الرجل مع أمواله ، وتبددت أحلامنا وتشتتت جمعيتنا . . .

ولكن حب الفن المتمكن فينا لا سبيل إلى القضاء عليه . لقد عدت بعدئذ إلى فرقة محمود حبيب التى كانت أول ما شاهدت من التمثيل ، فالتحقت بها وطفت معها فى رحلاتها بالأقاليم . وما كنا نستطيع السفر بالسكة الحديدية ، لكثرة النفقات ، فكنا نسافر فى المراكب . نشحن فيها شحناً مع صناديق الملابس وأخشاب المناظر والستائر ، وكنا ننام على ظهر المراكب ، وكلما رسونا على بلد طلعنا نمثل فيها ثم نعود إلى مركبنا . . وكان للنيل فى ذلك الوقت قرصان كقرصان البحر ،

يغيرون على المراكب الراسية فيسلبون ما فيها . فى ذات ليلة ومركبنا راس على شاطئ مدينة فى الصعيد ، هجم علينا القرصان ، فتركنا المراكبية مذعورين وقفزوا إلى الشاطئ ، ولم ندر نحن الممثلين ماذا نصنع أمام هؤلاء اللصوص المسلحين . فطرأت فكرة على المرحوم محمود حبيب أنقذتنا . فقد أمرنا فى الحال بارتداء ملابس الجنود التى يرتديها الكومبارس فى إحدى الروايات ، ووزع علينا بنادق المسرح الخشبية ، ووقفنا جميعاً صفوفاً على ظهر المركب ، وقد اشعلنا « الكلوب » فما كاد اللصوص يروننا حتى ظنوا أن الحكومة أرسلت العساكر للقبض عليهم ففروا هاربين . . مثل هذه الرحلات كانت تنهك قوانا من التعب ، ولكنها كانت تعود علينا بالربح الوفير . أو على الأصح على صاحب الفرقة . أما الفن فلم أشعر بمعناه الحقيقى إلا عند ما التحقت بفرقة المرحوم الحداد . كان للحداد آراء فى الفن هى وحدها التى وجهت حياتى الفنية . لقد علمنا أشياء لم تكن تخطر لنا على بال . كان يوصينا دائماً باتباع الطبيعة . كان يقول لنا : « كونوا كما أنتم فى الحياة » . حتى الصوت ما كان يسمح لنا برفعه عن الحد الذى تجيزه الطبيعة . وكان

يجلسنا فى المقاصير البعيدة أثناء إلقائه ، فإذا طلبنا إليه أن يرفع صوته لنسمعه ، قال : « على الممثل أن يتجنب الخروج عن الطبيعة وعلى الجمهور أن يحسن الإصغاء » . ولكن الفن الجيد لا يجد دائماً غير العقبات التى تحول بينه وبين الإقبال . فقد كان مسرح الحداد فى حى ممتلىء بدور الرقص والغناء والطبل والزمر . فكنا نبدأ التمثيل وسط الضجيج والصياح والنداء على أبواب تلك الملاهى : « هنا الست نزهة المغنية » . . « هنا الست شفيقة القبطية » . . وجمهورنا يصيح بنا أن نرفع أصواتنا ليسمع والمرحوم الحداد مصر على التزام الطبيعة . حتى مل الجمهور ، وزهد فى الروايات الفنية التى كنا نعرضها ، فلم يمض قليل حتى قل الإقبال وهبط الإيراد . . .

وألف القرداحى وقتئذ فرقة جديدة ، فانضممت إليها ، وعرض على دور « السجان » فى رواية تسمى « الظلوم » . فأجدت التمثيل ليلة عرض الرواية إلى حد جعل الزملاء جميعاً يشاهدوننى من بين الكواليس . وجاءنى القرداحى يقول بلهجته الشامية :

— منيح ! منيح ! لكن ما بتعلى صوتك . الترسو إلو حق

يسمع شو بتقول .

فأفهمته أن التمثيل المتقن الجيد هو التمثيل الطبيعى . وأعدت عليه ما لقنى إياه الحداد قائلا :

ــ يا أستاذ .. الواجب أن الصوت يكون حسب الطبيعة ...

فهرش القرداحى رأسه ونظر إلى ساخراً وقال :

ــ ها الطبيعة بتقول بلاش الترسو ؟ ! .

ولم أجد نفعاً من الاسترسال فى رأيى فسكت . وجاءت الليلة التالية ، واستعدوا لتمثيل رواية « عطيل » . فأقبل على القرداحى يقول :

ــ الليلة بتشوف شو بيصير التمثيل بعطيل . . وبتعمل زيى . . وبتشوف الفرق بينى وبين أستاذك الحداد .

وكان المساء ، وشاهدت الفرق حقاً بين تمثيل القرداحى وتمثيل أستاذى الحداد . . .

ظهر القرداحى فدوى المكان بالتصفيق . ثم سمعته فسمعت قصف المدافع يهز أركان المسرح ، وتردد صداه الجدران . وهو يصول ويجول ولا يترك موضعاً على الخشبة إلا انتقل إليه ، مشوحاً فى الهواء بذراعيه . . هذا كان فنه . أما معاملته فقد

كان من أبغض الأشياء إلى نفسه دفع أجور الممثلين . كان من زملائى فى فرقته ممثل يطلقون عليه اسم « الشيخ كوارع » وهو رجل غريب الأطوار ، غضب على القرداحى يوماً لمماطلته فى دفع مرتبه ، فترك المسرح طول النهار وخرج إلى الأسواق حاملا قدرة عرق سوس ، وربط حول وسطه حزاماً من الصفيح تدلت منه الأكواب ، وصار يبيع للمارة كوب الشراب ومعه لحن ينشده من ألحان الروايات بربع قرش . أما من يدفع له فى الكوب نصف قرش فكان يغنيه توشيحاً . . وصادفه القرداحى فى السوق بهذه الحالة فصاح به :

ــ شو بتعمل يخرب بيتك ! .

فأجابه على الفور :

ــ هات فلوس والشغل يبقى فقط جوه التياترو ! .

* * *

مضى عمر أفندى يحدثنى عن بدايته الفنية وأنا مستغرق فى الإصغاء ، لا أقاطعه ولا أراجعه ، وقد نسيت نفسى وما حولى . ما من شىء كان يخرجنى من هذا الجو إلا شبح خفير أو عسكرى بوليس يدنو منا . فقد كنت أجذب يد صاحبى بقوة

لأبتعد به عن الشبح المخيف الذى جاء يطلبنى ، فيما كنت أظن وكانت دوريات البوليس كثيرة فى تلك الليلة من أجل المولد ، فكثرت علامات انزعاجى . وكان كلما قطع صديقى الممثل حديثه ليعرف ما بى ، طرحت عليه سؤالا يشغله . قلت له أخيراً

— لن أنسى فضلك فى إخراج روايتى « العريس » .

فقال :

— الفضل فى نجاحها للمرحوم محمد بهجت . كان حقاً ممثلا عظيما ! .

وأطرق عمر أفندى لحظة . ثم رفع رأسه وأخذ يتذكر كيف شاهد بداية محمد بهجت . حدث ذلك أيضاً فى جوقة القرداحى . فقد جاء ذات يوم أحد أفرادها يقدم ممثلا جديداً لم يعتل بعد خشبة المسرح. فأسند إليه دور خادم فى رواية «أنيس الجليس» دور صغير جداً ، كل ما يطلب من ممثله أن يدخل المسرح ليقول جملة واحدة: « على الباب يا مولاى قاصد » . هذا كان دور محمد بهجت الأول . ولكنه ما كاد يتلقاه حتى ذهب إلى شاطىء البحر ، ليقف أمامه الساعات ، مستلهما جمال الطبيعة: متأملا الأمواج فى هديرها والرياح فى صفيرها ، ناصباً قامته

الطويلة ، نافخاً صدره الضخم ليلقى جملته الرهيبة : « بالباب يا مولاى قاصد » . . . هكذا كان يقضى الأيام حتى جاءت ليلة التمثيل . فاستعد أتم استعداد . وجعل يطيل النظر فى المرآة وهو يلقى جملته الهائلة بصوت مجلجل خطير . وأفراد الجوقة من حوله ينظرون إليه ضاحكين فى أكمامهم ضحكات سخرية يخالطها إشفاق . ودنت اللحظة الكبرى . ودخل الممثل الناشىء المسرح ليلقى كلمته المأثورة « بالباب يا مولاى قاصد » . . وهو معتقد ولا شك أن الجمهور إذ يسمعها سينفق الليل فى التصفيق ويستغنى عن بقية الرواية . . .

وصمت عمر أفندى قليلا . ثم أردف قائلا : هذا بالطبع شعور كل مبتدىء . وقد مررنا جميعاً بهذه المرحلة . . .

ولمحت عينى حينئذ عسكرى بوليس يتدلى من يده شىء أبيض ، وهو مقبل علينا . فما شككت فى أنه يقصدنى وأن ما بيده ورقة بيضاء ، لعلها إشارة تليفونية أو خطاب من رئيس النيابة . ففزعت وجذبت صاحبى من ذراعه جذبة كادت تخلع مفاصله ، فصاح لى :

ــ مالك ؟ . مالك ؟ ! .

— ابعد بنا عن البوليس ! . .

قلتها وأنا أجتاز به الطريق بعيداً عن العسكرى . وكان رجل البوليس قد اقترب من أحد مصابيح الغاز ، فنظرت إلى الشيء الأبيض فى يده فإذا هى رؤوس فجل بيضاء تتدلى من حزمة يحملها ولا ريب إلى عياله . فعاد الاطمئنان إلى نفسى . ولكن الشكوك والريب كانت قد خامرت صديقى الممثل . فوقف ونظر إلى وجهى الذى يغمره ظلام الليل ، كأنما يريد أن يستشف سرى . قال :

— إنت خايف من البوليس ؟ . . قل لى السبب !

فقلت له :

— بكره أقول لك . خلينا الساعة للفن !

فلم يزده هذا الجواب المتهرب إلا ارتياباً وقلقاً . فتسمر فى الأرض ولعن الفن وسيرته . وأبى أن يتحرك قبل أن يعرف سر خوفى من البوليس . فإن لم أصارحه بالحقيقة فهو فى حل من تركى والخلاص بجلده قبل فوات الأوان . فهو قد يكون فناناً بوهيمياً . ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام من طريدى الحكومة ولا من المجرمين أو المتسترين على الإجرام .

فقلت له ضاحكاً :

ـ الإجرام ! ؛ .

فقال فى خوف :

ـ طبعاً لا تؤاخذنى !. . حد يهرب من البوليس إلا من يكون قتل قتيل أو سرق سريقة ! ؛ .

فقلت له بغير غضب :

ـ قصدك إيه يا عمر أفندى ؟ .

فقال فى الحال :

ـ قصدى أنك تقول لى الحق . بينى وبينك، شغلتك ؟..

فقلت وأنا أخفى ضحكى :

ـ شغلتى ؟ . أقول لك الحق . . بينى وبينك شغلتى لها علاقة بالإجرام والمجرمين . . .

فصاح الرجل مذعوراً :

ـ يا حفيظ يا رب ! . .

فما تمالكت نفسى من الضحك . فابتعد عنى خطوتين فى حذر وهو يقول مودعاً :

ـ سلام عليكم ! . .

ثم أطلق ساقيه للريح . فأسرعت خلفه أصيح به :

ـ انتظر . . انتظر يا عمر أفندى . . انتظر . .

فأشار إلى بيده علامة الابتعاد وقال دون أن يقف :

ـ أنت غرضك تسبب لى داهية فى آخر الليل . وأنا غريب عن البلد . . .

فصحت به راجياً :

ـ كلمة واحدة . . . اسمع لى . . . كلمة واحدة . . . أحكى لك كل شىء . .

فاستدار نحوى وهو يجد فى السير وقال :

ـ أنا لا أعرف حضرتك . . . ولا سبق لى معرفه بحضرتك . . .

وجرى فى الشارع وأنا أركض خلفه لألحق به ، حتى كاد منظرنا يستلفت الأنظار ويوقعنا فى مآزق نحن عنها فى غنى . وبالفعل . لم تمض لحظة حتى طلعت علينا داورية من أحد الشوارع الفرعية ، على رأسها جاويش . ظهرت فجأة أمام عمر أفندى المنطلق كالسهم . فما شعر المسكين إلا وهو بين يدى الجاويش ، يقبض عليه ويصيح به :

ـ بتجرى كده ليه الساعة دى ! . .

فسمعت عمر أفندى يقول فى صوت المولول :

ــ آدى اللى أنا كنت حاسب حسابه ! . .

ووقفت أنا بالطبع فى مكانى أترقب ما يحدث . فرأيت الجاويش يقذف بعمر أفندى وسط الداورية قائلا لرجاله :

ــ احجزوه ؛ . .

وهنا استدار صديقى القديم ونظر خلفه يبحث عنى بعينيه ويصيح :

ــ ما أعرفوش ! . . والله ما أعرفه . . .

فقال الجاويش الفطن سائلا :

ــ مين هوه ؟ . .

وأخذ يرسل نظراته إلى الجهة التى يتطلع إليها سجينه . فأبصرنى واقفاً فى مكانى لا أدرى ما أصنع . فأشار إلى بخشونة وصرامة منادياً :

ــ تعال هنا يا جدع أنت ! . .

فلم أجد بداً من الطاعة . فتقدمت نحوه ، ولكن بخطى ثابتة . فما كاد يتبين وجهى ، حتى عرفنى ، فقد رآنى ولا ريب كثيراً فى جلسات المحاكم ، وعند مصاحبته للمتهمين أمام

الاستجواب فى قضايا التلبس . وإذا هو فجأة يدق الأرض بنعليه ، ويرفع يده بالتحية العسكرية ، ويقول متلعثما :

ـ لا مؤاخذة يا سعادة البك ! . .

ولا أدرى كيف أصف ما ارتسم على وجه عمر أفندى وقتئذ من علامات العجب والدهشة والذهول . كانت المفاجأة سريعة وبغير تمهيد فلم يبد عليه أنه فهم شيئاً مما رآى . إلى أن سمعنى أقول بلهجة الأمر :

ـ أنت حاجز الأفندى ده ليه يا شاويش ؟

فقال الجاويش فى الحال :

ـ أمر سعادتك يا أفندم ! . .

فأمرت قائلا :

ـ سيبه ! . .

فأطلق سراحه . ووقف على رأس الداورية سائلا بأدب :

ـ خدمة ثانية يا أفندم ؟ .

فقلت وأنا أشير بيدى علامة الانصراف :

ـ لا . . خلاص .

فدق الجاويش الأرض بنعليه مرة أخرى ، وأدى التحية

العسكرية ، وأمر الداورية بالسير . فسارت فى طريقها وتركتنا فى مكاننا . وأنا أشيعها بنظرى حتى ابتعدت . بينما لبث عمر أفندى جامداً فى موضعه كأنه تمثال . فدنوت منه ودعوته إلى استئناف السير ، وأنا أنظر إلى وجهه وأقول :

ـ مالك ؟ . .

فأجاب وكأنه يصحو من حلم :

ـ مالى إيه ؟ . . أنا مش فاهم حاجة . . فهمنى . . حضرتك تبقى إيه فى البلد ! . .

وعندئذ أخبرته بكل شىء عن عملى ووظيفتى وهربى من رئيس النيابة ، فضحك من فكرة ارتيابه فى أمرى . واطمأن قلبه . ومضينا فى حديثنا الأول عن الفن . غير إنى لاحظت أنه بدأ يحادثنى بلهجة يخالطها شىء من التحفظ والتأدب . لهجة بعيدة عن ذلك التبسط الذى كان يرسله على السجية منذ قليل . فأدركت أنى لم أعد فى نظره الفنان القديم الذى كان يخالطه بغير كلفة قبل دقائق . . . ودقت عندئذ إحدى ساعات الحائط فى حانوت قريب دقتين ، فعلمنا أننا الآن فى تمام الثانية صباحاً .

فقال لى :

ـ أظن الوقت تأخر على سعادتك . . .

ورنت كلمة « سعادتك » فى أذنى رنيناً غريباً ، ملأ قلبى أسفاً ووحشة . لو أنها كانت على الأقل مبطنة بالسخرية لارتاحت نفسى . ولكنها كانت صادرة عن شعور جدى بأن حاجزاً بيننا قد وضع . فأردت أن ألفت نظره إلى الأمر فضحكت لكلمته ثم تجاوزت التلميح إلى التصريح . موضحاً له ما قام بنفسى . لكنه فيما يظهر لم يقتنع ، ولم يرد أن يصدق أن وكيل النيابة الذى يأمر البوليس بالحجز والإفراج ، وتحييه الداورية بالتحية العسكرية يمكن أن يحتفظ فى أعماق نفسه بقلب فنان . وأردت أن أصف له مهنتى فى جوهرها الحقيقى الذى أراها عليه ، فقلت له إنها ليست مجرد قبض وحبس وتهم وأحكام . بل هى مسرح وتمثيل وجمهور . ففتح فمه عجباً :

ـ وضح لى من فضلك !

ـ أوضح لك . . .

وجعلت أصف له جلسة المحكمة التى أحضرها مع القاضى . إنها قاعة متسعة بها مقاعد للجمهور ، شأنها فى ذلك شأن قاعات التمثيل . ثم هنالك المنصة التى تجلس عليها هيئة المحكمة

ويتطلع إليها بأبصارهم جمهور الحاضرين . إنها تشبه خشبة المسرح التى تتطلع إليها عيون المشاهدين . ثم هنالك الروايات التى تعرض . . . إنها فى جلسات المحاكم لا تقل غرابة ومتعة عنها فى قاعات التمثيل . وروايات المسارح يقدمها المؤلفون . وروايات المحاكم يقدمها النائبون والوكلاء العموميون . أى أنى فى عملى القضائى أقوم على وجه التقريب بما كنت أقوم به فى عملى المسرحى . بل إنك إذا فتحت ملف قضية من القضايا وجدت فيه حواراً من عمل وكيل النيابة يسمى فى لغة القضاء محضر تحقيق ، قد لا يقل أحياناً فى الروعة عن الحوار الموجود فى ملف رواية مسرحية . كل ما هنالك من فرق هو أننا فى الجلسة نعرض رواياتنا فى النهار وبدون ماكياج . ويدخل الممثلون إلى القاعة من الحياة مباشرة . فى حين أن رواية المسرح تحتاج إلى وسطاء من الفنانين ينوبون عن الأشخاص الحقيقيين . ومع ذلك فلدينا المحامى الذى ينوب أحياناً عن الشخص الحقيقى فيتصرف بفنه البارع فى إظهار الحقائق الدفينة تصرف الممثل القدير فى إبراز خفى المشاعر . كل شىء إذن فى قاعة المحكمة قريب الشبه إلى كل شىء فى قاعة التمثيل . فى القاعتين الحياة تجرى

مجردة أو مزوقة أمام جمهور من النظارة . . .

* * *

حان وقت افتراقنا . فذهب هو إلى فندقه الذى ينزله مع أفراد فرقته . وعدت أنا إلى منزلى . وقد اتفقنا على اللقاء فى مساء اليوم التالى . دخلت بيتى فوجدت كل شىء هادئاً . فقلت هو الهدوء الذى يسبق العاصفة . ولكنى لم أفكر فى غير حاضرى وكان التعب قد نال منى ، فنمت نوماً عميقاً حتى طلع الصباح فنهضت وذهبت إلى مكتبى فى نيابة البندر ، وأخذت أصرف شئون عملى المعتاد كأن لم يحدث شىء . ولكن الصمت المضروب حولى بدأ يثير قلقى . ما بالى لا أسمع عن رئيس النيابة خبراً . إنه لا يتركنى هكذا حتى الساعة إلا وهو ينوى أن يفاجئنى بمكروه. وكدنا نقترب من الظهر ، وتصدع رأسى من كثرة تحقيق قضايا التلبس العاجلة التى قذفتها علينا حوادث المولد . فتوقفت قليلا عن مواصلة العمل . وطلبت فنجاناً من القهوة ، وأخذت اتصفح جرائد اليوم . كان فى الصحف أخبار التعديل الوزارى. وطالعت اسم الوزير الذى يعنينا . وهو وزير الحقانية أى « العدل » . فلم أعرف عنه شيئاً . هو اسم جديد لعضو فى أحد

الأحزاب . يدخل الوزارة لأول مرة . فقلت فى نفسى : لعل رئيس النيابة قد شغل عنى اليوم بأخبار الوزارة . وتركت الصحف وتأهبت لاستئناف عملى . وإذا الساعى يدخل معلناً زيارة صديق عمر أفندى . فأذنت له فى الحال . فدخل متردداً معتذراً . واخرج من جيبه ورقتين كبيرتين . . حفظهما فى يده لحظة وهو يقول :

ـ عند سعادتك حق . . . بين التمثيل والقضاء شيء من القرابة . . .

وجلس حيث دعوته إلى الجلوس . وجعل يوضح لى سبب زيارته التى على غير موعد ولا انتظار . ممهداً لذلك بموقف مماثل حدث له فى الصعيد فيما مضى من سالف الزمن ، يوم كان فى جوقة المرحوم محمود حبيب . قال إنه كان يومئذ جالساً على باب المسرح نهاراً قبل التمثيل . وإذا برجلين من الفلاحين يقبلان وفى يد أحدهما « عريضة » يريدان أن يقدماها إلى الملك هرون الرشيد أو إلى الملك النعمان . فقد سمعا من الناس فى الأسواق ، وممن يقرأ لهم الإعلانات ، أن الملوك تحضر فى ذلك المكان . وهما يتوسلان أن ترفع العريضة إلى أحد هؤلاء الملوك ليرفع عنهما الظلم . . .

وقدم إلى عمر أفندى الورقتين وهو يقول :

— نفس الموضوع حصل الصبح . . .

واستطرد يقول إن الزمن قد تغير بعض التغيير . فالشكوى اليوم ليست مقدمة كما قدمت فى الماضى إلى هرون الرشيد أو الوزير جعفر مباشرة . فالعقلية قد تنورت قليلا . بل هى مقدمة إلى الحكومة . فقد ذكر القرويون فيما ذكروه عند ما حضروا فى الصباح إلى المسرح بالعريضتين ، أنهم حضروا التمثيل البارحة ولاحظوا وجود الحكومة كلها من مدير وحكمدار وعسكر وخفراء ، فأدركوا أن التمثيل شىء مهم عند ذوى الشأن . وأن لأفراد الفرقة من الممثلين خاطراً واعتباراً عند المدير والحكمدار . فجاءوا يطلبون الوساطة لدى الحكام .

ونشرت العريضتين فى يدى . فوجدتهما مملوءتين بالشكاوى ضد العمدة والصراف لظلمهما الأهالى . فتناولت قلمى وأشرت عليهما بالتحويل إلى جهة الاختصاص لأجراء التحقيق اللازم ثم التفت إلى صديقى الممثل باسماً :

— النيابة نفذت طلبات الوزير جعفر ! . . .

فرفع عمر أفندى يديه إلى رأسه بالشكر على الطريقة التى

تتبع فى قصور الملوك فى روايات التمثيل . وكنت قد طلبت له قهوة . فحضرت وأخذ يرشف فى الفنجان على مهل . . . وإذا باب الحجرة المغلق يفتح فجأة مسبوقاً بضجة وصوت صدمة كأن قدماً قد ركلته . وإذا رئيس النيابة يدخل الحجرة هاجماً كأنه قذيفة مدفع . فما إن أبصرت أوداجه المتفخة وعينيه المتطاير منهما الشر ، وطريقته العنيفة فى الدخول ، وسحنته المخيفة المنذرة بالويل والثبور ، حتى أيقنت بحلول الطامة الكبرى . . . وأسعفتنى حلاوة الروح ، فضبطت أعصابى وأسرعت أحول مجرى الموقف كمن يحول أنظار ثور هائج إلى هدف آخر ، فأقبلت على الرئيس مشيراً إلى عمر أفندى قلت :

ــ اسمح لى أقدم لسعادتك الوزير . . .

وهممت أن أضيف كلمة « جعفر » . ولكن رئيس النيابة لم يتركنى أتم الكلام . فقد كان أسرع من لمح البصر فى الانحناء ومد اليد باحترام إلى صديقى الممثل القديم ، قائلا :

ــ نهنى وزارة الحقانية بإسنادها إليك يا معالى الوزير . . .

فعقدت الدهشة لسانى لحظة . ولكن سرعان ما انكشفت لى حقيقة الموقف . فتجلدت . واكتفيت بمراقبة ما يجرى وما

سيجرى . فرأيت عمر أفندى قد انحنى هو الآخر مسلماً . وهو لم يدرك قطعاً من الأمر شيئاً . وظن المقصود من « معالى الوزير » أنه الوزير جعفر فى رواية هرون الرشيد . فكانت انحناءته طويلة مسرحية لا يمكن أن تصدر عن وزير « الحقانية » . ولو كان رئيس النيابة حاضر الذهن وقتئذ ، ولم يكن غارقاً فى جو التعديل الوزارى الذى يملأ البلد والصحف فى تلك الأيام ، لفطن للأمر . ولكنه أخذ ولا شك طريقة الانحناء المغرقة الغريبة على أنها مغالاة فى التواضع . وخطر لى عندئذ أن أستغل الموقف للخروج من ورطتى فقلت مباهياً :

— الوزير صديق قديم . . .

فنظر إلىّ رئيس النيابة القاسى كالحجر نظرة تودد واستعطاف . فتشجعت وقلت له :

— أرجوك يا سعادة الرئيس تقول لصديقى الوزير أنت راضى عنى وإلا لأ ؟ . .

فالتفت إلى عمر أفندى وقال بلهجة التحمس وهو يشير إلى بيده المرتجفة من التأثر :

— أؤكد لمعالى الوزير أنه أحسن وكيل نيابة فى المديرية

فى الكفاءة والنشاط والآداب والطاعة والأخلاق والذكاء . . .
وكيل نيابة مثالى . . نموذجى يا معالى الوزير . . .

واسترحت لهذا الاعتراف الذى انتزعته من فم رئيس النيابة انتزاعا . ولكن الشك أخذ يخالجنى فى قيمته . وبدأت أتصور ما سيحدث عند ما تنكشف حقيقة التزوير . فوجدت السلامة فى الهرب قبل فوات الأوان . فأسرعت أقول لرئيس النيابة :

ـــ سعادتك ملاحظ أنى مرهق فى العمل ومحتاج لراحة . . فيه مانع تسمح لى بأجازة أسبوعين ابتداء من اليوم .

فأجاب فى الحال :

ـــ ما فيش مانع أبداً . تقدر تقوم بالأجازة من دلوقت . وأنا أنتدب وكيل نيابة المركز يحل محلك .

ـــ متشكر . أنا مسافر بعد ساعة . . .

فوافق رئيس النيابة بعلامة مؤدبة من رأسه . واتجه إلى عمر أفندى قائلا :

ـــ ومعالى الوزير شرف البلد إمتى ؟ . .

فأجاب الممثل من فوره :

ـــ اشتغلنا من ليلة امبارح .

ورأيت كأن رئيس النيابة يريد أن يستوضح . فأسرعت أقول مفسراً دون توضيح يكشف المستور :

— كان وزير ليلة امبارح . . .

وفهم رئيس النيابة من ذلك أن المراسيم وقعت البارحة . وفهم عمر أفندى أنه كان حقاً وزيراً فى رواية البارحة . وظل الأمر بذلك مستوراً . إلى أن قال عمر أفندى بسذاجة :

— طبعاً سعادتك شرفت ليلة إمبارح مع سعادة المدير . . .

فلم يفهم رئيس النيابة شيئاً من المقصود . وخشيت أنا أن تسفر الاستيضاحات من الجانبين عن كشف الموقف . فدنوت من رئيس النيابة وهمست فى أذنه بأن الوزير مدعو إلى الغداء عندى دعوة خاصة مقصورة عليه بناء على طلبه ، وأن من اللياقة أن يأذن لنا الآن بالانصراف . فقال فى الحال :

— تفضلوا . . . تفضلوا . . . أنا تحت أمركم . . .

* * *

وهكذا خرجنا من المأزق . ولم أكد أغادر دار النيابة مع عمر افندى حتى تركته وذهبت إلى منزلى تواً فأعددت حقائبى وسافرت إلى الإسكندرية فى أجازة أسبوعين . وأنا أتوقع فى كل

لحظة ظهور الحقيقة . فلا بد أن يعرف رئيس النيابة من الصحف أن وزير الحقانية لم يذهب إلى ذلك البندر من الأقاليم بل لا بد له أن يرى صورة للوزير الحقيقى تنشر فى إحدى الجرائد ، يدرك منها مدى المهزلة . ولكن القدر شاء أن يجنبنى المصيبة فى حينها ، وأن ينقذنى هذه المرة أيضاً من رئيس النيابة كما سبق أن أنقذنى. فإذا بالصحف تنشر فى اليوم التالى لسفرى حركة تنقلات بين رؤساء النيابات ، وجدتها تشمل رئيس نيابتى بالنقل إلى مديرية أخرى بعيدة . . . فتنفست الصعداء وأيقنت أنى نجوت . . .

ومرت بعد ذلك الأعوام الطويلة ، وفرقت الأيام بينى وبين رجال القضاء ، بتركى هذا السلك إلى أعمال أخرى . . فلم أقابل رئيس النيابة القديم إلا بعد أن أحيل إلى المعاش وقد وصل إلى آخر مراحل القضاء فى محكمة النقض . قابلته فى مقهى بالقاهرة وهو شيخ متهدم ، ففرح بلقائى أيما فرح ، وقال وهو يستعيد ذكرى الماضى ويتنهد :

ـــ فاكر معالى الوزير إياه ؟ ! .

فقلت له باسماً وأنا أغمز بعينى :

– الوزير جعفر ؟ ! .

فقال ضاحكاً عن طقم أسنانه الصناعية :

– أيوه يا سيدى . . . وزير هرون الرشيد . . . ماعرفتش أنا شخصيته إلا بعد أنت ما زغت ! . .

سقطوا فى الإخراج !

عندما انتدبت للقيام بأعمال النيابة العمومية فى مركز (. . . .) من الأقاليم . . قالوا لى :

ــ حذار من مأمور هذا المركز . . . إذا سلم عليك فبادر إلى عد أصابعك بعد السلام ، لئلا يكون قد اختلس منها أصبعاً ، فى غفلة منك ! . .

فقلت بنبرة الواثق :

ــ اطمئنوا ! . . .

وركبت القطار إلى مقر وظيفتى . . وإذا المأمور ينتظرنى على المحطة مع جميع موظفى المركز ووجهائه وأعيانه . . ويستقبلنى استقبال الحكام أصحاب الأبهة والمقام . .

ومنذ تلك اللحظة والمأمور يحيطنى بكل عناية وإكرام . . فما من يوم يمضى ، حتى يقيم لى مأدبة يحشد لى فيها الأعيان والعمد ، ويذبح لى فيها الديوك ، ويسميها حفلة تعارف ، واجتماعاً مصلحياً ، للتوفيق بين الأسر المتنافرة ، والنصح بمراعاة

الهدوء التام ، والمحافظة على الأمن العام ! . .

وأخيراً انفردت بالمأمور ، وهمست فى أذنه :

ـ قل لى يا حضرة المأمور ! . ما هى الحكاية بالضبط ؟ .

ـ أى حكاية ؟ . .

ـ حكاية الولائم هذه . . والديوك . .

ـ هذا أقل ما يجب علينا . . ابتهاجاً بقدوم سعادتك ! . .

ـ مفهوم ! . . ولكن المسألة طالت و . . زادت ! . .

ـ أبداً . . أنت كلك خير وبركة . . ولا تحلو لنا لقمة من غير وجودك ! . .

ـ هذه اللقمة ديك رومى . . هل مرتبك أو مرتبى يسمحان لنا بهذا الترف ؟ .

ـ نحن فى الأرياف يا بيك . . الخير هنا كثير . . الخير كثير ! . .

ـ مفهوم . . مفهوم . . هذه الديوك تشترى أو . . تهدى إليك ؟ . .

ولمح حضرة المأمور فى كلامى ما يشبه الاستجواب . . وأحس بغريزته أو لباقته أو مرانه وخبرته أنى لست الرجل الذى

فهم وسكت واستمرأ . . فبادرنى قائلا :

ـ سمعت عنى شيئاً ؟ . .

ـ لم أسمع غير الثناء العاطر !

قلتها بكل رباطة جأش . . فتنفس المأمور الصعداء . . وقال :

ـ عيبى أنى رجل « بجبوح » ! ما فى يدى لغيرى ! . .

فقلت له باسماً بلهجة ذات مغزى :

ـ وما فى يد غيرك ؟ . .

فرفع كفه بحركة تمثيلية وصاح :

ـ حاشا لله . . !

فقلت له :

ـ ولكن مسألة الديوك . .

فاقترب منى بكرسيه ، وقال فى أذنى :

ـ ماذا سمعت عنها ؟ . . بالله قل لى . . . من الذى أخبرك ؟ . الولد سعداوى الخفير ؟ . .

ـ لا أعرف سعداوى ، ولم أسمع من خفير . . ولكنى شممت بأنفى لها رائحة ! . .

فنهض المأمور صائحاً :

— شممت له رائحة ؟ ! . . مؤكد هو الكلب سعداوى الذى أخبرك ولا أحد غيره ! . . ولكن ما ذنبي . . إذا كان فى كل يوم يموت ديك رومى ! . .

ولم أفهم مراده وحملقت فيه بعينى :

— ماذا تقول ؟ . .

ولم أكد أتم كلمتى ، حتى ظهر الخفير ، وضرب الأرض بحذائه الضخم ، ورفع يمناه إلى لبدته الطويلة ذات الرقم النحاسى وحيا حضرة المأمور . . ومد يسراه ، فإذا بها ديك رومى نافق بالموت ، ورائحته نتنه تؤذى الأنوف . . . وأسرع الخفير يقول بلهجة مسرحية كأنها ملقنة محفوظة :

— وجدناه « فطسان » بين الديوك يا أفندم !والبلوك أمين عمل المحضر اللازم . . . ولم ينتظر الخفير من المأمور كلاماً . . وضرب الأرض بحذائه وانصرف بالديك الميت المنتن على عجل.. ولكن المأمور نهض وعاجله بصفعة على قفاه قائلا له بصوت خافت :

— مظاهرة ! . . روح واخفيه فى مخزن التبن يا لوح ! . .

وعاد المأمور . . فوجدنى أضع يدى على بطنى ، كمن يحس القئ . . وأقول له :

ـ كنت تطعمنا من هذا . . .

فقال بصوت صادق هذه المرة :

ـ حاشا لله ! . . .

ثم أقبل على يقول كمن يفضى باعتراف ، قضت ضرورة الموقف أن يكشف عنه ، حتى لا يقع فى وهمى ما هو شر من الحقيقة كما قال ! . . حقيقة الأمر أنه كلف رسمياً بجمع الديوك الرومية لحساب جيش الاحتلال البريطانى ، لمناسبة عيد الكريسماس . . فجمع بنشاطه وهمته من القرى التابعة له مئات من هذه الديوك . . مات منها هذا الديك المنتن منذ أيام عديدة . . . وعمل له المحضر اللازم . . ولكنه لم يلق ولم يدفن . . بل احتفظ به فى المخزن . . . يخرجه الخفير سعداوى كل صباح ، ليعمل له محضر إثبات« وفاة » على اعتبار أنه ديك جديد قد مات . . . بينما الديك الجديد حى يرزق ويذبح فى منزل حضرة المأمور ! . .

سمعت ذلك . . . فقلت :

ـ إذن هذا الديك المتّن . . . فقاطعنى المأمور قائلا بابتسام :

ـ ممثل ليس إلا . . . كل وظيفته الآن أن يقوم بتمثيل دور الميت فى كل صباح . . .

فقلت فى شيء من الجد :

ـ وهل هذا يجوز ؟ . . . إنه ينتحل شخصية ديك حى ! . . .

فقال المأمور :

ـ وهل من الجائز أن جمعاً من الديوك يعد بالمئات لا « يفطس » منه ديك واحد على الأقل كل يوم ! . . هل الديوك خير من الآدميين ؟ . فلنراجع نسبة الوفيات إلى تعداد القطر المصرى . . . إنى راض بالإحصاءات الرسمية ! . .

فقلت له :

ـ ولكن الواقع أنه لم يمت عندك فى كل يوم ديك . . . أليس هذا هو الواقع ؟ . .

فقال :

ـ ولكن المعقول أنه يجب أن يموت من هذا العدد فى كل

يوم ديك . . أليس هذا هو المعقول ؟ ! .

فقلت :

ـ لا يهم الآن المعقول . . . ولكن . .

فقال صائحاً :

ـ سبحان الله ! . . عندما تتصرف جهة الإدارة مرة واحدة فى حياتها طبقاً للمعقول . . . يصبح المعقول لا يهم ! . .

فضحكت . . . وقلت له :

ـ هذه على كل حال مسألة لا تدخل حتى الآن فى اختصاص عملى القضائى . . . كل ما يجب أن أعمل هو أن أعفى نفسى من حضور هذه الولائم . . .

وانقطعت منذ تلك اللحظة عن رؤية المأمور . . . إلا لأمور تتعلق بالعمل . . وحاول هو أن يقنعنى بأنه ، فيما عدا مسألة الديوك المنطقية فى نظره ، رجل سليم الطوية ، طاهر الذمة ، مستقيم السلوك . . ولم أجد حتى ذلك الوقت ما يلقى على تصرفاته غباراً . . فقد كان مثال النشاط والهمة والذكاء .

وكاد يكتسب كل ثقتى . . . إلى أن وقعت حادثة فى

ليلة من الليالى . . . فقد جاءتنى إشارة تليفونية بأن ابن أحد الأعيان قتل بعيار نارى . . والقاتل مجهول . . فسألت عن المأمور . . فقيل لى إنه خف إلى مكان الحادثة . . فقلت فى نفسى : « مأمور نشيط » . . وقمت فى أثره إلى مكان الواقعة . . فوجدته قد قام بالواجب . . وأكثر من الواجب . . فقد قبض على القاتل . . وضبط البندقية المستعملة فى الجريمة . . وأحضر شهود الإثبات . . ولم يبق أمامى إلا أن أسجل فى محضرى قضية ناجحة ، لا شبهة فيها ولا شك . . هذا الفتى القتيل ابن العين الثرى ، كان فى « الجرن » مع شيخ البلد وشيخ الخفر وعامل تليفون العمدة ، وهم شهود الإثبات ، يتدفأون حول « ركية نار » وإذا المتهم يطلق العيار على المجنى عليه ، ويرديه قتيلا . . . وقد رأى الشهود القاتل رؤية العين . . . وهم شهود رسميون لا خلاف فى أقوالهم ولا تناقض ، كان كل منهم يدلى بشهادته أمامى بكل فصاحة وطلاقة . . لا تلعثم ولا تردد . . فلما سألتهم :

— وكيف أبصرتم القاتل والليلة مظلمة فى هذا الوقت من آخر الشهر العربى ؟ . .

أجابوا كلهم . . لم يشذ منهم واحد !

ـ أبصرناه على « ركية » النار ! . قلت فى نفسى : غداً فى مثل وقت الحادثة من الليل أجرى عمل تجربة . . . ولكن ما من شيء يدعونى إلى تكذيب شيخ البلد وشيخ الخفر وعامل التليفون . . . قضية ناجحة . . فيها شهود رؤية . . وأقوال مقبولة معقولة . . وأمرت بحبس المتهم . . وعدت إلى دارى ، وأنا أثنى على همة المأمور . . .

وفى اليوم التالى جاء محام معروف (أصبح فيما بعد وزيراً خطيراً) وأخبرنى أنه حاضر عن المتهم . . وأنه يشك فى تصرفات المأمور . . فإن الصلة بينه وبين العين الثرى والد القتيل ، معروفة عند العالمين ببواطن الأمور ، أنها قائمة على المنفعة ، وأن هذا العين أراد اتهام غريم له . . كان يريد من قبل الإيقاع به . . هو هذا المتهم . . وأن شهود الإثبات لم يبصروا شيئاً ولم يروا أحداً ، وأن الإشارة التليفونية الأولى قيل فيها إن « القاتل مجهول » . . شيخ البلد وشيخ الخفر وعامل التليفون ليسوا سوى شهود مصطنعين يمثلون دوراً أعد لهم إعداداً . . .

فقلت للمحامى :

ـ اطمئن . . سأقوم الليلة بعمل تجربة . . سأضع الشهود

حول « ركية النار » . . ونأتى بأنفار مختلفين على أبعاد مختلفة لنحكم هل يبصرونهم ويعرفون صفاتهم ! . .

فانصرف المحامى منتظراً النتيجة . . وجاء الليل . . فسألت عن المأمور ، فقالوا لى إنه سبقنى « بالبوكسفورد » إلى مكان الحادث . . ليعد اللازم للتجربة . . . فقمت أنا وكاتب التحقيق فى سيارة النيابة . . ولم نكد نقترب من القرية التى وقع الحادث فى زمامها ، حتى شاهدنا ألسنة اللهب وسحب الدخان تتصاعد منها إلى عنان السماء ! . . فقلت مرتاعاً :

— لا حول ولا قوة إلا بالله . . لقد شب حريق فى القرية !.

وأمرنا السائق أن يسرع بنا إليها لنعرف الخبر . . فانطلق بنا إلى أن وصلنا إلى الجرن . . . وهناك رأينا العجب . . . أحطاب مكدسة بعضها فوق بعض . . . طولها وارتفاعها مما يقاس بالمتر . . . قد أشعلت فيها النيران . . . والشهود من حولها يمدون أيديهم نحوها كأنهم يتدفئون .. وشواظ اللهب قد أسال العرق من جباههم ، ودخان الحطب قد سود وجوههم . . . ووهج الضوء يكشف الجرن فى الظلام الليل على نحو يحسده عليه ميدان الأوبرا فى القاهرة ! . .

قلت للمأمور الواقف بين شهوده يمسح عرقه بمنديله :

ـ ما هذا ؟ . .

فقال وهو يسعل من الدخان سعالا شديداً . .

ـ ركية النار ! . .

فصحت :

ـ أتسمى كل هذا « ركية نار » للتدفئة ؟ . . أهذا معقول يا حضرة المأمور ؟ . . أنت صاحب التصرفات المعقولة . . هل يرضيك أن تسمى هذا الحريق « ركية » ؟ ! .

ونحيته فى الحال جانباً . . . وأمرتهم بإطفاء هذه النيران . . وجئت بفلاح آنست فيه البراءة ، وتوسمت فيه الذمة . . فطلبت إليه أن يقيم « ركية » نار للتدفئة كما يفعلون عادة فى هذه الناحية . . فأقامها بالحجم المعقول . . فعارض الشهود . . فزدت فى حجمها قليلا . . . فعارضوا أيضاً . . . فزدت . . . حتى جعلتها أضخم مما ينبغى قليلا . . واستحضرت أنفاراً من أهل القرية على مسافات مختلفة . . فما استطاع شاهد واحد أن يميز شخصاً منهم ، أو يتبين صفة من صفاته الظاهرة . . فهم فى ضوء الركية لا يمكن أن يبصروا من فى الظلام . . بل هو

الذى يستطيع أن يراهم ولا يرونه. ذلك هو الوضع الطبيعى كما اتضح لنا، مادام الجرن لم يسطع بضوء الحريق الذى أرادوا أن يشعلوه...

عند ذاك أيقنت أن شهود الإثبات لم يروا شيئاً حقاً ولم يبصروا أحداً . . وأنهم ليسوا أكثر من ممثلين يؤدون أدواراً . . فعدت إلى مقر عملى وأطلقت سراح المتهم.. وقلت للمأمور هامساً:

ـ جعلت من الديك الرومى ممثلا . . قلنا معقول ! . . ولكن ألا تعترف أن تمثيل شيخ البلد وأعوانه لم يكن بالمعقول ! . .

فأبدى التنصل . . وأظهر البراءة . . وألقى عليهم التبعة ، ونفى عن نفسه التدخل . . وقال ضاحكاً :

ـ مسألة « الركية » فضحتهم ! . . نجحوا فى التمثيل ، وسقطوا فى الإخراج ! . .

كان الأجدر به أن يقول « سقطنا » . . . ولكنه أراد أن يخرج من كل هذا كما تخرج الشعرة من العجين . . ولم أر فائدة من إحراجه ، فتظاهرت بتصديقه . . غير أنى أصبحت شديد الارتياب فى كل تصرفاته . إلى أن انتهت مدة انتدابى فى مركزه . . وركبت قطار العودة . فإذا به يودعنى كما استقبلنى . بحشد الأعيان والموظفين على المحطة . . وسلم علىّ

سلاماً حاراً . . ولم يترك يدى حتى تحرك القطار . . فما كدت أخلو إلى نفسى فى عربة القطار ، حتى تذكرت قول من حذرنى منه قبل أن أراه .

– إذا سلم عليك فبادر إلى عد أصابعك بعد السلام ، لئلا يكون قد خطف منها إصبعاً دون أن تدرى ! . .

ففتحت كفى فى الحال . . لأرى هل أنا عائد من هذا المركز بأصابعى العشر ؟ ! .

شاعرة الهجاء

كنت فى كرسى النيابة العمومية ذات صباح متشحاً بوسامى الأحمر الأخضر ، وكان أمامى « الرول » ذلك الدفتر الطويل الذى تدون فيه أرقام القضايا وأسماء المتهمين والشهود ، وملخص وصف التهمة ومواد القانون إلخ . . . وبين أصابعى ذلك القلم الذى يجب أن أدون به الحكم الذى ينطق به القاضى فى كل قضية . ولكن الحق يقال : ما من مرة دونت فيها الأحكام كاملة فى ذلك « الرول » فقد كان سكرتير المحكمة « الله يستره » هو الذى يسد هذه الخانة بقلمه تلطفاً منه وكرماً لثقته بأنه من غير المعقول أن أكون قد تتبعت كل القضايا بيقظة وانتباه . على أن من المبالغة أن نزعم أنى كنت أشرد عن كل ما يجرى حولى طوال الوقت . هنالك قضايا وتفاصيل ودقائق كنت أوجه إليها كل التفاتى . . لعلى كنت أعرف بالغريزة ما ينفعنى كروائى مما لا نفع لى فيه . إنى ما كنت أطيق ثرثرة المحامين . . فالقضية التى فيها مرافعة طويلة معناها عندى « غياب ذهن »

طويل . . وربما حوار قصير بين شخصيتين تافهتين فى نظر المحكمة يثير فى نفسى كل تأمل وتفكير . ولقد سمعت فى ذلك اليوم الذى أتحدث عنه هذه المناقشة بين القاضى وخفير نظامى تعدت عليه امرأة بألفاظ جارحة :

القاضى — ماذا حصل يا خفير ؟

الخفير — أنا واقف فى دركى جهة نقطة الململموسات (يقصد المومسات) ضربت بعينى لقيت الحرمة المتهمة خارجة من بيتها حاطه . . .

القاضى — حاطه إيه ؟

الخفير — حاطه من غير مؤاخذة أحمر وأبيض ومتخططة وفى رجليها الخلاخيل ولابسة شبشب زحافى ، وواقفة بين الجدعان فى وسط الشارع فى حالة هزار وضحك وصهاليل بشكل مخالف للحشمة والكمال . . .

القاضى — وكيف تعدت عليك المتهمة أثناء تأدية وظيفتك ؟

الخفير — قلت لها عيب يا ملموسة . ادخلى بيتك . فما كان منها إلا أنها زغرت لى من فوق لتحت وتقصعت وقالت : « اخرس يا غفير يا مصدى قطع لسانك .

دا أنا لما أنفض شبشبي الصبح ينزل منه عشرين غفير زيك » ! . .

فظهر الاستنكار على وجه القاضى . وظهر الإعجاب على وجهى. إن هذه المرأة فى نظره قد فاهت بأقصى ألفاظ التعدى ، وهى فى نظرى قد جاءت بأخصب صور الخيال الفنى . فما أظن هنالك أبلغ من هذه الصورة فى تحقير خفير . لو استطاع ذهن هذه المرأة أن يبدع صوراً أخرى فى التجميل والثناء كما فعلت فى التقبيح والهجاء لكانت شاعرة ، ونظرت إليها وهى فى قفص الاتهام فإذا هى هادئة ساكنة ويدها على خدها ، ترمقنا بنظرات فاترة . . وعلى شفتيها ابتسامة لعلها ساخرة . . إنها معترفة . ولماذا ينكر شاعر قصيدة هجائه ؟ لقد روحت عن نفسها بما قالت وكفى . . ماذا يهم الثمن بعد ذلك ؟ . .

ترى ماذا فى حياة هذه الساقطة ؟ لا أقصد حياتها الظاهرة التى يعرفها الخفير ورجال الضبط وزوارها وزبائنها ، إنما أقصد تلك الحياة الخفية فى قرارة نفسها ، هنالك ولا شك أشياء كثيرة رأتها وأحستها ولا تكلف نفسها التعبير عنها ، ولو أنها أرادت أو استطاعت لجاءت بأعاجيب ، ذلك أنها ستصف الأشياء

بطريقتها هى ولغتها هى . . ويا لها من طريقة ولغة ! . . لو استطعت أن أجلس إليها وأتلقى عنها ؟ ليس أكذب من الروائى الذى يفكر لأشخاصه بعقله هو ويتكلم عنهم بلغته هو ، هذه المرأة مادة قيمة لى ولكن . . أنسيت أنى أمثل الاتهام ؟ نحن فى الحياة قطبان لا يلتقيان . وإن التقينا فحول القفص . لأنى أنا العقاب وهى الجريمة ، أنا السيف وهى الذبيحة . . لا يمكن أن نلتقى للتفاهم أبداً . . لا تفاهم إلا إذا طرحت عنى وسامى الذى يكبلنى وانطلقت حراً أغترف من أعماق تلك الشخصيات كما يغترف المثال من الطين الذى يصنع به فناً . .

ومضت بى الخواطر فى هذا السبيل . . وغمرتنى فلم أدر حتى بالزمن الذى مر بى . . ولم أفطن إلى ما جرى حولى ولا إلى ما نظرت المحكمة من قضايا . . ولم أنتبه إلا على صوت باب حجرة المداولة يفتح فجأة وقد ظهر الحاجب فى حركة اهتمام سريعة وهو يحمل كرسياً وضعه إلى جوارى وهمس فى أذنى بقوة :

ــ سعادة البيك مفتش عموم النيابات ! . .

وقبل أن أفيق إلى نفسى دخل المفتش بسرعة وجلس إلى جوارى وحيانى بصوت خافت . ثم أراد أن يعرف رأيى فى القضية

المعروضة ، فاصفر وجهى . أى قضية ؟ والتفت أنظر إلى ما يدور حولى فى الجلسة بعيون زائغة شاردة ، فأبصرت أحد المحامين الفطاحل يرغى ويزبد ويضرب بقبضته فى الهواء ويصيح :

— هذا كلام فارغ . النيابة أخطأت فى تكييف وصف التهمة . لو أن النيابة فهمت الوقائع المنسوبة إلى موكلى على حقيقتها لما قدم إليكم يا حضرة القاضى هذا المتهم مكبلا بكل هذه النصوص .

فقال مفتش النيابات يسألنى عن المواد المطبقة على هذا المتهم ، فلم أدر ماذا أقول ولا ماذا أصنع . . وأنا لا أعرف فى أى قضية يتكلمون فى الجلسة ويتناقشون . . وشاء سوء حظى أن يكون هذا المحامى سفيه اللسان فأمعن فى الصياح قائلا :

— هل هذه نصوص تطبق فى حالة موكلى ؟ هذا تخبط من النيابة هذه فوضى . . هذا سمك لبن تمر هندى . .

فاهتز مفتش النيابات فى كرسيه وانتفخت أوداجه . . وهمس فى أذنى بشدة . . .

— النيابة أهينت . . قم دافع عن كرامة النيابة !

فقلت مداراة للمسألة :

ـ كرامة النيابة فى الحفظ والصون . .

ـ كيف ذلك ؟ ألا ترى النيابة متهمة بالخطأ والخلط والفوضى ؟ المحامى يقول النيابة سمك لبن تمر هندى . .

فقلت له : أنا لم أسمع غير كلمة تمر هندى فقط .

فصاح صيحة كاد يسمعها القاضى والحضور :

ـ لا . . لا . . لا . . هذه إهانة موجهة إلى النيابة . . . يجب على الجالس فى كرسيها أن ينهض لدفعها . . قم . . قم . . وسجل احتجاجك . . وابسط وجهة نظرك فى تطبيق نصوص القانون . .

فقلت فى نفسى : لو أنى كنت أعرف فقط نوع القضية؟ ولكن الموقف ساء من كل ناحية . فكان الدفاع بعيداً كل البعد عن ذكر ما يشم منه رائحة التهمة ، مكتفياً بالتهويش والتهويل والطعن فى تصرفات النيابة والبوليس ، وكلما أمعن فى ذلك هاج مفتش النيابات وماج وانهال على كمى يكاد يمزقه وهو يطلب منى القيام والكلام . . وأنا متشبث بمقعدى مصمم على القعود والسكوت . وأصبح منظرنا لمن يفهم موقفنا يبكى ويضحك وقد فطن القاضى إلى الأمر كله وأدرك الورطة التى

أنا فيها ، وهو يعرف عاداتى جيداً ويحترم شرود ذهنى دائماً . .

فابتسم ابتسامة فهمتها . فتشجعت وقمت أقول بقوة وحماسة :

ــ النيابة تحتج على الألفاظ التى صدرت من حضرة المحامى .

فقال القاضى : ــ المحكمة ترجو النيابة أن تفسح صدرها وتسمح للدفاع بكامل حريته . وهو لم يقصد قط فى لحظة أن يمس كرامة النيابة العمومية من قريب أو بعيد .

وصادق المحامى على قول المحكمة بعبارة مجاملة . وجلست فى مقعدى أتنفس الصعداء وأقول لمفتش النيابات :

ــ هأنذا قد رفعت لكم رأس النيابة ! . .

ومرت الأيام وانتهى حضرة المفتش إلى أرقى المناصب القضائية فى البلاد ، فكنا كلما تقابلنا وتذكرنا الماضى ضحك لموقفى ذاك طويلا . . ولكنه ظل برغم ذلك من المعتقدين بأنى كنت مع كل عيوبى من خيرة رجال النيابة . . عافاه الله ! . .

مصيفون فى السلاسل

لقد قلتها يوماً : ما من عمل فى العالم كله أشق من عمل نائب فى الأرياف فى فصل الصيف ، فالجرائم تزداد فى الصيف ، لأن الغرائز تتيقظ بكل حرارتها فى الصيف . والناموس والهابوش والبق والذباب والقمل والبراغيث كلها تكثر فى الصيف ، وتزحف على حيطان النيابة العمومية . . . فإذا ذكرت كلمة البحر لمنكود مثلى يعمل فى أقاصى الريف فى هذه الظروف فكأنك قد ذكرت النسيم لمذنب يتلظى فى أعماق الجحيم ! . . . وكنا ننتظر الانتدابات الصيفية كما ينتظر البشر مفاجآت القدر . . فإذا جاء انتدابنا فى مدينة أو بلدة على بعد ساعتين من بحر أو نهر سجدنا لله بالشكر . . .

لن أنسى فرحتى يوم فتحت المظروف الأصفر الرسمى ، فوجدت أنى قد انتدبت طول شهر يوليو فى « فارسكور » لم أتمالك أن صحت : « لقد صيفت ! »

ولبثت أعمل فى هذا الريف ليل نهار أنجز المتراكم من القضايا ، وأقوم بعمل اثنين لأن الوكيل المساعد قام بالأجازة . . . ونفسى لا تتسع للفرح الذى يملؤها ويفيض من جوانبها . . . حتى جاء شهر يوليو وأذنت ساعة السفر إلى فارسكور . . فحملت حقيبتى وركبت القطار إليها منشرح الصدر شامخ الأنف كأنى سائح ذاهب إلى ربوع سويسرا ...

كل ذلك لأن فارسكور قرب دمياط . . ودمياط قرب رأس البر ! . ووقف القطار بعد سفر طويل كاد ينفد معه صبرى فى وسط الخلاء ، وصاح عامل القطار ينبهنى : فارسكور ! .

فنظرت من النافذة فلم أجد مدينة . . ولكنى وجدت « كشك » من الخشب يسمى « محطة » ومن حوله فضاء وبرارى . . . ولا شىء غير ذلك .

— متأكد أن دى فارسكور ! .

— طبعاً . . وما مصلحتى أنى أغش حضرتك ! .

قالها « الكمسارى » . . فنزلت بحقيبتى ، وأنا لا أدرى ماذا أنا صانع فى هذه البقاع . . لا بيت ولا فندق ولا حتى

بلدة . . . ولم أفكر طويلا فقد أنقذنى صوت خلفى يصيح :

ـ تفضل يا سعادة النائب !

فالتفت ، وإذا هو حاجب النيابة فى انتظارى ، أقبل نحوى وتناول من يدى الحقيبة . . فابتدرته قائلا :

ـ الحقنى ! . . أنا فين ؟ . . احنا فين ؟ . .

ـ فى فارسكور يا بيه . .

ـ فين هى فارسكور ؟ . . الكشك ده ! .

ـ لا مؤاخذة يا بيه ! . . هنا المحطة . . لكن البلد هناك على مدى الشوف ، فى البر الثانى . . لازم نمشى أو نركب ركوبة . . وبعد كده نعبر النيل فى قارب . . وبعدين نمشى مسافة . .

ـ وليه كده المحطة مخاصمة البلد ؟

ـ مصلحة السكة الحديد ؛ .

ـ ما علينا . . . وصلنى بأى طريقة .

ووصلنا إلى استراحة النيابة فى بلدة فارسكور . . ونظرت إلى الحجرة التى سأقيم فيها ، وإلى الفراش الذى سأنام عليه . . وصحت . . . مستحيل ! .

وخاطبت وأنا فى ثورة من الغضب النائب العام بالتليفون ، قلت له :

— إنى أراهن على أن المكان المخصص لمبيتى الذى يسمونه « استراحة » ، للتعمية أو للسخرية ، لو أنه عرض على كلب ضال فى حارات فارسكور لعافه وفضل الهواء الطلق ! . .
فهل يحرم على مثلى حتى الهرب إلى الهواء الطلق ! .

فقال النائب العام فى نبرة ضاحكة :

— وكيل نيابة البلد ينام فى الهواء الطلق كالمتشردين ! . .

— وما العمل ؟ .

— تصرف على مسئوليتك الخاصة . . لك أن تبيت فى دمياط أو رأس البر . . أنت حر على شرط أن تقوم بواجبات أعمالك بكل دقة . . وعلى مسئوليتك أنت وحدك ! . .

— متشكر يا باشا ! . .

قلتها فرحاً . . فهذا تصريح مستتر بأن أقيم فى المكان المريح . . إذن لماذا لا أذهب فوراً إلى رأس البر . . وأحضر إلى فارسكور كل صباح . . ولنقل كل يومين مرة . . حسب العمل . . ونظام الجلسة .

وقمت في الحال بحقيبتي إلى فندق « كورتيل » برأس البر ، وحجزت حجرة . . وبلغت المركز والنيابة وكل جهات الإدارة في المصيف بمكاني ورقم حجرتي للاتصال بي عند اللزوم . . وفتحت رئتي لهواء البحر . واضطجعت قليلا وإذا تعب الشهور والأعوام يتجمع في لحظة واحدة . . . وإذا أنا طريح نوم لم أصح منه إلا في ضحى اليوم التالي .

وجعلت أذهب يوماً إلى فارسكور ، وأبقى يوماً في رأس البر . ثم انكمشت حصة فارسكور إلى ثلاثة أيام في الأسبوع . . ثم انتهى بي الأمر أن صرت لا أذهب إلى فارسكور إلا يوم الجلسة فقط ، أي مرة واحدة . كل أسبوع . . وقد فرح بذلك موظفو النيابة والمحكمة . . فقد كثر ترددهم على رأس البر بحجة عرض وارد القضايا على «حضرتي » . . ولم تبق عقبة في سبيل متعتي بالصيف وإقامتي الكاملة في المصيف إلا قضايا التلبس والمحابيس . . أي القضايا التي لا بد لي فيها من استجواب المقبوض عليهم من المتهمين ، وانتهى بي الأمر أيضاً أن صرت أستدعي هؤلاء إلى رأس البر لاستجوابهم . . فيأتون من السجن فرحين مع حراسهم يستنشقون هواء البحر . . وسرت الإشاعة

بين المسجونين والعسكر ورجال الضبط وكثر حديثهم عن سعادة « وكيل النيابة » الذى يحضر « المحابيس» إلى المصيف فتنافسوا وتزاحموا . . وكثرت طلبات الاستجواب . . وأصبحت أفتح عينى فى الصباح على صف طويل من مجرمين فى الحبال يجرهم طابور من العساكر ، فما أكاد أخرج من « العشة » أى الحجرة « بالفوطة » والمايوه وبرنس الحمام حتى أتلقى « تعظيم سلام » من الجنود والمتهمين وهم فى نشاط من هواء البحر وبشر متهلل يطفح من وجوههم . . فأقول للعسكر :

— إيه كل دول ؟ . حافظوا عليهم ألا يهربوا منكم ! . .

فيصيح بى صوت من بين المتهمين المقيدين فى حبال الليف :

— نهرب ليه . . ؟ ربنا يخليك يا سعادة البيه ؛ . حد يهرب من الجنة ! .

فأقول لهم وكأنى أخاطب نفسى :

— صدقتم ، اتمتعوا بالهوا المنعش تمتعوا ! .

وإذا بى أسمع صوت أحدهم يقول :

— جعنا يا سعادة البيه جعنا . . الهوا جوعنا . .

— ما شاء الله ! . . أنتم جايين تغيروا هوا ؟ . .

ولكنى أعترف أن منظارهم أثر فى نفسى ، ومنظر سعادتهم ملأنى عطفاً عليهم . . ونسيت أنهم مجرمون ومتهمون . ولم أر فيهم إلا تعساء مثلى حرموا طويلا نسيم الراحة ، وفرحوا أخيراً كالأطفال بهواء البحر . .

ودفعت إلى الحراس بعشرة قروش وقلت :

ــ خذوا اشتروا عيش وحلاوة طحينية لحضرات المجرمين المصيفين ! .

وكانت نتيجة هذه العاطفة الإنسانية من جانب سعادة النائب زيادة مروعة فى إحصائيات الجنح والجرائم فى تلك الفترة من انتدابى ، فقد نزل أهالى المركز بعضهم فى بعضهم ضرباً ولطماً وقذفاً رغبة فى الحبس وطمعاً فى التصييف على نفقة الحكومة ، ولأول مرة أرى قرارات إفراجى عن المتهمين تقابل بالاحتجاج الشديد والطعن فى نزاهة النيابة العمومية . . فلا أكاد أقول للحراس :

ــ افرجوا عن هذا المتهم ! .

حتى يصيح المتهم وهو يملأ رئتيه من هواء رأس البر :

ــ ده ظلم يا بيه ! . أنا لسه مقبوض علىّ النهارده ! .

ليلة سوداء !

كانت ليلة . . لست أدرى كيف نجوت منها ؟ . إنى أقولها دائماً وأنا أكاد أجن : إن وظيفة وكيل نيابة فى ريف مصر هى أحياناً أشق عمل فى العالم كله . . ولا يستثنى من ذلك إلا عمل جندى الخنادق فى الحروب الكبرى ! . . سمعت آذان العصر فى المسجد المجاور لدار النيابة التى كنت أديرها . . ولكنى لم أرفع رأسى الغارق فى الأوراق . . كنت وحدى القائم بالعمل . . فقد كنا فى شهر يونيو ، فطوحت الانتدابات الصيفية بمساعدى إلى بلد بعيد . . . كان على إذن أن أحضر الجلسات وأقوم بالتحقيقات وأحرر المذكرات وأنهض لضبط الوقائع الجنائية . . كل ذلك كنا نفعله عن طيب خاطر ، لأن غمرة الحياة وزحمة العمل ما تركت لنا وقتاً نفطن فيه إلى عرقنا المتصبب ! . . .

ولم يكد يسكت صوت المؤذن حتى ارتفع صوت نعل عسكرى يدق أرض الحجرة دقاً . فأدركت دون أن أنظر

أنه خفير من المركز :

ــ خيراً ؟ ! .

ــ إشارة يا أفندم ! . مشاجرة دبت بين بلدين ؛ . .

ــ حضرة المأمور قام ؟ .

ــ منتظر سعادتك فى الكومبيل ! .

فعلمت أن كل شيء معد . . وأن المأمور فى السيارة . . وما على إلا النزول فوراً مع كاتب التحقيق وقد كان . . وركبنا وانطلقنا نقطع أكثر من ثلاثين كيلو متراً فى طرق زراعية وعرة ترفع سيارتنا وتخفضها ، وترجنا داخلها وتهزنا . . كأننا فيران فى مصيدة ترجها يد صائد منتقم . . حتى أصابنا الدوار ونال منا الكلال . . فما بلغنا البلدة موضع الحادثة ، ووقفت السيارة حتى خرجنا منها نتأرجح كالسكارى . . ودخلنا بيت العمدة ، وطلبت لنا القهوة . . وأمرت بفتح المحضر ، وأنا لا أكاد أعرف لى رأساً من قدم . . وانتهينا من شرب القهوة ومن فتح المحضر ، وأثبتنا فيه بالطبع حضور المأمور ، وعندئذ نهض حضرته ودنا منى وهمس فى أذنى :

ــ يظهر أن الحادثة بسيطة جداً . . العمدة المغفل هول

فى الإشارة . . لا هناك ضرب ولاِ قتل . . مشاجرة تافهة بين أنفار بالهم رايق . . وأنا قائم بالأجازة الصبح بدرى مع العائلة ... فإذا سمحت لى بالانصراف فإنى أكون شاكراً . . والبركة فى همتكم وحضرة ملاحظ النقطة موجود تحت أمركم ! . .

فأجبته إلى طلبه ، مراعاة لظروفه ، دون تفكير أو تدبير . . فما كاد يختفى . . حتى ظهرت الحادثة على حقيقتها فنحن أمام معركة واسعة النطاق . . . وإذا جثث القتلى من الطرفين تخرج من غيطان الذرة محمولة على الأكتاف . . وإذا الرؤوس المفلوقة بالنبابيت تساق إلى من كل جانب . . . وإذا الأهالى يتجمهرون حول مكان التحقيق . . . يصيحون كلما ظهر مصاب . . يتبينون من أى بلدة هو . . فتولول النساء من أهله ، ويزمجر الرجال من عشيرته مهددين . . إلى أن بلغ الأمر حداً غلت فيه النفوس وثارت الأحقاد .. فإذا الأصوات تعلو من الطرفين هادرة كالأمواج ، تقسم طالبة الثأر بيدها لا بيد القانون . . ولم يبق إلا شرارة لتندلع نار مذبحة أشد من الأولى خطراً وأوخم أثراً . . يحتدم أوارها تحت أنظارنا المتفرجة ، فتذهب بذلك هيبة الحكومة . .

هنا التفت إلى ملاحظ النقطة . . فوجدته أصفر الوجه . . لا يوحى منظره بالاطمئنان . . وكيف لا يمتقع لونه ، وهو لا يملك الساعة فى حوزته غير ثلاثة من العسكر ، اثنين منهم بجوار الخيول . . . والثالث واقف بيننا لينادى على الشهود . . الأمر إذن لابد أن يعالج بشيء من الحكمة . . فصحت بالناس طالباً منهم الهدوء ، وانتظار نتيجة التحقيق بشيء من الصبر . . فإن الحكومة تعرف كيف تثأر لصاحب الدم . فهدأ الناس قليلا . . . وباشرنا التحقيق . . ولكن كيف تستطيع أن ترضى طرفين متضادين ؟ . . . وما كنت أضيق الخناق على متهم من إحدى البلدتين . . . حتى يهتف أهل البلدة الأخرى شامتين فى صوت كالرعد :

ــ فليحيي العدل . . .

حسب هذه الكلمة أن تلفظ حتى تعدها بلدة المتهم تجريحاً لهم وتحرشاً بهم . . . فينهضوا يلوحون بعصيهم ؛ فأهدئ الحالة من جديد . . بأن أستجوب متهماً من البلدة الأخرى . . فيعلو صياح الشماتة من البلدة الأولى :

ــ فليحيي العدل ! . . .

ويتكهرب الجو مرة ثانية ، وتعود العصى والهراوات والفؤوس ترفع فى الهواء . . فأكف عن هذا المتهم لحظة . . وأعود إلى متهم فى البلدة المنافسة . . وهكذا دواليك . . حتى خلت نفسى مروض وحوش فى « سرك » . . . لا يدرى كيف يسكت الزئير من حوله ، ولا يعلم أيخرج من ذلك القفص حياً ، أم يسقط ممزق الثوب والجسد تحت أقدام الضوارى المتشابكة ؟!

ولقد أمرت الملاحظ أن يلزم الصمت . . وأن يكون رابط الجأش . . لأننا لن نلجأ مطلقاً إلى استعمال القوة . . وبهذا العدد الضئيل من رجال البوليس . .

وكيف تصنع نقطة فى بحر ! . . المهم أن نخرج بكرامتنا . . ولكن كيف نخرج ؟ . . كانت المشكلة التى تحير فكرى هى : مسألة القبض على المتهمين ! . . . وقد فطن الملاحظ إلى ذلك الأمر . . فنهض يهمس فى أذنى . .

— إذا قررتم القبض على أحد الليلة . . فإن . . .

— فإن هذه البلدة ستكون مقبرتنا ! . .

قلتها بالطبع فى نفسى . . ولكنى أدركت مراد الضابط . . . أن البوليس الموجود معنا ، وهو لم يكف لحفظ النظام ،

أنستطيع أن نقبض به على متهمين فى هذا الزحام ! ؟ .
اقترح الملاحظ أن نتصل بحكمدار بوليس المديرية ليرسل إلينا فرقة من الهجانة . . ولكن المسألة إذا وصلت إلى المديرية فإن موقف المأمور سينكشف . . ولم أرد أن يطعن فى ظهره . . حتى بعد أن ظهر لنا من إهماله ما ظهر . . ثم أنى حتى ذلك اليوم ما تعودت طلب النجدة ، ولا الشكوى من شئون العمل . . بل كنت أتجشم التعب ، وأتحمل التبعة خلف جدران الصمت والسكون . . .

رفضت اقتراح الضابط قائلا :

— ألا يستطيع القانون أن يسيطر على الموقف بمجرد هيبته ؟ ؟ . . أتريد أن يقولوا إننا غرقنا فى شبر ماء ؟! . .

ففتح الملاحظ فاه . . وأشار إلى خضم جموع الأهالى المحتشدة ، حولنا ملوحة بعصيها ونبابيتها ، تهدر وتزمجر ، وتنفث من صدرها النار ومن عيونها الشرر ، ولا يدرى غير القدر متى يفلت زمام الغرائز ، فتقع الواقعة ، وتعصف العاصفة ، وتطغى الأمواج تجرف أمامها كل شىء . . ونكون نحن بأوراقنا ومحاضرنا وتحقيقنا أول المجروفين . .

لم ألق بالا إلى كل ذلك ... ومضيت فى تحقيقى كأنى لا أرى شيئاً حولى . . حتى حصرنا المتهمين فى عشرين رجلا من الفريقين . . كلهم ضارب ومضروب . . . عدا القتلى وهما اثنان من الفريقين أيضاً . . . واستعرضت المتهمين العشرين أمامى ، وفى كل منهم إصابة ودم يسيل . . . فألفيت نفسى وسط شبكة معقدة تضل فيها الذاكرة . . . فالمتهم الأول ضرب الخامس والسابع والتاسع . . . والمتهم الثانى ضرب الأول والعاشر والرابع . . . والمتهم الثالث ضرب الحادى عشر والخامس عشر . . والمتهم الرابع ضرب الثانى والأول والتاسع عشر . . والمتهم الخامس ضرب الثالث والثامن والثانى عشر . . والمتهم السادس ضرب المتهم العشرين . . والمتهم العشرون ضرب السابع عشر . . . إلخ إلخ . . ولقد أنفقت الهزيع الأخير من الليل وأنا لم أزل أراجع وأحفظ هذا الحساب والترتيب والوضع ، وأخلط فيه وأخطئ وأتخبط ، فأعود من جديد أسأل : من ضرب من ؟ . . حتى ضاق صدرى ونفد صبرى ، وصحت أقول : أجئنا نضبط حادثة ضرب أم نتعلم جدول الضرب ؟ . .

ووصل عندئذ مفتش صحة المركز لفحص المصابين . . .
ولم يكن نظام الطب الشرعى قد امتد وقتئذ إلى الريف . . .
فلم يشق طريقه إلينا وسط الجموع إلا بشق الأنفس .

وأجرى الكشف الطبي على المصابين جميعاً ، ورأى نقلهم إلى مستشفى المركز . . . وكان فى هذا إنقاذ للموقف . . .

فقد استطعت أن أفهم الأهالى أنى لن ألقى القبض على أحد . . ولن أنظر اليوم فيمن اعتدى ومن اعتدى عليه . . . فالذى يهمنا الآن هو علاج المصابين . . . فهل يريد أحد منكم أيها الناس أن نترك نفراً من أهله ينزف دمه ، دون أن نبادر بإسعافه ؟ . .

فسكت الأهالى وأطرقوا مقتنعين . .

عندئذ قلت لهم :

ـ ساعدونا الآن على نقل مصابيكم إلى المستشفى ! .

فبادروا يلبون طائعين . . .

وكان الليل قد انصرم . . وطلع الفجر . . فقمت بمعاينة مكان الحادثة بغير ضجة . . تلك الحادثة التى نشأت من عراك طفلين من أهل البلدتين . . سب أحدهما الآخر

بقوله : « هى بلدكم فيها رجالة ؟ ! » . . فقام أهل بلدته لهذه الكلمة قومتهم . . ليثبتوا أنهم رجال . . وكانت تلك المعركة الدامية بين البلدتين ، التى لم يثبتوا بها إلا أنهم أطفال ؛ . .

وقد كانوا بالفعل أطفالا إلى النهاية . . . ثاروا لكلمة وهدأوا بكلمة . . واستطعنا أن نخرجهم من معاقلهم ونجرهم خلف سيارتنا العائدة فى الصباح إلى قلب المركز مع مصابيهم وشهودهم ، راضين صاغرين كقطيع من الحملان ! . .

خفت من نفسى

كان ذلك فى يوم من أيام عملى فى طنطا ، وكيلا لنيابة البندر . . دخل على فى مكتبى كاتب التحقيق وقدم إلى « محضر تلبس » . . قضية نصب على الطريقة الأمريكانية ، كما كانوا يقولون فى ذلك الوقت . . رجلان أنيقان فى سيارة « سبور » فخمة .. قدما من القاهرة فى طريقهما إلى الإسكندرية لحضور سباق الخيل . . فلما مرا بطنطا ، وقفا على حانوت « دخاخنى » وطلبا علبتين من السجاير ، و « فكة » ورقة من فئة العشرة جنيهات . . فبادر البائع المسكين إلى تلبية الطلب . . وكانا يصيحان به أن يسرع ، ويتكلمان بلهجة الأمر والنهى . . فما شك البائع فى أنه أمام رجلين جديرين بكل ثقة واحترام . . . فهرول يقدم إليهما السجاير المطلوبة وفوقها تسعة جنيهات ونحو ثمانين قرشاً . . وانتظر بأدب أن يدفعا إليه بالورقة ذات العشرة جنيهات . . ولكنهما لم يدفعا إلا محرك السيارة إلى الانطلاق ، فجعلت تسابق

الريح ، حاملة بضاعة البائع ونقوده ، بينما هو واقف ، فاغراً فاه من الذهول ، لم تقبض كفه منهما غير الريح ! . . ولم يلبث أن ثاب إلى رشده ، فلطم وصاح وبكى ، وأقام السوق وأقعدها . . . ونهض الناس لكارثته ، وجرى رجال البوليس خلف السيارة يطلقون الصفافير . . وشاء الله أن يعطل سير السيارة ، وأن يدركها الناس والبوليس ، وأن يضبط الرجلان الوجيهان ، وأن يشهد عليهما كل أهل السوق بما لا يدع مجالا للشك فى سوء فعلهما . . .

كل ذلك طالعته فى « المحضر » . . وكونت فى الجريمة رأيى وهى ثابتة على الرجلين كل الثبوت . . .

فأمرت الحاجب أن يحضر أمامى المتهمين لاستجوابهما ... فصدع بالأمر . . وفتح الباب . . وأدخل الرجلين الأنيقين . . فما كدت أراهما ويريانى ، حتى عقد الدهش لسانى ، وانطلق بالفرح لسانهما . . فأقبلا نحوى يقولان بدلال :

— أهلا .. أبو تيفه ! . .

ولم ينتظرا منى دعوة . . . فجذبا مقعدين وثيرين ، ارتميا فيهما بغير كلفة . . كأنهما فى دارهما . . وتنفسا الصعداء طويلا . .

كأنما الموضوع قد طوى . . والحادث قد محى من الأوراق . . .

وكان هذان الفاضلان من زملاء الدراسة ! . . .

ولم أدر أنا ما أفعل ولا ما أقول . . وطفقت أنظر إليهما وإلى « المحضر » وأعيد إلى ذاكرتى ما أعرفه عنهما . . . لقد كانا من الشباب المدلل . . . الذى انصرف عن الدرس إلى اللهو . . وترك مرحلة التعليم فى منتصف الطريق . . لينفق بجنون ما ورثه عن الآباء والأجداد . . . محتمل جداً أن يرتكب مثلهما هذا الجرم . . بكل استخفاف واستهتار . . ولكن ماذا أنا فاعل أزاء هذا الاطمئنان العجيب البادى عليهما أمامى ؟ !

لقد كان المحضر الذى جاءونى به ، مصحوباً بحرز مختوم عليه بالشمع الأحمر ، يضم العلبتين من السجائر ، موضوع القضية ، والنقود « الفكة » . . فإذا بأحد الفاضلين يشير إلى الحرز ويقول :

ـــ صنف يعجبك ! افتح لنا علبة واعزم علينا يا أخى ! .

فقلت فى نفسى : « حقاً ! ليس ينقص إلا هذا . . اعزم على المتهمين بالمضبوطات ! »

وجعل الآخر يحدثنى عن الأيام الأولى : ويذكرنى

بالشيخ « بنجر » الذى كان يقذف تلاميذ الفصل بمركوبه إلى أن خطر يوماً لهذا الزميل « المحترم » أن يكيد للشيخ . . فتعمد الوقوف أمام النافذة المفتوحة ، وتحرش به . . فلما قذفه بالمركوب تنحى عن القذيفة بسرعة البرق ، فسقط المركوب فى الطريق . . وبقى الشيخ فى الفصل حافياً ، يلعن ويسب . .

وضحك الزميل الراوية ضحكاً مرتفعاً . . وعارضه صاحبه وحاكاه . . وانتظرا منى الضحك ، ولكنى فى حرجى وحيرتى أطرقت أنظر فى المحضر ، وأقلب صفحاته دون أن ألتفت إليهما . . فقال أحدهما وهو يشير إلى أوراقى :

— كلام فارغ كتبوه على مزاجهم ، اطلب لنا فنجان قهوة يا شيخ ! ! . أنت طول عمرك رجل كريم ! . . اطلب قهوة وقرفة وحيى ضيوفك .

فتصاممت . . وجعلت أفكر فى أمرهما . . هل آخذهما بالعنف ، وأفهمهما خطورة الموقف أو أسير فى إجراءاتى برفق وهدوء ولا أصدمهما ، وأقوم باستجوابى فى شكل محادثة لينة ، دون أن يشعرا بشىء ؟ ! .

آثرت الثانية . . وسألتهما مبتسماً عن الموضوع . . فأجابا

أنه تلفيق فى تلفيق . . فواجهتهما بأقوال الشهود وبالأدلة والقرائن والمضبوطات ، فتخبطا واضطربت إجاباتهما . . وتهربا من وطأة البراهين بالضحك والنكات . .

فتضاحكت أنا أيضاً . . ويدى تكتب فى ذيل المحضر وصف التهمة وتشفع ذلك بالقرار المعروف : « أمرنا بحبس المتهمين احتياطياً ويعمل لهما فيش وتشبيه . . إلخ »

وضغطت على زر الجرس . . فظهر الحاجب ، ونظر إليهما نظرة يدعوهما إلى الخروج معه ، وقد تسلم منى محضرهما . . فقال أحدهما وهو يلتفت إلى :

ــ طبعاً . . . إفراج ؟

وقال الثانى وهو ينظر إلى الساعة فى معصمه :

ــ أظن نلحق الشوط الأول فى السبق . . أورفوار يا أبو تيفه

فقلت مبتسما بهدوء :

ــ أورفوار ! . .

وخرجا من مكتبى بكل وقار ، وما كادا يصيران فى الردهة حتى وجدا من يأخذ بأيديهما ويضع فيها الحديد ! . .

وعند ذاك سمعت ضجة كبرى فى الردهة وأصواتاً ترتفع محتجة :

ـ مستحيل ! مستحيل ! وكيل النيابة صديقنا ؛ زميلنا أمر بالإفراج . .

ولكن العسكر ، فيما يظهر ، شدوا السلاسل واقتادوهما إلى حيث ينفذون فيهما قرارى . . . فقد أخذت الضجة تخفت ، وصدى صياحهما يبتعد . . . حتى عاد السكون إلى المكان . . .

ومرت أربعة أيام . . . وجاء ميعاد تحديد أمر الحبس . . . وجاء بهما العسكر إلى جلسة المعارضة . . فنظرت إليهما وهمست « سبحان مغير الأحوال ! . . . »

لقد ذهبت الأناقة ، واختفت الابتسامة ، وولى الاستكبار والاستهتار . . وإذا أنا أمام رجلين طال منهما شعر الذقن ، وتمزقت الثياب من شد العسكرى وجذب السجان ، واتسخت الأبدان من الرقاد على الأسفلت . . وانطفأت نظرة التدلل والانكسار . . وخرس لسان العز ، وهتف صوت التذلل والاستعطاف . . .

قلت فى نفسى ، وأنا أسترق إليهما النظر : جملة صغيرة من قلمى الأحمر فى ذيل المحضر ، صيرتهما إلى ما أرى من المذلة والهوان . . وإلى ما لن أرى من المستقبل المظلم والمصير

المدلهم ! . . هذان الزميلان القديمان قد كتب عليهما أن يقعا فى يدى لأغير حياتهما الباسمة ، وأنتزعهما من حلبة السباق ، لألقى بهما فى غياهب السجون ! . . كلمة صغيرة منى ! . . يا للهول ! . . لو أنى جعلتهما « نأمر بالإفراج عن المتهمين بالضمان المالى ... إلخ » لكانا اليوم فى الإسكندرية ينعمان بنسيم البحر ، وينطلقان بالسيارة الفاخرة ، ويطلقان الضحكات الساخرة . . . ولكنى أمرت بالحبس . . .

عبارة صغيرة منى تغير مصائر الناس إلى هذا الحد ؟ ! . إنى إذن لرجل مخيف ! . . .

ولأول مرة وقع فى نفسى شعور الخوف من نفسى ! . . .

لطالما أمرت بحبس كثير من الناس . . ولكنى ما كنت أعرفهم إلا من المحاضر والأوراق . . كانوا مادة عملى اليومى . . . أتصرف فى مصائرهم دون وعى أو اهتمام بأمرهم . . شأنى شأن الطاهى الذى يذبح فى كل يوم الدجاج والحمام والأرانب ، دون أن يخطر له الرثاء لحالها ، أو البحث فى مآل صغارها ، أو التفكير فيما أحدثه من تغيير فى مجرى حياتها . . .

أما هذان الزميلان ، فإنى أعرفهما وعشت معهما ،

لحظات من العمر ، هى أصفى وأجمل ما يحفظه الإنسان من أيام عمره . . ومهما يكن من أمر ذنبهما ، فإن يدى هى التى بطشت بهما . . وقررت مصيرهما . . . وغيرت وبدلت فى صفحة حياتهما .

وهبنى أخطأت فى تقدير الأدلة ووزن التهمة ، وأنا لست بمعصوم ، فأى كارثة أنزلتها بمستقبل زميلين !

يالى من رجل مخيف ! . ما هذه القسوة التى فى يدى ؟ ! . ما هذا الجبروت ! ! . إذا أصبت أو أخطأت ، فإن قرارى صاعقة تهبط على رؤوس الناس ، فتحدث فى شؤونهم الأحداث . . من أعرف منهم ومن لا أعرف . . .

وشيعت الزميلين بنظرة أخيرة ، والحرس يعودون بهما إلى السجن وقد تجدد أمر حبسهما على ذمة القضية . . فذهبا يائسين محطمين وقد أسودت الدنيا فى عيونهما المنطفئة ، بينما أطرقت أنا ، وهتفت من أعماق نفسى المرتاعة :

ــ اللهم اكفنى واكف الناس شرى ؟ . . .

مفتش «كعك»

لم أكن من هواة كعك العيد أو من عشاقه المعاميد، وكنت إذا ذكر أمامى هذا الاسم المكون من ثلاثة حروف يخرج من بينها حرف حلقى أحس كأن شيئاً سيخرج من حلقى ! . . وكنت كلما قرأت فى حوادث الصحف عن تلك المشاجرات التى تقع بسبب هذا الكعك بين زوجين قلت : مجانين ! . . إلى أن ابتليت . . ومن عاب ابتلى . .

بدأ حبى لهذا الكعك فى بداية اشتغالى بالقضاء . . فقد كان العام الأول لتعيينى يفرض على العمل دون حق فى إجازة . . وجاء عيد الفطر المبارك فقام زملائى بأجازاتهم ، وتركونى أنهض بأعمالهم .

أذعنت واستسلمت وخفضت الرأس مكسور الجناح ، وقلت : « سبحان الله ! . . كل الخلائق تعيد بين الأهل والآباء والأبناء . . وأنا أعيد بين ملفات الجنح . والعوارض والمخالفات ! . . »

وكانت صفافير الأطفال تخرق أذنى ، فأترك أوراقى وأنهض إلى النافذة أبصر فى الميدان الناس فى حللهم الجديدة والصبيان فى أثوابهم الحمر والخضر والصفر ينفخون فى «الأنابيل» ويصخبون بهز « الشخاشيخ » ويتجمعون ويتفرقون كالنمل حول « المراجيح » المنصوبة بأعلامها الخفاقة وبيادرها الهفافة ! . . فأكتئب وأقول فى نفسى : لا أنا طفل يحلو لى أن أفعل ما يفعل الأطفال ولا أنا رجل أسعد اليوم بما يسعد به الرجال . . ولكنى مخلوق فرض فيه أن يعيش بلا قلب ولا شعور وسط عالم يصيح بالفرح والهناء . . مخلوق كل عمله اليوم أن ينتظر حتى ينقلب الفرح إلى ترح . . وتتحطم أطباق الوليمة . . هكذا جلست فى مكتبى أتلقى أوراق الحوادث التى يسفر عنها العيد . . من نشل محفظة قروى . . وتعدى سكران عربيد ومضاربة بين تجار فسيخ إلى سقوط طفل من أرجوحة إلخ . . إنه الوجه الآخر السيئ من العيد هو وحده الذى سمح لى أن أتأمله وأحملق فيه . . .

ولكن الله لا ينسى المحرومين ، فقد أرسل إلى زميلا متزوجاً فى المدينة ، دعانى إلى زيارته قائلا :

ـ تعال أذقك كعكنا ! !

فكدت أصيح :

ـ كعك ، أعوذ بالله ! . .

ولكنى تذكرت ما أنا فيه . . من وحدة وهم وغم . . فقلت : ليس هذا وقت البطر والتمنع والترفع . . . مهما يكن « الكعك » فلن يكون أثقل ولا أمر من ملفات الجنح . . . وذهبت وقدم لى صاحبى فنجاناً من القهوة وطبقاً من كعك العيد بوجهه المنقوش ، وسكره المرشوش . . فتناولت كعكة وقضمت و بلعت. عجباً ! . . يا له من استكشاف ! . إنه لذيذ . . إنه ألذ شيء ذقته فى حياتى . . أترانى أبالغ ؟ . . أتراها مرارة حياتى جعلت كل شيء فى فمى لذيذاً . . لست أدرى ولكن الذى أعرفه أنى أحببت الكعك . . وتناولت كعكة ثانية وثالثة . . وأفضيت إلى صاحبى باعجابى فقال متواضعاً :

ـ وكيف لو ذقت كعك قاضى البندر ؟ .

ـ وكيف السبيل إلى ذلك ؟ .

ـ هلم بنا نزره ونعيد عليه . . . إنه هنا مع أسرته ولم يسافر . . .

ـ هلم . . .

وذهبنا وقدم إلينا كعكه . فإذا هو حقاً أتقن صنعاً وأمتع طعماً ، فأبديت عجبي وإعجابي ، فقال قاضي البندر .

ـ وكيف لو ذقت كعك قاضي المركز ؟

ـ أهو هنا ؟ .

ولم أتم . . فقد عولت على زيارته فوراً . .

وذهبت بالفعل إلى قاضي المركز وقدم إلى طبقه ، فذقت وقد أصبحت لى خبرة تمكننى من الحكم على دقة الصنعة وجودة الدقيق وامتياز السمن منذ القضمة الأولى . . فحكمت له . . فقال لى :

ـ إذا كنت تريد حقاً أن تذوق كعكاً فذق من كعك القاضى الشرعى ! . . .

فلم أجب ولم أراجع . . . ويممت فى صمت إلى منزل القاضى الشرعى . . وقدم إلى كعكه . . . فما كادت رائحته تبلغ أنفى حتى أدركت لطول مرانى حقيقة أمره . فقلت فى نشوة :

ـ نعم . . نعم . . هذا هو الكعك ! . .

ومضى العيد هكذا . . . وأنا أنتقل من طبق إلى طبق . . بعد أن كان مقدراً لى أن أنتقل من جنحة إلى جنحة . . . وعاد زملائى ورؤسائى إلى أعمالهم يسألوننى :

ــ ماذا فعلت فى العيد .

فقلت مزهواً كمن استكشف فى نفسه موهبة :

ــ اشتغلت « مفتش » . .

ــ مفتش قضائى ؟

ــ مفتش كعك ! .

الباحثون عن العدل !

إذا كان على الأرض عدل فإنه يجب التفريق بين مهنة ، تتحمل أعباءها ساعات محددة ، ومهنة لا حدود فيها لتبعاتك . . قد تنتزع من فراشك انتزاعاً لتلبي نداءها ، وتلغى راحتك إلغاءً لتؤدى نحوها واجبك . . . يجب التفريق بين مهنة ترتدى كالقميص فى الصباح وتخلع عند الظهر . . . ومهنة كالخاتم النارى يطبع جسمك وشخصك وروحك وضميرك ، فلا تخلع عنك صفتك فى بيت ولا مكتب ، ولا فى ليل ولا فى نهار . . يدخل فى باب هذه المهنة الأخيرة رجال البوليس ، ورجال القضاء . . . ولقد رأيت بعيني الجهد الذى يضنى هؤلاء وهؤلاء ، فقد كنت واحداً منهم فى يوم من الأيام . . . ولن أنسى تلك الليالى التى كنت أمضيها فى الأرياف ، استمع إلى نقيق الضفادع فى الغيطان ، وأتصرف فى أكداس ملفات الجنح والمخالفات تحت ضوء « لمبة » نمرة خمسة قد اجتمع عليها الناموس والهاموش . . . فإذا فرغت من عملى ومن عشائى ، وقمت إلى فراشى موجع

الظهر كالمضروب بالسياط ، التمس ذخيرة من راحة أواجه بها
الغد ، فإنى أنهض وأنا اتسمع وقع الأقدام فى الطريق ، خشية
أن يكون الخفير النظامى مقبلا عن جناية تنزع عنى راحة الليل
التى هى من حق الدابة والوحش والطير . . . كنت أحياناً
أحسد السجين الذى أستجوبه وأودعه السجن . . وأقول : «هذا
على الأقل يملك ليله . . . أما أنا فحتى ليلى ليس ملكى ! . .

أما رجل البوليس فله مثل هذا النصيب وأكثر . . . فإن
كل مصيبة تخطر فى بال الحكومة لا يمكن أن توضع إلا على
كاهل البوليس . . . فهو المسئول عن الأمن والنظام والضرائب
والأموال وتنفيذ الأحكام الجنائية والمدنية والشرعية ، والتعليمات
الخاصة بالرى والقرعة وضبط الأسلحة وتهريب المخدرات
والممنوعات . . إلخ . . .

كل وزارة من وزارات الدولة تلقى حملها على هذه النجوم
أو « الضبابير » المثبتة فوق كتفى رجل البوليس . . . ووالله لو
كان لهذه « الضبابير » أجنحة لطارت من هول ما يلقى عليها ،
ولو كانت من نجوم السماء ، لفضلت أن تدور فى فلك الشمس
على أن تدور مع حضرة المأمور أو الضابط فى خط سيره

اليومى . . .

كنت أقول لزملائى من رجال البوليس ونحن نقوم ليلا إلى الوقائع الجنائية « لا تتبرموا . . هذا واجبنا ... نحن الساهرين على أمن البلاد ! . . . » .

فكان يهمس من بينهم صوت : « لو ساوونا فقط بأولئك الساهرين فى النوادى والكلوبات ؟ »

المساواة ! . . هذا شىء ليس من حقنا أن نطلبه . . . ولكن الذى نطمع فيه هو أن يكون هنالك ميزان عَدل . . يزن جهودنا ، ويقدر لها حقها ويمنح هذا الحق فى مواعيده بلا مماطلة ولا إبطاء . . .

* * *

كنت أقول ذلك وأنا أحس فى قرارة نفسى مرارة الظلم الذى أعانيه . . . فما من أحد يحفل بمنحى الدرجة التى كنت أستحقها لا بحكم عملى المرهق ، ولا بحكم وضعى القضائى . . . إلى أن نقلت من هذا السلك إلى وظيفة فى وزارة من الوزارات . . . حيث جلست فى حجرة أنيقة الرياش ، وقد ألحقوا بى « سكرتيراً » خاصاً . . . يضرب على الآلة الكاتبة خطاباً واحداً كل أسبوع .

فإذا الدرجات تنهال على تقديراً لما أقوم به من أعمال . . . هى تناول القهوة ومطالعة الصحف والمحادثة فى التليفونات . . . والانصراف إلى الغداء والنوم والملاهى والسهرات ! . .

وسرعان ما نسيت الظلم والعدل . . . إلى أن جاءنى زميل قديم ، كان معاون إدارة ، وظل بعد تلك الأعوام كما كان . . قال لى :

ـ أتعرف « ما هو معاون الإدارة ؟ . . » هو حمار السباخ فى المديرية أو المركز . . . نعم . . . أنا حمار سباخ حضرة المأمور . . . يلقى فى « الغبيط » الذى على ظهرى كل ما قبح وقذر وشق وثقل من أعمال . . . وهيهات مع ذلك أن تلمع على كتفى نجوم ! . . .

ـ أتريد هذه النجوم ؟ . . .

ـ هذا أمل بعيد . . . أبعد من نجوم السماء ! . . . ولكنه العدل . . ذلك العدل الذى لا يوجد إلا فوق . . .

وأشار إلى السماء . . . إشارة نمت عن عقيدة ثابتة وإيمان راسخ ! . . . فقلت له :

ـ ما دمت تؤمن أن فى السماء عدلا . . . فلا بد أن يهبط

منه يوماً شيء على هذه الأرض . . .

وانصرف الرجل . . . وتركني أفكر . . . وحلقت في التفكير حتى وصلت إلى ما تخيلته السماء . . فوجدت عجباً . . . وجدت بهواً متسعاً . . . فيه رهط من الملائكة على مكاتب . . . وقد بدت عليهم الراحة وما يشبه التثاؤب وإذا ملاك يدخل عليهم كما دخل على « معاون الإدارة » ، قد ظهر عليه الجهد والتعب ، وهو يصيح فيهم :

ـ أتعرفون من هو عزرائيل . ؟ هو الجراب الذى تلقى فيه لعنات البشر . . . هو العمل المتصل . . . الذى لا يعرف فترة راحة ولا هجود . . هو اليقظة بالنهار والسهر بالليل . . هو الذى يقوم بعمله وحده منذ بدء الخليقة . . . فيقبض الأرواح التى تزداد على مدى الأحقاب عدداً . . . فى كل يوم يضاف إلى ما يثقل كاهلى صنف جديد من أصناف الموت . . . لم يعد الطوفان بكاف . . . ولا الحروب ولا الطاعون. . . لقد اخترعوا قنبلة ذرية . . . تحصد مئات مئات الألوف فى لمحة عين . . . فأقع فى حيص بيص بمفردى فى الميدان ، أجمع هذه الألوف المؤلفة من الأرواح . . . مسرعاً مضطرباً خائفاً أن

يفلت مني بعضها ، أو ترد فيه الروح ، قبل أن أقبضها . . فأحاسب على الإهمال . . أنا أصنع هذا كله ، علاوة على عملى الأصلى . . بينما أنتم تجلسون على هذه الأرائك ، لا تصنعون شيئاً . . . وتحسبون مثلى وفى مرتبتى من الملائكة . . . وربما أشرف منى وأولى أحيانا بالتقديم . . .

فارتفع صوت احتجاج من بين صفوف الملائكة الجالسين :

– نحن لا نصنع شيئاً ؟ ؛ . . .

– طبعاً . . . ماذا تصنع أنت الآن يا جبريل ؟ . . لقد كنت تهبط لتبلغ الأنبياء . . وقد انتهى عهد التبليغ والأنبياء . . فما هو عملك الآن ؟ . أخبرنى ؟ . وأنت يا إسرافيل . . كل عملك أن تنفخ فى الصور يوم القيامة ، فمن الآن إلى يوم القيامة ، ماذا تصنع ؟ أخبرنى ؟ . . أنا مظلوم يا إخوانى ! . . أنا مرهق بالعمل . أعبائى تزداد كل يوم ثقلا . . أنا وحدى من دون الجميع الذى تتضخم أعماله . . بالأمس كان الواحد يغتال الآخر بسكين أو برصاصة . . أما اليوم فهو يستخدم قنبلة تودى بعشرات من الأبرياء . . . هذه كلها أليستَ أرواحاً جديدة محسوبة على أنا ؟ . . ومع ذلك لم يفكر أحد فى انتداب ملاك

جديد يساعدنى ، بل لم يفكر أحد فى إنصافى ورفع درجتى بين زملائى . . أو رفع مستواى بما يتفق مع الزيادة فى العمل . .

ولم أسترسل فى الخيال أكثر من ذلك . فقد هبطت الأرض فجأة على صوت باب حجرتى يفتح ، وقد ظهر معاون الإدارة وقد عاد يقول :

ـ لا تؤخذنى . . فكرة خطرت لى وأنا ذاهب فرأيت أن أرجع لأخبرك بها . . إن لم يكن هنالك أمل فى « نجوم السماء » فلا أقل من النظر فى أمر إنصافى ورفع مستواى بما يتفق مع أعمالى . .

فقاطعته على غير وعى منى :

ـ أنت أيضاً ؟ ! .

ـ أنا أيضاً ماذا ؟ .

قالها محملقاً فى بعينيه من خلف منظاره ذى الإطار المعدنى الأبيض . فقلت له وأنا أحلق بفكرى :

ـ اسمع يا حضرة المعاون ! . . عند ما خلق الله « التمييز » خلقه فى كل مكان وفى كل شىء . . التمييز بين الحظوظ . . والمصائر والأقدار ، كالتمييز بين الحسن والقبيح ، والصحة

والمرض ، والليل والنهار . . لا يوجد شيء اسمه عدل مطلقاً . . كما لا يوجد ما يسمى السعادة المطلقة . . إنما الإنسان الواحد تتناوبه حالات مختلفة من عدل وظلم ، وسعادة وشقاء ، وصحة ومرض ، وليل ونهار . . فإذا طلبت العدل المطلق فأنت كمن يطلب نهاراً بلا ليل . . لقد كان من حظك أن تخلو كتفاك من ضوء النجوم . . هل لك أولاد ؟ . .

— عندى ولد . . .

— هذا هو الذى قد تشرق عليه نجوم السماء ! . . إن العدل قد يلحقك فى عقبك وخلفك . . وقد يحرمهم القدر ما سخا به عليك . إن حسابنا الجارى على الأرض لا يفتح لحياة واحدة ولا يغلق بانتهائها وحدها . . حتى « عزرائيل » الذى يشكو من كثرة العمل ، سيأتى يوم يرتاح فيه إلى الأبد . . . عند ما تقوم القيامة ويلغى الموت . . فلا يجد غير الأرائك يتكىء عليها ويتثاءب ويحسده الآخرون كما كان يحسدهم . . .

— عزرائيل ! . وما دخل عزرائيل هنا ؟ ! . .

قالها المعاون دهشاً . . وهو يفحصنى بعينيه الضعيفتين . . فتنبهت وقلت له على الفور :

ـ عفواً . . هذا موضوع آخر . . بيني وبينه ! . . المهم أن على الإنسان و . . « غير الإنسان » أن يتحمل حظه بشجاعة وأن يرتدى « الدور » الذى ألقى عليه بصبر وجلد . . وأن ينتظر ثابتاً آملا دورة العجلة الكبرى للقدر . . تلك العجلة التى لا تكف عن الدوران ، فتضع الأسفل فى الأعلى والأعلى فى الأسفل . وهكذا دواليك .

كان لى صديق ، يا حضرة المعاون ، كلما أصابه سوء ، وأردنا أن نهون عليه، صاح فينا صابراً : « ماعلهش »! . . هو الفلك تسمر ؟ ! . . » .

فأطرق المعاون ، وطفق يردد هامساً هذه الجملة مقتنعاً مؤمناً . . . وكأنما دخل قلبه الأمل والعزاء . . ولكنى استأنفت قائلا له :

ـ هذا موقفنا نحو الله . . . معشر البشر . . ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون لنا موقف آخر نحو أنفسنا . . إن الله لن يزيل القبح ولا المرض ولا الظلم ولا الليل . . لأن وجود الأضداد من النواميس اللازمة للخليقة . . ولكن على البشر أن يدرأوا ما استطاعوا ، عن أنفسهم الضرر . . وعليهم أن يسعوا

فى سبيل الصحة والجمال. وأن يكافحوا من أجل العدالة والنور .

— وكيف نكافح ضد ما خلقه الله ؟ ؛ .

— إن الله قد وضع فى كل شىء بذور ضده . . فإذا فتحت مغاليق المرض وجدت فيه بذرة الصحة ، وفى القبح بذرة الحسن ، وفى الظلم بذرة العدل . . وفى الليل بذرة الفجر ! .

إن الكون أدق مما تتصور صنعاً . . والله أبرع مما تتصور صانعاً . ولم يترك شيئاً للفوضى : . . .

— وما عمل البشر إذن ؟ . .

— فلح الأرض . . واستخراج البذور ، واستنباتها . . . زرعاً نضراً وثمراً شهياً . .

الطاجن وصل ! . .

كانت المشكلة التى تشغلنا أكثر مما يشغلنا عملنا هى مسألة الطعام ، وهل فى ذلك عجب ؟ . . إن الطعام هو مشكلة الأمس واليوم والغد . . وهو الذى تقوم من أجله الحروب ! وتعقد من أجله المؤتمرات . . . على أن مشكلتنا كانت أعوص من أى مسألة طرحت على موائد البحث . . لأنها لم تكن متعلقة بالطعام ذاته . . بل بطهى الطعام .

ولقد طرحنا وجوهها على موائد الأكل ، حتى انتهى بنا الأمر إلى قبول الواقع بغير بحث . . .

كنا ثلاثة — منذ عهد بعيد طبعاً — نقطن مسكناً فى مدينة دمنهور : قاضى البندر ووكيل نيابتها وهو أنا ولا فخر ، ثم قاضى إيتياى البارود . . وكانت النفقة بيننا بالثلث فى كل شىء . . وكان زميلاى متزوجين ، ولهما بيتاهما فى القاهرة . . . ولكن ضرورة العمل ونظام الجلسات . اللذين يقتضيان بعدهما عن بيتيهما فى العاصمة أربعة أيام فى الأسبوع ، فرضا عليهما

هذه التكاليف الإضافية . . فكان من مصلحتهما الاقتصاد غاية الاقتصاد . . . وأدى بهما خوفهما من ترك الحبل على الغارب أن قررا وضع نظام لشئون مسكننا يماثل نظام الجلسة القضائية فى محاكم الاستئناف ، أى أن يكون الحكم للأغلبية . . فأنا مثلا لا أستطيع أن أنفرد باختراع لون من ألوان الطعام إلا أن يؤيدنى واحد منهما . . وهكذا الحال مع الجميع . . وكان لنا خادم يقوم على خدمتنا ولكنه لا يفقه شيئاً فى طهى الطعام .. وكان ضئيل المرتب ، فحكمت الأغلبية ببقائه مع عدم الاعتراض على ما يقدمه ويسميه مأكولا . . حتى جاء الفرج ذات يوم فى صورة اقتراح تقدم به « حاجب الجلسة » الذى رثى لحالنا . . . فقال أعزه الله :

– إذا شئتم يا أصحاب السعادة فإن امرأتى تعد لكم الطعام فى دارنا كل يوم واحمله إليكم ساعة الغداء ؟ . .

فوافقت الأغلبية على شرط أن يكون الطعام مما يطهى فى الفرن لنضمن البساطة والنظافة . . .

منذ ذلك اليوم ونحن لا نأكل إلا فى « طاجن » من فخار أحمر . . . قد أسود من القدم والدخان « وهباب» الفرن . . تلقى

لنا فيه امرأة الحاجب قدراً من البطاطس وقدراً من اللحم . . . يتناقص مع الأيام . . دون أن تنقص النقود . . . فلا يكاد يكفي بطوننا . وفيها بطن قاضي إيتياى وهو رجل عربي الأصل سليل قبيلة من قبائل البدو، يضرب بلقمته قاع الطاجن ، فإذا أضخم اللحم وأطيبه قد وقع له . . . ولا يقوم من المائدة حتى يمسح قعر الوعاء بآخر كسرة ونحن نصيح فيه :

ـــ اترك شيئاً لغداء الخادم ! .

ـــ غذاؤه على الله . . إن الله لا يترك مظلوماً ! . .

يقولها وهو ينهض عن الخوان يجرع من « القلة » ويتجشأ ... وصرنا منذ ذلك الحين لا نسمي خادمنا باسمه . . بل أطلقنا عليه اسم « المظلوم » . . وجعلنا لا نناديه إلا بقولنا : « هات يا مظلوم كوب ماء » . . « امسح يا مظلوم الحذاء ! . . » وهلم جرا . .

وكان يسمعنا أحياناً بعض الزوار من الأصدقاء ، ونحن ننادي خادمنا بهذا الوصف . . . فيتساءلون دهشين :

ـــ أيوجد مظلوم بينكم ؟ ؛ وأنتم كلكم رمز العدالة ؟ !

فيقول قاضي ايتياى البارود ببديهته الحاضرة :

ـــ حيث توجد العدالة يوجد الظلم ؛ . . .

وكان قاضي إيتياي يمضي إلى جلسته بقطار الصباح الباكر ويعود بقطار الساعة الواحدة ظهراً . . . وهو يحرص على إنهاء جلسته في هذا الميعاد ليلحق بهذا القطار . . . لأنه إذا فاته فلن يجد أمامه غير قطار يصل إلى دمنهور في منتصف الثالثة ، والمجيء به ، لا قدر الله ، معناه المجيء بعد موعد الغداء وفراغ الطاجن وإنصاف « المظلوم » ! ! .

وكنا نحن من جانبنا : أنا وقاضي البندر . . وعملنا متحد في جلسات الجنح . . والجلسة تتشكل منه ومني . . نحرص على إنهاء الجلسة قبيل موعد حضور القطار القادم من إيتياي البارود ، فقد تشاء أحياناً المصادفة السيئة أن يتم إنضاج الطاجن في الساعة الواحدة . . وأن يسبقنا إليه قاضي إيتياي . . فإذا حدث هذا والعياذ بالله ، فنحن أمام كارثة لا نستطيع لها دفعاً ولا رداً . .

أخذتنا ذات مرة حماسة العمل وكثرة القضايا المعروضة على المحكمة . . فنسينا الوقت ونسينا أنفسنا ، وإذا حاجب الجلسة ينظر في ساعته ويقبل مسرعاً يهمس بقرب المنصة :

– الطاجن وصل البيت من بدري . وقطر إيتياي البارود

وصل المحطة من زمان ! . .

— راح الغداء وعلينا العفاء ؛

لفظها القاضى يائساً ثم نظر إلىّ قائلا بصوت مرتفع :

— ما رأى النيابة ؟

— النيابة فوضت الرأى للمحكمة . . .

— ترفع الجلسة للاستراحة . . على أن تعقد فى الساعة الخامسة بعد الظهر ! . .

ونهض من كرسيه يخلع وسامه الأحمر . . وأنا فى أثره أخلع وسامى الأحمر الأخضر . . ووثبنا إلى قاعة المداولة نطرح فيها ملفاتنا . . . وخرجنا إلى عرض الطريق راكضين ونحن نقول :

— يا نلحق الطاجن . . يا منلحقهوش ! . .

* * *

لبثنا على هذا الحال زمناً . . . لا طعام لنا إلا طاجن البطاطس فى الفرن . . حتى عاد قاضى البندر من القاهرة ذات يوم يقول لنا . . وكأنه ينبهنا من غفلة :

— يا لعجب أمرنا . ! حتى مجرد الذوق كدنا نفقده ! . .

ذكرت لزوجتى عرضاً مسألة الطاجن . . فدهشت وقالت :

« ألا توجد عندكم صينية ؟ . هل يوجد ألذ من صينية البطاطس فى الفرن ! . . دعكم من هذا الطاجن وجربوا الصينية يا ناس ؟»

فصحنا بزميلنا الطموح :

ــ ومن أين لنا الصينية ؟ .

ــ نشتريها .

ــ أنا لا أدفع أكثر من عشرة قروش ! . .

قالها قاضى إيتياى وهو يخرج نصيبه من جيبه قطعة فضية . وأخذنا الأصوات . . . فأقرت الأغلبية الموافقة على شراء الصينية على شرط أن لا يتجاوز ثمنها ثلاثين قرشاً . . وبادرنا فأفضينا برغبتنا إلى حاجب الجلسة . . . فهرش رأسه ثم قال . .

ــ صينية نحاس بـ « ثلاثين قرش » ؟ ! . .

مستحيل ! . . أقل من خمسين أو ستين « قرش » . .

ــ هذا جنون ! . ستين « قرش » ! لا . . لا داعى أبداً فلنبق على الطاجن إلى آخر الدهر ! . قلناها جميعاً بصوت واحد ، وأقفل باب المناقشة فى هذا الشأن . . وانتقلنا إلى جدول الأعمال . . ومضى كل منا إلى عمله . . قاضى إيتياى ركب القطار إلى محكمته . . وأنا وقاضى البندر ذهبنا إلى محكمتنا حيث

تنتظرنا أكداس المخالفات والجنح . . وظل حاجب المحكمة بباب الجلسة ينادى على القضايا . . وظلت القضايا تتوالى أمامنا ، والأحكام تترى من فم المحكمة كأنها طلقات من مدفع حتى عرضت علينا قضية رجل اتهم بأنه ضرب زوجته بعصا فأحدث بها إصابات اقتضت علاجاً أقل من عشرين يوماً . . فما كاد الرجل يمثل أمام المنصة ، حتى نهض محام يقول :

ــ حاضر مع المتهم ؛ . .

وكانت الساعة قد اقتربت من الواحدة . . فالتفت إلى القاضى ، وفى عينيه نظرة فهمت معناها . . فأنا أيضاً كان يجول فى خاطرى عين المعنى . . محام الآن ؟ . . ومرافعة بإسهاب وبيان ؟ ! . . ما من شىء بالطبع يستعجل هذا المحامى وما من خطر يهدد غداءه . . فإن الله لم يبتله بقاضى إبتياى . . . وبادرت المحكمة تسأل المتهم بسرعة :

ــ اسمك ؟ .

ــ محمد عبد المغيث شمروخ .

وأراد المحامى أن يتظرف فقال :

ــ اسمه « شمروخ » ولكن الضرب حصل بعصا رفيعة ! ..

فلم يبد على المحكمة التفات إلى ذلك المحامى « الرايق » . .
وجعل القاضى يقلب فى أوراق الملف ويبحث عن التقرير الطبى . . . وهو يتابع أسئلته بصوت آلى . .

– عمرك ؟ .

– حوالى خمس وثلاثين سنة .

– صناعتك ؟ .

– صانع صوانى نحاس ؟ .

وهنا حدث انقلاب فى هيئة المحكمة . . فقد ترك القاضى الملف ورفع رأسه ناظراً إلى المتهم باهتمام . . وكذلك فعلت النيابة . . وأقبل القاضى على المتهم يسأله بعناية :

– صوانى نحاس مما يستعمل فى الأكل ؟ .

– فى الأكل وغير الأكل . . حسب طلب الزبون . . .

– نقصد صوانى مما يطهى فيها البطاطس فى الفرن مثلا ؟ ! .

– بطاطس يا سعادة البك وفطير ومكرونة . . وكل لوازم الفرن . . .

– قل لنا الآن بالضبط . . . صينية نحاس تتسع لأقتين بطاطس وأقة لحم ؟ . .

وعندئذ تدخلت النيابة فى شخصى . .

ـ لتكن بحيث تتسع لثلاث أقات بطاطس وأقة ونصف من اللحم . . يجب أن نحسب حساب « المظلوم » ! . . .

فوافق القاضى على ملاحظتى . . وقال مؤيداً :

ـ صدقت . . يجب منذ اليوم إنصاف « المظلوم » ! . .

وأشرق لهذه الجملة وجه المتهم ، فهتف من أعماق قلبه :

ـ يحيي العدل ! . . أنت يا سعادة القاضى كلك نظر . . وعرفت أنى مظلوم ! . . فليحيي العدل ! . .

وظن المتهم أن المحكمة قد برأته . . ولم يفهم المحامى من الأمر شيئاً ! . . فالمحكمة لم تسأل المتهم بعد عن ضرب ولا لطم ، وتحرك المتهم للانصراف . . فبادره القاضى صائحاً فيه :

ـ تعال يا راجل ! . . قف مكانك . . ورد على أسئلة المحكمة ! . .

ـ محسوبك يا سعادة البك . . .

ـ لنعد أولا إلى مسألة الصينية . . وما هو الحجم . . . حجم الصينية المذكورة ؟ . .

ولم ير المحامى فى هذه المناقشة الغريبة بصيصاً يمكنه من

تتبعها ، فأخذ يقلب على عجل أوراق صورة المحضر فى ملفه . . ويهز رأسه حيرة وعجباً وعجزاً . . . وأنتهى به الأمر أن قام يقول :

ــ يا جضرة الرئيس . . الضرب كما هو مدون فى محضر البوليس ومن أقوال المجنى عليها حدث من عصا رفيعة وليس من صينية نحاس ! . .

ــ لحظة يا حضرة المحامى . . لحظة . .

قالها القاضى وهو ينظر إلى المتهم ماضياً فى سؤاله . . .

ــ أخبرنا ما هو حجم الصينية بكل دقة . .

ــ هذا شىء حسب الوزن يا سعادة البك ! . . .

ــ الصينية الصغيرة وزنها ثلاثة أرطال . . . والمتوسطة ما بين خمسة وستة .

فقلت للرجل من كرسى النيابة :

ــ أعمل حسابك على ستة أرطال ! . .

فصاح القاضى بقوله :

ــ هذا معقول ! . . . صينية ستة أرطال . .

وطفق المحامى المسكين يسمع هذا الكلام . . وهو كالمذهول

ينقل عينه وأذنه بين القاضى ووكيل النيابة والمتهم ، ويحاول أن يفهم مما يدور بينهم شيئاً فلا يستطيع فيعود إلى ملفاته يقلب صفحاتها بسرعة . . وهو يقول كالمخاطب نفسه :

أنا قرأت القضية ، لو لم أقرأ القضية . .

ولم يطق صبراً فجعل يهمهم فى مجلسه ويزفر ويهدر :

— لو كانت المحكمة تدلنى أين ورد ذكر الصينية فى الأوراق ، لا فى محضر التحقيق ولا فى التقرير الطبى ولا على لسان الشهود . . ما من إشارة عابرة إلى صينية ؟ سأجن يا ناس وأفقد عقلى ! . .

ومع ذلك فكان عليه أن ينتظر مرغماً حتى تنتهى المحكمة من استجواب موكله . . . ففرك جبهته بكفه ، وركز انتباهه طلباً للفهم . . والمحكمة ماضية فى سؤالها . .

— وما سعر الرطل النحاس ؟ . .

— سعر السوق اليوم حوالى خمسة قروش .

— أى أن الصينية المتوسطة الحجم ثمنها نحو ثلاثين قرشاً . .

— تقريباً . . .

وكان حاجب الجلسة قد أرهف أذنيه عندما وصل الحديث

إلى السعر . . . فما كاد يسمع أن الصينية ثمنها ثلاثون قرشاً حتى هاج وماج . . . وزمجر وصاح من مكانه :

– تصدق المجرم ده يا سعادة البك ؟ ؟ .

فالتفت المحامى ، وقد أخذته البغتة والدهشة من كل مكان.. فها هوذا حاجب الجلسة أيضاً قد دخل فى الموضوع . . . وقد فهم المضمون . . القاضى والنيابة والمتهم والحاجب . . . كلهم يتحاورون فى أمر هو وحده الذى لا يدرك كنهه . . . هو المحامى الذى قرأ القضية وأعد مرافعته البليغة فيها . . . وهيأ لها جوها . . . حتى النكتة الرائقة ، والإشارة البارعة . . ودرس كل ظروفها . . واحتاط لكل مفاجآتها . ها هى ذى مفاجأة ما كان ينتظرها . . وما كانت لتخطر له على بال . . كنت أبصر على وجهه فى تلك اللحظة هيئة لن أنساها . . لقد كان مضحكاً فى حيرته إلى حد لا يتصوره . . ولو رآه لضحك هو منه حتى آخر حياته . . . ولكن هذه اللحظة لم تدم طويلا . . فسرعان ما انتهينا من مسألة الصينية وعدنا إلى موضوع القضية الأصلية . . . واستطاع القاضى أن يحول دفة المناقشة بلباقة حتى دخل بها جوهر التهمة . . كما يدخل الربان الماهر بالسفينة

ميناء الأمان ، بعد أن عبثت بها تيارات المحيط . . وعاد إلى المحامى اطمئنانه عند ما بدأت القضية تسير فى مجراها الطبيعى . . فترافع ودافع كما اشتهى ، ونسى لحسن الحظ مطلع المناقشة الذى حيره . . ولم يسائل بعدئذ نفسه فيه . . . ولم يكشف له سره بالطبع حتى اليوم . . .

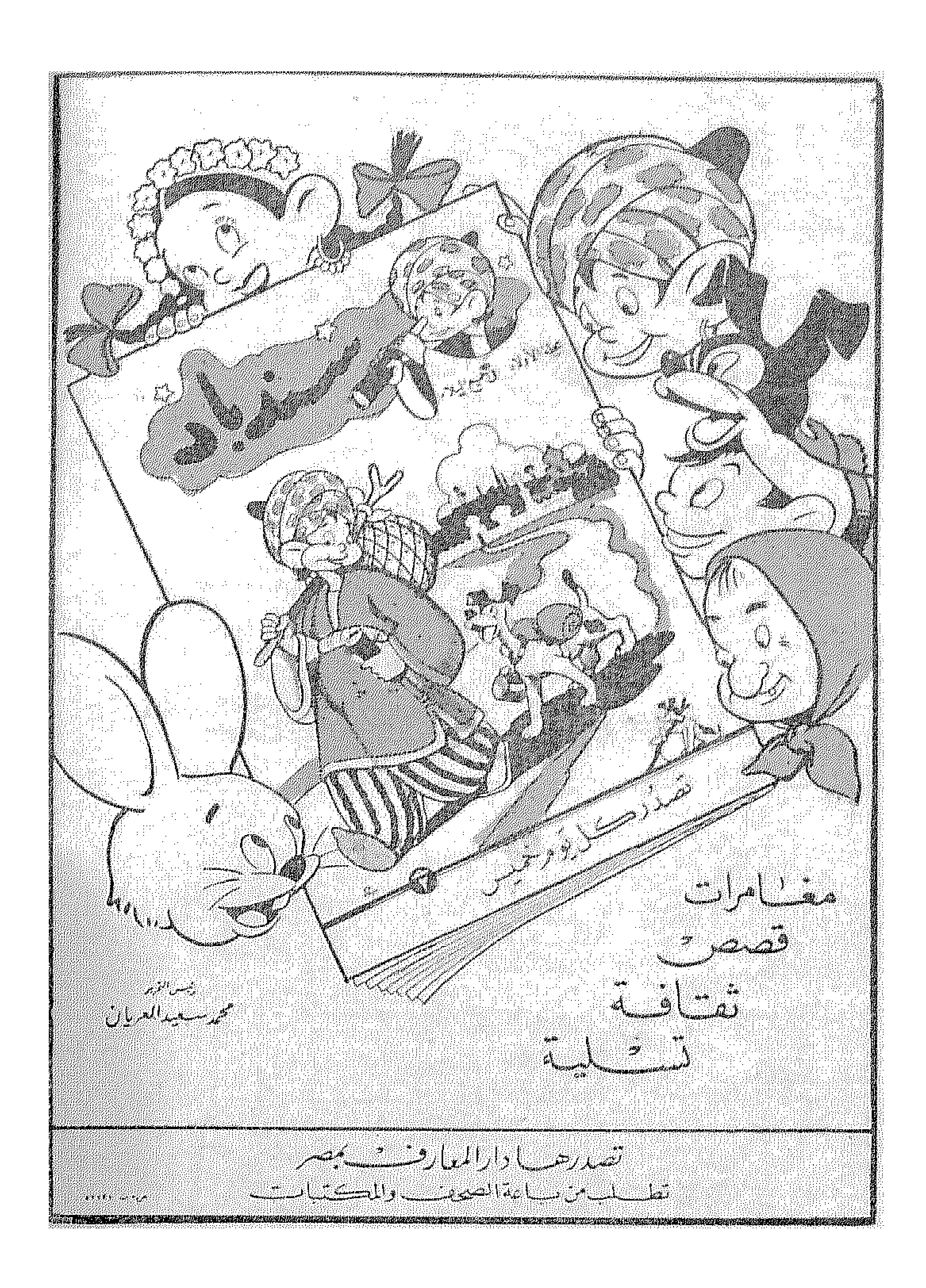
* * *

هكذا عشنا فترة من الزمن . .

نكد ونعبث ، ونعمل ونلعب ، ونخلط الجد بالهزل ، ونمزج الوقار بالضحك . . ونغلف تبعاتنا بثوب من المرح ، ويصبغ لنا الشباب كل شىء بلون الخمر . . وكانت لكلمة « الغد » فى صدورنا خفقة ، كخفقة الورد وهو يتلقى قطرة الندى فى كل فجر . . وكان لكل شىء فى أفواهنا طعم . . . ولو كنا نعرف أن لذة « الطاجن » القذر قد ذهبت معه ، ولن نجدها بعد ذلك فى أفخم الموائد ولا فى أفخر الولائم . . وأن حلاوة المناقشة فى عشرة قروش لن تشترى فيما بعد بآلاف الجنيهات . . لكنا قدرنا قيمة ما نملك ، وعلمنا أن السعادة كانت هابطة فى مسكننا دون أن ندرك . .

هكذا عشنا تلك الفترة إلى أن فرقت بيننا الأيام و بعثرتنا الأقدار . . فانتقل قاضى إيتياى إلى جوار ربه ووصل قاضى دمنهور إلى أرقى المناصب القضائية . . وانتحيت أنا جانباً أدون من حين إلى حين صفحة من هذه الذكريات . .

فهرس



تصدر كل يوم خميس
مغامرات
قصص
ثقافة
تسلية
رئيس التحرير
محمد سعيد العريان
تصدرها دار المعارف بمصر
تطلب من باعة الصحف والمكتبات

اقرأ

أحمد الصاوى محمد

شلى

شلی

أحمد الصاوى محمد

شلى

اقرأ ١٢٨
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٨ - أول يوليه ١٩٥٣



— ١ —

كان « الدكتور كيت » ناظر كلية « أيتون » الجديد رجلا قصير القامة ، شديد المراس ، يرى أن التأديب « بالفلقة » درس جميل .. وقد جلد أغلب وزراء البلاد ، وأساقفتها ، وقوادها !

كانت الثورة الفرنسية قد برهنت على أخطار الاندفاع فى الحريات أو الانزلاق فى الاستهتار إذا ما أصابت هذه الآفات الطبقات الحاكمة . ورأت انجلترا ، المحافظة ، أنها بمحاربتها نابليون إنما تحارب الإباحة وتخمدها فى مهدها . فأصرت على أن تخرج لها مدارسها العامة جيلا عاقلا مصانعاً ، فاتخذت حيطتها لكبح جماح كل نزعة جمهورية محتملة فى شباب أيتون الأرستقراطيين

وكانت العلوم فى أيتون غير إلزامية ، ولذلك أهملت . وكان الرقص إجبارياً ! . . . أما من الناحية الدينية فكان الدكتور كيت يرى الشك جريمة ، ومن العبث النقاش فيه

وكانت تسود علاقات الطلاب بعضهم ببعض عادات تكاد تكون وحشية . فإن الصغار منهم كانوا للكبار عبيداً ! . . وكان كل « عبد » يرتب سرير « سيده » ، ويحمل له من

« الطلمبة » ما يلزمه من الماء كل صباح ، وينظف ملابسه ، ويمسح حذاءه ! . . وكان كل عصيان يعاقب صاحبه بلون من التعذيب يناسبه !

وكان للملاكمة الصدر الأول ، لمكانتها من الدفاع عن النفس . حدث يوماً أن خلف شوط عنيف منها صبياً صريعاً ملقى على الأرض ميتاً . فجاء الدكتور كيت فشاهد الجثة وقال : « هذا يؤسف له ، ولكنى حريص قبل كل شيء على أن يكيل تلميذ « أيتون » لمن يهاجمه الصاع صاعين » ! . .

غير أن بعض النفوس الحساسة ، وقليلا ما كانت ، اشتد عذابها ، وطال ألمها . . ومن هذه النفوس كانت نفس الفتى « پرسى شللى » نجل أحد كبار الملاك الأغنياء فى مقاطعة سوسكس ، وحفيد البارون السير بسيش شللى . فقد أظهر قلقاً لم يؤلف فيمن كان من طبقته ، وأبدى نزعة لا تصدق فى تطبيق « قواعد اللعب »

وكان هذا الفتى جميلا ، أزرق العينين ، أشقر الشعر ثائره ، ناعم البشرة كالطفل . . .

عندما جاء إلى المدرسة لأول مرة رأى فيه قباطنة السنة السادسة : جسماً نحيلا ، ووجهاً ملائكياً ، وهيئة أقرب ما تكون إلى الفتيات . فتصوروه حيياً ، لا يحتاج إلى أن يفرضوا

عليه إرادتهم قسراً . . بيد أنهم لم يلبثوا أن اكتشفوا فيه مقاومة جامحة وإرادة لا ترضخ . . وكانت عيناه النجلاوان ، الحالمتان في ساعات الصفاء ، تبرقان تحت تأثير الحماسة أو السخط ببريق وحشي . ويصبح صوته ، الرزين الرخيم عادة ، جهورياً متحشرجاً . . كان متمرداً يصدمهم ويصدهم عنه كل شيء فيه : حبه للكتب ، واحتقاره للعب ، وشعره المرسل في الهواء ، وقميصه المفتوح على نحره الأنثوي !

حكم شللي ، من أول يوم له في أيتون ، بأن الطغيان الذي يفرض هذه « العبودية » على الصغار مخالف للكرامة الإنسانية ، فرفض بخشونة أن يخدم « سيداً » ، أو يطيع أحداً ، وصار خارجاً على ذلك القانون !.. فسموه « شللي المجنون » ، وتضافروا على اضطهاده ، وملاحقته في كل مكان ، يحاصرونه كما يحاصر الصيادون الأيل الوحشي ، فيقف وظهره إلى جدار ، ويصرخ صراخاً متواصلا يصم الآذان ، وهم يرجمونه بكرات مبللة بالوحل ، ويصيح صائحهم : « شللي » . . فيرد عليه صوت آخر صادعاً :

« شللي . . شللي . . » ! . . وتتجاوب بالصدى الجدران !

ويتزاحم عليه « السادة » و« العبيد » ، هذا يجذب ملابسه ، وذلك يقرصه ، وثالث يخطف الكتاب الذي يضمه إلى إبطه ويلقيه في الوحل . وتتجه الأصابع كلها مشيرة إليه ، ويتجدد

الصياح ، وتبلغ به الأزمة مداها ، فتنفجر منه سورة حنق جنونى : تلمع عيناه ، وتشحب وجنتاه ، وينتفض بدنه كله ، ويهتز اهتزازاً . فإذا انصرفوا عنه عاد إلى كتبه يمسح عنها الطين ، وراح بين العشب والماء يطالع أحد كتبه الحبيبة : مؤلفات : ديدروه ، وفولتير ، والفيلسوف المادى الملحد دولباك . . فقد كان معجباً بهؤلاء الفرنسيين الذين يعقهم أساتذته ، وكانت آراؤهم ملخصة بين يديه فى مجلد جودوين Godwin : « العدل السياسى »، وهو كتابه المختار ، الذى يبسط له الأمور ويبسّطها . ولو أن كل الناس فى رأيه قرأوه لعاشت الدنيا فى هناء . . لو أنهم أصغوا إلى صوت العقل ، صوت جودوين ، لكان عمل ساعتين فى اليوم يكفى لغذائهم ، ولحلّ الحب الحر محل عقود الزواج الحمقاء . .

طوى شللى يوماً كتابه وأخذ يفكر فى شقاء البشر . وكانت مبانى الكلية الدانية ، من طراز القرون الوسطى ، يتصاعد منها لغط أصوات الغباء ، نحو هذه البرية الفيحاء ، المزدهرة بالغابات والغدران . ولم يكن حوله ، فى هذا الخلاء الهادئ ، وجوه ناضرة ضاحكة مستبشرة . . فانهمرت من عينى الصبى الدموع . وضم يديه وقال بصوت مرتفع : « أقسم أن أكون عاقلا ، وعادلا ، وحراً ، ما استطعت إلى ذلك كله سبيلا . .

أقسم ألا أتواطأ أبداً ، ولا بمجرد الصمت ، مع أهل الأنانية والجبروت . . أقسم أن أكرس حياتى لعبادة الجمال . . . »

— ٢ —

فى خلال العطلة المدرسية يصبح هذا الجامح الآبق ولياً للعهد . وكان أبوه المستر تيموثى شللى يملك قصر « فيلد بلاس » فى سوسكس ، وهو دار بيضاء ، متينة البناء ، تحيط بها حديقة وغابات شاسعة . .

هناك وجد شللى أخواته الأربع ، وكلهن فاتنة ، وأخاً صغيراً عمره ثلاث سنوات ، علمه كيف يصيح : « الشيطان » ، نكاية بالأتقياء ! . ووجد بنت عمه « هارييت » الحسناء ، التى كانت تشبهه . . .

أما جده ، السير بسيس شللى ، فكان يسكن القرية . وهو « چنتلمان » من المدرسة الإنجليزية القديمة ، يباهى بالغنى ، وكان قد أنفق ثمانين ألفاً من الجنيهات على تشييد قصر فخم ، لكنه لم يسكنه لما تتكلفه سكناه من حاشية ! . . وعاش فى كوخ مع خادم واحد ، يلبس كفلاح ، ويقضى يومه فى حان القرية متحدثاً فى السياسة مع المسافرين . وشقيت بالعيش معه كريمتاه فهربتا ، وكان ذلك عنده مبرراً لحرمانهما من « الدوطة » ! . .

وكانت هوايته الوحيدة أن يزيد فى ضخامة ثروته التى كانت مع ذلك هائلة ، وأن ينقلها إلى آل شللى يتوارثونها خلفاً عن سلف . فوقف الجانب الأكبر منها على حفيده « برسى » ، وحرم بقية إخوته وأخواته حرماناً تاماً . .

وكان تيموثى شللى ، عضو البرلمان ، مثل والده ، طويل القامة ، قوى العضل ، أشقر الشعر ، جميلا ، وجيهاً . قلبه خير من قلب السير بسيش ، ولكن دونه مضاء عزيمة . يتمسك باحترام الدين ، ولكنه يتظاهر بحرية الرأى السياسى والدينى . .

أما زوجته، مسز شللى، أجمل فتاة فى إقليم « سوسكس » ، فكانت تحب من الرجل أن يكون فارساً مناضلا ، ولذلك نظرت بعين السخرية إلى ولدها الكبير برسى وهو يقصد الغاب حاملا تحت إبطه بدل البندقية كتاباً ! . .

بيد أن شللى كان فى أعين أخواته رجلا أعلى (سوبرمان) ، فلا يكاد يصل من أيتون حتى يزدحم البيت بالضيوف الغريبى الشكل ، وتغص الحديقة بالأشباح ، ويتصاعد من جوانبها الهمس

وكان شللى يختار لصحبته ، من بين أخواته الصغيرات العزيزات ، أقربهن إليه سناً وفكراً : « إليزابيث » . . فهى وبنت عمه الفاتنة « هارييت جروف » كانتا أعز مريداته

كان هؤلاء الأحداث الثلاثة يربطهم الشغف بالبحث عن

الحقيقة . وكان شللى يسوق تلميذتيه الجميلتين نحو المقبرة ، حيث يرى لأرواح الموتى الهائمة حولهم تأثيراً شعرياً ! . . ويعلق بفصاحة على ما يتراءى له من شؤون الأرض والسماء ! . . فمن جانب الرذيلة : الحكام الطغاة ، والقساوسة المراءون ، والأغنياء الشرهون . . ومن جانب الفضيلة : الفلاسفة الحكماء ، والمساكين ، والأشقياء . . وقاموسه فى هذا كتاب جودوين : « العدل السياسى »

غير أنه كثيراً ما كان يتحدث إلى فتاتيه فى الحب :

ـ إن شرائع البشر تزعم فرض سننها على عواطفنا الطبيعية ! فيا للسخف ! فعند ما تلحظ العيون مخلوقاً جذاباً مشتعل الفؤاد ، كيف يكون فى مقدوره أن يتجنب الحب ؟ ! . . إن الحب يذبل فى جو الضغط والإكراه . وجوهره هو الحرية . وهو لا يتفق مع الطاعة ، أو الغيرة ، أو الخوف . فلا مندوحة له عن الثقة ، والاستسلام التام . وليس الزواج إلا سجناً . . .

والتشكك فى الزواج دعابة لا تتذوقها العذارى ، وقلما تطيب لهن . وعلى ذلك ترد هارييت :

ـ القيود ؟ . . إنها بلا شك قيود . . ولكن ما الضرر منها إذا كانت خفيفة . . لذيذة ؟

ـ إذا كانت خفيفة فلا معنى لها . . أتوضع القيود والأصفاد

فى يدى سجين متطوع ؟ . .

— ولكن الدين ؟ . .

— ما ذنب خلائق خلقها الله ضعيفة ، ثم يعاقبها ؟ كيف ينتقم من العاثرين المساكين الذين يتركهم يتخبطون فى ضعفهم؟!

قصة يؤلفها هؤلاء الثلاثة . . إليزابيث تؤيد أخاها . . وهاربيت تعارض ، ولكن أنى لها أن تقاوم « نصف الإله » هذا ، ذا العينين البراقتين ، والقميص المفتوح على نحر شفاف ، والشعر المتطاير فى الهواء وكأنه خيوط حريرية ذهبية ؟!

ويرخى الليل سدوله . . فتغادر الأخت المتواطئة الحبيبين الصادقين منفردين فى الظلام . . .

وفى طريق عودتهما معاً إلى المنزل ، فى كآبة الخلاء ساعة المساء ، يتذكر شللى أنه عائد قريباً إلى أروقة أيتون المظلمة ، فيكتئب ، ويحزن . . ولكنه لا يلبث أن يحس تحت يده بجسد بنت عمه الدافىء يخفق ويرتجف ، فيشعر بنفسه ممتلئاً شجاعة ، يواجه بها كالأبطال حياة كفاح ونضال ، يؤدى فيها رسالة

— ٣ —

فى أكتوبر ١٨١٠ أخذ المستر تيموثى شللى ولده إلى جامعة أكسفورد وهو مبتهج بهذه الرحلة التى تذكره بشبابه ، وقصد إلى

مكتبة « سلاتر » وفتح فيها للطالب الجديد اعتماداً غير محدود لشراء ما يلزمه من كتب وورق . . « إن ولدى هذا ، يا مستر سلاتر ، من أهل الأدب . وقد سبق له أن وضع قصة . فإذا أراد حتى النشر ، فدعه يرضى هوايته . . . »

واغتبط شللى بالحياة الجامعية : أن تكون له حجرة خاصة به ، وأن يكون حراً فى حضور الدروس واختيار ما يروقه من الدراسات ، وأن يقرأ ويكتب ما يشاء ، أو يذهب ليتنزه كما يطيب له . . حياة الرهبنة والزهد تمتزج بحرية فكر الفيلسوف

وفى المساء ، عند العشاء ، جلس إلى جانبه طالب جديد مثله ، قدّم إليه نفسه باسم « جفرسون هُجْ Hogg » ، ثم تحدثا عن مطالعاتهما . . فقال شللى :

ـــ إن أفضل أدب شعرىّ فى وقتنا هذا هو الأدب الألمانى

فاعترض هج ، مبتسما ، بأن الألمان ينقصهم الطبع . . فهم مسرفون فى الخيال . . ولذلك فهو يؤثر الأدب الإيطالى . .

فاندفع شللى محتداً فى نقاش . . .

ودعا هج صاحبه إلى غرفته لإتمام المناقشة ، فقبل شللى الدعوة متحمساً ، ولكنه أضاع فى السلم حبل أفكاره ! . .

وبينا كان هج يشعل الشموع قال شللى بهدوء إنه لا يفهم سبباً فى استمرار هذا الحوار ، ما دام يجهل الأدبين الإيطالى والألمانى

على السواء !.. وخلصا من الأدب إلى الكيمياء ، وبدأ شالى خطاباً فى مستحدث مكتشفات الطبيعة والكيمياء . .

وغدا الشابان لا يفترقان . فكانا يتنزهان كل صباح على الأقدام ، وشللى يعبث ويلعب كالطفل : يتسلق الربى ، ويقفز الحفر . . فإذا ما وجدا جدول ماء أو غديراً أجرى شللى فيه مراكب من ورق ، وتبعها حتّى تجنح وتغرق . . ويظل هج ينتظره واقفاً ضائقاً صدره . . وبعد النزهة يصعدان إلى غرفة شللى وقد أضناه ما بذله من الجهد ، فيتراخى ، ويستلقى على السجادة أمام المصطلى ، منطوياً على نفسه كالقط ، وينام هكذا ، من الساعة السادسة إلى العاشرة . ثم ينهض فجأة ، ويدعك عينيه بعنف شديد ، ويتخلل بأصابعه شعره الطويل ، ويبدأ من فوره يجادل فى موضوع من موضوعات « ما وراء الطبيعة » ، أو يروى شعراً . أو يتحدث إلى هج عن بنت عمه هارييت ، التى يكتب إليها رسائل طويلة تمتزج فيها نزعات الحب بفلسفة الإلحاد . أو يصف لصاحبه أخته إليزابيث العدوة اللدود للأحكام المبتسرة والتقاليد العتيقة ، أو يقرأ بصوت مرتفع خطاب أبيه الأخير ، ضاحكا مقهقهاً . ثم يتناول أحد كتبه الأثيرة من مؤلفات الفلاسفة : لوك ، أو هيوم ، أو فولتير ، ويعلق عليه بحرارة

— ٤ —

قبل عيد الميلاد بأيام تلقى المستر تيموثى شللى فى بريده خطاباً من ناشر كتب فى لندن ، يدعى مستر ستوكديل ، يصف له فيه الإنتاج الخارق للعادة الذى يريد الشاب برسى شللى أن يطبعه . وقال الناشر إن من بين المخطوطات العديدة قصة St. Irvyne ، وهى ملأى بأشد الأفكار الهدامة . . وإنه قلق لأنه يسلك طريقاً ملتوية خطرة . ويرى من واجبه أن ينذر رب العائلة ، وأن يلفت نظره بخاصة إلى « جفرسون هج » رفيق السوء الذى يلازم مستر شللى الشاب

فكتب المستر تيموثى إلى الناشر ينذره بأنه لن يدفع له بنساً واحداً من تكاليف الطبع

وفى عطلة عيد الميلاد كان لقاء شللى بأبيه مؤلماً ، وحاول شللى أن « ينير » والده فى شؤون الدين ، وراح يبرر « عدم الاعتقاد » . . ولكن أباه فرض عليه الصمت بتلك الحجة الأبدية : « إنى أؤمن لأننى أؤمن »

وحذرت أمه بناتها من مخالطة شقيقهن ، لئلا يفسد عليهن إيمانهن . وساد البيت حزن شديد لهذا الحادث ، بعد ما كان يفيض عادة فى مثل هذه الإجازة بالبهجة !

وظلت إليزابيث وحدها مخلصة سراً لشللى ، حتى بنت عمها « هاريت » لم تعد تشاركها إعجابها بأخيها ، فإن الرسائل التى تلقتها من أكسفورد ضايقتها وأقلقتها . وبرمت بما اقتبسه شللى من كتاب جودوين فى الإلحاد ، فلم تزدد إلا نفوراً

وقلما يتذوق النساء الجميلات الأفكار المتطرفة ! . إن الجمال ، وهو الشكل الطبيعى للنظام ، هو فى جوهره محافظ . وهو يدعم الدين المقرر . وإذا كفرت المرأة بالله فكأنها أشد كفراً بالبيت والحياة والحب ، وكأنها تنكر مملكتها وتنفض يدها من وظيفتها وسلطانها

وقد أظهرت هاريت أهلها على رسائل ابن عمها المتشككة ، فوجدوها مبادىء مرذولة ، وحكموا بما ينتظر الفتى شللى من مستقبل مظلم . فهل كان يسعها أن تتزوج من مهوس ينفر من هوسه الناس جميعاً ؟ . . إنها تحب الظهور ، وتحب الأناقة والحفلات الراقصة . فكيف تكون حياتها مع هذا المخلوق الشاذ ، حتى الزواج ليس له عنده حرمة ولا ميزان ! فما بال حرمة الدين ؟

وقبل وصول برسى وقعت بين الفتاتين مشاحنات عنيفة ، دافعت فيها إليزابيث عن أخيها :

— كيف تضعين ، يا هاريت ، ترضية الكرامة المزعومة فى كفة ، وهناء العيش مدى الحياة مع خير الرجال فى أخرى ؟

— إنك تجعلين من أخيك مخلوقاً فائقاً ، ولكن ما يدرينى

أنه كذلك حقاً ؟ ولنسلم جدلا بأنه عبقرى ، فأى حق لى إذن فى أن أبدأ معه حياة تنتهى بخيبة الأمل عند ما يكتشف مبلغ قصورى عنه ، وبعدى عن المخلوقة العليا التى كوّنها فى مخيلته عنى ؟ ! إننى لست إلا فتاة عادية متواضعة ، أشبه ما أكون بسواى من الفتيات . . لسوف يدهش ويقنط عند ما لا يجد فىّ المثل الأعلى الذى رسمه لى . .

ولما جاء شللى بسطت له إليزابيث الموقف ، فهرول إلى هارييت ، فوجدها ، كما وصفتها أخته ، جافية نائية . لم تسأله تبريراً لموقفه . وإنما سألته أن يتركها لحالها !

قال شللى :

ـ أفلا أستطيع البوح بما أعتقد . . ولمَ تنزل بى آرائى الدينية عن مكانتى عندك أخا ، أو صديقاً ، أو حبيباً ؟

ـ لك أن تظن ما تشاء ، فلا شأن لى بظنونك . ولكن لا تسألنى أن أربط مصيرى بمصيرك ! . .

وخرج شللى مجنوناً حزناً . وعاد أدراجه فى تثاقل إلى البيت . واجتاز الغابات المثلجة الجرداء ، غير شاعر بما يهب عليه من جليد ، وقضى هزيعاً من الليل فى مقبرة البلد التى كانت مسرحاً لأحلام الحب الأولى . . ودخل الدار فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، وآوى إلى فراشه بعد ما وضع إلى جانبه طبنجة عامرة وكثيراً من

أنواع السموم . . لكنه تذكر ما يصيب شقيقته إليزابيث من الحزن عند ما ترى جثته ، فعدل عن الانتحار

وفى اليوم التالى كتب إلى هج يقسم ألا يعفو عن التعصب الذى يهدم المجتمع ، ويدعم الأحكام المبتسرة التى تقطع أعز الصلات وأحناها. ويشكو له ما أصابه منها ،وأنها لم تعد له، بل صارت تمقته لتشككه .. ويحدثه عن الحب ،وعن فكرة الانتحار !

وقضى الخمسة عشر يوماً الباقية من إجازته فى جحيم ، بين أب وأم ساخطين ، وأخوات خائفات . . ورفضت هارييت أن تجىء إلى « فيلد بلاس » وهو فيه !

وحاول شللى أن يهدىء من ألمه برؤية هناء غيره ، ففكر فى مشروع خِطبة أخته إليزابيث لصديقه هج . . فأرسل إليه أشعاراً نظمتها تلميذته هذه فى هجو التعصب ، وقدم لأخته ما تلقاه من أشعار هج ، التى وصف فيها ما أصاب شللى نفسه فى محنته ، فشبهه بشجرة البلوط الفتية ، وشبه « هارييت جروف » بالسوسة التى تنخر الشجرة بعد ما تتسلقها

وكان بوده لو تمكن من دعوة هج إلى قصر « فيلد بلاس » حتى تستطيع إليزابيث أن تراه ، وتحكم بنفسها على صفاته الباهرة . . بيد أن مستر « تيموثى » كان يذكر تحذيرات الناشر منه لأنه رفيق سوء ، فحال دون الدعوة . . .

— ٥ —

بعد نحو شهر من هذه العطلة الحزينة ، بينا كان « سلاتر وموندای » ، صاحبا مكتبة أكسفورد اللذان أوصاهما المستر تيموثى شللى بنزعات ولده الأدبية خيراً، يتحادثان ، إذ رأيا الفتى شللى يندفع إلى داخل حانوتهما ، وهو يحمل حزمة ضخمة من كتيب صغير . ورجاهما عرضها فى الواجهة البلورية ، وبيع النسخة منها بستة بنسات . وتولى بنفسه تنظيمها بحيث تلفت أنظار المارة . . ونظر صاحبا المكتبة إلى هذا الاهتمام منه بعين العطف، الذى يظهره عادة تجار المدن الجامعية للطلاب الممتلئة جيوبهم بالنقود . ولم يعرفا أية مواد مفرقعة عرضها شللى فى مكتبتهما .. كانت رسالة « ضرورة الإلحاد » ، وقد عزاها إلى اسم منتحل : « چرمياه ستكلى »

ولم تمض عشرون دقيقة على ذلك حتى مر بالمكتبة الأب « جون ووكر » المعيد بإحدى الكليات ، فوقف عند واجهتها مندهشاً : « ضرورة الإلحاد » ! . . ثم دخل المكتبة ، وصاح :

— مستر موندى ! . . مستر سلاتر ! . . ما معنى هذا ؟

— حقاً ، يا سيدى ، إنا لا ندرى شيئاً عن ذلك . . ولم نفحص هذا الكتيب

– ولكن « ضرورة الإلحاد » ! . . والكتاب يعرف من عنوانه ! . . تفضلا بإخفائه حالا ، ارفعا كل النسخ التى لديكما منه واحرقاها فى النار ! . .

ولم يكن للأب ووكر أية سلطة شرعية لإصدار مثل هذه الأوامر . بيد أن صاحبى المكتبة يعلمان أنه تكفى شكواه منهما لتحرّم الجامعة على الطلاب دخول مكتبتهما ؛ فأرسلا مستخدماً من المكتبة ليرجو المستر شللى الشاب أن يحضر لأمر يهمه :

– إننا آسفان يا مستر شللى لما حدث ، ومن مصلحتك أن ...

فأكد لصاحبى المكتبة المضطربين حقه فى التفكير وإبداء الرأى . . ثم قال :

– لقد فعلت ما هو أفضل من بسط شباكى أمام طيور أكسفورد المتوفة الريش ، العمياء . . وبعثت بنسخة من « ضرورة الإلحاد » إلى كل الأساقفة الإنجليز ، ومدير الجامعة ، وأساتذة الكليات ، مع تحيات « جرمياه ستكلى » ، بخط يدى لا يد أحد سواى ! . .

وبعد ذلك ببضعة أيام جاء ساع يبحث عن شللى فى غرفة هج ، فأبلغه تحيات العميد ، ورجاه الذهاب إليه من فوره . فذهب إلى قاعة مجلس الجامعة ، فإذا المجلس مجتمع بكامل هيئته من فريق صغير من الأساتذة المحافظين الشديدى التمسك

بالدين والتقاليد . وكانوا كلهم تقريباً يمقتونه لشعره الطائر الطويل ، وخروجه فى الزى ، وميله الوضيع للعلوم التجريبية ! . . .

أشار العميد إلى نسخة من « ضرورة الإلحاد » . . وسأله أهو المؤلف . ولما كان يتكلم بجفاء وازدراء ، فإن شللى لم يرد عليه !

ـ هل أنت مؤلف هذه النشرة ؟ . . « نعم » أم « لا » ؟

ـ إذا أمكنكم التدليل على أننى كاتبها فهاتوا برهانكم . وليس عدلا ولا شرعاً أن تسألونى بهذه الطريقة . مثل هذه التصرفات أولى بمحاكم التفتيش منها برجال أحرار فى بلاد حرة

ـ أتنكر أن هذا من وضعك ؟

ـ أرفض الإجابة

ـ إذن فأنت مطرود ، وعليك أن تغادر الكلية غداً صباحاً

وسلم إليه أحد الأعضاء قرار الطرد . . فهرع شللى إلى غرفة هج . وارتمى على الديوان وهو يرتجف من الغيظ ، ويكرر : « مطرود ! . . مطرود ! . . » ، وأسنانه تصطك ...

وكان العقاب فظيعاً ، وكان معناه : قطع دراساته ، واستحالة التحاقه بأية جامعة أخرى ، وحرمانه من الحياة الطيبة الوادعة التى يحبها ويستمتع بها ، وإنزال غضب أبيه وسخطه عليه !

فاستنكر هج هذا التصرف من أولياء الأمر . واندفع فكتب لمجلس الجامعة مذكرة يرجو فيها ألا يكون الحكم نهائياً . .

وكلف خادماً بحمل هذه الرسالة إلى المحكمة التى كانت ما تزال مجتمعة . فعاد على الأثر يبلغ هج أن العميد يدعوه إلى المجلس وهناك سأله العميد :

— هل كتبت هذه ؟ . .

وأشار إلى الخطاب . فاعترف به هج . . فسأله العميد :

— وهذه ؟ . .

وأشار إلى نشرة الإلحاد . فراح هج يدلل ببراعة المحامى على تفاهة الأمر ، وما فى الحكم على شللى من ظلم . . فقال العميد ثائراً :

— كفى ! . . فأنت مطرود أيضاً ! . .

— ٦ —

حملت عربة أكسفورد المبعدين وحقائبهما . واقترض شللى عشرين جنيهاً من صاحبي المكتبة ليعيش بها فى لندن ، ريثما يجيئه نبأ من أبيه . . ونزلا فى غرفة فى « بولاند ستريت » جدرانها مغطاة بورق مزخرف بعناقيد عنب خضراء وزرقاء بدت لهما أجمل ما فى العالم ! . .

وحدّث ، ولا حرج ، عما أصاب المستر تيموثى شللى لما علم بما حدث فى أكسفورد ، فقد كانت تهمة الزندقة شنيعة ، وكان العقاب رادعاً . فكتب إلى والد هج يشكو من هذه

المحنة التى وقعت لولديها فى أكسفورد . . ويرجوه أن يستدعى « فتاه » لساعته . ويقول : « أما أنا فسوف أوصى ابنى بقراءة كتاب پالى Paley ، فى علم اللاهوت الطبيعى ، الذى يناسب حالته ، ويشفيه من فتنته . . بل سأقرأه بنفسى معه »

ثم دبج لفتاه خطاباً قوياً قاسياً يأمره فيه أن يعود حالا إلى « فيلد بلاس » ويمتنع عن كل اتصال بالمستر هج ، وأن يضع نفسه تحت تصرف السادة الذين سيختارهم له ، وأن يطيعهم... وإلا فإنه ينبذه ويتخلى عنه للشقاء الذى يحيق عدلا بمن تسول له نفسه مثل هذه الآراء ! .. وجاء رد الولد قصيراً بالرفض التام...

كان الوالد يريد بكل قواه أن يتجنب القطيعة التى تجعل وسائل التأديب عسيرة . أما وقد رفضت «شروطه» فقد سقط فى يده !

وسافر إلى لندن ، ودعا الشابين المتمردين لمقابلته بفندق ميلر المشهور بجودة الخمر . وقال لنفسه ، فى انتظار حضورهما : « الحق أنه لا بد من معاملة الأولاد باللين والبشر ، والعقل الناضج المستنير كفيل بالفوز دون عناء على فيلسوف فى الثامنة عشرة من عمره ، وبذلك يمكن تجنب الكثير من الويلات . . وبعد ، أفايس شللى هو وارث الضيعة ، وإليه يعود اسم شللى . . فلا مندوحة عن رده إلى جادة الصواب »

وأعد الرجل الطيب حججه المستقاة من كتاب « بالى »

الديني لتسفيه الزندقة ، وفرك يديه بارتياح

وفى تلك الأثناء كان الفتيان قادمين على الأقدام من « بولاند ستريت » ، يطالعان بصوت عال ، فى الشارع ، وهما يتضاحكان : « القاموس الفلسفى » لفولتير . . وكان شللى يتلذذ بسخرية الفيلسوف الفرنسى من الشعب اليهودى وقسوة « يهوه » إله بنى إسرائيل . . .

ووجدا المستر تيموثى شللى فى انتظارهما مع « مستر جراهام » وكيله فى لندن وصديقه . وأحسن المستر تيموثى وفادة هج ، ووجه إلى ولده خطاباً طويلا حامياً غير مفهوم ، مصحوباً بالإشارات والحركات التمثيلية ، التى بدت للشابين سخيفة . فانحنى شللى على صديقه هج وسأله : « والآن ما رأيك فى أبى ؟ » . فقال له هج همساً : « هذا ليس بأبيك . . هذا هو « يهوه » إله بنى إسرائيل نفسه ! » . فانفجر شللى ضاحكاً مقهقهاً حتى استلقى . فاستغرب أبوه ، وسأله مستنكفا :

ــ ماذا أصابك يا برسى ؟ هل أنت مريض ؟ هل جننت ؟

وكان العشاء فاخراً طاب به الحديث . وفى ختامه بعث المستر تيموثى شللى بولده ليوصى بإعداد عربة السفر ، وراح يحاول التأثير فى هج ، ويتخذ منه نصيراً :

ــ إنك يا سيدى تختلف تماماً عما كنت أتوقع . . فأنت

سيد ظريف ، متواضع عاقل ، فماذا تشير عليّ نحو ولدى المسكين ؟ فهو مهوّس . . أليس كذلك ؟

ـ لو أنه كان قد تزوج بنت عمه لأصبح شخصاً آخر ، فهو بحاجة إلى شخص يعنى به . بحاجة إلى زوجة كريمة

ـ ولكن كيف ؟ هذا مستحيل ! . . لو أننى عرضت الزواج على برسى لرفض حتما . . فأنا أعرفه . . .

ـ إنه يرفض إذا ما أصدرت إليه أمراً بالزواج . ولكن إذا ربطت حباله بفتاة تعتقد أنها تكون قرينة طيبة له ، دون ذكر شىء عن الزواج ، فلعله يتعلق بها ، وإذا لم توفق الأولى فيمكن تجربة سواها ! . . .

فأطرى المستر جراهام هذه الخطة . . وأخذ الرجلان يستعرضان أسماء الفتيات . . .

وعاد شللى . فأمر أبوه بزجاجة أخرى من أعتق نبيذ إسبانى ، وبدأ يثنى على ذات نفسه ، ولما أحس بأن النبيذ قد فعل فعله فى مدعويه دخل فى الموضوع الأساسى لرحلته ، وجادل ولده فى الدين

ولم ينكر أحد من الحاضرين وجود الله . . ومع ذلك رفض شللى أن يتبع أباه ، ورفض أبوه أن يعطيه بنساً واحداً . وعلى هذا افترقوا ، وفاز هج وحده بإعجاب والد شللى ، فقد وجده إنساناً أرق من ولده ، وليس مثله كبرياء وعناداً ، وأنه يفهم الحياة .

ورأى فكرته عن زواج شللى معقولة . وكذلك رأى هج أن والد صديقه سليم الطوية ، كريم الضيافة

أما والد هج فقد نصح ولده أن يتابع ممارسة القانون ، ووجد له محلا فى مكتب محام بمدينة يورك . . فترك هج صديقه شللى فى غرفة « بولاند ستريت » ، كما لو كان ثعلباً حائراً بين عناقيد العنب الخضراء والزرقاء . . .

— ٧ —

أما وقد بقى شللى وحيداً فى لندن ، بلا صديق ، ولا عمل ، ولا مال ، فقد سقط فى مهاوى اليأس والقنوط . وكان يقضى أيامه فى غرفته ، ينظم الأشعار الحزينة ، ويكتب الرسائل إلى هج . ولا يكاد ينصرف إلى التأمل حتى تتمثل فى ذهنه صورة بنت عمه الجميلة ، اللاهية . فيتعذب ، ويحاول جهده أن يخلص قلبه من هذه الرؤى الأليمة ، مردداً « أنه لم يكن يحب جسد تلك المخلوقة ، بل روحها ، التى تغيرت فلم تعد هى ، وعلى ذلك لم يعد لها وجود . . »

غير أنه لم يجد فى هذا التدليل المنطقى عزاء . وزادت مسألة النقود تحرجاً . فلم يبد أبوه حساً ، ولا خبراً . والتقى به ذات يوم ، بطريق الصدفة ، فى شوارع لندن ، فسأله بأدب عن صحته . .

فكان كل ما تلقاه من الرد نظرة سوداء ، كالغيوم ذات الرعود!

ولكن شقيقاته كن يرسلن إليه مصروف أيديهن ، وكان ذلك كل ما يعيش عليه ، وكانت إليزابيث فى قصر فيلد بلاس تحت الحراسة ، أما شقيقتاه الصغيرتان فكانتا فى معهد داخلى اسمه « مجمع الشابات » ، ولم تلبث طالباته أن تعرفن بالعينين الساحرتين ، والقميص المفتوح ، والشعر الثائر الطائر المجنون : تلك المميزات التى خص الله بها أخا هيلين شللى !

وكان يجىء وجيوبه محشوة بالبسكويت والزبيب ، ويبدأ يتحدث فى الأبديات ، أمام حلقة من الصبايا المفتونات . . . وقد عنى خاصة بأن « ينير » أجملهن ! . . وكان أشد ما يكون إعجاباً بزميلة أختيه وأعز صديقة لهما ، « هارييت وستبروك » (هارييت أيضاً ! !) ، وكانت فى السادسة عشرة ، ذات شعر أشقر أحمر ، وذات بشرة وردية ناصعة البياض ، صغيرة القد ، نحيلة الغصن ، رائعة الحسن ، تفيض مرحاً ذكياً ، ونضارة شائقة ! . وقد زاد نفعها عند ما أصرت مسز فننج الناظرة (بناء على أوامر تلقتها من المستر تيموثى) على الحد من زيارات شللى لمجمع الشابات . وكانت هارييت تخرج كل يوم صباحاً ومساء ، ذاهبة من البيت إلى المعهد ، ومن المعهد إلى البيت . فعهد إليها بأن تحمل إليه النقود ، والفطائر ، والحلوى . .

وهكذا أصبح ناسك صومعة « بولاند ستريت » خير صديق لها

وكان والد هارييت وستبروك فيما مضى خماراً ، فأراد أن تتربى بنته تربية بنات الأشراف . ولما ماتت أمها تولت أمرها أختها الكبرى إليزا ، العذراء الناضجة

ولم يكن غريباً أن تهتم أسرة وستبروك بهذا الفتى النبيل ، الوريث لثروة طائلة ، الجميل كالآلهة ، الذى يعيش فى غرفة صغيرة على الخبز والتين المجفف ، تحمل إليه الآنسة وستبروك الصغيرة « مصروف » شقيقتيه ليحول دون موته جوعاً . . .

ورغبت إليزا أن تراه ، فجاءت به هارييت إلى البيت على أثر إحدى جولاتهما . وكانت إليزا بادية العظام ، فى وجهها الأبيض الكالح آثار جروح وندوب ، وعيناها منطفئتان ، تنظران ولا تنطقان عن ذكاء ، وشعرها كتلة سوداء كالربوة تشرف على هذا كله. على أن شللى لم يلبث أن نسى نفوره البادى من قبح هذه العانس عند ما رآها تبدى له ودها . فهى لم تعارض فى زيارات أختها لغرفة « بولاند ستريت » ، بل شملتها برعايتها ، ودعت شللى مرات عديدة للعشاء معهما فى غياب المستر وستبروك . واكتسبت قلبه حين سألته بدورها أن تستنير وتتثقف ، مع هارييت ، بمطالعة « القاموس الفلسفى » تحت إشرافه ! . .

وسرعان ما لوحظت فى « مجمع الشابات » نزهات هارييت

مع شللى . فنصحتها إحدى المعلمات بالحذر منه ، فربما كانت أخلاقه من نوع أفكاره الكافرة . ثم ضُبطت معها رسالة منه ممتلئة بأخطر الحجج والآراء . فهددت بالفصل لمكاتبتها « زنديقاً » ! . ولوت بنات الأشراف أكتافهن لبنت الخمار

وبينا كان شللى ، ذات مساء ، يقرأ إلى جانب المدفأة ، وحيداً ، جاءه نبأ من إليزا بأن هارييت مريضة ، وترجوه أن يجيء ليؤنسها . فذهب ، فوجدها فى فراشها ، شديدة الشحوب ، ولكنها أجمل منها فى أى وقت مضى ، بغدائر شعرها الكستنائى الذهبى ، المرسلة من حولها . . وجاء المستر وستبروك لتحيته ، فشعر شللى بالحرج حين رآه ، وبدت له غير لائقة هذه الزيارة الليلية فى خدر فتاة . . بيد أن المستر وستبروك كان ظريفاً ، فحياه ثم قال : « آسف لعدم استطاعتى البقاء معك . لأن عندى أصدقاء فى الطابق الأرضى . فتفضل إذا شئت بالانضمام إلينا فيما بعد » . . فشكره شللى . . وتمنع ، خوفاً من أصحابه !

وجلس إلى جانب فراش هارييت ، وإليزا بقربهما . . وكانت فى تلك الليلة ذلقة فصيحة ، فتحدثت طويلا عن الحب . . وما لبثت هارييت أن اشتكت من صداع شديد لا تحتمل معه دوىّ الكلام . . فاستأذنتهما إليزا ونزلت إلى حجرتها . . وتركت الشيئين الصغيرين وحدهما . . وبقى شللى إلى ما بعد منتصف الليل . .

لقد صار منى شللى أخف وطأة منذ أصبح يستقبل فيه الفتيات ، و « ينير » عقولهن . ومع ذلك كان يشكو بعده عن أخته إليزابيث التى لم تعد ترد على رسائله . . أتكون تحت الحراسة ؟ . . ماذا لو أنه زار فيلد بلاس ذات مساء ، وقابل بالصمت لعنات أبيه ؟ . .

وجاءه الفرج بمجيء خاله « الكابتن بيلفولد »،وكان هذا الكابتن البحرى شيخاً شهماً ، تولى بارجة تحت قيادة نلسون فى ترافلغار . . وكان يؤثر ألف مرة هوس ابن أخته ، الفيلسوف الشاعر ، على زوج أخته المستر تيموثى المتصلب . . وليس يعنيه من پرسى شللى تشككه أو إيمانه . . فدعاه إلى ضيعته فى « ككفيلد » على عشرة أميال من « فيلد بلاس » ، وتطوع شللى بأن « ينير » مضيفه، فأظهر الكابتن أنه تلميذ نجيب ، بحيث أدهش ، بعد أيام ثمانية ، قسيس القرية وطبيبها ، بحججه المنطقية النارية ! . .

وتعرف شللى بمعلمة الناحية « مس هتشنر » ، وهى فتاة جميلة ، ذات وجه رومانى ، فى نحو الثلاثين ، لها نزعة جمهورية ، مشهورة فى القرية بأنها خيالية ، ومتغطرسة . وكانت تشكو من أن أحداً لا يفهمها . وأعجب شللى بنبالة وجهها، لكنه امتعض إذ رآها تعتقد بالله وحده ، مع إنكار الوحى والنظم الدينية ! . .

فاقترح عليها أن يجادلها « بالمراسلة » لينقذها من ضلالها ! .. فقبلت
وفى خلال ذلك كان الكابتن بيلفولد قد حمل حملة صادقة على زوج أخته المستر تيموثى شللى ، واستعان عليه بدوق نورفولك زعيم حزب الأحرار السياسى .. فعاد شللى إلى فيلد بلاس وقد منح مئتى جنيه سنوياً ، بلا شرط ولا قيد
ولقى أخته إليزابيث . غير أنه صعق لما أصابها من تغير ، فقد صارت مرحة طائشة عابثة إلى حد لا يصدق . لقد عرفها من قبل متحمسة ولكن فى وقار وكرامة . أما الآن فقد انصرفت عن الفكر والرأى والجدل ، واندفعت فى تيار الملاهى الخطرة ، والحفلات الراقصة ، والأحاديث التافهة .. فحاول أن يتلو عليها كما كان يفعل من قبل رسائل هج .. فصاحت :
ــ أف لك ولصديقك السخيف ! .. فكل الناس الذين أعرفهم يحكمون عليكما بالجنون ...
ثم عرجت على حديث الزواج . لم تعد تفكر إلا فيه . وما كان ثمة شىء يملأ شللى رعباً كالزواج . فهل تراها نسيت ما طالعاه ، ومبادئ « جودوين » السليمة ؟ .. قال :
ــ الزواج شىء بشع كريه . وإن قلبى لينقبض إذ أفكر فى هذه السلسلة الشنيعة ، أثقل ما صنعه البشر من الأصفاد الحديدية والأغلال لتقييد النفوس الكريمة .. والناس الشرفاء ليسوا

بحاجة إلى الشرائع . . هل ترين رجلا شريفاً يرضى بإخضاع مخلوق حبيب إليه ، عزيز عليه ؟

— ولكنك مع ذلك كنت تريد أن أتزوج صاحبك هج !

— أجل، ولكن لا على يد قسيس، أو طبقاً لشرائع الخلق، بل زواجاً حراً ، الحب كاهنه ! . .

فقالت إليزابيث باحتقار :

— أهذه إذن هى النصائح التى تسديها إلى أختك يا برسى؟ لقد ضاعت إليزابيث فى نظره . لم تعد تنطق إلا عن الهوى ! إنه لم يجئ إلى هذه الدار إلا ليراها . فلم يعد أمامه الآن إلا الرحيل

وجاءته دعوة من ابن عم لأمه فى مقاطعة ويلز . فلباها . وفى مروره بلندن كتب إلى مس هتشنر يتمنى لو رآها وتغدى معها . فردت عليه بأنها تخشى مغبة هذا اللقاء على سمعتها ، فضلا عن التباين بين مركزها الصغير ومكانته الاجتماعية !. . فاستنكر هذه الفكرة ، وكتب إليها خطاباً جميلا فى المساواة بين الطبقات ، ودعاها فيه « شقيقة روحه » . . فبدأت تفكر فى أن اسم « اللادى شللى » هو اسم بديع . . وراحت تنظر إلى نفسها فى كل مرآة . . .

— ٨ —

شللى الآن على صخور بلاد الغال ، يصغى إلى هدير السيول ، ويقرأ رسائل أصحابه . فهو ، من عزلته الموحشة هذه ، ما زال يوجه عدة نفوس : مس هتشنر المعلمة ، هج الوفى ، خاله الكابتن بيلفولد الذى صار ويلا على المتقين ، إليزا وهارييت وستبروك . . وغيرهم

وتلقى شللى من هارييت رسالة أحزنته وأقلقته . لقد أراد أبوها أن يرغمها على العودة إلى « مجمع الشابات » حيث الطالبات لا يخاطبنها ، والمعلمات يعددنها فتاة ساقطة . فهى تؤثر أن تقتل نفسها على البقاء فى هذا السجن !

وجزع شللى . فقد بدا له منطق تلميذته لا غبار عليه ، وهى دروسه التى كوّنت هذه التلميذة . ولكن أيتخلى عنها للموت ؟ إنها تستطيع أن تقاوم ، وتأبى العودة إلى المدرسة

وكتب إلى أبيها خطاب عتاب . فاستنكر الخمار خطابه : فيم يتدخل هذا الفتى الأرستقراطى ، الذى يحوم منذ ستة أشهر حول بنتيه ؟ . . .

وزعمت إليزا أنه سيتزوج من هارييت .. ولكن هل سمع الناس يوماً أن بارونا تزوج من بنت صاحب حان؟ إن هذا الفتى

ينشد ولا شك شيئاً آخر غير الزواج . فإنه منذ ذلك المساء الذى رآه فيه بحجرة بنته ودعاه لتناول كأس مع أصحابه فأبى واستكبر حكم بأنه لا يمكن لحفيد السير بسيش شللى، صاحب الملايين، أن يكون صديقاً للشعب ، أو نصيراً للمساواة !

وتلقت هارييت منه أمراً بالاستعداد للسفر إلى المعهد . فكتبت إليه أنها أشد ما تكون شقاء ، وأنها مضطهدة إلى أقصى حد . . وأنها مستعدة للهرب معه إذا قبل . . .

مامن شك فى أن عليه التزامات نحو هذه البنية . فهو الذى نفخ فيها من روحه ، لتكون روحها باسلة ، تأبى قبول المظالم . وكانت رسالة منه هى السبب الأول فيما جرى عليها من الخزى . ولكن إذا هرب معها فكيف يعيشان ؟ وأين ؟ .. ومم ؟ .. فهو لا حرفة له ، وليس أمامه مستقبل ! . ويا ترى أهو يحبها ؟ وهل فى مقدوره أن يحب بعد اليأس الذى أردته فيه هارييت الأخرى ، بنت عمه ؟..

بيد أن هارييت هذه ذات حسن خلاب

وأسكرته فكرة الرحيل بصحبة هذه الإنسانة الساحرة ، التى أثارته إذ رآها ذات ليلة مريضة فى فراشها ، مجللة بغدائر شعرها المتألق كالنار . لقد كان يعز عليه أن يبعد هذه الصورة اللذيذة عن خياله . فذهب إليها فرآها شحبت، ونحفت، واكتأبت :

– إذن ، فقد عذبوك كثيراً ؟

– كلا . . يا صديقى . . كلا . .

وترددت فى أن تقول « إنما تعذبت لأننى أحبك » . . غير أن ذبولها ، وعينيها المتعلقتين بعينيه ، واضطرابها ، هذه كلها باحت له بسرها . فقد كانت مجنونة به ، مشغوفة حباً . وقد حوّلها و بدّلها خلقاً آخر ، وهى من قبل قد أرادت أن ترده إلى الطريق المستقيم ،ولكن منطقه جرفها فى تياره ،وتقبلت هزيمتها ، راضية هانئة . . وإنها الآن تعبد الرجل ، وتتبع المبدأ !

وكتبت إليه تغالى فى متاعبها ونوائبها ، لكى يهرع إليها . . فخيل إليه أنه من الويل تكريس الحياة لامرأة ، إذا كانت هذه الحياة ستكرس لخدمة الإنسانية . بيد أنه ، إزاء هذا الوجه الفتان ، الذى تكفى كلمة واحدة منه لتبديد سحب الحزن المنعقدة على جبينه ، ضعف ، وقرأ على مبادئه السلام . . ولكنه استبعد فكرة الهرب حالا ، فلا حاجة إلى تعجل الحوادث . . ولكن لتطمئن هارييت ، فإذا حاولوا معها تعسفاً أو عنفاً فما عليها إلا أن تدعوه ، فيلبيها ، ولو كان فى أقصى الأرض ، ويأخذها عنهم

وكتب إلى هج يصف الموقف ، فرد عايه يرجوه ألا يهرب مع هارييت قبل الاقتران بها . وكان هج يعلم كراهية شللى للزواج ، فجابهه بحجج قوية : « إذا كنت لا تتزوجها ، فمن ذا

الذى يخاطر ويعانى ؟ إنها هى التى سيحتقرها الناس . إنها هى التى ستضحى بسمعتها وأمانها ، فهل من حقك أن تسألها هذا ، أو تفرضه عليها ؟ »

ولم يكن شللى يشمئز من شيء اشمئزازه من الأنانية . ولكنه أحس أنه بزواجه يرتكب أمراً مشيناً ! . كانت فصول «العدل السياسى » عن «السلاسل الزوجية» تقلقه وتعذب ضميره ، فقيل له إن جودوين نفسه قد تزوج مرتين .. فاطمأن واستراح ، لكنه لم يتعجل تطبيق الفكرة الجديدة

ودعاه عمه الكابتن بيلفولد إلى بلدته ككفيلد . فلبى الدعوة فرحاً بأنه هناك سيلتقى المعلمة الجميلة ، ذات الوجه الرومانى ، «شقيقة روحه» ، التى كان يريد أن يتم «تنويرها» وتلقينها تعاليمه !

ووعد هارييت بأن يعود إلى لندن عند أول نداء منها . .

وقبل أن ينقضى أسبوع واحد جاءت رسالة مستعجلة تدعو شللى إلى لندن ، فإن الطغاة يريدون من جديد تسليم الملاك الكريم إلى الشيطان المدرسى الرجيم ! . . فرأى شللى أن الداء لا دواء له ، فعرض عليها : الفرار ، ثم القران . .

وفى اليوم التالى حملت عربة المسافرين إلى إدنبره ، عاصمة آسكتلنده ، هذين الطفلين ، اللذين لا يتجاوز مجموع عمرهما معاً خمسة وثلاثين عاماً . . .

زوجان عاشقان حدثان ، جميلان ومضطهدان ، يؤثران فى النفوس ، ويستميلان القلوب ، إلى حد لايكاد يُقاوم . هل يسع أهل إدنبره ، إلاّ الترحيب بهما ؟ . بهذين الزوجين الصبيين ، اللذين وصلا إلى أبواب مدينتهم فى بؤس مشرق ! ..

وكان شللى قد اقترض بضعة جنيهات من صديق لم يبق منها عند الوصول إلى إدنبره بنس واحد . وكان عبثاً أن يرجو مساعدة من أبيه المستر تيموثى ، الذى جن لفرار ولده . ومع ذلك فقد وجد مالكاً ظريفاً روى له قصته ، فأثرت فيه حكاية هذه المغامرة ، وآية جمال هارييت ، والوعد بالدفع السريع . فأجر لهما دوراً أرضياً بديعاً .. وأقرضهما المبلغ الضرورى للطعام خلال بضعة أيام ، وللاحتفال بعقد قرانهما طبقاً للطقوس الكنسية الأسكتلندية البسيطة . وكان شرطه الوحيد : أن يقبل شللى وزوجته دعوته إياهما فى ليلة زفافهما للعشاء معه وأصحابه .

وعلى ذلك احتفل حفيد السير بسيش شللى بليلة عرسه ، فى وسط تجار إدنبره . . وعملت نشوة الخمور ومحاسن هذين الزوجين الشابين فى رؤوس الضيوف ، أولئك الأتقياء الشرفاء .. وتطورت الدعابات إلى سفاهات . وزاد احمرار وجه هارييت

الحسناء ، المتواضعة . . فانصرف عنهم شللى وزوجته

وبعد فترة قصيرة قرعوا باب غرفتهما . ففتح شللى .
وقال صاحب البيت وهو يترنح ، ومن ورائه أصحابه جميعاً :

— إن العادة عندنا جرت بأن يأتى المدعوون ليلة الزفاف فى منتصف الليل ، ويحّموا العروس بالويسكى . . .

فصاح شللى مسدداً بيديه مسدسيه :

— إنى ألهب بالرصاص دماغ من يتجاسر على الدخول !

وكان صوته يرتجف ، وعيناه تبرقان كما كانتا تبرقان فى كلية أيتون . فرأى تجار إدنبره أن هذا الفتى ، الذى له رأس فتاة ، أشد خطراً مما يبدو ، وأقوى مراساً مما كانوا يزعمون . . فانحنوا له ، وتمنوا ليلة طيبة ، وانصرفوا

إن بضعة أيام قد كفت هذا الزوج الشاب ، الذى كان يرى أن عمله هذا « وليد الإرادة لا الهيام » . . كفته ليذوب جوى وصبابة ! . . وكانت هارييت فعلا آية جمال : دائمة الحسن ، دائمة النضارة ، والحيوية ، شعرها دائماً منسق ، ممشط ، منظم ، بغير خصلة واحدة مجنونة طائرة . . فهى بهذا كله أشبه ما تكون بزهرة بيضاء وردية مستوية على غصنها ، أو ملكة مسنوية على عرشها . . وكانت ثيابها بسيطة جداً ، ولكنها دائماً نظيفة أنيقة . وهى وإن لم تكن مثقفة حقاً ، فقد

كانت مهذبة جداً ، ولا سيما أنها قرأت عدداً كبيراً من الكتب . وكانت تقرأ طول النهار ، وتفضل الكتب الأخلاقية . وقد بعث فيها أستاذها وحبيبها روح الفضيلة والعفاف . وكان «تلماك» فى قصة «فنلون» المشهورة هو بطله الأثير عنده ، فصار بطلها !

وكتب إلى مس هتشنر ، معلمة القرية ، « شقيقة روحه » ، يتساءل فى قلق عما تظن فى زواجه : « يا أعز صديقة ، أيمكننى أن أظل أدعوك هكذا ؟ أم أننى فقدت بسلوكى المبهم تقدير الحكماء والفضلاء ؟ . . لشد ما نحن عبيد أرقاء للظروف ! . . ولعلك تتساءلين كيف لى أن أرضخ لطقوس الزواج ! .. وإذا لم تكن هارييت ، وهى فى السادسة عشرة ، ما أنت عليه فى سنك المتقدمة عنها ، فساعدينى على تكوين تلك النفس الجديدة بعنايتك ورعايتك . . . »

ودعاها أن تلحق بهما لتعيش معهما فى إدنبره ، حيث صار وجود هارييت حائلا دون أية مظنة

فلم تقبل مس هتشنر الدعوة . وربما كان نداؤه الشعرى المحبب « يا أعز صديقة » غير كاف لمحو العبارة المنحوسة الخاصة بالأعمار : « السادسة عشرة » ... « السن المتقدمة عنها » ...

وذات يوم جاء هج ، ليقضى معهما بضعة أسابيع فى إجازة . ولما رأى هارييت بهت من جمالها . فهو لم ير قط امرأة

مشرقة بالشباب والهناءة والحسن مثلها

واقترح شللى الخروج للتنزه وزيارة قصر مارى ستيوارت . ولما خرجوا عاد شللى فاعتذر بأن لديه خطابات يكتبها ، ورجا هارييت أن تصحب هج فى الصعود إلى الأكمة المشرفة على المدينة كلها .. وأعجب هج بالمشهد كثيراً .. وظلا طويلا جالسين على القمة . ولعل دليل هج قد راقه ، بحيث راقت النزهة أيضاً ! ..

وفى نزولها لاحظت هارييت : أن الهواء الشديد يرفع ذيل ثوبها ، وأن هج ينظر خلسة ، باهتمام ، إلى كاحليها ، ومفصلى ساقيها . . . فعادت ، وجلست على الصخرة ، وأعلنت أنها ستبقى حيث هى ، إلى ما شاء الله ، أو تسكن الريح . . وكان هج يتضور جوعاً ، فمضى وحده ، وتركها . . . وبعد ذلك تبعته تجرى من خلفه . . .

وكان شللى يخرج كل صباح لتسلم بريده الضخم ، وبعد الفطور يترجم للعالم الفرنسى « بوفون » مؤلف « التاريخ الطبيعى » الذى كان قد بدأ فى نقله إلى الإنجليزية . وتذهب هارييت وهج للتنزه . فإذا ساء الجو جلست تقرأ له ، لأنها كانت تحب كثيراً المطالعة بصوت عال ، وتحسنها الإحسان كله

وكان ذلك فى عام ١٨١١ ، عام النجم المذنب المشهور ، وعام النبيذ الفاخر ، وعام الليالى المشرقة بالصحو والصفاء . .

— ١٠ —

لما انقضت إجازة الأسابيع الستة ، وآن لهج أن يعود ، قرر شللى وهارييت أن يصحباه ، ليعيشا معه فى يورك ، أصدقاء لا يفترقون ، خلال الأشهر الباقية على مدة تمرينه ، ثم يذهب ثلاثتهم إلى لندن ، ليقضوا بقية أيامهم : يقرأون ، ويكتبون ، ويطالعون

وكان لقاء شللى لمدينة يورك مخيباً للأمل . فقد وجدها بلدة كئيبة ، غرفها حقيرة ، فكرهها . ورأى أن يقصد خاله الشهم الكابتن بيلفولد ، وهنالك يزور مس هتشنر ، المعلمة ، « شقيقة روحه » . . فلعلها تقبل الحضور معه إلى يورك . . ثم يمر بلندن ، ويأتى معه بإليزا ، التى اشتاقت إليها هارييت . فسافر . وبقيت هارييت وهج وحدهما . فكان مركزاً غريباً لذيذاً معاً . فهما فى هذه المدينة طليقان كما لو كانا فى جزيرة بعيدة عن العمران . . وأحست هارييت بمسرة الطفلة ، إذ أصبحت هكذا « ربة بيت » لهذا الرفيق الشاب المرح . فإن هج ، بلهجته اللاذعة الساخرة ، يدخل على فؤادها ألواناً من البهجة ، وكان معجباً بكل ما فيها . يلحظ ثيابها ، وبزتها ، وزينة شعرها . ويصغى إلى قصة « تليماك » المملة وهى تطالعها ،

ويثنى على صوتها ! . .

وفكر هج : هذه الدرة الفاتنة ، يتركها شللى له وحده عن طيبة خاطر ، وهى من أسرة خمار ، لم تربها على ملاحظة ضروب التحفظ والتحرز . . أن يعيش هكذا معها ، قد بعث فيه رغبة جامحة فى تمنيها بكل قواه . ولكنه قال لنفسه : « إن هذه فكرة سوء شنيعة ، وإن زوج صديق يحبه كل هذا الحب لا يجوز أن تكون طريدة له . . يلاحقها برغبته . . ولكن هل الذنب ذنبى إذا كان شللى يلقى بها فى أحضانى ؟ أيمكن أن يتصور المرء منه كيف يقضى أيامه ولياليه فى كتابة رسائل عن الفضيلة وفى بيته مثل هذه الدرّة اليتيمة ؟ . . إنها امرأة آية ، ومعجزة فى الغاية »

وفى أول يوم لغياب شللى خرجا يتنزهان على شاطئ النهر . وطفق يحدق فيها ، مفتوناً بها ، ويقول لها ألوف الحماقات . فراحت تتكلم عن زوجها ، الذى تنتظر عودته بفارغ الصبر ، لأنها تريد أن تراه ، وتعلم أنه سيحمل إليها شقيقتها العزيزة إليزا :

— سوف ترى إليزا . . إنها جميلة جداً . ولها شعر أسود فاحم يتوجها . وهى حادة الذكاء . . وهى التى هدتنى فى الظروف الخطيرة التى مرت بى ، وهيأت لى من أمرى رشداً . .

— أمرّت بك إذن ، أيتها البنت الصغيرة ، ظروف خطيرة ؟

فروت له هارييت متاعبها فى المدرسة ، ثم عقبات زواجها . وظلت فترة منحنية بفكرها على الماضى

ويمضيان هكذا فى نزهتهما ، يتبادلان الاعترافات . . ثم يعودان إلى البيت . . فيعدان الشاى ، وهج لا يفتأ يمزح ويلعب . . ثم تقترح هارييت أن تطالع له . ولكنه لم يدرك مما قرأته فى تلك الليلة حرفاً . .

وفى اليوم التالى قال لها إنه يحبها حب جنون مستعر ! . . فاضطربت ، وسخطت . ودافعت عن نفسها . وذكرت شللى ، وتحدثت عن الفضيلة :

ـــ أفلاترى شناعة مسلكك ؟ . . أيعهد بربى إليك حمايتى فتخون ثقته ؟ . . ولكننى مطمئنة إلى أنك قد شفيت لساعتك ! . وأتوسل إليك ألا تشير بعد الآن إلى هذا كله بكلمة . . . ومن جانبى لن أحزن شللى القوى الإيمان بك ، فسألزم الصمت ، وأضرب صفحاً عما كان

وكانت تتكلم بحرارة ! . . واعترافات الهوى ومشاهده هى معارك المرأة الجميلة . والجندى الجرىء لا يكره القتال . . وانتصرت هارييت الباسلة . . ووعد هج بأن يكون عاقلا

ولما عاد مساء من مكتبه رأى إلى جانب هارييت ، على الديوان ، امرأة كبيرة ، ذات شعر أسود . . فقالت له هارييت

ــ هج . . هذه إليزا . . . وقد جاءت . . أليس ذلك ظرفاً منها ؟ . . وهذا هو هج ، يا إليزا ، صديقنا الحميم ، الذى كثيراً ما حدثك عنه شللى . .

فحنت إليزا رأسها بجفاء . .

ومنذئذ صار جو هذا البيت عنده لا يحتمل ، فقد تولت الأمر فيه إليزا ، واحتلت مكانها فيه ، تقوده كما يقود القبطان باخرته ، يرفع على ساريتها علمه ، ولا يسمح على ظهرها بسيد سواه . . وقد بدأت عملها بانتقاد سلوك شللى نقداً مراً :

ــ إذن ، فلو أننى لم أجئ لتركك شللى هكذا وحدك مع رجل شاب ؟ . . إن هذا لا يليق . ويناديك : « يا حبيبتى هاربيت » ؟ وأنت تسمحين له به ؟ يا لرحمة السماء !

كان هج منذ محاولته الأولى قد احترم وعده بأن يكون عاقلا وقد فرحت بذلك هاربيت وخاب أملها معاً ! . . كانت واثقة من قدرتها على الذود عن عفتها ، ولم تكن تكره الإغراء لتبرهن على ذلك ! . . . وخرجا يوماً فى نزهة قصيرة ، فوقف هج على الكوبرى ، والنهر من تحته يجرى ، ويغلى

ــ هاربيت ، يا حبيبتى ، أفلا ترين أن إليزا تحسن عملا لو انطوت فى مياه النهر المتدفقة ، فتجذبها دوّاماته من شعرها ، فتدور ، ثم تدور ، كهذه القطعة من الخشب ! . .

فأدارت هارييت رأسها ، وانفجرت ضاحكة . . إن هج كان وقحاً ، ولكنه لذيذ الدعابة حقاً . .

– ما أرق ضحكتك ! . . إنها ضحكة موسيقية ، شجية ، تشرح الصدر . . أيتها العزيزة هارييت ! . .

فأحست هارييت الباسلة أن الحرب على الأبواب ! . .

— ١١ —

فى اليوم التالى عاد شللى قبلما يتوقعون . وهو لم يوفق فى شىء ، فقد رفض أبوه أن يراه ، وقال لبيلفولد : « لكنت أوثر أن أدفع نفقة أولاده غير الشرعيين . . . أما أن يتزوج فلا تذكره لى بعد الآن بخير ولا شر ! . . »

وخشيت المعلمة مس هتشنر على سمعتها ، فرفضت صحبة شللى إلى يورك . ولما مر بلندن عرف أن إليزا لم تنتظره . فرجع متعباً ، مضنى ، منكسر الفؤاد ، مؤملا أن يجد عزاء فى صحبة زوجه وصديقه . فلم يجد إلا جوّا مثقلا بالضيق والحرج . . إليزا مغلقة على نفسها حجرتها ، تمشط شعرها ، طوال نهارها . وهج وهارييت لا يمزحان كعادتهما ولا يتجادلان ، فإذا ما خاطب هج هارييت ردت عليه بلهجة جافة .. فقال شللى لهارييت :

– إنى لا أحب منك ، يا عزيزتى ، مظهر الكبر الذى

تتخذينه إزاء هج . . فهو خير صديق لى . وقد جاء ليرعاك فى غيابى . وإذا كانت أختك اليوم عندك فلا تجعلى هذا سبباً فى التنكر لرجل أعده أخاً . . .

— يا له من صديق بديع !. لقد قال إنه يحبنى حباً جنونياً !. فحاولت أن أمزح وحملته على السكوت ، وزعمت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، ولكنه أمس عاد فأعلن إلىّ أنه لا يستطيع العيش من دونى ، وأنه سيقتل نفسه إذا لم أستسلم له !

فشعر شللى بدمه يجمد فى عروقه . وكأن قلبه قد كف عن الخفقان :

— هج ! هج فعل هذا ؟ ! ولكن ألم تلفتيه إلى . . .

— قلت له كل ما يمكن قوله .. إنه يخون عهد الصداقة ، وإنه يغتال ثقتك فيه ، فأجابنى : « وما شأن هذا كله عند ما نحب ؟ . . إنه مما يناسب شللى ، ذا الروح البارد الجامد ، أن يحاضر فى الفضيلة . . أما أنا فأحبك . . وكل ما بقى نافلة لا يعتدّ بها . . ثم أى ضرر يحيق بشللى ؟ . . وفيم نسىء إليه ما دام سيظل جاهلا بعلاقتنا ؟ . . فلماذا لا تعدينى بحبك إذا ظللت محتفظة له بعطفك ؟.. وهل هو يعنى كثيراً بك ، أو يفكر فيك ؟» . . وقال عنك إنك متحمس للخزعبلات والأوهام ، وإنك شعلة أفكار ، ولكنك جلمود ثلج إزاء العواطف ، وليس

لغير العواطف وزن فى حياة الإنسان .. فأجبت جاهدة ما استطعت إلى الجواب سبيلا . .

فخرّ شللى على الديوان مرتعشاً ، وبدت له الدنيا غبراء متشحة بنقب سوداء ، ودارت به الأرض . . ثم سقطت من عينه الدنيا . . . « أما أن هج قد حاول غواية زوجتى ، وأن يختار لهذا اللحظة التى أعهد فيها إليه رعايتها . . . وهو الذى كان قلبي لا يفيض إلا بمحبته . . فما أشد هذا فسقا . . ومع ذلك كان مسلكه فى أكسفورد نبيلاً ، مثالياً فى الإيثار . . فلا بد لى من محادثته ، حتى يرى الغى من الرشد . . . »

وسأل هج أن يتبعه إلى خارج المدينة . . وكان هج يتوقع هذا الموقف . واستعد له . فلم ينكر شيئاً :

— نعم . . هذا صحيح . . وقد أحببت هارييت منذ أول يوم رأيتها فيه بإدنبره . . فهل هذا ذنبي ؟ إننى لا أستطيع مقاومة جمال النساء .. وهارييت رائعة الجمال ، فوقعت فى حبها لأول وهلة

— ليس هذا هو الحب ، ولكنه الاشتهاء . وهو غريزة وضيعة . وليس هو تلك العاطفة الشريفة ، التى تفرق الإنسان عن الحيوان . . الحب ؟ . . إن الحب يفرض نسيان الذات ، والبحث عن هناء المحبوب .. وشعورك هذا ليس حباً بل أنانية !

— سمّه ما شئت . . إن هى إلا أسماء . . بل هو عاطفة

مروعة فى جموحها ، وبودى لو قاومته ، لولا أننى وجدته لا يقهر

ــ ما من عاطفة إلا ويمكن قهرها ، وكبح جماحها .

والإرادة كفيلة بالظفر بها ، والتغلب عليها

وكان هج شاحباً منكسراً . . يبدو شقياً . فهو قد أحب شللى ، وهو يعلم أنه مامن امرأة تساوى التضحية بمثل هذا الصديق

ــ إنى آسف لماحدث ياشللى . وأريد منكما أن تصفحا عنى

ــ إنى أمقت خطيئتك ، لا شخصك . وأرجو أن يجى حين من الدهر تنظر فيه إلى ذنبك الشنيع بمثل ما أنظر إليه من الاشمئزاز . وعند ما يحين ذلك الحين تكون الكفارة . فالشعور بالندم يمحو الذنوب . . .

وشعر شللى بالراحة ، إذ كبح هكذا جماح غضبه وغيرته ، وإذ كشف لصاحبه عن طريق الخلاص ، وإذ كاد هو ينسى الاعتداء

غير أن النساء دون ذلك تسامحاً . فعندما عاد شللى ، وأعلن غفرانه للأثيم ، صاحت إليزا :

ــ ماذا ؟ أترغب فى معاشرة هذا الرجل؟ يا للسماء الرحيمة ! . . وماذا يكون من أمر أعصاب هارييت المسكينة ؟ !

وفى اليوم التالى عاد هج من مكتبه فوجد البيت خالياً ، ينعى من بناه . . .

— ١٢ —

عندما هرب شللى والفتاتان من هج المنكود قرروا الذهاب إلى إقليم البحيرات . حيث يعيش شعراء أفذاذ من أمثال : « ساوثى » و « كولريدج » . واستأجروا كوخاً خلوياً فى حضن الزهور . وجاءت مراسلات هج تدعو إلى اليأس منه ! ثم رسـائل المعلمة مس هتشنر « شقيقة الروح » التى أصبحت — بعد سقوط هج — النجية الوحيدة ، وموضع السر .. تسافر إليها من شللى كل يوم تقريباً صفحات رقيقة ، تضفى عليها هاربيت دعوتها إياها للحاق بهما . .

ولما أخذت مسألة النقود تزداد كل يوم تحرجاً كتبوا إلى الدوق دى نورفولك ، فجاءتهم منه دعوة لقضاء آخر الأسبوع فى قصره

وأتت زيارتهم له بأحسن النتائج . فإن المستر وستبروك عند ما علم بأن بنتيه قد قضتا بضعة أيام فى قصر دوق عظيم ، وأن زوج بنته قد وصل إلى ذلك القصر وليس فى جيبه إلا جنيه واحد ، نزل للزوجين الشابين عن مئتين من الجنيهات معاشاً سنوياً ! ولم يستطع المستر تيموثى أن يبدو أشد منه بخلا . فقرر أن يعيد إليه المئتين من الجنيهات فى السنة

وكان أهم ما فى الأمر عند شللى : أنه حصل على هذه

النتيجة المرضية ، دون أن يتنزل عن شيء من جانبه ، فكتب إلى والده أنه مع ذلك لا يمكنه أن يعد باخفاء آرائه فى الشؤون الدينية أو السياسية . .

ولقى شللى الشاعر ساوثى الذى يعجب به ويحبه لأنه يربط فكرة الشعر بالحياة المجنحة المحلقة فى السماوات العلى ! . . فرأى الرجل يعيش فى بيت جميل ينبعث منه الدفء . غير أن زوجته أشبه بربة بيت مدبّرة طاهية منها بالملهمة ! . . . كانت من قبل خياطة ، وهى لذلك تجلد كتب زوجها بالقماش ! . . وكانت دواليب بياضاتها هى محراب نبوغها . . وكانت لا تتكلم إلا عن : النقود ، والطهى ، والخدم ، كأسخف الزوجات ! . . أما الشاعر فكان من رأيه: أنه لا بد للمجتمع من التحول ، ولكن لا يمكن أن يجيء التحول طفرة ، بل تطوراً بطيئاً

فخرج شللى من عنده غضبان أسفاً !

ولم يكن ساوثى ليشك فى الأثر السيئ الذى أحدثه فى نفسية شللى . ففكر فيه : « يا له من ولد غريب . . إن أشد همومه راجع لمعرفته أنه وريث أملاك هائلة ، وهو جزع قلق من دخل ستة آلاف جنيه فى السنة ، كما كنت فى سنه جزعاً قلقاً من أننى لا أملك بنساً واحداً . . . أما ما خلا ذلك فهو يكاد يكون طيفى . يزعم نفسه ملحداً وما هو بملحد . إن هو إلا

مرض من أمراض الشباب أصابنا جميعاً ، ومر بنا . . . وخيراً فعل بمجيئه عندى ، أنا الطبيب المداوى . . وقد وضعت له علاجاً بمطالعة فلسفة « بركلى Berkeley » التى ستهديه على رغمه ، من حيث يدرى ولا يدرى . . والله يعيننا على جعل هذا السيد ، الفتى ، شللى ، يدرك أنه يستطيع ، بجنيهاته الستة الآلاف ، ضروباً عدة من الخير والبر » . .

وهكذا التقت الفتوة اليافعة بالسن الناضجة . وكانت الثانية تقول للأولى : « ويا نفس جدّى إن دهرك هازل ! . . »

ووجد شللى صـــدفة ، فى إحدى المجلات ، مقالا بقلم الشاعر ساوثى ، يصف فيه جورج الثالث بأنه : « خير الملوك الذين استووا ويستوون أبداً على عرش » . . كان ذلك تملقاً مبتذلا رخيصاً ، ولكن ساوثى كان يريد أن يصبح شاعر القصر وطريق الوصول إلى آلاء الدولة طويل صعب المرتقى . . فلم يغتفر شللى هذا النوع من الضعة . فأخبر ساوثى بأنه ، من الآن فصاعداً ، سينظر إليه كعبد أجير . . وقطع ما بينه وبينه . . وصار لا يعنيه من أمره كثير ولا قليل

ثم اكتشف أن معبوده جودوين مؤلف « العدل السياسى » حى يرزق . . وعرف عنوانه فى لندن ، فكتب إليه . . كتب إلى هذا الرجل العظيم الذى يحطم سلاسل الزواج ، وهو عدو

الألوهية ، وإمام الملحدين ، وهو جمهورى ، وثورى ! .. فعبر عن إعجابه ،وتقديره،وتفانيه . وأنه يرى فيه شعلة النور التى تضىء الظلمات الضاربة من حوله . . . ويتمنى الاتصال به

فلما تلقى جودوين هذه الرسالة سر كثيراً ، فهو بعد ما نبه ذكره عند نشره « العدل السياسى » عاد القهقرى إلى الخمول ، وكاد يصير مغموراً . . وهو أيضاً ، مثل تلميذه هذا ومريده ، قد اضطرب حبل حياته ، وبعد أن كان فى شبابه قسيساً انقلب فى سن الثلاثين ملحداً وجمهورياً . وفى ١٧٩٣ نشر كتابه المشهور . فكاد « پت » رئيس الدولة يشرّفه باتخـــاذ الإجراءات القانونية ، لولا أن ثمن الكتاب كان عالياً — ستة جنيهات — مما رأى فيه الوزير ما يكفى لدرء غائلة هذه المبادئ الهدامة . وبعد ذلك بأربع سنوات تزوج جودوين من « مارى وولستونكرافت » ، الأديبة النابهة . ثم ماتت وهى تضع بنتاً . فتزوج بأرملة تدعى « مسز كليرمون »

وصارت حياة جودوين مؤلمة ، فقد كان لمسز كليرمون من قبل بنت وولد هما « جين » و « شارل » ، ثم ولدت من جودوين طفلها « وليم » ، أما مارى وولستونكرافت فقد تركت له بنته « مارى » ، وفتاة من زواجها الأول هى « فانى ».

ولكى يطعم جودوين كل هـــذه الأفواه عمل على نشر

كتب للأطفال ، وتولت زوجته إدارة المكتبة . وكانت حياته قاسية محزنة ، محرومة من مسرات الغرور . فتلقى رسالة شللى بحماس ، وفى رده على رسالته سأله المزيد من التفاصيل عن شخصه . . فبعث إليه شللى بخلاصة حياته ، حاملا على والده « مستر تيموثى » ، وعميد أكسفورد « الدكتور كيت » . . وقال إنه وريث دخل يقدر بستة آلاف جنيه فى السنة ، وإنه تزوج من فتاة تشاركه أفكاره ، وقد نشر : قصتين ، وكتيباً فى الإلحاد ، سيرسلها كلها إلى أستاذه . . .

وأثر هذا الخطاب فى فتيات تلك الأسرة ، وقرأنه جميعاً باهتمام عظيم . . وإن كان أبوهن لم يرقه تحامل الابن على أبيه ، فلعل أباه لم يرد له بذلك إلا الخير . . ولا يجوز للمرء الإسراف فى الحكم وهو فى ريق العمر ، ثم لا يجوز له خاصة التهور فى نشر أحكامه . .

وكتب جودوين إلى شللى أنه : « فى السن التى ينبغى أن يكون المرء فيها تلميذاً ، لماذا يتهالك على نفسه ليكون أستاذاً ؟ »

ولولا أنه جودوين الموقر كاتب هذه الرسالة لسلكه شللى فى عداد أنصار التعصب المأجورين ! . . ولكنه انحنى بارتياح ورد عليه : « إنى لا أسأل إلا أن أكون تلميذاً للكفاية العليا التى لا نزاع فيها »

وراح شللى يبنى العــلالى والقصور ، يضم النفوس الأخرى الموعودة إلى حلقته الروحية . . أو لم يوفق فى الجمع بين هارييت وإليزا ؟ . . إذن فليس أسهل من استئجار فيلا شامخة فى بلاد الغال ، يعيش تحت سقفها معهم : مس هتشنر « شقيقة روحه » ، وجودوين « صديقه الموقر » ، وأسرة هذا الصديق الجميلة ! . .

ولأنه رأى تشكك أستاذه فيه أراد أن يبرهن بمثل رائع على أنه يستطيع شيئاً ، رغم سنه الباكرة . . فقبل أن يسكن « بيت التأملات » سيذهب لقضاء بضعة أشهر فى إيرلندا ، مع هارييت وإليزا ، ليعملوا على تحرير الكاثوليك الإيرلنديين من تعصب مواطنيهم ، وتحسين مصير تلك البلاد المنحوسة

— ١٣ —

الفارس المغوار ، الذى جاء يحرر العبيد من الذل الروحى ، والحرمان المادى ، قد رجمه هؤلاء العبيد بالطوب ! . . ففى اجتماع للكاثوليك صفروا استهزاء ، إذ أعلن أن إبعاد الإيرلنديين من المناصب العامة بسبب دينهم خطأ غير جائز ، لأن الأديان سواء . . . فآثروا تعصب مضطهديهم على تشككه وإلحاده ! .

وكانت نشرته « خطاب إلى الإيرلنديين » التى وجهها من

قبل إليهم على مثل هذه النغمة . فهو يدلل على أن تحرير الكاثوليك يعد خطوة فى سبيل التحرر العام المطلق، وأن الطيبة، لا البراعة ، هى التى يجب أن تكون مبدأ كل سياسة . . وأخيراً، ينبغى للإيرلنديين — قبل أن ينتظروا تحررهم من الإنجليز — أن يحرروا ذات أنفسهم من مساوئهم ، بأن يكونوا : معتدلين ، عادلين ، محسنين . وجرى فى أوهام شللى أن تعاليمه هذه ستصل مباشرة إلى صميم قلوب فقراء « دبلن » ! . . وأعد نفسه للاستشهاد فى سبيل هذا الإنجيل ! . .

ولم تكن هارييت دونه حماسة . فكانا يتجولان فى شارع ساكفيل وجيوبهما محشوة بالنشرات . فإذا ما توسما فى أحد « علامة القبول» دسا فى يده منشوراً !. وكانا من شرفة مسكنهما الصغير يلقيان بهذه النشرات إلى المارة ! .

وكان جودوين ومس هتشنر يتوقعان كل يوم القبض عليه . ولكن ممثلى التاج فى العاصمة الإيرلندية لم تزعجهم خطبه ولا منشوراته

وكان قلب شللى يتمزق إذ يرى رجال البوليس يجرّون السكارى فى الطرقات . . ولما رأت هارييت أنهم يشربون الويسكى لأن اللحم غال جداً أضربا عن أكل اللحم ، وأصبحا من النباتيين !

وفى ليلة من ليالى الأعياد،التى تشرب فيها دبلن الخمر غير ممزوجة بالماء ، رأى شللى وهارييت مواكب الجائعين ، واقفين صفوفاً ، يتفرجون على حفلة راقصة فى قصر الحكومة ، وهم يعجبون بالملابس الزاهية والحلى الغالية . . فسخط شللى ، وقنط من هذا النقص فى الإحساس بالكرامة . .

كانت إيرلندا الجائعة عنده شبيهة بامرأة جميلة معذبة . . وهو مستعد للنضال فى سبيلها ، ومعاناة العذاب من أجلها ! . . فسارت وراءه فى الطرقات جماهير زرية الهيئة ، مهلهلة الثياب . فقبض عليه الجنود ، وجلدوه . وكأن فلسفته الروحانية الرحيمة هذه قد وفقت بين الأمتين المتعاديتين . . فرأى أن الجزيرة الشقية تضحك راضية بشقائها ! . فماذا يسعه إزاء هذا ؟ وماذا يرجو ؟ . .لقد سأل جودوين رأيه، فنصحه بالعودة تجنبا لإراقة الدماء . . إذ لم يؤن الأوان بعد لتحقيق مشروع شامل كامل لخير الإنسانية جمعاء !.. فرضخ آخر الأمر لحكم «صديقه الموقر»

وكرروا الدعوة إلى المعلمة مس هتشنر لتجىء فتسكن معهم . فتباهت بالدعوة ، وحدثت البلدة عنها . . فلما عرف أبوها نهرها ، وحال دون سفرها ، فدهش شللى مرة أخرى من شرور الناس . . أهو ، الذى خطف امرأته وتزوج بها زواج حب ، يجىء الآن فيخونها ؟ لقد اشمأز من هذه الفكرة

الحسيسة ، واستنكف أن تدور فى رؤوس البشر ! . .

وكان المستر هتشنر – الأب – هو أيضاً صاحب حان سابق ! . . فكأن « الآلهة » قد أرادت أن تحشد فى حياة شللى الشاعر الشفاف : نقابة الخمارين ! . .

ثم آن لشللى أن يغادر بلاد الغال ، وأشار عليه جودوين ببيت صغير لم يعجبه، ولكنه اكتشف قرية سحرية راقدة فى أحضان الزهور والأغصان ، حمراء السقوف ، تسمى : « لينموث » . . وعثر فيها على بيت للإيجار ، تشرف نوافذه على البحر . . فاعتزم سكناه « مدى الحياة » ! . .

ولم يلبث بيت « لينموث » الجميل أن تأهب ، واستعد لحادث سعيد ، هو وصول مس هتشنر ، فقد ارتضت أخيراً أن تجىء للسكنى معهم ، لتدخل فى حياة شِللى لوناً من التعاون الفكرى ، والتآزر الروحى ، لا يجده فى زوجته الفتية ، التى هى أيضاً فى حاجة إلى أن تتلقن من « أختها فى الروح » هذه ثقافة تكوّنها !

ولم يلبث أهل « لينموث » أن رأوا ، مندهشين ، صاحبهم شللى يقوم ، مع تلك العجفاء الهزيلة المجهولة ، بنزهات خلوية ، طويلة !

— ١٤ —

ذبلت ورود القرية الجميلة .. وهبت رياح الخريف ،ورأى شللى أن حلمه يتبدد ، ورؤياه تتبخر ، وتكشفت له مس هتشنر عما كان خافياً عليه من غليظ الطباع .. ففقد فيها بطلته و « شقيقة روحه » .. فقرع سن الندم !

وبعد كل الذى كان منه من إلحاح وإلحاف لخلعها من مدرستها صار من الصعب الافتراق عنها وردّها على أعقابها .. بيد أن المقام كذلك معها أصبح ثقيلا لا يطاق .. واستحث جودوين شللى وأسرته على الرجوع إلى لندن .. فقرروا السفر إليها ، والبقاء فيها طويلا

وذات يوم من أكتوبر ١٨١٢ زار شللى وهارييت لأول مرة جودوين وأسرته .. وعند ما وصلا وجدا الأسرة بكاملها مجتمعة فى البيت الصغير المتصل بمكتبة شارع سكنر . وكان آل جودوين نافدى الصبر تطلعاً لوصول الزوجين الشابين . فهناك الفيلسوف « الصديق الموقر » جودوين : قصير ، سمين ، أصلع ، يتجلى ذكاؤه ، كما لو كان قساً . ثم مسز جودوين ، فى ثوب جميل من حرير أسود ، ونظارات خضراء ، لترى جلياً هذا الولد النبيل ، وارث الاوردية ، وزوج الفتاة الحسناء .. وكان

شللى قد أنذر ، من قبل ، بأنها امرأة سليطة اللسان . ولكنها بدت فى ذلك المساء رقيقة الحاشية . ثم « فانى » الفتاة الساهمة فى شجن وحلاوة . ثم « جين » الشائقة ذات الطابع الإيطالى ، سمراء اللون ، يقظة الذهن . . . وقال جودوين :

— لا ينقص الأسرة إلا ابنتى « مارى » ، وهى الآن فى أسكتلندا . وهى أشبه ما تكون بأمها التى ستريان الآن صورتها

وقادهما إلى مكتبه . . ونظر شللى باهتمام وتأثر إلى صورة الفاتنة مارى وولستونكرافت . ثم طفق شللى وجودوين يتحدثان فى : المادة والروح ، والأدب الألمانى ... والنساء يسمعن معجبات . ورأت هارييت شبهاً بين جودوين وسقراط ، وإلى جانبه شللى كأنه أحد مريدى ذلك الفيلسوف الأغريقى القديم !

ونشأت مودة وثيقة بين آل شللى وآل جودوين . وكثيراً ما كان جودوين يمر بالفندق ، ويصحب شللى فى نزهة ، أو تدعو مسز جودوين شللى وهارييت إلى العشاء ، وقد تدعو معهما إليز ومس هتشنر ، وقد تجازف هارييت ، من جانبها فتدعوهم ، هى أيضا ، إلى العشاء !

وفى مساء عيد ٥ نوفمبر كان شللى وزوجه يتعشيان عند جودوين . وبعد العشاء استأذن الصغير « وليم جودوين » ، وكان فى التاسعة من عمره ، ليذهب إلى جاره الصبى « نيوتن »

ليشعلا الصواريخ . وكان شللي في تلك اللحظة يناقش « صديقه الموقر » في إحدى المسائل العويصة ، فأيقظت كلمة« صواريخ » الكيماويّ الخفي فيه ، فقال للصبيّ الصغير : « إني ذاهب معك »

وبعد ما انتهت الصواريخ دعاه الصبي نيوتن إلى والديه . فانساق معه شللي فوجدهما مدهشين . ولم تلبث أن جرت محادثة علمية شائقة بينه وبين المستر نيوتن . وهو رجل له نظرياته التي يطبقها عملياً . وكان متحمساً لفكرة : « أن المخلوقات البشرية ، عند ما غادرت المناطق الاستوائية الحارة ، التي عاشت فيها بادئ ذي بدء ، وصعدت نحو الشمال ، اتخذت عادات مخالفة للطبيعة ، هي التي سببت كل أوجاع الإنسانية . ومن هذه العادات السيئة لبس الثياب ! » . ولذلك كان أبناؤه يروحون ويجيئون في البيت وهم دائماً عرايا ! . . وكذلك كان من العادات السيئة عنده أكل اللحم ، وأسرته كلها نباتية تعيش على الخضر والفاكهة . ومنذ راعت هذا النظام في معيشتها لم تلجأ إلى طبيب ، ولم تحتج إلى دواء .. وكثيراً ما كان شللي يلقى البنات الصغيرات عاريات الأجسام ، يصلحن نماذج كاملة لصنع التماثيل . . وما كان هذا كله إلا ليفتن شللي ، ويجعله من الزوار المواظبين ، فلا يكاد يحضر حتى يخف الخمسة الأحداث متسابقين إلى لقائه ، ولم يكن نجاحه لدى

أمهم وخالتهم مدام دى بوانفيل دون ذلك . . .

وفى أسرة جودوين كانت « فانى » و « جين » تقضيان السهرات الطويلة تصغيان إليه بانجذاب ، فى إعجاب بجماله ، وبقوة حجته . . وصار له فى هذه الأسرة نفوذ لا يطاول . وكان يقضى بين « فانى » الناعمة الخجول و « جين » المتوقدة الحارة الدماء أجمل سهراته ، يمتزج فيها الفكر بالاشتهاء . وكأنما عاد مرة أخرى إلى الليالى الجميلة ، التى كان فيها محوطاً بالأخوات وبنات الأعمام والعمات ، كما يحيط النحل بالقفير ...

أما هارييت فقد كانت عندهن دونه نجاحاً . ولم تلبث فانى وجين أن حكمتا بأنها فتاة محدودة ، وقالتا « مسكين شللى العزيز ! . . فليست له الزوجة التى تنبغى . . . »

وهو شعور طبيعى يخالج الفتيات إزاء الرجل الذى هو ملك غيرهن وكن يتمنينه لأنفسهن . بل لقد أشعرنه يوماً ، بأساوب وخز الإبر ، أنهن لا يرين فيها إلا « سيدة جميلة » وحسب . . فاستنكر ذلك منهن . غير أن وخز الإبر سيدمى قلب شللى مع الأيام ، وينبه ذهنه إلى أشياء لم يكن يلقى بالا إليها !

— ١٥ —

بعد ما ظل هج منفياً عاماً كاملا فى يورك اصطلح مع

أهله ، وعاد إلى لندن ، لإتمام دراسة القانون . وبينا كان يقرأ بهدوء، ذات مساء، فتح باب الغرفة، فإذا شللى ، بلا قبعة ، وصدر قميصه مفتوح ، وحشىّ المنظر ، نورانى التجلى ، أشبه بما كان دائماً : روحاً سماوياً علوياً ، نزل إلى هذه الأرض عفواً أو خطأ

ـ أخذت عنوانك من أستاذك المحامى . . بعد لأى ! . . ماذا فعلت طوال هذه السنة ؟ . . إننى عائد من إيرلندا ، حيث عملت مستشاراً عن الإنسانية لدى الكاثوليك الإيرلنديين ! . ثم قصدنا بلاد الغال البديعة . . هارييت بخير . . وهى تتوقع ولداً . . هل قرأت « بركلى » ؟ . إنى فى هذه الآونة أطالع « هلفتيوس » . . حصيف . . ولكنه جاف !

فجعل هج يتأمله بالإعجاب الحنون الساخر ، كما كان يفعل من قبل ... ليس غير شللى الذى يذكر الفيلسوف الفرنسى « هلفتيوس » منذ أول عبارة يوجهها إلى صديق غادره منذ عام ، بعد كل ما كان بينهما من خصومة جارحة

وكان شللى سعيداً ، مندفعاً بفيض أفكاره ، يفتح الكتب ، ويوجه الأسئلة دون أن ينتظر جواباً عليها ، وكأنما قد نسى تماماً أن هج قد أراد يوماً أن يثلم عرضه ! . . وظل يتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل .. وعند انصرافه قال لهج :

— أرجو أن تجيء غداً للعشاء معنا ، فسوف تسر هارييت برؤيتك . . واعذرنا لوجود مخلوقة كريهة معنا : مس هتشنر . . ولكنها راحلة عنا بعد يومين !

— مس هتشنر ؟ . . شقيقة روحك ؟ . .

— هي ! .. شقيقة روحي ! .. إنها دودة حقيرة تسعى ! . إننا نسميها « الشيطان الأسمر ! . . »

وجاء هج ، فاستقبلته هارييت مغتبطة . وقد زاد ورد محياها نضرة ، وصارت أوفر شباباً وفتنة ، وصاحت :

— يا له من فراق ! .. ولكن لن نفترق بعد اليوم ، فقد جئنا للإقامة في لندن مدى العمر . .

وكانت إليزا جالسة في ركن ، صامتة ، مترفعة . فصافحت هج بأطراف أصابعها ، دون أن تتنزل إلى مخاطبته

فقال هج في نفسه : « لم يتغير بعد شيء في هذا البيت . . فلا بد من أن ألزم فيه الحذر »

وفي تلك اللحظة دخل شللي باندفاع القذيفة . وبسطت مائدة العشاء . وبعد تناول الطعام همست إليزا أشياء في أذن هارييت ، فودّعت هج ، ودعته للعودة صباح الأحد :

— سيكون ذلك يوم سفر « الشيطان الأسمر » ، ويكون الحديث مرحاً . وأنت مرح ، فوجودك يؤدي لنا خدمة .

إنها امرأة فظيعة ، أرادت شللى على أن يتعلق بها . وادعت أنه يحبها فعلا . . وزعمت أنني لا أصلح إلا لخدمة البيت . . وقد وعدها شللى بمئة جنيه معاشاً سنوياً ، على شرط أن تذهب عنا إلى حيث ألقت ! . .

وكان شللى يدرك جسامة التضحية بربع دخله على هذه الصورة . ولكن لا بد مما ليس منه بد . فهذه الفتاة قد أضاعت بسببه وظيفتها ، قال :

ــ الواقع أنها مخلوقة شنيعة ، وما دهشت قط من سقم ذوقى إلا بعد ما قضيت أربعة أشهر معها . . والأدهى من ذلك أنها تنظم شعراً ! . . وضعت مرثاة فى حقوق المرأة ، بدأتها بقولها :
« الكل ، الكل رجال . . والنساء كالآخرين . . . »

ثم انفجر ضاحكاً . . .

وفى صباح الأحد جاء هج حسب وعده . وبدت له مس هتشنر مضجرة ،ولكنها غير مؤذية .. وخرج شللى .. واكتشفت هاربيت فى رأسها صداعاً شديداً يقتضى الوحدة . وحكم على هج أن يخرج ليتنزه مع « الإليزاتين » ! .. وساروا نحو حديقة سان جيمس

وقصرت مس هتشنر حديثها على هج . وناقشته فى حقوق المرأة. ولزمت إليزا الصمت .. وعندما وصلوا إلى البيت قالت لهج :

ـ كيف استطعت أن تتحدث طوال هـــذا الوقت مع هذه المرأة الشريرة ؟ . . . ولماذا شجعتها على المضى فى حديثها ؟. إن هارييت عند ما تعلم بالأمر ستغضب منك ، وتستاء كثيراً !

وبعد الغداء وجه هذا الرجل الخبيث الحديث إلى حقوق المرأة ، وأطلق البطلة المسترجلة من عقالها . فوقف شللى إلى جانبها يناقش بحدة . ونظرت إليه الشقيقتان بحزن وجزع ، كما لوكان مذنباً أثما لاتصاله بالعدو . . وهمست إليزا فى أذن هج :

ـ آه ، لو علمت كم هى قذرة لما دنوت منها ! . .

غير أن ساعة الخلاص جاءت ، فحملوها وصناديقها على عربة إلى منفاها !

ـ ١٦ ـ

كانت الشهور القليلة التى تلت رحيل مس هتشنر من شهور السعادة . وكان شللى وزوجه ما زالا فقيرين ، جوابى آفاق ، ولكن رضاء داخلياً عظيما قد حل عندهما محل الغنى والبيت والحمى . . فقد بدأ شللى نظم ملحمة كبرى بعنوان « Queen Map » . وجعله العمل فيها يستشعر أن الحياة ما زالت خليقة بأن يحياها الإنسان . وكانت هارييت حاملا . وغمرها استرخاء لذيذ ، شبيه بالخدَر ، جعلها تستبقى كل قواها لعملية

الخلق ، ولا تشعر بالضجر لجمود حركتها ، مادام فى باطنها ، يعزيها ، نشاطُ التكوين ، الذى لا يلبث أن يتمخض بالولد

وأقاما خلال هذا الطور مدداً قصيرة فى بلاد الغال وفى إيرلندا . وبدأت هارييت تدرس اللاتينية ، مرضاة لزوجها . وكان يدرسها لها على طريقته ، بلا أجرومية ، ماضياً بها رأساً فى مطالعة « هوراس » و « فرجيل » . . وكان فى خلال ذلك أيضاً ينظم ملحمته ، أو يقرأ كتب التاريخ . فقد قال له جودوين إن جهله بالتاريخ هو من أعظم أسباب أخطائه فى الحكم على الأشياء . وفى المساء تغنى هارييت ، أو يطالعان معاً الصحف ، ويتتبعان أخبار المحكوم عليهم من الكتاب الأحرار الذين كان شللى يكتب إليهم ، دون أن يعرفهم ، يعرض عليهم أن يدفع عنهم الغرامات المحكوم بها عليهم بسبب آرائهم ، وكان لذلك يستدين بأرباح فاحشة ، تبلغ أحياناً أربعمئة فى المئة !

وآنت العودة إلى لندن ، إذ حان وضع هارييت ، وكذلك بلوغ شللى سن الحادية والعشرين ، وهو تاريخ غاية فى الأهمية بالنسبة له ، إذ يحدد علاقاته بأبيه

وسكنا فندق كوك ، فى غرفة ذات شرفة مطلة على شارع ألبمارل . وكانت إليزا تعنى بشقيقتها وتدرّس لأختها سياسة الزوجية :

— من عجب ألا يستطيع زوجك أن يجد سبيلا إلى الصلح

مع أبيه ، حتى تستقبلك أسرته ، وتأخذى فى أسباب الحياة اللائقة بقرينة « البارون » الشاب ! . . ولو أنك كنت أكثر مما أنت فطنة وإقناعاً لكان لك شأن آخر ! . وأنت لا تلبثين أن تنجبى ولداً . وهذه الحياة المزعومة أصبحت مستحيلة لا تطاق ، فلا غنى لك عن بيت فى لندن ، فراشه وثير ، وخيره كثير ، وأوانيه من فضة ، وبالباب مركبتك . . هذا كله وأكثر منه يمكن أن يكون لو أراد شللى . . .

وتأثرت هارييت بهذه الأقوال ، وآمنت . فقد كانت امرأة ساحرة الجمال ، وكانت تعرف ذلك ، والمرأة الجميلة تعد الحياة بلا ترف صعبة لا تحتمل ، كما يعد الرجل الذكى نفسه مغبوناً فى وظيفة حقيرة . . . وكانت نظرات المارة التى تتعلق بها تحدثها عن مدى سلطانها . وكانت تعلم جيداً أن هذا السلطان سريع الزوال ، ينقضى بانقضاء الشباب والجمال . . ومثل الأمة المسلحة تسليحاً قوياً ، تريد أن تكفل لنفسها مكانتها تحت الشمس ، قبلما تسرح جيوشها : مثل المرأة المسلحة بجمالها ، تريد أن تغزو عدوها الرجل ، أو توطد علاقاتها به ، قبلما تدهمها الشيخوخة . وظلت هارييت ، ومن ورائها إليزا تنفخ فيها من روح التمرد والتمرمر ، تلح على شللى ، حتى قرر محاولة التقرب ، من جديد ، من أبيه . وكان كذلك فى شوق لرؤية

أمه ، فكتب إلى والده يعترف بحماقاته ، ويرجو أن تعود الصلات بينهما بثقة تامة ، ولم ينس أن يضمن رسالته تحيات قرينته

فاشترط أبوه لذلك أن يكتب شللى إلى جامعة أكسفورد آسفاً لحدوث ما حدث منه ويعدها بأن يكون باراً بالكنيسة

فاشتكى شللى والده إلى الدوق دى نورفولك . . ولكن إليزا عدّت هذا العناد منه سخيفاً :

— وعلى ذلك فإن هارييت ، وهى تكاد تضع ، لا تجد حتى مركبة توفر عليها الجرى فى شوارع لندن على القدمين ؟ . .

فاستشاط شللى غيظاً ، واشترى عربة بالدين ، وأبى استخدامها ، فقد كان يؤثر النزهات الطويلة مشياً فى شوارع لندن يتحدث مع هج . . وكان عندما يضيق بإليزا يلجأ إلى بيت جودوين حيث « فانى » و « جين » تستقبلانه بأذرع مفتوحة ، أو بيت نيوتن حيث الحنان والذكاء والرقة وحسن المعاشرة ، تسمعه مسز نيوتن أنغامها الشجية على البيانو ، وهو جالس على البساط مع أولادها الذين زهاهم الحسن ، يروى لهم حكايات الأطياف والأشباح . .وتجىء أختها مدام دى بوانفيل ، وكان شللى يميل إليها ، فقد اجتمعت فيها وأختها استنارة الذهن ودماثة الطبع ، وهذا فى المرأة خلاصة الحضارة . . ومن ثم وجد فى بيتهما أقصى ما يتمناه من هناء الروح . وكانتا

تقولان عنه : « أى شيء أبدع وأروع من قديس فى ثياب رجل المجتمع الراقى؟ ! »

وكان هج يغبط صديقه شللى على مناورات كل هؤلاء النسوة الفاتنات الذكيات من حوله ، وانكبابهن هكذا عليه ، وإحاطتهن به ، ينازعن فيه فتيات جودوين ، ويزاحمنهن عليه !

وقد يمضى الليل وشللى يتحدث بحمية ، وكأنما هو الإله الجميل « أدونيس » ، المحوط بالعذارى المسحورات ، والكاهنات العابدات ، والنساء الفاتنات . . وقد يطلع الفجر عليه وهو ما زال يحاورهن . . ولا ينتهى الحوار بالنوم ، بل ينتهى هذا الحديث فى الليل بنزهة خلوية ، تحت ندى الصباح . . .

وكان هج يتساءل : ماذا كان يقول طوال ليله فى نادى الجمال ؟ . . إن شللى نفسه ليس يدرى ! .

وكذلك كانت هاربيت تتساءل عما يمكن أن يقوله زوجها لكل هؤلاء النساء .. وكانت على وشك الوضع ، فهى لا تخرج مطلقاً . .

— ١٧ —

وضعت هاربيت طفلة ذات عينين زرقاوين وشعر من ذهب . فدعاها أبوها « إيانتا : Iantha » ، تكريماً لذكرى

« أوفيد » شاعر اللاتين القديم . وأضافت أمها إلى الاسم :
« إليزا » ، تكريماً لأختها

وكان شللى يدور بالطفلة على ذراعيه ، وهو يهزها ، ويغنى لها من أشعاره ! وكان قد طاب نفساً ، وقرّ عيناً . بأن يربى مخلوقاً جديداً على مبادئه ، فينقذه ، منذ نعومة أظفاره ، من الأحكام المبتسرة والتعصب. وكان — وهو المعجب بچان چاك روسو — يظن أن هارييت سترضع بنفسها طفلتها . بيد أن هارييت ، وأختها من ورائها تحرّضها ، قد رفضت إرضاع بنتها. فاكترت مرضعاً لتتولى ذلك عنها ، وتغيرت الأم ، على وجه غريب ، منذ مولد « إيانثا » . فانقطعت عن دراسة اللاتينية . . ولم تعد ترغب فى غير التنزه والوقوف أمام واجهات الأزياء والجواهر . . وكان شللى لا يغتفر مثل هذا التهافت . وكان على استعداد ليدفع تكاليف كل النزوات « المعقولة » لامرأته ، أما المال «الضرورى جداً !» لإعانة الكتاب الأحرار المضطهدين ، وغير ذلك من الوجوه الحقة ، فإن إنفاقه فى خرق ثياب وشرائط برانيط أمر أشد ما يكون خزياً !

وعندئذ عنيت إليزا بتفسير مشاعر شللى لهارييت :

— إن زوجك يجد المال ليدفع ديون صاحبه جودوين الذى تستقبلنا زوجته شر استقبال . . ثم يجد المال ليدفع غرامات كل

كويتب « صعلوك » . . ولكنه لا يجد مالا لتلبس امرأته ثوباً على جسمها ، وقبعة على رأسها ! . . وإذا كنت لا تلبسين الآن وتظهرين ، فى الثامنة عشرة ، فمتى تفعلين ؟ . .

وشجعت إليزا على التردد على البيت ضابطاً فى الجيش يدعى : «الكابتن ريان» ، تعرفوا به فى إيرلندا ، وكان يرى أن شابة شائقة مثل هارييت جديرة بحياة مترفة. وكانت هارييت مستعدة للمصادقة على رأيه . ترى أنها ، إذ تتردد على محال البيع والشراء ، تلبي ميلها وطبعها ، كما يلبي شللى أهواءه بالمكث الطويل فى بيت « نيوتن — بوانفيل » !

ورأى شللى أن المقام فى لندن كان سبب الشر كله . فخالجته الفكرة التى تعرض عادة للمحبين إذا ما عكر صفوهم شيء ما زال غامضاً ، وهى زيارة الأماكن التى شهدت ذروة الحب. . وأعدت مركبة هارييت. . واستلف شللى خمسمئة جنيه بتوقيع سند بألفين من الجنيهات تستحق الدفع من ميراثه . وسار الركب يحج إلى إدنبره ، وإليزا — التى لا مفر منها — على رأسه

وعادوا أسعد مما سافروا . ولكن لم تكد تستقر بهم النوى ، حتى أصرت هارييت وإليزا على شقة جميلة ، وثياب فاخرة ، ومجتمعات راقية ! . . وشللى يمقت هذه جميعاً ، ويمقت ، أكثر منها ، فكرة تعلق زوجته بها . . إنه ما زال يحبها ، غير أن سماء

حبه قد عبرتها لمحات احتقار ، كومضات برق سريع خلّب !

وجاء هج لزيارتهم . فوجد هارييت أشد فتنة ونضرة . ولكنها لم تكن تعرض عليه أن تطالع له فى كتب الفضيلة ، بل سألته أن يصحبها إلى صانعة قبعات ذائعة الصيت . . وهناك اختفت عندها ، تاركة هج ينتظر على الرصيف . فرأى أنها بدأت تكون مملة ، فضاق بها . . ولم يخف ضيقه بها عن شللى ، الذى كان كذلك قد عيل صبره !

وهكذا وصل الزوجان إلى منزلق خطر !

* * *

عندما دعت مدام دى بوانفيل شللى وهج لقضاء بضعة أيام فى بيتها الحاوى فى « براكنل » لبيا بابتهاج . وهناك وجدا بنتها « كورنيليا » ، الفتاة الجذابة ، المثقفة ، الحزينة . . كما وجدا أختها « مسز نيوتن » . . وأخذت كورنيليا تعطيهما دروسا فى اللغة الإيطالية . . وكانت أمها تفسر بصوتها النقى تعاليم الفلاسفة الفرنسيين السمحة ، وتردد كلمة « شمفور » : « أن تستمتع بالحياة ، وأن تمتع بها سواك ، دون أن تسىء إلى إنسان ، هذا هو الخلق المصفّى ! » . . وكانت هذه الكلمة خليقة بأن تثير استنكار شللى . . فالمسكينة هارييت لم تقل قط شيئاً مخالفاً إلى هذا الحد للفضيلة

وكان من عادة كورنيليا أن تردد كل صباح أنشودة من أناشيد « بترارك » . . فإذا ما خرجت لتتمشى بين الشابين فى الحديقة علّقت على نصوص الحب ، بفصاحة ، وبساطة ، قائلة :

– ما أحسن أن يُستهل النهار بجرعة من الحنان ، تلطف كافة أفكارنا ، وأقوالنا ، وأفعالنا ، حتى يجىء الليل ! . .

وطاب مقام شللى فى هذا البيت البسيط البهيج ، ودعيت هارييت ، واستقبلتها مدام دى بوانفيل بعطف . وقالت لهج :

– إنها إنسانة جميلة جداً ، وقد تلوح لى طائشة نوعاً ما ، غير كفء لمثل عزيزنا الفيلسوف اللذيذ . . ولكن . . أليست فى الثامنة عشرة تماما ؟ . .

وأحست هارييت بأنهم لا يعاملونها معاملة الند للند . ورأت كيف يروق شللى أن يقرأ « بترارك » مع كورنيليا أكثر مما تروقه المناقشة مع زوجته فى وسائل تحسين معيشتهما . فأسرفت فى المرح ، وعدم الاكتراث . ولما طفقت الجماعة تجادل فى الفضيلة جدالا حاراً رآها شللى تتبادل البسمات الساخرة مع هج ، ومع پيكوك ، وهو صاحب جديد لهم ، سفسطائى متشكك . وما كان شللى ، إذا تسامح فى تهكم هج ، ليتسامح فى تهكم امرأته . فوجم وحزن . . وعزا ذلك منها إلى الصبيانية . . وكانت غيرى من كورنيليا . فأبدى لها شللى فتوراً ، وعاملها بازدراء !

وعندئذ تسلحت بالكبرياء ، وانقلبت شراً مما كانت . وقالت لنفسها : « إن إليزا على صواب . . فهو أنانى ، يدّعى الكمال . . ألأنه يحب هذه العيشة الكئيبة والمناقشات البليدة يريد أن أحبها ؟.. بأى حق يحول بينى وبين أن أستمتع بحياتى ؟ وفيم تمتاز عنى كورنيليا ، إذ تطالع له « بترارك » ؟ ! . إن هؤلاء النسوة ، اللواتى يعجب بهن ، لسن فى نضرة شبابى ، ولا فى جمال صورتى »

وأعلنت عزمها على العودة إلى لندن ، شوقاً إلى أختها إليزا .. فلم يلحوا عليها بالبقاء . . وقالت نساء بوانفيل ما قالت من قبل آنسات جودوين : « إن شللى المسكين ، ليست له المرأة الجديرة به » !

وتعودت هارييت أن تتركه فى « براكنل » . وتعيش فى لندن مع إليزا .. ولم يلبث شللى أن أخبره « الأصدقاء الخلصاء » بأن هارييت كثيراً ما تشاهد بصحبة الماچور ريان . ولأول مرة ، منذ زواجه ، لاح له أن الخيانة شيء محتمل الوقوع بالنسبة لشخصه وشخص هارييت ، وطغى عليه عذاب أليم !

وكان العقل ينصحه بالخلاص من امرأة عادية جداً . بدت نقمتها الوضيعة بما أظهرت من سخرية به ، وإذا لم يكن بعد يحبها ، أو ليس الفراق هو أبسط الحلول ؟ أو لم يكن من رأيه دائماً : أنه فى اليوم الذى ينطفىء فيه الحب يسترد كل من الزوجين حريته ؟ .

غير أنه اكتشف أن هارييت وستبروك ، وپرسی شللی ، لم يعودا مخلوقين منفصلين حرين . فإن ما كان بينهما من ذكريات ومن متاعب وآلام ، قد ربطهما برباط خفى

فهرع إلى لندن يقدم إليها اعتذاراته ، ويعترف بأخطائه . ولكنها تلقته بخشونة وسخرية ، فاستحالت بينهما كل مطارحة قلبية !

ومرت بشللى لحظات رأى فيها ، من وراء قناع الجفاء والكبرياء الذى تقنعت به هارييت ، صورة سريعة عابرة من هارييت السابقة ! . فراح يهيم على وجهه مفكراً : « كم كنت مجنوناً ! . . فقد ربطت نفسى للأبد بامرأة لا تحبنى ، وهى لم تحببنى قط من قبل . إنها لم تتزوجنى إلا طمعاً فى ثروتى واسمى .. أما وقد رأت أن آمالها خابت فقد انقلبت تعاقبنى على غلطتها ، وتنال منى .. » .. وكرر لنفسه باشمئزاز : « قلب من ثلج . . . لوح من ثلج ! . . »

لو أنه لقيها وحدها لأذاب ثلجها ، ورد إليها حرارة قلبها . ولكن إليزا كانت واقفة دائماً بينهما ، والماچور ريان ، الكيس الكريم ، مستعد لأن يرق حيث يقسو الزوج !

فلما رأى شللى أن هارييت ممعنة فى صلابتها وعنادها سقط فى يده ، وكتب إلى أصحابه فى براكنل يعلن حضوره لقضاء شهر عندهم من دونها . . وكان يعلم أن هذه الفترة الممتعة

ستعقبها نكبة قارعة ، لا بد واقعة . . ولكنه كان من الضنى والكلال بحيث ألقى السلاح !

— ١٨ —

وتمر أيام على شللى ، يتذكر فيها المحيّا الطفل الجميل ، الذى وهبه الله لزوجته ، فحاول ، فى قصيدة حزينة تثير الشجون ، أن يطلعها على مبلغ شقاوة ذاك الذى عاش تحت شمس نظراتها الحارة ، كيف لا يجد بعد إلا الفناء تحت طبقات الجليد ، التى راكمها فوقه صدودها !

ولكنها زادت بعداً على بعد ، وصداً على صد ، وأمعنت فى تعاليها وكبريائها ، وما كاد يعود إلى لندن حتّى غادرتها إلى بلدة « باث » !

وكان شللى مضطراً إلى الإقامة فى المدينة . فقد بلغ سن الرشد ، وأنذره محاميه بأن أسرته قد ترفع عليه الدعوى لتجريده من حقوقه . ومع أنه كان مغرقاً بالديون فقد أصرّ على تخليص جودوين من ديونه بعد أن فشلت مكتبته ، وكان يلزم لإنقاذه ثلاثة آلاف من الجنيهات الإنجليزية ! . .

فما كاد جودوين يعرف ذلك حتّى تهافت على تلميذه الذى أصبح « أعزب » فى لندن ، و « نصفه الأفضل » فى

الريف إلى أجل غير مسمى . . فصار يدعوه للعشاء كل ليلة

وكان شللى يتقبل الدعوة لكى يرى البنات . . . وقد أخبره جودوين أنه سيلقى « مارى » التى عادت من أسكتلندا ، ورسمها له فى صورة جميلة : سبعة عشر ربيعاً ، روح حى جذاب ، وعقل مستنير ، وخفة ، ورشاقة ، وهمة ، ورغبة شديدة فى المعرفة ، ومثابرة لا حدّ لها . . وكانت « فانى » و « جين » قد سبقتا فوصفتاها له بأنها لا يعدل ذكاءها إلا جمالها . وكان قد سبق له الاطلاع على أدب أمها « مارى وولستو نكرافت » ، وحمل لها أشد الإعجاب

كان فى حاجة إلى أن يجسّد فى شكل امرأة جميلة : القوى الخفية الخيرة ، التى يتخيلها مبعثرة منثورة فى أرجاء الكون . . . وكان الحب ، عنده ، إعجاباً هائماً ، وإيماناً وطيداً ، ومزيجاً شائقاً كاملا من الاشتهاء ، ومن الفكر والذكاء . . .

وكانت مارى هى التى ينتظرها . . فتقرر مصيره

كان المحيّا نقيّاً ، شفافاً ، فى شحوب . . والشعر يتدلى على جانبيه ، فى غدائر ناعمة ، كسبائك ملتوية من ذهب . . والجبين مرفوع . . والعينان بلون البندق ، جادّتان فى حنان . . وهناك الذكاء الثاقب ، والإحساس المرهف ، والبسالة الحزينة

فأوحت إليه ، ونفخت فيه

قال لنفسه وهو يصغى بانجذاب إلى صوتها الفتىّ الشجى :
« يا للجد ، ويا للحس ! . . » . . فتاة ، هى تحفة الفن العليا
وود لو أسرع فحملها بعيداً ، محلقاً بها ، على جناحيه ،
إلى مملكة سحرية غريبة ، فيما وراء الطبيعة ! . .

ما أبعد مارى هذه عن هارييت ، تلك التى لم تعرف كيف
تحقق له هذا المثال ، الذى يؤلف بين العقل والجمال . . ولم
تستطع اجتياز امتحان الزمان العسير .. فكانت مدللة ، طائشة ،
بارعة فى مكائد النساء !

أما مارى فرقيقة ، مرهفة ، ماضية حادة كالسيف المهنّد
المصقول . . رباها مؤلف « العدل السياسى » . . فتحرر عقلها
من خرافات النساء

وكان شللى يقضى الساعات يتأمل . . .

وكانت على استعداد لأن تحبه . فالتحضير الرومانتيكى
لخيالها قد قامت به أخواتها اللواتى ظللن شهراً كاملا لا يحدثنها
فى رسائلهن إلا عن شاعرهن الجميل . . وها هى ذى ترى أن
الخُبر يفوق الخَبر . ومع أنه لم يكن يشكو فقد أحست حزنه !

وذات مساء حدثته بشجونها . فهى تعبد أباها ، ولكنها
تمقت زوجته . والمكان الوحيد الذى تستريح إليه هو قبر أمها ،
تذهب إليه كل يوم تطالع عنده ، وتتأمل . .

ومرة أخرى، بعد خمس سنوات ، رأى شللى نفسه جاثياً فى مقبرة إلى جانب عذراء جادة مولعة . . . وهكذا تجسّد معبوده، مرة أخرى، فى شكل امرأة ! . . لكنه لم يعد حراً . لقد كان متزوجاً ! ولا مراء فى أن الزواج ليس إلا عرفاً ، فمن لم يعد يحب فلينطلق من إساره . وهو لم يَعِد هاربيت بشىء غير هذا . وهو يظنها صارت خليلة للماچور ريان ، فهو لا يتحرّج من شىء إزاءها ! غير أن زواجه كان شرعاً لا يمكن التحلل منه . . فماذا عنده ليقدمه إلى مارى ؟ . . أفى مقدوره أن يرضى لها ذلك الوجود المستهجن ، الذى لم يشأ أن يفرضه على حبيبته الأولى ؟

على أن حباً متبادلا ، ولو كان بلا رجاء ، هو خير من : الشك ، والوحدة ، والحرمان . فكاشف مارى بحقيقة حياته الزوجية ، فوصف لها ما أصابه من الخيبة الروحية فيها . وكان بحاجة إلى رفيقة تشعر بالشعر ، وتدرك حكمة الحكماء . . وما كانت هاربيت لتستطيع هذا ولا ذاك !

وأهدى إلى مارى نسخة من ديوانه . وكان الديوان مهدى إلى هاربيت « ملهمة هذه الأغانى » . . فكتب تحت هذا :

« كان الرجل يوشك أن يتزوج امرأة، لم تنجذب نحوه إلا من أجل ثروته ، فبرهنت على أنانيتها ، بالتخلى عنه ، وهجره فى سجنه »

ولما عادت مارى ، واختلت بنفسها ، أضافت :

« . . . لا أستطيع أن أكون لك ، ولن أستطيع أن أكون لسواك ولكنى لك وحدك ، لا شريك لك : بالقبلة الصامتة ، والنظرة المختلسة ، وبالابتسامة التى تراها ولا يراها الناس . إننى وهبتك نفسى . . والعطاء مقدس » . . .

هذه النظرات التى لا يراها أحد ، وهذه الابتسامات التى لا يفهمها أحد، قد رآها جودوين ، وفهمها . . وأخذه القلق ! فطلب إلى ابنته أن تكف عن لقاء شللى . وكتب إليه ينصحه بأن يصالح زوجته ، وسأله أن يكف عن زياراته !

كان هذا عاملا على استعجال الحوادث . . فقرر شللى ، الهائم بمارى ، المحروم منها ، أن يضع لذلك حداً . وكان رغم تأكيدات صاحبيه پيكوك وهج يصر على أن هارييت مذنبة !

قال لنفسه : « إن شيئاً واحداً يهمها : المال . . . وسأكفل من هذه الوجهة مستقبلها . . وتسترد حريتها » ! . .

ودعاها إلى لندن وأخبرها بنيته فى هدوء وعطف . وكانت مريضة فى حمل لأربعة أشهر ، فضاعفت الصدمة مرضها ، واشتد الخطر عليها . . فسهر شللى على معالجتها ، وتفانى فى خدمتها ، فزادت شقاء

وما كادت تتماثل حتى استأنف محاجته التى لا تلين :

— إن اتحاد الجنسين مقدس ، طالما هو يشمل الزوجين

بالهناء ، وهو ينحل طبعاً من تلقاء نفسه ، بمجرد ما يزيد ضرره على نفعه !

فضاقت الدنيا بهارييت ، ولم يكن لها بد من جواب تجد به مخرجاً ، ولكنها لم تجد ما كان ينبغي أن تقوله .. فحلمت بأنها تتخبط وسط جدران عالية غير منظورة ، مطبقة عليها ، كمن يتخبطه الشيطان من المسّ . .

وسخطت على مارى . إنها هى السبب فى هذا كله ، أخذت شللى من زوجته ، واستغلت تعلقه بالخيال ، واستخدمت ذكرى أمها فى لعبة شائنة !

ولم تشعر مارى بذرة من الشفقة على هارييت . فصورتها فى أبشع صورة : « إن امرأة كان من سعدها أن اقترنت بشللى ، فقصّرت فى إسعاده ، لا يمكن أن تكون إلا مخلوقة أنانية ، طائشة ، خاملة » . وكانت تعلم أن شللى سيعامل هارييت بسخاء وأنه سيصدر أمراً إلى وكيله ليدفع لها أكبر نصيب من معاشه ، وهو ما يريح ضميرها . . وقالت : « سيكون لها المال ، وهو كل ما يعنيها »

وكان شللى فى حالة يرثى لها من الهياج العصبىّ . إن نوعاً من العبث العاطفى قد أثار فى نفسه مشاعر متضاربة . فلما رأى هارييت تسقط فى هوة من اليأس والقنوط لم يستطع أن ينسى

يوم كانت رضيّة ممتعة . ولكنه لم يكد يعود فيلقى مارى حتى عبد منها : لطفها ، ورقتها ، وجدّها . . ولكى يهدئ من ثائرته ساعة أو بعض ساعة تعاطى خلاصة الأفيون ، وزاد فى تعاطيها يوماً عن يوم . . وأظهر صاحبه بيكوك على الزجاجة قائلا : « إنها لا تفارقنى أبداً »

وكان يردد بلا انقطاع قول سوفوكليس : « يا ليتنى ما وجدت فى هذه الدنيا ، ولا اكتحلت عيناى بنورها ، إذن لكنت أكون من المسعدين . . أما وقد طلع علىّ النهار ، فما أحرانى بأن أعود من حيث جئت . . لا ألوى على شىء . . »

الجزء الثانى

— ١٩ —

أوصى شللى بعربة السفر للساعة الرابعة صباحاً . وظل ساهراً متربصاً ، سواد الليل كله ، أمام بيت جودوين . وأخيراً فتحت مارى الباب الخارجى ، قليلا ، بلا صوت ، وهى فى ثياب السفر . وكانت أختها « جين » تتحدث معها بصوت منخفض مشرفة على الحقائب باهتمام !

وتعبت مارى من السفر المتواصل الطويل ، غير أن شللى لم يجرؤ على التوقف ، خشية أن يكون جودوين فى أعقابهم . ثم بلغوا فى نحو الساعة الرابعة مساء ميناء دوفر ، وعبروا المانش إلى كاليه فى مركب صغير

وكان مساء جميل . ورأى الهاربون أنهم نجوا ، وصاروا فى أمان . وكانت مارى قد اشتد بها المرض ، فقضت الليل مضطجعة على ركبتى شللى ، يسند رأسها على كتفه ، ويعنى بها جهده . وغاب القمر وساد الظلام التام ، فانطلقت زوبعة هوجاء ، كان برقها الراعد يضرب بالسياط وجه البحر الأسود الماء ، فتثور مياهه ، وتنتفخ ، وتفور . وأخيراً بزغ النهار ،

وصحا الجو ، وطاب الهواء ، وطلعت الشمس وردية شقراء على فرنسا

وانتعشت مارى من سباتها ، وقضوا يومهم فى خان ، حتى وصلت سفينة بريد دوفر حاملة حقائبهم وحاملة معها أيضاً مسز جودوين ، جاءت لتقنع ابنتها « چين كليرمون » ، على الأقل ، بالعودة معها . غير أن فصاحة شللى فازت بها . وعادت مسز جودوين وحدها

وفى الساعة السادسة غادر المسافرون كاليه إلى بولونى فى مركبة تجرها ثلاثة خيول ، تجرى خبباً . . .

وكانت خطتهم تقضى بالذهاب إلى سويسرا ، ولكن بضعة أيام فى باريس أتت على ما فى كيس نقودهم . وكان معهم خطاب لرجل أشغال فرنسى ، يدعى « تاڤرنييه » ، ليحصل لهم على مال . ورهن شللى ساعته وسلسلتها لقاء ثمانية بنتوات ذهبية ، كفلت لهم الطعام خبزاً وجبناً خمسة عشر يوماً ، وفى آخر الأسبوع قبل تافرنييه أن يقرضهم ألفا ومئتى فرنك ، وهو دون ما يكفى نفقات السفر فى مركبة البريد ، فقرروا الرحيل على الأقدام ، وشراء حمار لحمل العفش وركوب مارى . فذهب شللى إلى سوق البهائم ، وعاد إلى الفندق بجحش صغير . وفى الصباح التالى استقلوا عربة إلى أبواب شارنتون على الحدود ، والجحش يتخبط سعياً وراء العربة !

وبعد بضعة أميال تعثر الجحش من التعب ، فاضطر شللى وجين إلى حمله ! . . وفى القرية التى باتوا فيها باعوه إلى فلاح ، واشتروا بدلا منه بغلة ! . وكانت آثار الحرب والدمار بادية على البلاد ، فالقرى خربة ، والبيوت بلا سقوف ، والجدران المهدمة سوّدها دخان النار ، وكانت الأسرّة فى النزل الحقيرة قذرة ، والفئران الهائلة تصول وتجول حولهم فى الظلام . فاختاروا النوم فى مطابخ القرويات !

وتساءلت مارى بقلق عما يمكن أن يكون قد أصاب أباها ألماً من هربها . .

وكان شللى مشغول البال على مصير هارييت ، فكتب إليها خطاباً طويلا يسألها أن تلحق بهم فى سويسرا لتسكن بقربهم !. وستجد فيه على القليل صديقاً لا تشوبه من الأنانية شائبة . ورأى من الطبيعى أن يطمئنها على صحة مارى !

ولم ترد هارييت على الخطاب

ووصلوا من نيوشاتل إلى منطقة البحيرات . وأراد شللى الاستقرار فى « برونن » قرب معبد غليوم تل ، المدافع عن الحرية . وكان البيت الوحيد الخالى هناك : قصراً عتيقاً مهجوراً كالطلل البالى ، فاستأجروا فيه غرفتين لستة أشهر ، واشتروا أسرّة ، وكراسىّ ، ودواليب ، وموقداً . وبدأ شللى فى يومه

قصة كبرى : « السفاحون The Assassins » ، كأنه قد طاب مقامه ، واستقرت أيامه ! . .

بيد أن الموقد الجديد لا يشتعل . والحجرة مثلجة ، ممتلئة منه دخاناً . ومن الخارج المطر يضرب زجاج النوافذ بسياطه الرفيعة . ووجدوا أنفسهم فى وحدة موحشة . فتذاكروا حديث بيوتهم الإنجليزية الجميلة ، والشاى الإنجليزى الساخن الزكى ... والجو الإنجليزى الملبد بالغيوم ، وهو مع ذلك لا يخترم برده الصدور . . والرجال الإنجليز الذين يتكلمون بلسانهم ويعرفون نطق أسمائهم .. حتى المرابون الإنجليز مجاملون ، وإن كانوا ينهبون

وأحصى شللى ما بقى لهم ، فلم يجد إلا ثمانية وعشرين جنيهاً !

— فلنعد إلى بلادنا ! . .

لم يكد شللى يقول ذلك حتى قر قرارهم على الرحيل ، وأحسوا بالفرح والمرح . وقالت جين :

— يا للمضحكات المبكيات : أهكذا نغادر ، بعد ثمان وأربعين ساعة ، الغرف التى استأجرناها لستة شهور ، وأثثناها بمالنا ! . . لقد زعمت إذ رأيت صخور دوفر تبتعد عنا ، والشاطىء الإنجليزى يختفى ، أننى لن أعود فأرى من ذلك كله شيئاً . . . والآن . . .

وفى الصباح التالى حملهم مركب إلى لوسرن . ومن لوسرن

بلغوا بال ، ثم كولونيا . وفى المساء غنى البحارة تحت ضوء النجوم أغانى الهوى . . وشللى يعمل فى قصته « السفاحون » ، ومارى وجين ، كلتاهما تبدأ فى وضع قصة جديدة أيضاً !

ثم حملتهم مركبة البريد الهولندية إلى روتردام ، فوصلوها وليس فى كيس نقودهم دانق واحد ! . . وبعد مناقشات طويلة مع قبطان إحدى السفن قبل أن يحملهم معه . . وقطع شللى الرحلة بطولها وهو يناقش أحد الركاب فى مسألة النخاسة والرقيق . وأيدته مارى وجين وهما تجهلان تماماً ماذا تأكلان غداً ، وإن كانتا تعلمان أن برسى شللى عبقرىّ ، وأن الإنسان حيوان ، ينشأ ، ويتقدم ، ويرتقى . . . وقد يكمل ! . . .

— ٢٠ —

عندما وصلوا لندن لم تكن معهم أجرة العربة التى أقلتهم . فاتجهوا بها إلى المصرف . وهنالك علم شللى أن هارييت قد سحبت رصيد حسابه ! . . فذهبوا بالعربة لمقابلتها . . فظنت أن زوجها قد عاد إليها . . ولكنها استنكرت وسخطت عندما علمت بأن غريمتها واقفة بالباب . . . ومع ذلك أقرضت شللى بضعة جنيهات ، مكنت الجوّالين الثلاثة من سكنى بعض الغرف المفروشة الحقيرة !

ورفضت أسرة جودوين استقبال العصاة الهاربين . وترافع شللى ، مدللا بأنه إنما طبق مبادئ « العدل السياسى » . . ولكن ما كان هذا إلا ليزيد فى ثورة جودوين وسخطه فقد كان « العدل السياسى » عنده كتاباً نظرياً لا يمكن تطبيقه فى وسط مجتمع محافظ لا يرحم ، وفى ذات بيته ، وبين أفراد أسرته ، وفى أعز شخص لديه ، وأكثر من ذلك كله تحريف آرائه ، وقلب مبادئه .. لا ، ثم لا .. إنه لن يصفح عنهم أبداً !

كان شللى قد استدان مبالغ طائلة جداً ليقرضها لوالد مارى ، فما كاد المحضرون يعلمون بعودته حتى بدأوا فى مطاردته واضطهاده . ولم يكن جودوين ، إزاء شللى ، عاجزاً عن السداد فقط ، ولكنه كان فى حاجة إلى مبالغ جديدة منه !

وكانت هذه المسائل المالية هى التى أرغمته على المضى فى مراسلة شاب خائن فاجر . . وكان ضميره يعذبه كثيراً لهذا الاضطرار . . أو على الأقل كان هذا ما يقوله فى كل خطاب !

وكانت هذه المراءاة من رجل طالما أعجب به شللى ، وعبدته مارى ، سبباً فى حزنهما ، فكانا يقولان ، وهما يتنهدان : « آه منك أيتها الفلسفة ! . . »

أما مسز جودوين فقد كانت ناقمة عليهما لأنهما أفسدا عليها بنتها التى ليست من جودوين ، وحظرت على «فانى» اللطيفة

أن تزورهم . وذهبت هى مرة واحدة لترى « جين » ، فلقيت شللى فى السلم ، فلوت عنه رأسها ، وطوت كشحها ! . .

وكانت العلاقات بهارييت تارة سهلة ، وتارة صعبة ، تبعاً لتقلبات طبعها . ولم يكن ينقصها شىء ، وما زالت لديها فضلة من مال شللى ، غير المعاش الذى أجراه عليها الخمار العجوز . . ولكنها كانت حاملا ، أشقى ما تكون . . .

وكانت صاحباتها يقلن لها إن لفحات الهوى قصيرة الآجال سريعة الزوال . وإن زوجها سوف يعود إليها . وعندئذ يستخفها الرضا . وتكتب إلى شللى خطابات ودية . وكانت تعتقد أن مارى هى أس الشر ، وقد سحرت برسى بما تقصه عليه من حكايات خرافية .. وهو فى الواقع طيب القلب ، ولن يهجرها ومعها طفلاه

وكانت أحياناً تعصف بها نوبات حزن وسورات غضب ، فتحاول أن تزيد فى متاعب الشخصين الممقوتين : فتستدين ، وتبعث بالدائنين إلى شللى . وتروى للناس أنه يعيش عيشة الخنا مع فتاتين من بنات جودوين . وتذهب لتلقى دائنى جودوين ، تحرضهم ، ليمعنوا فى قسوتهم . . وتسمع مارى بهذا كله ، وهى لم تر قط هارييت ، فتتنهد قائلة : « يا لها من امرأة فظيعة ! . . »

وفى يوم من نوفمبر شعرت هارييت بآلام ، وتوهمت أنها مريضة جداً . . فبعثت إلى شللى ليلا ، فهرول إليها . فلم يكد

يبدى اهتمامه بها ، وحدبه عليها ، حتى ذابت حناناً . . . لكنه دفعها عنه بحزم رفيق . .

وفى آخر نوفمبر وضعت ولداً ابن ثمانية أشهر . . ولم يؤد مولده إلى مصالحة أو وفاق . وكان شللى يشك فى أن الولد ولده!

أما مع مارى ، فبالرغم مما هما فيه من شدائد وخطوب ، فقد كانا سعيدين يعدان الحياة فرصة ، أو جامعة يبحثان فيها ويتعلمان ، وكانت تصحبه فى زياراته للمحامين والمحضرين . . وإذا ما راح على شاطىء النهر يلهو بحشد أسطول من الورق تجلس هى إلى جانبه ، وتبنى له السفن . وأخذت نفسها ، تحت إشرافه ، بدراسة اللاتينية واليونانية . وكانت أوفر ثقافة من هارييت ، فلم تر فى هذه الدراسات سبباً للضجر أو السآمة ، بل رأتها مضاعفة لمسراتها ، فإن القبلة المتبادلة بين شخصين مثقفين ثقافة أدبية مشتركة تكون أحر وأحلى

كانت الغيمة الوحيدة فى سمائهما هى أختها « جين » التى رأت أن اسمها « جين » قبيح ، فاتخذت لنفسها اسم « كلير »! وكانت فتاة لامعة ، جميلة ، ولكنها عصبية دقيقة الشعور سريعة التأثر . ولم يكن أشد خطراً على أعصابها من العيش المتصل المقيم مع شاب وشابة عاشقين . وهى تحمل لشللى إعجاباً قوياً حاراً ، وتبديه بجلاء أكثر مما يحسن . . وكانت مارى تشكو من ذلك ،

ولم ير شللى فى هذه العاطفة ما لا يجوز أو ما لا يليق !

وكانت مارى تنتظر ولداً فلزمت البيت، وساق شللى معه «كلير» إلى المحامين والمحضرين، وإلى شاطئ النهر ، ورجا منها أن تسهر معه الليل الطويل . وحدثها عن : هارييت ، وعن مس هتشنر « شقيقة روحه ! » ، وعن أخواته . . .

وكان يحب : البوح ، والإفاضة ، والتحليل الفكرى ! وبدت له الصراحة الخالصة التامة أسهل وأيسر مع كلير التى لم تكن خليلته . ولم تستطع مارى على هذا كله صبراً ، فلم تخف فروغ صبرها ، فانكمشت كلير من عتاب أختها ، وتمرمرت ، ولزمت الصمت الكئيب . .

وفى المساء ، آوت مارى إلى فراشها . فحاول شللى أن يهدئ من ثائرة كلير ، وأن يسرّى عنها . . فأخذ فى رقة وأناة يفسر لها العواطف المتضاربة فى حزبهم الصغير . وكان من اللطف والعطف بحيث اقتنعت ورضيت ، ولما لحق بمارى أعاد على مسمعها ما كان من حديث . وسمعا فوق غرفتهما كلير تمشى وتتكلم فى منامها . . ثم لم تلبث أن نزلت . فقد كانت أعصابها من التوتر بحيث لم تستطع البقاء وحدها . فأخذتها مارى فى سريرها ، وصعد شللى للنوم فى الغرفة العليا

وتكرر هذا الفصل مراراً . . .

وأصابت عدوى الأعصاب المتوترة شللى . ففى ذات ليلة ، بعد حديث عن الأشباح وظهور الأرواح هزيعاً من الليل ، انتهى بهم الأمر جميعاً إلى الخوف والرعب !

* * *

كان حكم مارى على هج قاسياً . فهى تعده ، على خفة روحه ، يخطئه الجد فى نظرته إلى الأمور . وكانت محقة فى ذلك لأن هج قد لبس قباء المحافظين من أهل وطنه ، وصار نصيراً للتقاليد . وقال مرة لشللى : إنه يرى مارى حسناء وافرة الذكاء ، فنقل شللى رأيه هذا إلى مارى ، فلما زارهم على أثر ذلك بدأت مارى تستلطفه . . واندمج فى جو هذا البيت مرة أخرى ، يترجم ويطالع مع مارى وكلير . ويصحبهما إلى صانعة القبعات . . لأنهما كانتا أيضاً تذهبان إليها مثل هارييت المسكينة ، ولكن بروح أخرى . . فالقبعات عند مارى لازمة متواضعة ، أما عند هارييت فكانت هواية وهياماً !

— ٢١ —

حملت خادم « البيت المفروش » خطاباً من سيدة تنتظر على الرصيف المقابل . وكان الخطاب من فانى ، ينذر شللى بأن دائنيه يعدون العدة للقبض عليه ، فنزل إليها شللى وكلير مهرولين ،

فما إن رأتهما حتى ولت هاربة . ولكن تلميذ « أيتون » عدّاء سريع ، فلم يلبث أن لحق بها . فأخبرته بأن المحضرين يبحثون عنه، وأن ناشره أعطاهم عنوانه ، وأن جودوين لن يحرك ساكناً لإنقاذه !

ولما لم يكن معه مال فليس أمامه إلا الاختفاء . فانتقل إلى مسكن آخر ، بينا تظل ماري وكلير حيث هما لتضليل العدو ! وضرب الفراق بين العاشقين . . وبدت لهما هذه الفرقة حرقة . فكانا يتواعدان على اللقيا فى الحانات أو الحانات النائية ، يتبادلان بعض القبل خلسة ، ثم يفترقان خشية أن يكون هناك من يقتفى أثر الحبيبة . .

وفى يناير ١٨١٥ مات الشيخ الهرم السير بسيش شللى ، فى الثالثة والثمانين . . فأصبح مستر تيموثى بدوره باروناً ، وصار شللى وارثه المباشر . فسافر إلى بيت أبيه ، وبصحبته كلير ، فتركها فى القرية ، وقصد وحده قصر فيلد بلاس . وكان السير تيموثى منتفخاً من كبرياء لقبه الجديد ، وهو أشد مما كان استنكافاً من أن يكون له مثل هذا الولد ، فأبلغه بواسطة الخادم أنه يرفض استقباله . فجلس على السلم ، وجعل يقرأ أشعار « ملتون » فى انتظار الأخبار . . وما لبث الطبيب أن خرج ، وقال له إن والده كان فى حالة غضب شديد ، ثم خرج كذلك ابن

عمه « سيدنى شللى » للسلام عليه خفية و إحاطته بتفاصيل الوصية

وكانت وصية خارقة للعادة . فقد كان السير بسيش شللى لا يدور بخلده غير فكرة واحدة ثابتة ، هى تكوين ثروة هائلة يتوارثها الخلف عن السلف . وكان ذلك يقضى بأن يزيد فى حبس الأملاك ووقفها قدر طاقته . فترك ٢٤٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى ، منها ٨٠,٠٠٠ جنيه تمثل الوقف الذى يعود إلى برسى حتما عند موت والده . و إذا قبل برسى شللى امتداد الوقف كان له حق الانتفاع بريع الثروة كلها . . وإذا لم يقبل فإنه لا يرث بعد موت أبيه السير تيموثى إلا ٨٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى فقط ، لا سبيل إلى حرمانه منها بأى حال من الأحوال

فعاد شللى إلى لندن وقصد محاميه ليناقشه فيها . وقدّر استحالة قبوله امتداد الوقف ، لأنه يأبى تشريعاً شاذاً كهذا يجعل الثروة بمنزلة رب من الأرباب تُفرض عبادته وتقديسه ! وكذلك يأبى حيازة مثل هذه الثروة الهائلة . أما ما كان يتمناه فهو أن يحصل فى الحال على دخل كاف للعيش حسب مزاجه ، وعلى مبلغ صغير يكفى لتسديد ديونه . فأرسل اقتراحاً إلى أبيه : بأنه مستعد لأن يبيعه حقوقه نظير دخل عاجل . وراق هذا الاقتراح السير تيموثى شللى ، إذ كان قد فقد كل أمل فى رد برسى عن غيه ، ولم يعد يفكر إلا فى ولده الثانى . . غير أن

رجال القانون لم يفصلوا فى شرعية تحقيق هذه الرغبة المشتركة بين الوالد والولد ، لكنهم أجازوا فقط أن يبيع شللى إلى أبيه جانباً من الميراث ، نظير دخل سنوى قدره ألف جنيه إنجليزى ، ويأخذ بادئاً مبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات أو أربعة آلاف نقداً لسداد ديونه . ولم يكن هذا بالنسبة لشللى الثروة الطائلة . ولكنه كان على كل حال نهاية الضيق والبأساء

واتجه فكره ، أول ما اتجه ، إلى ربط معاش لهارييت . فوعدها بمئتى جنيه سنوياً ، إذا أضيفت إلى تلك التى يعطيها إياها أبوها وستبروك جعلتها فى مأمن من كل حاجة . ثم عمل على دفع ديون جودوين ، ورصد لذلك دخل عامه الأول كله !

بيد أن « الصديق الموقر » رأى أن هبة الألف جنيه هى دون ما كان ينتظره بكثير ، بكثير . . وأنه ليس أسهل من الاستدانة على ميراث أصبح الآن دانياً . . وقد تميز شللى من الغيظ ، وتلظى حنقاً . . ولكنه تمالك ، وكتب الى جودوين يعبر عن دهشته من أن يرى والد مارى أنه من الطبيعى الكتابة إلى مغتصب ابنته سائلا إياه مالا ، ويأبى فى الوقت نفسه وصل العلاقات مع هذه البنت نفسها ! فأجاب جودوين أنه لهذا ، أى بسبب استدانته من مغتصب ابنته ، لا يستطيع أن يفتح لها أبواب بيته ، فهو لن يجازف بأن يتقول عليه العالم أنه قابض على

شرف ابنته ليدفع ديونه . ورد جودوين « شيكاً » مرسلا من شللى باسمه ، موجهاً نظره إلى أن اسمىْ « شللى » و « جودوين » لايليق أن يظهرا معا على شيك واحد ! . . وعلى شللى أن يبعث بالشيك باسم مستر « فلان » أو « علان » ، وعندئذ ، وعندئذ فقط ،يرضى جودوين بتحويله إلى « جودوين » ! . .

وبعد رسائل عدة تبادلاها حول وصل العلاقات ، وبعد عناد طويل من جودوين ، وتهافت شديد منه على مال شللى ، واشمئزاز شللى لأجل هذا من الجنس البشرى كله ، كتب شللى إلى جودوين : « سنقف صلاتنا ، من الآن فصاعداً ، عند حد الأعمال والأشغال . وإنى أوافق على ما تراه من ضرورة الاقتراض على معاشى السنوى . وإنى أرى جلياً إلى أى حد تلزمك حالا سلفيات من المال لسداد حاجاتك . . وسأبذل كل ما فى وسعى لأحصل لك عليها . . . »

وهذا من شللى ، هذا الاحتقار فى برود ، وهذا الإحسان فى صدود ، ما كانا ليوهنا من عزم المقترض على الاقتراض ، ومد الأكفّ وتصعير الخدود ! . .

وكذلك كان جودوين ! . . .

— ٢٢ —

وضعت مارى طفلا لم يتم حمله ، فقال الطبيب : إنه لن يعيش. وظل شللى ساهراً ، مقسما فؤاده بين المهد وسرير النفساء، مؤتنساً فى سهره بصحبة المؤرخ اللاتينى « تيت ليف » ، أو الفيلسوف « سنيكا » . . من حكماء الزمن الغابر ! . .

وحملت « فانى » صندوقاً خشبياً لملابس الطفل ، هدية من مسز جودوين الغريبة الأطوار . ولكن زوجها الفيلسوف العَجِرْ قد ظل صلباً لا تلين له قناة . وجاء هج فأنزل السكينة على قلب مارى بحديثه اللاذع الفكه !

ونما الطفل برغم النبوءة ، وعاش شهراً .. فبدأت مارى تطمئن.. ولكنها استيقظت ذات صباح ، فوجدته ميتاً !

واستمر شللى وكلير يجولان لندن معاً ، ومارى باقية فى البيت ، تشتغل بالإبرة ، وتفكر فى طفلها الصغير ، الذى جعلها أماً ، ثم حرمها الأمومة . . وفى الشارع يسمع ضجيج الجماهير وصياحها . إذ كان الوقت وقت اضطرابات وشغب . فقد عاد نابليون من جزيرة إلبا ، وجاءت تهديدات بالحرب من جانب فرنسا . . ومارى كأن على عينيها سحابة من الدموع !

وكانت تغار من كلير. واعترفت لشللى بغيرتها . والغيرة عنده

عاطفة خسيسة ، تنقص فى عينيه من قدر معبودته مارى . . أى شىء يمس حبه إياها إذا ما بسط حمايته على امرأة سواها ؟ . . غير أنه سلم بأن جو بيتهم الثلاثى صار خانقاً . وبحثا لكلير عن وظيفةمربية أطفال . غير أن السمعة الغريبة التى أدركتها بفرارها إلى فرنسا جعلت كل مسعى عديم الجدوى . . وهى لا تريد الذهاب ، لأنها فى حبها لشللى تنتظر التطورات بلا انزعاج . . وأخيراً قبلت ما أعد لها من النزول ببلدة « لينموث » ، عند أرملة من أصدقاء أسرة جودوين

* * *

كاير فى منفاها الريفى ، غير أنها لم تكن بالتى تقنع طويلا بالوحدة الخلوية . فبحثت عن سبب للعيش . . .

أما وهى ذكية جريئة ، وقد أدركت استحالة أخذ شللى من أختها ، أو حتى مشاركتها فيه ، فقد بحثت بجسارة عن بطل آخر لعواطفها المكبوتة !

ولم تجد أليق بها من لورد بيرون، الرجل الشاعر الذى يعبد فى إنجلترا عبادة ويلعن لعناً ، وكانت تحفظ أشعاره ، التى طالما رددها شللى . . وكانت تعرف ما نسج حول اسمه من أساطير الرذيلة والمجون ، والفتنة الشيطانية ، والقسوة الجهنمية !

جمال الرجل ، وعظمة الاسم ، وعبقرية الكاتب ، وجرأة

أفكاره ، وفضائح غرامياته : كل هذه اجتمعت لتجعل منه البطل الكامل . وكانت له خليلات من أرقى الطبقات !

حين تزوج روى عنه أهل لندن جميعاً : أنه بعد عقد الزواج قال لعروسه وهي تصعد مركبة الزفاف : « ها أنت ذى قد صرت زوجتى ، وهذا يكفى لأن أمقتك . . ولو أنك كنت زوجة رجل سواى فلربما أحببتك ! »

وعاملها باحتقار ، فطلبت الانفصال عنه بعد عام واحد !

وراحت كلير تطارد برسائلها دون جوان فى شخص لورد بيرون ، تعرض عليه حبها ، ونفسها ، تنتحل لنفسها الأسماء ، وتتلون فى الطلب ، أو فى العرض ! ولكن دون جوان لم يرد عليها !

وهل هناك أشد عناداً من امرأة متعبة من عفتّها ، زاهدة فى فضيلتّها ؟ . . فظلت تهاجمه ، وتطارده !

وظل ملازماً صمته . . وأخيراً جازفت بعرض الشيء الوحيد الذى قلما يرفضه زير النساء المعتز . كتبت إليه رسالة طويلة ختمتّها قائلة : « . . . فهل تراك تسمح لى بالعيش معك بضع ساعات ؟ . ثم لن أبقى لحظة بعد أمرك لى بالانصراف . . . وافعل بعد ذلك ما بدا لك ... واذهبْ ، نقل فؤادك حيث شئت من الهوى . وارفض أن ترانى . . واقس ما طابت لك القسوة . . فلن أذكر منك إلا رقة شمائلك ، ووحشية طبعك الشائقة » !

ها هو ذا دون جوان ، آخر الأمر ، قد وقع فى الفخ . . تعب من طول المطاردة ، وتقبل هزيمته من هذه الغازية . . . وكانت نفسه من قبل تهفو إلى مفارقة انجلترا والعيش فى سويسرا أو إيطاليا ، فرحب بهذه الغرامية المفروضة عليه فرضاً ، المغتصبة منه اغتصاباً !

— ٢٣ —

لم يكن دون جوان هذا يتوقع أن يلقى الاضطهاد الطويل ، من « صيده الهزيل » . فقد قررت كلير : أن تتبعه إلى سويسرا . وعملت على أن يرافقها شللى ومارى !

وكان شللى قد انتهى من ملحمة جديدة « قرين الوحدة » : تمثل فيها حكايته ، وما أصابه من دهره وأهله ، وعبر فى مقدمتها عن « ظمأ الشاعر للحب ، وموته لأنه لم يجد حباً . . وهو يموت راضياً ، قرير العين ، للخلاص ممن حوله من الناس : الأحياء الموتى . . أولئك الذين لا هم بالأصدقاء ، ولا بالمحبين ، ولا بالآباء ، ولا بالمواطنين الأوفياء ، ولا بالمحسنين الكرماء . . فعيشهم وموتهم سواء »

ولم يكن شللى نادماً على ما فعل ، ولكن العيش فى انجلترا أصبح عنده مر المذاق . وكانت مارى ، تشكو وحدتها وعزلتها ،

وترجو أن تجد فى البلدان الأجنبية صديقات لها ، حيث لا تُعرف حكاية هربها ومغامرتها . . وقد وضعت فى يناير ١٨١٦ ولداً ثانياً سمته « وليم » ، تيمناً بأبيها « وليم جودوين » ! . فزاد على بيتهم شخص المرضع ، وضاق البيت بنفقاته ، وتضاءل معاشه !

وكان يقال إن العيشة فى سويسرا رخيصة . . ولم تجد كلير صعوبة فى إقناعهما بذلك ! .

وفى سويسرا نزلوا بفندق إنجلترا ، فى سيشرون ، من ضواحى جنيف . . وبدا لهم هناك أن هذه المشاهد المرصعة بأمواج الشمس الحنون غاية فى الجمال . . فاستأجروا مركباً ، وراحوا يقضون أيامهم فى البحيرة ، يقرأون ، وينامون . . .

وبينا كانوا هكذا سعداء ، بين الماء والسماء ، كان شايلد هارولد (١) ينزل نحوهم ، من صخور إنجلترا ، فى موكب حافل . . فهذه البلاد ثارت عليه ، فى نوبة عارضة من نوبات الفضيلة التى تصيبها وتتتابع عندها ، فهبت وطردته عن شواطئها . . طردت السيد دون جوان المتهم بالزنا بمحرم . . وأثار رحيله أشد التطلع . . فإن المجتمع ، الذى يعاقب بقسوة أية فتنة فى الغرائز يحسد فى صميمه مرتكبيها ، ويعجب بآثميها . تزاحم صفان هائلان من المتفرجين عند مدخل الميناء . . واستعارت كثيرات

---

(١) كناية عن لورد بيرون مؤلف الديوان المعروف باسم «شايلد هارولد»

من النبيلات والنساء الراقيات ملابس وصيفاتهن وخادماتهن ليختلطن بالجماهير دون أن يستلفتن الأنظار . . وكان البحر هائجاً ، فذكر بيرون لرفقائه أن جده ، الأميرال بيرون ، كان معروفاً فى الأسطول باسم « جاك العاصفة » . . لأنه لا يحب الإبحار فى غير الزوابع والزعازع . . وكان بيرون برحيله تعساً شقيًّا ، فأراد أن يكون ألمه عظيما كالإعصار . . .

ونزل بيرون فندق انجلترا . . وكان جمال محياه رائعاً . وأول ما يروعك منه الزهو والذكاء . ثم شحوب بشرة كضياء القمر ، تتلألأ فى وجهه عينان نجلاوان فى زرقة قاتمة ، شعره أسود ، وحاجباه مقوسان ، وأنفه وذقنه يدلان على العزم ، وفمه يدل على الاشتهاء . . وكان عيبه الوحيد أنه يعرج ، ويقول عن نفسه إنه يظلع كما يفعل الشيطان ! .

وسر الرجلان بالتعارف . وجد بيرون فى شللى رجلا من طبقته ، استطاع رغم عسره أن يحتفظ باليسر الشائق ، وأدهشته منه ثقافته . فإن بيرون قد قرأ كل ما قرأ شللى ، لكنه لم يقرأ بكل هذا الجد الخارق للعادة . فقد أراد شللى أن يعرف ، وأراد بيرون أن يبهر . وأدرك بيرون ذلك الفرق تمام الإدراك . وكذلك أدرك أن إرادة شللى هى قوة نقية خالصة ، فى حين أنه هو نفسه يطفو على تيار شهواته ، وهوى خليلاته . .

ولم يدرك شللى هذا الإعجاب الذى يحمله له بيرون، ويُعنى بإخفائه عنه . فى حين أنه هو ما استمع النشيد الثالث من «شيلد هارولد» ، حتى تأثر من التحمس له، وعجزه عن مجاراته . فقد عرف فى هذا الشعر العبقرية التى يئس من التحليق إليها

وإذا كان الشاعر فيه يخلب لبه فإن الرجل فيه يدهشه كثيراً . فقد رأى فيه سيداً « أرستقراطياً » عظيما ، صريحاً ، شديد الحفاوة بما يبعثه الغرور فى النفس من المسرات والآلام ، تلك التى يزدريها شللى ، لأنه أقل الناس غروراً . .

أما بيرون فقد تحدى ما اصطلح عليه العرف والعادة . . وإذ وقفت هذه التقاليد فى طريق رغباته طرحها جانباً . . وأما ما فعله شللى بسذاجة ، فقد فعله بيرون عن معرفة وجسارة ، ولم يكن بيرون يحب شيئاً ويقدره كالظهور والبروز فى المجتمع ! وكان زوجاً رديئاً ، ومع ذلك لم يكن يحترم إلا الحب المشروع . وملء فمه الأقوال الساخرة الكافرة ، وهو لا يعترف بأمر وسط بين الزواج والفجور ، وإنما لعب فى انجلترا ذلك الدور الجرىء الزنيم ، لأنه عجز عن امتلاك القلوب بعمل تقليدى كريم !

وشللى ينشد فى النساء ينبوعاً للحس والوحى والإلهام ، ولا يبحث بيرون فيهن إلا عن سبب للراحة والخمول ، والفتور عنهن . . كان شللى ملائكياً ، سماوياً ، يقدسهن . . وكان بيرون بشرياً ،

أرضياً ، يشتهيهن ، ويحتقرهن ، وينعتهن بأفحش النعوت . .
كان يقول : « ما أفظع النساء ، لأننا لا نستطيع العيش معهن ، ولا بدونهن[1] » ! . . وكان يقول أيضاً : « إن مثلى الجميل الأعلى هو امرأة من الفطنة بحيث تفهمنى وتقدر ذكائى ، ولا تكون من الفطنة بحيث تتمنى أن تلوّح بنفسها ويعجب بها ! . »

على أن هذا لم يحل دون الصحبة الشائقة بين شللى الصوفى و « دون جوان » . وكان كلاهما يحب ركوب البحر ، فاشتركا فى شراء مركب ، يبحران به كل مساء ، مع ماري وكلير وطبيب بيرون الخاص ، وهو شاب إيطالى جميل يدعى « پوليدورى » . فيجلس بيرون وشللى صامتين ، يتبعان ببصرهما الصور الهاربة من السحب فى طيات أضواء القمر . بينا كلير تغنى ، وصوتها الشجى يحمل الفكر ، ويحلق به فى اشتهاء ، فوق المياه المرصعة بالكواكب . .

وقام شللى وبيرون معاً بحج أدبى حول بحيرة جنيف ، التى شهدت غراميات روسو وڤولتير . . وهناك هبت عليهما رياح هوج ، كادت تقلب المركب . . وخلع بيرون ثيابه استعداداً . . أما شللى ، الذى لم يكن يعرف العوم مطلقاً ، فقد ظل ثابتاً لا يتزعزع ، وذراعاه متعانقتان على صدره . . فزادت شجاعته

(١) يؤثر عن الإمام على فى هذا المعنى : « النساء شر كلهن ، وشر ما فيهن : الحاجة إليهن »

هذه فى تقدير بيرون له ، وإعجابه به . . . بيد أنه غالى فى إخفاء ذلك الإعجاب عنه أكثر من ذى قبل !

ثم استأجر شللى كوخاً على شاطىء البحيرة . . وسكن بيرون « ڤيلا ديوراتى » على مقربة منهما ، لا يفرق البيتين إلا مزرعة عنب

ولم توفق كلير فى حبها . فقد حملت ، وبرم بها بيرون ، وأفهمها بخشونة أنه سئمها واجتواها

قال : « أأنا أخذتها ؟ . . خطفتها ؟ . . ليت شعرى من الذى أُخذ وخُطف فى هذه الحكاية ، إن لم يكن المسكين العزيز « أنا » ؟ ! . . . وهم يتهموننى بأنى غليظ القلب مع النساء . . والله يعلم أننى كنت ، طول عمرى ، شهيدهن ! . . ولم يحدث من عهد حرب طروادة حتى الآن أن أُخذ رجل وخُطف بعدد ما أخذت وخُطفت . . وما أنا فى هذا إلا ضحيتهن ! . . »

وناقشه شللى فى مستقبل كلير وطفلها المنتظر . . فكان زاهداً فيها تماماً لا يعنيه إلا أن يخلص منها فى أقرب وقت ، أما عن الولد فقد خطر لبيرون أن يعهد به إلى أخته أوجستا ! . . فلما رفضت كلير وعد بالعناية به عند ما يبلغ سنة من عمره ، على شريطة أن يكون فى ذلك مطلق التصرف

وأصبح من الصعب على شللى أن يبقى بجوار بيرون ،

لا لفتور ما بينهما ، وإنما لأن كلير كانت تتألم ، كما أن مارى اشمأزت من موقفه وأقواله اللاذعة

وكتب شللى إلى صديقيه « پيكوك » و « هج » ليستأجرا له فى وطنه بيتاً.. وبدأت القافلة، صوب الوطن، تسير . . .

* * *

وظل شللى يراسل بيرون ، ولم يقنط من « إنقاذ » صاحبه . وكان يمزج لهجة التقدير والإكرام للشاعر العظيم ، بالتعالى عن خلق الرجل غير القويم . . وعارض قلق بيرون المتوالى فيما يتعلق بسمعته وشهرته ، بصورة المجد الحقيقى :

« أعبثاً إذن خلق العظمة والرحمة ، وبسطهما على الناس؟. أعبثاً إذن أن يكون المرء ينبوعاً تستمد منه عقول سواه من البشر القوة والجمال ؟ . . ترى ، ماذا كانت تكون الإنسانية ، لو لم يكتب هوميروس وشكسبير آياتهما البينات ؟ ! . . لست بهذا أشير عليك بالطموح إلى المجد . فإن حوافز عملك ودوافعه يجب أن تكون أنقى وأرقى . فلا ترج أكثر من أن تعبر عن ذات أفكارك ، وتتجه بها نحو أولئك الذين يتأثرون بها ، لأنهم يستطيعون الانسجام معها ، والتفكير على مثالك . . والمجد يتبع أولئك الذين هو غير جدير بأن يقودهم . . . »

وكان لورد بيرون ، فى تلك الأثناء ، متجهاً نحو ڤنيس ،

مدينة الجندول ، الناعسة الجفون ، فقرأ هذه النصائح السامية ، فى كلال وتراخ ، وعدم اكتراث . كان يتعبه الإسراف فى التقدير ، وتزعجه المبالغة فى التوقير ! . . .

— ٢٤ —

من الفتيات الثلاث ، اللواتى كن يملأن بيت سكنر ستريت حياة وبهجة ، لم تبق إلا واحدة : « فانى إملاى » بنت مارى وولستونكرافت ، من زوجها الأول . وهى الوحيدة التى على رغم رقتها وحنانها لم تجد زوجاً ، ولا عشيقاً . . وكانت محتشمة ، متواضعة ، محافظة . . وهذه فضائل يمدحها الرجال ، ولكنهم لا يكافئونها ! . . وقد أملت لحظة من حياتها أن يعنى بها شللى ، وبدأت تبادله رسائل خاصة . . لكن مارى حطمت كل ما بنته من آمال !

وأنبأها جودوين أنه لم يعد يستطيع الإنفاق عليها ، وأن عليها أن تعمل لتعيش . .

وكانت تريد أن تصبح معلمة . غير أن هرب مارى وجين قد جر سوء السمعة على آنسات « سكنر ستريت » ، وصارت ناظرات المدارس يحذرن هذا اللون من التربية !

وكانت تعجب بالحياة الجنونية الخيالية التى تحياها أختاها ! .

ليتها على شاطئ بحيرة جنيف تعيش مع لورد بيرون ، الذى تتحدث عنه لندن بأسرها ! . .

« هل هو من الجمال كصورته ؟ قولوا لى ، أصوته شجى ، لأن للصوت تأثيره الشديد فى ؟ . . أيجىء عندكم ، بلا كلفة ؟ أريد أن أعرف : هل يلوح عليه ارتكاب ما يتهمه الوشاة به ، فى لندن ، من آثام جسام ؟ . . إنى ، حين أقرأه ، لا أعتقد أنه مخلوق إلى هذا الحد من الشناعة . فإنى إذا أحببت الشاعر تمنيت لو احترمت فيه الرجل . قولوا له إن لكم صديقة محرومة من متع الحياة ، تحب أن تقرأ أشعاره قبل نشرها . . . »

وكانت مارى وكلير وشللى يتلقون هذه الرسائل الرقيقة مشفقين : « مسكينة فانى ! . لشـدّ ما نقيت على لون سكنر ستريت » ! .

وزادت عبوديتها شعور أختيها بحريتهما ، وتقديرهما لهذه الحرية . . كما أن وحدتها جعلتهما تدركان كل قيمة حبهما

ورأوا فانى خلال مرورهم بلندن . . كانت حزينة ، لا تتكلم إلا عن وحدتها ووحشتها وعدم جدواها . فما من أحد على هذه الأرض يريدها . وعند ما قالت لشللى « إلى اللقاء » ارتجف صوتها . . وأرسلت إليه فى « باث » رسائل من رسائلها الرقيقة المعتادة ، ممتزجة بشىء من العتب ، كذلك الذى يوجهه

الأحياء الموتى إلى الذين ما زالت حياتهم ملء الحياة !

وكانت لفانى خالة تدعى « إڤرينا ولستونكرافت » ، وعدت بتعيينها مربية فى مدرستها . . وما عتمت أن كتبت إلى جودوين : « إن أخت مارى وكلير قد تسبب الرعب للآباء والأمهات الضيقى العقول ، من الطبقة المتوسطة »

وفى ذات صباح تلقى شللى ومارى رسالة غريبة من مدينة بريستول ، تقرئهم فيها فانى الوداع بعبارات مبهمة :

« إنى راحلة إلى مكان أرجو ألا أعود منه أبداً » . .

وسافر شللى فى الحال إلى بريستول، ثم عاد بأنباء سيئة . فقد أخذت فانى عربة المسافرين من بريستول إلى « سوانسى » حيث نزلت فى فندق واعتكفت لساعتها فى غرفتها ، وفى اليوم التالى وجدوها ميتة ، يغطى شعرها الطويل وجهها . وعلى المنضدة زجاجة من خلاصة الأفيون ، ورسالة بدأتها :

« إن الخيرة هى فى وضع حد لوجود مخلوق كان مولده عاثراً ، وما كانت حياته بعد ذلك إلا سلسلة آلام ومتاعب للذين بذلوا من صحتهم لإطعامه . . . قد يصيبكم العلم بموتى ببعض الحزن ، لكنكم لا تلبثون أن تسعدوا بنسيان مخلوقة مرت عابرة على سطح الأرض . . . »

زلزلت أعصاب شللى ، وتضعضع ، من موت فانى المروّع .

ولمّحت مسز جودوين إلى أن الفتاة قتلت نفسها بسبب حبها الكظيم له . وعندئذ تذكر بعض علامات لتأثرها واضطرابها ، فلعله من حيث لا يدرى قد أشعل يوماً عواطفها ! . . ولعلها رصدت ، ووزنت ، وحللت ، بقلق وعناية ، أقوالا منه ، أو نظرات ، لم يقصد بها إلا اللطف البرىء . . « ما أصعب أن يدرك المرء العوامل التى تجيش بها صدور غيرنا ! . . ويا للآلام التى نسببها من حيث لا نرغب ولا ندرى ! . . ما أكثر ما يمر الإنسان إلى جانب مشاعر عميقة ، وعواطف صديقة ، وأحياناً يائسة قانطة ، دون أن يحس حتى بمجرد وجودها ! . . »

إذن ، فلا يكفى أن يكون المرء مخلصاً ، وأن تكون نياته شريفة . إننا قد نسبب من الضر والشر ، بعدم الإدراك والفهم ، مثل ما نسبب بالقسوة والظلم !

وألقت هذه الخواطر كلها بشللى فى غياهب من الكآبة لا قرار لها . . .

ولكى يسرّى عن نفسه ، ويهوّن بعض ما به ، سافر وحده ليقضى أياماً عند الناقد الأدبى الشاب « ليز هنت » ، الذى سبق أن أطرى شعره وقرّظه بحماسة وفطنة . وكان هنت يسكن فى ضاحية « هامستيد » ، قرب لندن . وكانت زوجته «ماريان» امرأة بسيطة مثقفة . ووراءها ثُلة من أطفالها الفاتنين ،

يستطيع شللى أن يرتع معهم ويلعب . .

وهناك نسى فانى وجودوين !. فلما عاد وجد فى انتظاره خطابا من الناشر « هوخام » ، فتحه متطلعاً ، لأنه كان قد كلفه اقتفاء أثر هارييت ، إذ انقطعت عنه أخبارها منذ شهرين: قبضت معاشها فى مارس وفى سبتمبر ، على عنوان بيت أبيها وستبروك . ثم لم يُعرف شيء عنها منذ أكتوبر !

وكانت رسالة «هوخام» أن هارييت ماتت غريقة وانتشلت جثتها من نهر السربنتين !

فسافر شللى إلى لندن فى حالة يرثى لها . فقد تخيل ، فى رعب ، ذلك الرأس الأشقر المحيط بذلك المحيّا الوردى ، الذى طالما نظر إليه بكل ما يحمله الفؤاد من بشر والتذاذ . . تخيله وقد غطته وحول النهر ، وأدمته أمواجه ، وورّمته ، وصبغته بلون الغرقى القرمزىّ . وضرب أخماساً لأسداس فيما يمكن أن يكون قد حملها على إيثار ميتة شنيعة كهذه ، والتخلى عن ولديها ..

وأخبره « هنت » و « هوخام » بما وقفا عليه . وكانت جريدة التيمس قد نشرت هذا الخبر[١] :

« فى يوم الثلاثاء انتشلت من « السربنتين » جثة امرأة

---

(١) إن كل كلمة ، وكل جملة ، وكل واقعة ، فى هذا الكتاب ، من أوله إلى آخره ، قد قيلت فعلا ، أو كتبت ، أو وقعت .. ومهما يبد عجيبا فهو جزء صادق من التاريخ » « ص »

ذات هيئة محترمة ، وفى حالة حمل متقدم . ووجد فى أصبعها خاتم ثمين . والمفهوم أن سوء مسلكها قد أدى بها إلى هذه الفاجعة ، فى حين كان زوجها خارج البلاد »

وكان ما يدور على الألسن ، فى حى « كوين ستريت » : أن هاربيت قطعت كل رجاء فى عودة شللى إليها . فسلكت سبيل اليائسين . . وسقطت . . فعاشت ، مع ضابط جيش . ثم اتخذت لها خليلا وضيعاً ، قيل إنه خادم ، ثم هجرها . . وأخذ منها أهلها ولديها ، وقطعوا كل صلة بها . وقيل إنها كانت حاملا ، فروعت بالفضيحة القريبة المحتومة . . فألقت بنفسها فى لجة النهر . .

وقضى شللى ليلة ليلاء ... يردد لنفسه فى مثل حالة الهذيان :

ـ « فى حالة حمل متقدم . . . » ؟ ! . . يا لها من نهاية لحياتها ! . . يا للجنون ! . . هاربيت ، زوجتى ، عاهرة ! . . هاربيت ، زوجتى ، منتحرة غريقة ، جثتها طافية ! ؟ . . .

ترى أكان مسئولا ؟

ونبذ هذا الخاطر بكل قواه :

ـ لقد عملت ما كان علىّ عمله . ولما تركتها ، لم نكن على حب . وقد وفرت عليها من وسائل العيش ما كان فوق طاقتى . . ولم أقس فى معاملتها . . إنهم أولئك « الوستبروك » الشنعاء ! ...

أكان ينبغي لى أن أضحى بحياتى وفكرى لامرأة غير وفية لى !

فأجاب عقله : « كلا » . وأجاب صاحباه هج وپيكوك ، اللذان أحاطا به إشفاقاً ورفقاً : « كلا » . . فتضرع إليهما أن يعيدا ذلك ويكرراه على مسمعه ، لأنه يلمح ، من ثنايا برق خلب ، واجباً خفياً فوق طاقة البشر ، وقد أخل به ..

إيه ، أيها الرأس الصغير ، يا ذا الشعر الذهبى ، والمحيا الصبى ، لتلك الغريقة الآن . . هاربيت . . .

وعند الصباح كتب رسالة رقيقة إلى مارى يسألها أن تكون أماً لطفليه المسكينين : «إيانتا» و «شارل» .. ولكن محاميه أنذره بأن آل وستبروك يمانعون فى حضانته لهما ، بحجة أن آراءه الدينية ، وعيشة الخنا التى يحياها ، كليهما يجعله غير جدير بتربيتهما

— ٢٥ —

أنى لحفلة الزواج ، دينياً كان الزواج أم مدنياً ، أن تزيد فى هناء حبيبين ، متفانيين ؟.. ولكن جودوين كان سروره لا حد له إذ علم بأن بنته ستصبح «امرأة شريفة : اللادى شللى» ..

وبذلك أتم جودوين على نفسه احتقار شللى تلميذه السابق ومريده الآبق !

وكانت خمسة عشر يوماً قد مضت على انتشال جثة مسز

شللى من نهر السربنتين عند ما عقد قران مارى وپرسى على يد قسيس فى كنيسة سانت ميلورد، بحضور جودوين يهش ويبش، ومسز جودوين تتكلف البشر. وتلوّح بالظفر !. ويوقعان، كلاهما، شاهدين على العقد ! . وفى المساء اجتمع الشمل للعشاء من جديد فى سكنر ستريت . وكان الحفل العائلى تخيم عليه الكآبة . ففى قاعة الطعام الصغيرة هذه طالما عاشت « فانى » وطالما تعشت « هارييت » . كان شبحا الفتاتين المنتحرتين ينغصان هناء المحتفلين !

وأبى القضاء عليه أن يسلمه ولديه شارل وإيانثا بسبب أفكاره الكافرة ومبادئه الخطرة . وكذلك انتزعهما من أسرة جدهما جودوين، وعهد بهما إلى الدكتور هيوم

* * *

اشترى شللى بيتاً فى « مارلاو » . . وأنشئت فيه مكتبة كبيرة، ووضعت تماثيل لڤينوس إلهة الجمال وأبولو إله الشعر . . وكانت الحديقة واسعة، تلعب فيها مع وليم وكلارا شللى : « آلبا » بنت كلير من بيرون

وكان ما أصاب شللى أخيراً من ويلات قد خط على تقاطيعه . . فزاد جسمه ضموراً، وأعصابه اهتياجاً، وظهره انحناء . وزاد بالحياة تشاؤماً وتذمراً . وكان يفكر فى وضع

تاريخ ثورة مثالية شعراً ، ثورة لا تسيل فيها الدماء ، ولا تتراكم الأشلاء . . وإنما ثورة من صنيعة محبين . . فتجربته الخاصة قد دلته على أن حب المرأة ، وحده ، هو الذى يمكن أن يوحى ببسالة عظيمة . . .

وقضى الصيف كله فى نظم القصيد . . يبحث عن صور الحب فى حبيبته مارى ، وفى جزر نهر « التاميز » الصغيرة ، وفى لوحات السماء المتجددة سحباً قاتمة ، وسحباً هاربة ، وصوراً صغيرة . . ثم صفاء وبهاء . .

واضطر إلى العودة إلى لندن ، عند ما عزت الدراهم ، وكان مكلفاً بإطعام أفواه كثيرة : مارى وولديها ، وكلير وبنتها . . وأسرة جودوين . . وكان يمد بمعونته كثيراً من أصدقائه ومعارفه أمثال ليزهنت وأسرته وپيكوك وشارل كليرمون . . وكان لذلك يستدين من المرابين ! . وكانت مارى ترغب أن يبيع شللى بيت « مارلاو » الذى تعجل شراءه . . كانت تراه يشكو فيه من البرد ، وتتمنى له مناخاً أطيب وأدفأ ، كمناخ إيطاليا مثلا . . فكتبت إليه فى لندن تحبذ سكنى بيت صغير على شاطىء البحر يتمكنان فيه من ضغط المصروفات

وكان من أسباب شكوى مارى وجود « آلبا » بالبيت . فقد قالوا للجيران عنها إنها بنت سيدة تعيش فى لندن بعثت

بها إليهم ، لتتحسن فى الريف صحتها . . ولكن الناس جميعاً لم يلبثوا أن تبينوا من تصرفات كلير مظهر الأمومة . . ونسب بعض أهل الخير البنت إلى شللى ، باعتباره أباها ! . . فكادت الاتهامات القديمة تحوم حولهم !. وتنغص عيش مارى ، مما جعلها تتمنى الرحيل إلى إيطاليا ، حتى تحمل البنت إلى أبيها اللورد بيرون . . .

وكانت أمنية شللى أيضاً أن يرحل . فروابط الأسرة ، والصداقة ، والأشغال ، قد ضربت من حوله جدراناً عالية اختنق منها . فخيل إليه أن فراره من انجلترا ، حيث فقد حقوقه المدنية بحكم كبير قضاتها ، سيجعله ، مرة أخرى ، روحاً حراً محلقاً فى الهواء ، طليقاً فى الأجواء . . وأن حياته فى بلاد أجنبية ستكون صفحة بيضاء من غير سوء ، يستطيع أن يؤلف فيها كياناً جديداً ، كما ينظم قصيدة عصماء . .

ولما تقرر السفر طلبت مارى تعميد الأطفال فى الكنيسة . فقد رأت أن الأولى لهم : بداية حياتهم ، فى مستهلها ، بمراعاة العُرف المتبع ، وما اصطلح عليه المجتمع . . فوافق شللى على ذلك . .

وفى اليوم نفسه عمّدت كذلك بنت بيرون ، وأطلق عليها اسم « كلارا أللجرا Allegra » . . .

— ٢٦ —

سماء إيطاليا الصافية الأديم ، بلا سحاب . . . عادت قافلة الثلاثة تسير نحو أرض النسيان ، والشمس والغفران . . لم يؤثر على سيرها السريع أنها ، فى هذه المرة ، مثقلة : بالأطفال ، ومربيات الأطفال . . حتى وصلوا إلى ميلانو . فألقوا عصا التسيار فى انتظار أخبار بيرون ، وكان شللى قد كتب إليـــه يعلنه بوصول ابنته . فجاء رد دون چوان : أنه لا يريد أن يرى كلير ، أما صغيرته ، فهو على استعداد لتولى أمر تربيتها ، بشرطه الذى لا يتحول عنه : أن يكون فى ذلك السيد المطلق

وأشار شللى على كلير بأن تعدل عن طلب أى مساعدة من بيرون ، بدلا من أن تعهد إليه أمر الطفلة . بيد أن كلير كانت متكبرة ، تريد لبنتها مزايا لا يستهان بها ، وكانت شديدة الثقة فى المربية السويسرية « إليز » التى تولت الصغيرة ، فقررت أن تبعث بهما معاً إلى ڤنيس . وبرغم اعتراضات شللى الرقيقة سُلمت أللجرا إلى أبيها

* * *

ولكن بيرون لم يحتفظ بالطفلة عنده إلا بضعة أسابيع . ثم عهد بها إلى مسز هوبنر ، زوجة القنصل الإنجليزى فى ڤنيس .

غير أن كلير بدأت تقرع سن الندم ، ورأى شللى أن يصحبها إلى فنيس . وقصدا خفية بيت هوبنر ، حتى لا يتضايق بيرون ويسخط ، فاستقبلهما القنصل وزوجه برقة ودماثة . وبعثت زوجته فى طلب المربية والطفلة . وكانت أللجرا قد نمت ، ولكنها شحبت ، وفقدت حيويتها السابقة ، وإن كانت ما زالت آية جمال . .

وجرى الحديث طويلا عن بيرون . فإنه ، بعد يومين من وصوله ، قد حصل على : جندول : وخليلة ، هى «ماريانا سيجاتى » ، زوجـــة تاجر أقمشة ، أجّر للشـــاعر الكريم فى بيته غرفاً مفروشة . وكان لذلك خطره ، وكان له ما بعده . . ولكن تجارة الأقمشة لم تكن رائجة ! . . وكانت المرأة فى الثانية والعشرين ، ذات عينين سوداوين مدهشتين ، وصوت شجى رخيم ! .. أما تاجر البندقية ، فقد كان يرى « الدوقيات » تسيل من بين أصابع اللورد . . وكانت أخلاق المدينة الشهيرة تسمح ، على الأقل ، بعشيق واحد ! . .

روت هوبنر ، المرأة الرقيقة ، ذات العينين الذكيتين ، هذه الحكاية ، بالحسرة والاستطابة اللتين تمزج بهما النساء العفيفات حديثهن عادة عن الرذيلة . . وروى زوجها متحرّزاً أن أهل البندقية يتذاكرون أن السيد الإنجليزى لم يكتف بملهمة

واحدة للشعر ، فاكترى فى الخفاء ڤيلا حشد فيها منهن تسعاً ! . .

وتحدث بذلك الركبان ! . . والناس ينظرون ويعجبون ، فى حفلات الكرنڤال ، بالنساء المقنعات المتنكرات ، يتعلقن ببيرون ، ويتصيدن أنفسهن له ! . .

وقصد شللى لزيارة بيرون فى قصره ، فاستقبله بحرارة . . ولعل شللى كان الرجل الوحيد فى الدنيا الذى يرضى بيرون بالتحدث إليه بجد ، حديث الند للند ، وقدّر شواغل كلير ، وإن اعتذر بأنه لا يستطيع التخلى عن « أللجرا » ، وإلا زاد البندقيون ، على اتهامهم إياه بأنه هوائى ، تهمة الزهد فى ابنته الطفلة . . على أنه سيفكر فى الأمر ملياً ، ويجد سبيلا للتوفيق . . ثم اقترح على شللى ركوب الخيل فى نزهة إلى « الليدو » . .

وراقت لشللى هذه الرمال ، ترمح فيها الجياد ، فى وسط الأمواج

ونظر بيرون إلى البندقية ، على ضوء الشفق القانى ، وقد صارت ورداً ورماداً . . وقال :

ــ إننا سنموت شباباً . . وسواء علىّ دقت الساعة اليوم أو غداً . . ولكننى أريد أن أستمتع بشبابى . .

وفى اليوم التالى عرض بيرون التنازل لشللى وكلير ، لمدة شهرين ، عن ڤيلا له قرب البندقية ، تبقى فيها كريمته أللجرا بعد ذلك . فلم يسع شللى إلا قبول هذه الاقتراحات السخية . .

وكتب إلى مارى لتلحق به بلا تأخير

وكانت رحلة مارى مضنية . ففى «فوزينا» لاقت صعوبات بسبب جواز سفرها ، عاقتها طويلا . وكانت كلارا الصغيرة تبدل أسنانها ، وتتألم كثيراً من الحر والتعب ، وتغيير اللبن . . ووصلت مريضة إلى « ڤيلا داست Este » : ڤيلا بيرون الموعودة . وظلت تعانى الحمى خمسة عشر يوماً . وكان طبيب البلدة غبياً ، فاعتزم شللى ومارى أخذ الطفلة إلى البندقية لاستشارة طبيب أفضل منه . ولكن « كا » الصغيرة أصيبت برعشة غريبة فى الفم والعينين ، وظلت طوال السفر غائبة عن الصواب . ثم زادت الأعراض ، وجاء الطبيب إلى الفندق ، فلم يجد فى شفائها أملا . وبعد ساعة ماتت دون احتضار . . .

كانت « لافورنارينا » ، آخر محظيات بيرون ، امرأة فلاحة ، وجهها مثال الحسن البندقى القديم . وكان بيرون قد ذكرها لشللى بقوله : « سوف ترى كم هى جميلة : عينان نجلاوان سوداوان ، وجسم ثعبانى ، وشعر متموج ، يتألق تحت ضوء القمر .. امرأة تذهب فى سبيل الهوى حتى الجحيم .. إنى أحب هذا النوع من الحيوان ، وأوثره على نساء العالم جميعاً ! .. »

كانت حيواناً غريباً ، لا يسلس له قياد . متوحشة يرتاع منها الخدم ، حتى « تيتا » العملاق جندولى الشاعر . . كانت

هذه المرأة غيوراً لا تطاق ، زائفة كالشيطان، وقد أصرت على أن تستبدل بنقابها الشفاف وشالها الجميل الفساتين الحديثة ، والقبعات التى يرفرف عليها ريش النعام ، تلك التى يلقى بها بيرون إلى النار بمجرد شرائها إياها ، فتذهب وتشترى سواها . ولكنه كان يغتفر حماقاتها ، لأنها تدخل على قلبه السرور . . فهو يحب منها : حيويتها ، ولهجتها الڤينيسية ، وعنفها . كانت طبيعتها ، الفظة ، الغليظة ، البهيمية ، تريحه من الجهد العقلى . وكان شعره يتقدم بفضلها تقدماً بديعاً مطرداً ، شبيهاً بلجب البحر الخضم ، وصبابة المرأة العاشقة . . .

وما كانت هذه الحيوانة الجلفة ، إلا لتسوء شللى وزوجه ، وفى خلال بضعة الأيام التى قضوها فى البندقية وقف شللى على حياة بيرون عن كثب ، وحكم عليها حكماً صارماً . فالشاعر قد أباح لتهتكه العنان، وأطلق بحارة جندوله يلتقطون له النساء من الشوارع . . ثم ازدرى نفسه ، فأعلن أن الإنسان مزدرى . . ولم تعد سخريته ، فى نظر شللى ، إلا قناعاً رقيقاً لحيوانيته !

— ٢٧ —

وآن لبيرون أن يستعيد الڤيلا ، ويسترد ابنته أللجرا . وكان الجو البارد الماطر يدفع شللى نحو الجنوب . فقد كان بحاجة إلى

الدفء واللطف والصفاء . . كانت الأجواء المجهولة لديه ، والمدن الجديدة عليه ، تخدع حزنه ، وتكشف كربه

وكان طريق روما يتعاطف بين الكروم التى احمرت أعنابها . وفى كل خطوة يشهد المسافرون قطعاناً من ثيران بديعة بيضاء كالحليب . فلما دخلوا المدينة حلّق صقر هائل بجناحيه فوق رؤوسهم . . . وراعهم من روما جلال الحزن المخيم على الأطلال

قف بروما ، وشاهد الأمر ، واشهد
أن للملك خالقــاً سبحانه ! . .

وقصدوا لزيارة المقبرة الإنجليزية ، فبدت لشللى أجمل وأهدأ مقبرة رآها فى حياته . كان الهواء يهمس فى أوراق الأشجار المشرفة على الأجداث ، وكان أكثرها أجداث نساء وأحداث . . فإذا لم يكن من الموت بد ، فهنا يتمنى المرء لو ينام . . .

وبعد سفر ثلاثة أسابيع وصلوا إلى نابولى ، واستأجروا مسكناً مشرفاً على الخليج الأزرق . . وأصبحت وحدتهم الدائمة عبئاً ثقيلا ينوءون به . وتذكروا بلادهم ، وحنّوا إلى : وندسور ، ومارلاو ، ولندن نفسها . فما هذه الجبال الشامخة ، وهذه السماء الصافيـــة ، بغير صديق ؟ ! إن مسرات المجتمع هى مبدأ الوجود ومنتهاه . . وكل هذه المناظر ، مهما تبد رائعة ، تتلاشى من صفحة الفؤاد ، كدخان تبدده الرياح ، إذا ما فكر المرء

فى المشاهد المألوفة ، التى مهما تكن عادية ، أو تافهة ، فهى ممتزجة بألوان من المودة البهيجة . . .

وكانت مارى تشكو من أنها ، فى كل مكان ، تعد « الأجنبية » !.. وكانت فى مستهل حمل جديد . وأصبحت كلير عندها لا تطاق . وقد غدر خادمها باولو بالمربية السويسرية ! فأرغمته مارى على الزواج منها ، ففعل وأخذها ورحل.. ثم أصيبت كلير بمرض شديد خفى ، مرض غريب لم تفهمه مارى . . .

فبرموا بنابولى ، وعادوا إلى روما . ولكن حرارة الربيع فى روما أتعبت وليم الصغير ، فأشار الطبيب بنقله سريعاً إلى الشمال . . فهموا بالسفر .. وإذا به يصاب فجأة بدوسنطاريا حادة . وظل شللى ، مدى ستين ساعة ، لا يترك يد ولده الصغير الحبيب . فقد كان يزداد به تعلقاً . وكان صبياً ذكياً ، حنوناً ، حساساً . شعره أشقر كالحرير ، وبشرته شفافة كالورد ، وعيناه زرقاوان متألقتان كعينى شللى ... وصار فى النزع، وما زال الطبيب يأمل فى إنقاذه . فعاش ثلاثة أيام سوياً ، ثم قضى نحبه ، والشمس رأد الضحى . . .

ودفنوه فى المقبرة الإنجليزية ، التى كان أبوه عندما مر بروما قد أعجب برونقها وهدوئها . . ورأى شللى ولده يختفى تحت رقعة من الأرض ، زانها الزهر والعشب والشمس

« فانى » .. « هاربيت » .. « كلارا الصغيرة » .. « وليم »

لقد خيل إليه أنه محوط بجو موبوء وبيل ، يصيب كل الذين يحبهم ، واحداً بعد واحد !

أما مارى فإنها ، فى هذه المرة ، خرّت صريعة ، وتخلت عن النضال . فأخذها شللى إلى الريف ، وأسكنها ڤيلا جميلة . . وكان قد استوى عندها كل شىء . . كانت تفكر دائماً ، وترى تينك القدمين الصغيرتين تجريان على رمال شواطئ نابولى ، وتسمع العبارات الساذجة الشائقة ، التى تعبر أجمل تعبير عن : الحب ، والعُجب ، والمرح .. وتجلس جامدة فى مكانها تحدق بعينيها فى الفضاء البعيد ذاهلة ، لا تخرج عن صمتها إلا لتزور قبر وحيدها . .

وكان شللى كذلك يشكو منها إليها ، ويألم . . ولم يصبه ما أصابها .. فقد كان — وكأنه « آرييل » : روح الهواء ، المحلّق فى سماواته — ينظم الشعر ، ويصف نضال الروح ضد المادة ، نضال الرجل الحر ضد المجتمع . وإذا ما هبت عليه أحزان مارى سأل الرياح أن تجعل منه قيثارتها ، وتنفخ فيه من روحها !

ولما آن لمارى أن تضع حملها قصدوا فلورنسا ، ليكونوا على مقربة من طبيب بارع . ولكن أبرع طبيب كان فلورنسا نفسها ، المدينة التى ليست للوحدة فيها وحشة . فيها اجتمعت أرواح

الشعراء والفنانين : يعيش المرء فيها مع « دانتى » ، ويجلس إلى جانب « سافونارولا » ، ويرى « جيوتو » يعبر السنبيل !

فى هذا الجو الروحى استردت مارى بعض مزاج الحياة.. واختلطت فى النزل العائلى بالسكان . وجاء الوضع سهلا سريعاً . وعند ما رأت نفسها ، من جديد ، وعلى ذراعيها طفل ، تبسمت لأول مرة منذ مات وليم ، ودعت ولدها : « برسى فلورنس» ...

— ٢٨ —

بدأ شللى يشكو ألماً فى جنبه . فقد أثر فيه هواء جبال الأبنين ، الذى يهب بشدة فى الشتاء على فلورنسا . . ونصحه الطبيب بالسفر إلى بيزا . . وهناك لحق به أحد أبناء عمه : « توم مدوين » ، وهو ضابط سابق فى جيش الهند ، مفتون بالأدب ، خطر له أن ينشد عشرة الأديب الوحيد فى الأسرة !.. وقد عرّف شللى بزوجين ظريفين : إدوارد وإيامز وقرينته. وكان وليامز هذا ، مثل مدوين ، ضابطاً قديماً فى فرقة الفرسان بالهند ، ثم اعتزل الخدمة . وكان شاباً غاية فى الصراحة والتبسط ، شديد التطلع للمعرفة . فأعجب به شللى ومارى ، و بدت لهما زوجته الجميلة آية فى رقة الحاشية ودماثة الطبع . وكانت موسيقية بارعة . وأصبح البيتان على ود عظيم . .

وانضم لصحبتهم إيرلندى يدعى « الكونت تاف » . ويونانى هو الأمير «ماڤرو كورداتو» . وقسيس إيطالى شيطانى عجيب ، يدعى الأســتاذ الأب الموقر « باكيانى Pacciani » ، ويطلق عليه اسم « إبليس بيزا » : أســقف بلا دين ، وبروفسور بلا كرسى ، ومن كبار هواة النساء واللوحات والأنتيكات ، وخبير ، ومثمن ، وسمسار عالمى يجد دائماً قصراً للإيجار ويأخذ أتعابه من المستأجر ومن المالك ، ويوصى بمعلم للغة الإيطالية يقتسم وإياه أجر الدروس ، ويهمس فى أذن السائح الإنجليزى المار بالبندقية بعنوان « المركيز » الذى يريد أن يبيع لوحة زيتية قيمة قديمة ! . . ثم هو الرجل الذى يرفع الكلفة ويصبح على ألفة وثيقة مع أى بيت بمجرد أن يضع قدمه فيه ! . .

وكان هذا القس يطلق على كل من مارى وصاحبتها اسم : « الإنجليزية الجميلة » ، ويروح عنهما بحكايات العائلات الكبيرة فى بيزا ، وأسرار سيدات الطبقة الراقية ، اللواتى هو لهن الصديق الوديع ، يستودعنه خوالج ضعفهن ، وهو لهن الأب المحترم ، يفضين إليه باعترافهن ! . . .

وأثرت إحدى روايات القس باكيانى فى شللى تأثيراً شديداً :

ــ الكونت ڤيڤيانى من كبار أعيان فلورنسا ، تزوج ، للمرة الثانية ، من امرأة تصغره بكثير . . وكان له من زوجته

الأولى فتاتان فتانتان ، غارت الكونتس الجديدة من جمالهما ، فأقنعت زوجها بإرسالها إلى بيزا ، وإدخال كل واحدة منهما فى دير ، حتى تجدا عروسين يقبلان البناء بهما بلا مهر !

وكان البروفسور باكيانى ، الذى عرف الفتاتين منذ طفولتهما ، يتحدث بحماسة عن جمالهما الرائع ، وروحهما الجذاب ، ونوه خاصة بالكبرى التى كانت نابغية . . قال :

ــ يا للمسكينة « إميليا » ! .. إنها هناك ، بين جدران الدير ، كأنها عصفور فى قفص . . ترى شبابها يبلى بلا هوى ، هى التى خلقت للحب والجوى ! . . بالأمس ، نضحت بالماء زهوراً فى صومعتها ، قائلة لها : « أجل . . أنت ولدت لتنبتى ، وتورقى . . أما نحن ، المخلوقات المفكرة ، فقد جبلنا لنتحرك ، ونعمل ، لا لنذبل ، ونيبس » . . وهذا الدير ، دير سانت آن ، مكان فظيع ، ترتجف نزيلاته الآن من البرد !

هذه الرواية أيقظت فى شللى مشاعر الفارس الشارد المغوار ، فوجه ألف سؤال ، وأظهر أشد الاشمئزاز من الكونت الشيخ ، وغاية الاهتمام بالشهيدة الجميلة . . .

لم يستطع باكيانى أن يقاوم لذة الجمع بينها وبين شللى . . تلك اللذة التى تصيب بدائها بعض العجائز ، فيحبون أن يروا كل الشباب الأحبة : اثنين اثنين . . فاقترح على شللى أن

يأخذه إلى دير سانت آن . . .

لم يكن القس قد بالغ فى وصف جمالها ، فهذا شعرها الأسود معقوص فى عقدة بسيطة ، كإحدى إلهات الإغريق الملهمات .. ومحيّاها كامل الحسن ، وشحوب بشرتهـا يزيد فى تألق عينيها النجلاوين ، السوداوين ، الممتلئتين بنعاس الاشتهاء . . ذاك الذى تفوق بعض الإيطاليات فيه الشرقيات . . .

أحس شللى أنه يحبها . ولم يكن الحب عنده اشتهاء بدنياً ، وإنما هو حاجة إلى التضحية بالنفس لمن تعجب به . . فهو دائماً يعيش فى تلك الأسطورة التى تمثل امرأة فاتنة مضطهدة يكون هو لها الفارس المنقذ . . . أسطورة كانت فى الصميم من كل مشاعر الحب التى عاناها ، والتى حملته على خطف هارييت ، لينقذها من اضطهاد أبيها . . والتى جعلته يحب مارى لأنها كانت تعسة .. مزيج من النِّسب ، التى يجهلها هو نفسه . . من الاشتهاء والشفقة . . من الخيال والرحمة . . عاطفة عرف كيف ينقيها ويرفعها ، وعرفتْ كيف تحرك وتثير كوامن قوته الخالقة للشعر ، إلى أقصى حدود الخلق والإبداع . . .

ولما دخلت إميليا قاعة الاستقبال اتجهت إلى عصفور هناك فى قفص ، وقالت :

— « أيها الطائر الصغير المسكين ! أنت تموت من الضنى ! ..

ولشد ما أشفق عليك ، وأرثى لك ! . لشد ما تشكو وتعانى ، إذ تسمع أترابك ، فى جماعات ، تناديك ، قبلما ترحل على بساط الريح إلى بلاد مجهولة !. . أنت مثلى ، كُتب عليك أن تقضى هنا ، فى هذا السجن ، حظك الكئيب من الأيام . . أوّاه! .. لماذا لا أستطيع إطلاق سراحك، وإخلاء سبيلك ؟! »

فرأى فيها شللى امرأة نابغية شاعرية . ولم يخف عن مارى العواطف التى خالجتــه ، فعرفت فى هــذا الحب مجرد تأمل فى « الجمال الأعلى » . . وكانت مع ذلك تؤثر أن لو اتجه هذا التأمل إلى تمثال ، أو لو أن شللى فعل ما فعله « دانتى » ، لم يتح له قط أن يخاطب معبودته « بياتريس » . .

على أنها صحبته فى زيارة السجينة الجميلة راضية . . .

وراح شللى يبنى حول إميليا عالماً من تلك العوالم الخيالية ، التى يحب الفرار إليها والالتجاء .. يضع لها قصيدة حب عظيمة ، على نهج أشعار دانتى ، أو أناشيد شكسبير . . يجعل فيها من إميليا : صورة ، ليست إلا آلاء بجمال السجينة ، وتمجيداً لشخصها المعبود ، الذى يختلج إحساساً ونعمى ، وراء الجدران ، اختلاج البدر وراء السحاب . . .

وبينا كان هذا العاشق الأفلاطونى يبنى عالماً بعد عالم من خيالاته ، تلقت إميليا من أبيها الكونت ڤيڤيانى رسالة يقول فيها

إنه وجد زوجاً يرضى بها بلا « دوطة » . ولم يكن فى هذا الزوج المدعو « بيوندى » ما يغرى به . . فهو يعيش فى قصر بعيد ، تكتنفه المستنقعات . لم تره قط ، وليس لها أن تراه قبل يوم الزفاف . وكانت هذه الخطبة على الطريقة التركية القديمة مما تشمئز له إميليا . . ولكن ماذا تنتظر بعد من دهرها ؟ . .

وقبلما يتم شللى قصيدته عرف أن إميليا تزوجت ! . .

— ٢٩ —

ظلت كلير ، خلال الأيام الأولى التى تلت سفرها من البندقية ، تتلقى أخبار ابنتها أللجرا بانتظام على يد هوبنر وزوجته. فعرفت أن الصغيرة تشكو البرد ، وقد أصبحت هادئة رزينة ، كما لو كانت امرأة كبيرة . وكان من رأى هوبنر نقلها من ڤنيس . ولكن كان من المستحيل مفاتحة أبيها فى أمر نافع ، وهو الذى يزداد استهتاراً واندفاعاً فى الدعارة !

ثم انقضت بضعة أشهر بلا خبر . فاشتد القلق بكلير ، وكتبت إلى هوبنر الرسائل تلو الرسائل دون أن تحصل على رد.. ثم علمت بحدوث انقلاب كبير فى حياة بيرون ، فقد أصابه مرض خطير ألزمه الفراش . واضطر إلى طرد الفتيات المحتالات اللواتى أضنين حاله ، ونهبن ماله ... ولم يكد يبل حتى شهدته

ثانية محافل ڤنيس ومجتمعاتها ، وهناك لقى أجمل امرأة فى الموسم ، الكونتس الشابة تريزا جويتشيولى ، الحسناء ، الشقراء ، الشائقة ، ذات السبعة عشر ربيعاً . . التى تزوجت لعامها من كونت نبيل شاب قرناه . ومن اليوم الأول دس بيرون فى يدها ورقة كانت موعداً . وكان ذاك الذى قال بحبه إياها شاعراً عظيما ، وفتياً جميلا ، وغنياً نبيلا ... وهكذا أحاطت بها كل العوامل التى تجعل للحياة طعماً ، فاستسلمت له ، بغير تمنّع . . .

وبعد بضعة أيام أخذ الكونت جويتشيولى زوجته إلى « راڤنّا » . فتوسلت إلى بيرون أن يلحق بها .. وكان رأيه : « أن الساحرة تنسى أنها تستطيع من قبل أن تصفّر لأى رجل ، فيتبعها إلى أى مكان . . أما بعد ! . . . »

كان لا يطيق فكرة الحب الهُوام ، الثابت ، الطويل المقام.. فلم يحرك ساكناً . . وكان برفضه فخوراً !

فكتبت إليه من راڤنّا بأنها مريضة جداً ، فلم يخب النداء إلى الشفقة حيث خاب النداء إلى الحب . فلبى النداء فى الحال ، وشد إليها الرحال . . إن اللبيبات من النساء ، كاللادى بيرون ، أو كلير ، يتعبنه ويضجرنه . كان يحتقرهن إلى حد لا يسأل معه خليلة له : أن تكون رفيقة فكر ، أو خدينة روح . وكذلك زوجات الخبازين ، ونساء تجار البندقية ، هن من

طبقة غير طبقته ، ومن نوع دون نوعه بكثير . . لكن الكونتس جويتشيولى ، وقد جمعت بين البلاهة الحنون ، ودماثة الأصل الكريم ، أمسكت فيه ، دون عناء كبير ، بتلابيب دون جوان ، وعلقت بحبالها جوّاب الآفاق . . وأصبح دون جوان ممرّضاً مخلصاً ، ملازما فراشها ، يناولها الدواء ، ويذوب من العطف والاشتهاء

ولما اضطرت الغالبة المغلوبة أن تغادر راقنا إلى پولونى ، مع زوجها ، تبعها . . لقد أصبح لها « الفارس الخادم » المقطور فى ركابها !

علمت كلير بهذه الحكاية كلها ، وأن بيرون قد أمر بإحضار أللجرا إلى بلدة پولونى . وراعها أن ترى بنتها تعيش فى بيت خليلة بيرون الجديدة ، فكتبت خطاباً محتداً ، تطالب فيه باسترداد بنتها . فجاء رد بيرون بأنه لن يتركها بعد الآن لتموت من الجوع ، أو من الفاكهة الفجة . . أو لتنشأ فى بيت شالى على الاعتقاد بأن الله غير موجود . . وقال إنه ينوى أن يضعها فى دير ! . . فوجهت كلير إلى بيرون رسائل يائسة ، لاذعة ، تكاد تكون مهينة مقذعة . . فكتب إلى شللى يشكو هذا منها ، فرد شللى عاتباً عليه تأثره بهذه السفاسف من كلير التى حملها على ذلك شقاؤها ، وحرمانها من بنتها ، وأنها أولى بالعطف والصفح منها بالعقوبة والملام

وكان شللى فى حاجة إلى هذا الترفع فى وجهة النظر ،

ليتغلب على ما حوله من نكد العيش : مارى تزداد أعصابها هياجاً، يوماً بعد يوم . وجودوين يرهقه بمطالبه المالية ، حتى لقد اعتزم ألا يلبيها بعد !

ولما كانت رسائل الملام والمطالبة بالمال ، التى يوجهها جودوين إلى ابنته مارى ، تنكد عيشها ، فقد انبرى شللى ينذر هذا الفيلسوف العَجِرْ ، بأنه ، منذ الآن ، سيحول دون تسلم مارى رسائل أبيها ، إذا ما ظلت رسائله وقفاً على شؤون المال والسؤال !

« آرييل » ، روح الهواء ، قد بدأ يحتد ويشتد ، ويعالج شؤون الغبراء ! . .

ورحلت كلير أخيراً إلى فاورنسا ، لتشتغل فى وظيفة مربية . . وكتب إليها شللى رسائل عاطفية طويلة ، لكنها بريئة ومع ذلك لم يطلع مارى عليها ، ورجا كلير ألا تشير إليها عندما تكتب إلى أختها . وكان لهذا الإخفاء غضاضة وحزّة فى نفسه ، كان الحب عنده اشتراكاً مشاعاً فى الأفكار والأفعال ، بحيث لا تكون ثمة حاجة بين المحبين إلى تفسير . . بيد أن الحياة علمته أن الكمال لا وجود له ، وأن عليه قبول ما هو دون ذلك . . وعلمته أن الحقيقة النقية ، الخالصة ، الصميمة ، هى بالنسبة لبعض النفوس سم زعاف . .

— ٣٠ —

من ر . ب . هوبنر ، إلى اللورد بيرون

فنيس — ١٦ سبتمبر ١٨٢٠

أراك مندهشاً ، وبحق ، من تغيير رأيي فى « شيلو[1] » . ولكن إذا أنا كشفت لك عن السر الشنيع ، فذلك لاعتمادى على أنك ستخفى أمر الإحاطة به عن شللى وأهله ، إكراماً لزوجته التعسة ، ورعاية لى ولزوجتى . وإنى واثق أنك عندما تعرف الحقيقـــة سوف تتشدد فى تصميمك النبيل على ألا تعهد بألاجرا إلى أمها . . . إنه عند ما كان آل شللى يقيمون هنا كانت كلير حاملا من شللى . ومهما يكن من الأمر فقد رحلوا إلى نابولى، حيث دعى إليها شللى، ذات ليلة ، ليكون إلى جوار كلير المريضة جداً . ووجدت زوجته بالطبع غرابة فى أن يدعى هو من دونها . ! وبعثوا فى طلب مولدة نفحاها بالمال لتحمل المخلوق المنكود الذى جاء إلى الدنيا إلى ملجأ اللقطاء بعد نصف ساعة من مولده . . واضطر إلى شراء صمت الطبيب كذلك بمبلغ جسيم !

وظلت مسز شللى ، خلال مرض كلير ، فى أشد القلق

---

(١) كناية أطلقها بيرون على شللى

عليها ، دون أن تستطيع الدنو منها . فقد كان هذان الفظّان يعاملانها بغلظة، وعملت كلير ما لا يعمل لتحمل شللى على هجر زوجته المسكينة التى لم تعرف شيئاً من مغامرة نابولى . وقد عرفنا هذه الحكاية كلها من المربية السويسرية « إليز ! »

أعتقد ، بعد هذا ، أنك لا تدهش من سوء ظنى بشللى . إنى أعترف بكفايته ومواهبه . . لكنى ما كنت أتصور — كما تقول — أن يكون الرجل «مهوّساً ضد الخلق» ويكون له شرف .. وقد سمعت كلاماً عن شرف اللصوص ، لكن هذا لا يعنى إلا مصلحتهم الذاتية . . كذلك مهما يكن من مصلحة شللى الظهور بمظهر محترم ، قدر الطاقة ، مع الآراء التى يبديها علانية ، فمن الجلىّ عندى أنه لا يستوحى الشرف فى أى فعل من فعاله

من بيرون إلى هوبنر

حكاية « شيلو » صحيحة ، وإن كانت « إليز » ليست إلا « شاهد ملك » . . وهذا هو نحوهم ومجرى حياتهم . ثق أننى سأستمع إلى نصحك . .

— ٣١ —

جاء شللى إلى رافنا ، فقد دعاه بيرون ليحدثه فى شؤون هامة.

فوجد شللى أن دون جوان فى خير حال . . فالوجه الذى كان مضنى من الإسراف فى الموبقات قد استرد نضرته . ذلك أن حكم الكونتس تريزا جويتشيولى قد أنقذه من دعارة البندقية المشينة

واستقبله بيرون بترحاب وحفاوة حارة . وقضى الصديقان الليل كله فى تلاوة أشعار بيرون ومناقشتها . وبدت لشللى أغاريد دون جوان الجديدة غاية فى الإبداع . وكان احتكاكه بعبقرية بيرون يحمله دائماً على القنوط . فقد كانت أشعاره ، بجانب أشعار بيرون الجزلة العامرة ، تبدو له سقيمة . فيقول لبيرون إنه يراه خليقاً بوضع ملحمة تكون لجيلنا هذا بمنزلة الإلياذة للإغريق . وبيرون يتظاهر باحتقار الأجيال القادمة ، وعدم الاهتمام بالشعر إلا إذا عادت عليه القصيدة بألف من الجنيهات !

ولم يكن بيرون يتحدث إلا عن أشعاره . ومنذ أول يوم ، وبكل مظاهر الود الصادق ، روى لشللى حكايات الفضائح التى تجرى بين النزلاء الإنجليز فى إيطاليا . وأطلعه شللى على الخطاب الذى يتضمن اتهامات المربية السويسرية إليز . وقال إنه لم يصدق قط شيئاً من تلك الحكاية السخيفة ! . .

اضطرم قلب شللى حزناً ، وقبض رجاءه من الخير فى الدنيا . فكتب من فوره إلى امرأته يخبرها بما تقولته عليه إليز ، ويرجوها أن تكتب إلى هوبنر رسالة تدحض فيها هذا الاتهام ، وتبرهن

على كذبه .. واستجابت مارى لرجائه ، وكتبت الرسالة المنشودة ، وأرسلتها لزوجها ، لكى يبعث بها إلى هو بنر بنفسه بعد أن يقرأها

كانت المسألة الهامة التى أراد بيرون أن يحدث شللى فى صددها هى مصير أللجرا إذا ما غادر بيرون مدينة راڤنا . فالكونتس جويتشيولى ترغب فى السفر إلى سويسرا ، وبيرون يفضل البقاء فى توسكانيا . . ورجا من شللى أن يكتب إلى الكونتس ، ليصور لها حياة فلورنسا وبيزا بطريقة جذابة ، لكى تقبل الذهاب إلى هذه أو تلك . .

وجاء خطابه من قوة التأثير بحيث فعل فى الحال ، فعله . فتقرر بغتة سفر بيرون وصاحبته إلى بيزا ، حيث يعيش شللى وزوجه . أما أللجرا فقد قبل بيرون أخذها معه ما دامت كلير ليست هناك

وذهب شللى قبل مغادرته راڤنا لرؤية الطفلة فى دير « مانيا كاڤاللو » . فوجدها زادت طولا ، ورقة ، وشحوباً . يتهدل شعرها الأسود الجميل فى حلقات على كتفيها . وبدت بين رفيقاتها كمخلوقة من جنس أرقى وأنبل . . . وحل لون من الجد الساهم محل حيويتها السابقة . وكانت الخلة البارزة فيها ، فى نظر شللى ، هى الغرور ، كانت تربيتها ناقصة ، لكنها تحفظ صلوات عديدة عن ظهر قلب ، وتتحدث عن الجنة ، وتحلم

بها ، وتعرف قائمة لا نهاية لها بأسماء القديسين . . وكانت هذه هي التربية التي تروق لبيرون . . .

— ٣٢ —

أثار قرب تشريف اللورد الشهير ، في نوادي بيزا ، ما تثيره عادة الرحلات الملكية . واستأجرت ماري ، كما رغب إليها شللي ، أجمل بيت خال في البلد : « قصر لانفرانكي » . وما لبثت أن بدت الطلائع ، فوصلت الكونتس جويتشيولي مع أبيها الكونت جامبا . . واستقبلهما شللي وماري . فبهرتهما ، وطابت لهما ، هذه الحسناء الإيطالية الشابة، الفياضة العاطفة، الساذجة.. فقال شللي :

— إنها امرأة رائعة الجمال ، وإذا كنت أعرف شيئاً من طبيعة البشر ، ومن طبيعة صاحبي بيرون ، فلسوف تندم يوماً ، إن قريباً وإن بعيداً ، على طيشها . .

وأخيراً جاء دون جوان نفسه ، وأصبح هو المحور الاجتماعي لفريق بيزا الصغير ، وظل شللي المحور المعنوي . . فكانوا يقصدون بيرون تطلعاً وإعجاباً ، ويقصدون شللي ميلاً وعطفاً . وكان شللي ينهض في ساعة مبكرة جداً ، ويقرأ حتى الظهر : «جيته» ، أو «سبينوزا» ، أو « كالدرون».. ثم ينطلق إلى غابة الصنوبر ، يعمل في هدوء تام حتى المساء .

فى حين ينهض بيرون من رقاده عند الظهر ، ويتناول فطوراً خفيفاً ، ويخرج للتنزه على حصانه . ويتمرن على إطلاق غدارته . وفى المساء يزور خليلته . . ثم يعود فى الساعة الحادية عشرة ، فيعكف على العمل : يظل ينظم حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً . وعند ما يأوى إلى فراشه ، محموماً ، مهتاجاً ، ينام نوماً متقطعاً ، ويبقى فى السرير ضحوة النهار

وهرعت إليه الجالية الإنجليزية فى بيزا ، لا يتمالك أشد المتزمتين أنفسهم من الشوق إلى هذا اللورد المطبوع الأصيل، الذى يحمل إليهم ، فى أرض أجنبية ، لمحة شائقة من معرض الخيلاء البريطانى !

كان شللى يتضجر من المجتمعات ، ولا يخفى ضجره وسآمته.. وكان عندهم روحاً محلقاً فى أجواء علوية ، تنشد كمال البشرية !.. وهو أشد إيماناً بالفداء منه بالخطيئة الأصلية ، مما لا يكاد يغتفره المجتمع اللاهى ، أو يرتاح إليه ! . .

وكانت السيدة المرحة « مسز بيكت Beckett » تقيم حفلات راقصة ، لأنها ، كما يقول بيرون ، « مبتلاة بسبع فتيات ، كلهن فى السن التى لا بد فيها لهذه الحيوانات من أن ترقص من أجل معاشها ! » . .

وتصر مارى على أن تشهد إحدى هذه الحفلات !

وتذهب يوماً إلى الكنيسة الإنجليزية ، لسماع الوعظ .. فيروعها أن القس البروتستانتى يحمل على الملحدين ، ونظره لا يفارقها ، بطريقة ظاهرة .. حتى إنها ، رغم رغبتها فى الامتثال ، أبت عليها كرامتها ، كزوجة لشللى ، أن تعود كرّة أخرى !

وكانت هذه الشواغل الاجتماعية ، والحفلات الراقصة ، والمآدب الحافلة ، تلوح لشللى مبتذلة إلى حد لا يتصوره عقله .. هذه الحياة الطائشة ، بدت له ، من قبل ، إجراماً ، وهو حدث فى سن العشرين . وها هى ذى الآن تبدو له أشد نكراً ، وأدعى إلى الاحتقار .. وكان يهرب من عتب مارى إلى دار «وليامز» حيث يحس أنه يعثر ثانية على الانسجام الروحى ، والجو الحنون ، الذى كان ألزم ما يكون له . كان إدوارد وليامز رجلا مرحاً ، كريماً ، ليس فيه من الصّغار ذرّة . أما زوجته جين فكانت رقتها ، ونعومتها ، وهدوء حركاتها ، وشجىّ صوتها ، مما ترتاح إليه النفس ، كما ترتاح إلى الحديقة الغناء .. ولو كان شللى يومئذ فى سن العشرين لما راقته بمقدار ما تروقه الآن .. كان إذ ذاك يحلم بعذراء متحمسة باسلة .. بيد أنه الآن لا ينشد غير نعمة الغفران والنسيان ..

كانت تغنى .. فيحمله صوتها الجميل بعيداً عن ذكرياته الآسية ، وعيشته الزوجية الفاترة ..

وكان إدوارد وجين زوجين متحابين سعيدين ، وكان لا بد لهما من شللى ، « آرييل » الوفى ، « روح الهواء » ، الذى يخفق ويحلّق ويدور حولهما .. فلا بأس من أن يحوم روَح نقى ، أسير ، حزين ، كالحارس ، حول هناء المحبين . . .

وكثيرا ما تحدثا إلى شللى عن صديق لهما يدعى « تريلاونى » ، رجل عجيب ، جوّاب بحار ، وقرصان . . بلغ من مغامراته أن قطع الأرض طولا وعرضاً ، رطباً ويابساً ، ولما يبلغ التاسعة والعشرين. وكان شديد الرغبة فى اللحاق بجماعة بيزا ، فهو يكتب إليهما : « هل ، إذا جئت ، أستطيع التعرف بشللى ؟! . . وقبل كل شىء آخر ، هل أستطيع معرفة بيرون ؟ . . أفى الإمكان الاقتراب من دون جوان ؟ . . »

فيردان عليه : « سترى شللى حتما ، لأنه من أبسط الناس. . أما بيرون ، فهذا أمر يتوقف كله عليك . . »

ولما جاء تريلاونى ورأى شللى لم يكد يصدق أن هذا الوجه النسائى الناعم هو أيضاً وجه رجل نابغ ثائر ، يقذفه الناس فى انجلترا كأنه غول مخيف ، ويجرده كبير القضاة من حقوقه الأبوية . . . كذلك أعجب شللى ، من جانبه ، بهذا الرأس المتوحش الصلب ، وهذا الشارب الأسود ، وهذا الوجه الجميل الذى يكاد يكون عربياً . . وبلغ من دهشتهما معاً أن لم يجدا

ما يقولانه . . وأرادت جين الخروج من هذا الصمت المحرج ، فسألت شللى عن الكتاب الذى بيده ، فقال :

— إنه Magico Prodigioso لكالدرون، أترجم منه فقرات

فطلبت إليه أن يقرأ لهم ما ترجمه . . فارتاح شللى لتخلصه من واجبات التعرف التى تزعجه ، وكأنها تدور فى عالم غير حقيقى ، ففرح بالخلاص . . وطفق يترجم من الكتاب المفتوح بأسلوب عذب ، وعبارة جزلة ، بحيث لم يعد يخالج تريلاونى شك فى نبوغه وعبقريته . . وانتهت القراءة

وفى اليوم التالى أخذ شللى معه تريلاونى لزيارة بيرون . فرأى فيه تريلاونى ما يراه الناس جميعاً : كل مظاهر العبقرية . . غير أن حديث الرجل العظيم قد راعه بتفاهته . .

وخرجوا فى نزهـــة طويلة . بدت فيها براعة بيرون وشللى وتريلاونى جميعاً فى إطلاق النار على الهدف . وفى عودتهم تحدثوا فى الأدب ، ورووا الشعر . . وقال بيرون لتريلاونى :

— أعترف بأنك كنت تتوقع أن تجد فىّ : « تيمون » الحكيم الأثينى ، أو تيمورلنك الجبار التترى . . وأنك دهشت إذ وجدت رجل مجتمع ، لا يعرف الجد ، ويضحك من كل شىء ثم ردد : «الدنيا حزمة من العلف ، والناس حمير تتجاذبها» ! . .

الملاّح الذى جاء بيزا ليعجب بالرجلين العظيمين ، سرعان ما ألفى نفسه محل إعجابهما !

وكان شللى يستشير تريلاونى فى اصطلاحات البحر ، ويرسم وإياه ، على رمال شاطىء الأرنو : المراكب وأشرعتها ، والخرط البحرية . ويقول : « لقد أخطأت استعدادي ، كان ينبغى لى أن أكون ملاحاً » . . فيرد عليه تريلاونى بقوله : « رجل لا يدخن ، ولا يحلف ، لا يمكن أن يكون ملاحاً ! » . .

وكان بيرون ، القرصان الخيالى ، يود لو تعلم من القرصان الحقيقى : عادات المهنة ، وتقاليدها . . ويبذل الجهد أمامه للظهور بمظهر الجرأة والمجازفة !

ولما أدرك تريلاونى تأثيره فى بيرون حاول الانتفاع بذلك ، ليخدم شللى . فانتهز يوماً فرصة ركوبهما الخيل معاً ، وقال له :

— أتعرف أنك تستطيع خيراً كثيراً لشللى ، بكلمة طيبة عنه ، فى أحد مؤلفاتك القادمة ، كما سبق لك أن فعلت مع كتّاب دونه كفاية ؟

— لكل مهنة أسرارها ، يا تريلاونى . فإذا نحن مدحنا كاتباً محبوباً فإنه يرد إلينا ما دفعناه من نفس العملة : يرد رأس

المال وأرباحه . أما شللى فهو استثمار سيئ ؟ ! . . من ذا الذى يقرأ شللى ؟ .. فضلا عن أنه إذا عدل عن بحوثه المعمّاة ، فيما وراء الطبيعة ، والجدل فى الإلهيات ، فلن يعود بحاجة إلىّ . .

— ولكن لماذا يعامله أصحابك بلا اعتبار ؟ وهو لا يقل تربية عنهم . . . ففيم نفورهم منه ؟

فابتسم بيرون ، وهز رأسه ، وهمس فى أذن تريلاونى قائلا :

— ليس شللى مسيحياً

— وأصدقاؤك ؟ وأنت ؟ . . تالله لو لقيت إبليس على مائدتك لعاملته كواحد من أصحابك ! . .

فحدجه بيرون بنظرة قاسية ، ليرى هل لكلامه وملامه خبيء ... ثم قال :

— كان إبليس من الملائكة ، قبل أن يأبى ويستكبر ! ...

وكان تريلاونى يستعرض هذه الحال ، مع وليامز وزوجته .. قال لهما يوماً :

— كأنى ببيرون يغار من شللى ، فى حين أن « مورى » ، ناشر كتب بيرون ، يستغيث بالبوليس لحماية داره من ازدحام الجماهير فى كل مرة ينشر فيها نشيداً جديداً من « شايلد هارولد » . بينا شللى المسكين لا يجد عشرة قراء . . بيرون ، له : الأصل الرفيع ، والمال الطائل ، والجمال ، والمجد ، والحب !

فقال وليامز :

ــ أجل . . لكن بيرون هو عبد رقيق لأهوائه ، بينا شللى يعرض نفسه لتيار النهر الجارف ، ويأبى على التيار أن يجرفه !.. وله فكر ، وله مبدأ . أما بيرون ، فيعز عليه أن يكون له من ذلك شىء لساعتين متواليتين . . وهو يعرف ذلك من نفسه ، ولا يغفره لها . وهذا ما تشعر به من لهجة الظفر والشماتة التى يتحدث بها عن مصائب شللى . . .

فقالت جين :

ــ إن بيرون طفل مدلل . . ولكن لا هو ولا شللى يعرف الناس.. شللى يحبهم أكثر مماينبغى.. وبيرون لا يحبهم كفاء الحب

فقال تريلاونى :

ــ إن ما يروع فى شللى : أن ليست له عند نفسه قيمة . . منذ أيام عبر لى عن أسفه لعدم معرفته العوم . . فقلت له : «جرب . . واستلق على ظهرك ، فإنك تعوم. . » . . فلم أكد أقولها حتى خلع ملابسه ، وقفز إلى الماء بلا تردد . . ولكنه هوى رأساً إلى أعماق النهر ، ولولا أننى أسرعت بانتشاله لكان من المغرقين . .

فتنهدت جين .. لأنها لم تكن تجهل أن فكرة الانتحار تخامر شللى . وهو كثيراً ما يردد : «كل الذين أحبهم قد ماتوا غرقاً »

ــ ولكنه مع ذلك لا يبدو شقياً . .

ـــ لا ، لأنه يعيش فى أحلامه . أما فى الحياة الحقيقية ، فهل تظن أنه لا يألم من عجزه عن نشر آرائه ومؤلفاته على الناس؟ وهل تظن أنه لا يألم من تعاسة حياته الزوجية ؟ إن الموت لا شك يبدو له كاليقظة من كابوس مزعج . . . وعنده أن « الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . . »

ـــ إنه يؤمن بحياة أخرى . . وكل الذين يصفونه بأنه ملحد لا يعرفونه . . .

وبينا كان هؤلاء التلاميذ المريدون يتحدثون عن الأستاذ الغائب ، كان هو يعمل فى غابة الصنوبر فى ضواحى بيزا . . ينسى ، فى أحلامه ، ساعة العشاء . . بل ينسى ذات وجوده. . ينظم الشعر فى تمجيد عروس روحه الجديدة : « جين » . . . الأشجار كتبه . . لا يحب وهو ينظم أن يرى أو أن يسمع أحداً . . وليس فى البيت الوحدة التى ينشُدها ، فالأبواب تفتح وتغلق ، والأجراس ترن ، فتهرب من رنينها أشباح الرؤى ، وعرائس الأحلام !

ـــ ٣٤ ـــ

لم يصدق بيرون وعده لشللى بإحضار ألليجرا إلى بيزا . . وجاءت كلير من فلورنسا لتتنسم ريح بنتها ، وأوجست خيفة ، لما علمت ببقائها فى دير مانيا كافللو ، ذاك الذى صوره لها

أصحابها الطليان فى صورة بشعة . وحملها عذاب الأمومة على فدية تكاد تكون علوية : فكتبت إلى بيرون أنها تقبل ألا ترى أللجرا مدى حياتها ، إذا هو رضى بإدخالها مدرسة إنجليزية محترمة !. . فلم يرد عليها !

ونصح بعض الأصدقاء كلير بخطف بنتها . ولكن شللى أشار عليها بالصبر . ثم سعى لدى بيرون . . غير أن بيرون لم يكد يسمع اسم كلير حتى هز كتفيه ضيقاً بذكرها . فأخبره شللى بما سمعته كلير عن الدير وسوء حاله ! . ووصف له قلق كلير ومخاوفها

فارتسمت على وجه بيرون ابتسامة شيطانية من الرضى والارتياح . . .

ويئست كلير يأساً مريراً ، فدعاها شللى ومارى لقضاء شهور الصيف على شاطئ البحر معهما ومع وليامز وزوجه

كان شللى يمنى النفس بمتعة كبرى فى هذا التصييف . وقد كلف وليامز صاحبهما تريلاونى ببناء سفينة فى جنوا ، بيد صديقه الكابتن روبرتس . وتسلفا اسماً لها : « دون جوان » ، تكريماً لبيرون ، الذى أوصى أيضاً بصنع يخت كبير ، اختار له اسم « بوليفار » . . وكان شللى ووليامز يمنيان النفس بسيادة البحر الأبيض المتوسط ! . .

وكان لا بد لتحقيق هذا المشروع من استئجار بيتين على

شاطئ البحر ، وقرر وليامز وزوجه أن يقوما بجولة تفتيش نهائية ، وأخذا معهما كلير ليسلياها عن همومها

وما كادوا يغادرون بيزا حتى كتب لورد بيرون إلى شللى أن وباء التيفوس قد تفشى فى رومانا ، ولم يكن لدى راهبات الدير وسائل للوقاية ، فأصيبت « أللجرا » بهذه الحمى ، على ما كان بها من سقم وضعف ، فماتت . . .

فذهب شللى ومارى لزيارته . وكان أشد شحوباً من ذى قبل ، وإن كان أيضاً أشد هدوءاً من مما كان عليه

وخشى شللى أن ترتكب كلير عملا عنيفاً ، إذا علمت بمصيبتها وهى على مقربة من بيرون ، فقرر أن يكتم عنها الخبر ، إلى ما بعد السفر

ولم يجـــد وليامز على الشاطئ كله إلا مسكناً واحداً خالياً كان من قبل ديرا قديماً من أديرة اليسوعيين ، وكان يشرف على خليج « سپزيا » البديع ، وكانوا يطلقون عليه اسم : « كازامانى » . . وكان شللى يريد إبعاد كلير ، مهما يكلفه ذلك ، فقرر استئجار البيت ، على أن تسكنه الأسرتان معاً . وكان الطابق الأرضى لا يُسكن ، إذ تغمره مياه البحر عند ارتفاعها، وكان الدور الوحيد فوق هذا مكوناً من قاعة كبيرة للطعام ، يؤدى أحد جوانبها إلى غرفة وليامز وزوجته ،

والجانب الآخر إلى غرفتين صغيرتين ، إحداهما لشللى ، والأخرى لمارى وكلير . وسادهم الهم والغم فى الليلة الأولى . وكانت الأمواج تموج تحتهم ، تناطح الصخور ، بصوت يقبض الصدور . . . ولم يكونوا جميعاً ليفكروا إلا فى مصاب كلير ... وكانت هى تعزو كآبتهم إلى ضيقهم بوجودها ، فعرضت عليهم عودتها إلى فلورنسا . فاحتجوا وعارضوا جميعاً . وهمست جين فى أذن مارى بشىء ، ثم انسحبتا معاً إلى غرفة وليامز . ولحق بهما شللى . وبعد هنيهة اتجهت كلير نحوهم ، فرأتهم فى ركن يتحدثون باهتمام . . وقطعوا حديثهم حين لمحوها . . وعندئذ قالت :

ــ أللجرا ماتت ؟ ! . . .

وفى اليوم التالى كتبت خطاباً فظيعاً إلى بيرون ، فأعاده إلى شللى شاكياً من خشونتها ، وأبدى استعداده للسماح لها بعمل ما تراه لدفن ابنتهما . فأجابت ، بتهكم كئيب ، بأنها من الآن فصاعداً ستترك الأمر كله له ... وأن كل ما تسأله تذكاراً لابنتها هو : خصلة شَعر وصورة . فأظهر بيرون طاعة مدهشة ، وبعث إليها بصورة صغيرة جميلة جداً ، وخصلة شعر شقراء . . وعادت إلى فلورنسا ، لتعيش بين الغرباء عنها ، لا يعرفون شيئاً عن حزنها ، فلا يجددونه لها . . .

فتن شللى ببيت البحر « كازامانى » . . أحب فيه : الوحدة الموحشة ، والغابة التى من خلفه ، والجون الصخرى الخشبى ، وقرى الصيادين ، وأكواخهم الحقيرة . .

أما مارى ، فتخبطت : حيرة ، وشقوة ، وتأففاً . . فهى حامل مرة أخرى ، تؤثر لو عاشت فى مدينة على مقربة من طبيب . وضاقت ذرعاً بوجود جين وليامز . . وثارت بينهما مشاجرات حمقاء ، بسبب الخدم والآنية والطهى ! . . وكان شللى يسرف فى الحديث بحماسة ، عن كمال جين ، ويسرف فى نظم « السريناد » من آيات الشعر ، عنها . . و . . لها . . .

وكان يرد على شكاوى امرأته بلطفه المعهود . يدللها ، ويداعبها ، برقة وحنو ، ويروّح عنها ، وكان يعلم أن حالة الحمل تفسر من ألوان تذمرها وتمرمرها الكثير . فتحملها بعطف صبور . وكان خاصة ما تعتبه عليه أن قواه العظيمة التى آتاه الله لا ينتفع بها لنفسه ، بل يسخّرها لمنفعة غيره . . كأن شخصه شخص أجنبى عنه ! . . ولا يشمل برّه وتفانيه الأقربين من صحبه ، بل الغرباء المجهولين . .

وكان يذهب كل شهر إلى ليڤورن ويعود بكيس مملوء نقوداً ،

يفرغه على البلاط . ويقسم النقود بمجراف الفحم قسمين متساويين ، النصف لمارى ، لأجرة البيت وتدبيره . ثم يقسم النصف الثانى أيضاً قسمين متساويين ، أحدهما تأخذه مارى كذلك لمصروفاتها الشخصية ، والثانى لشللى . . ولكن مارى تعلم المقصود من أنه « لشللى » . . فقد كان يذهب إلى أبيها جودوين ، ولأختها كلير ، ولأسرة هنت ! . . .

كتب شللى ، بعد موت أللجرا ، إلى الكابتن روبرتس ليمحو عن المركب الذى يصنعه اسم « دون جوان » ويثبت بدله اسم : « آرييل » . صار كل ما يذكره ببيرون عنده مرذولا . لذلك ما كان أشد دهشته وغضبه عند ما جاء المركب الصغير حاملا على شراعه ، بحروف هائلة : « دون جوان » ! . . وكان ذلك من عمل بيرون ، إذ عرف بالتغيير المقصود ، فأمر الكابتن روبرتس بأن يضع ، رغم كل شىء ، طابعه الشيطانىّ على المركب الأفلاطونى . فلم يسترح شللى حتى محا عنه هذا العار ووضع عليه اسم : « آرييل » . وكان لا بد له من طنين من الرصاص حتى يتزن . . فهو هكذا ، يظل قلقاً ، لا أمان له ، يعبث به النسيم ، ويلعب الهواء . .

وأراد شللى ووليامز صاحبا « آرييل » أن يسيراه وحدهما مع غلام ملاح . وكان وليامز يدعى المعرفة بالبحر ، وكان شللى

جاهلا به كالمرأة ، وكاد خلال أول رحلة يسقط مرات عديدة من ظهر المركب ! ومع ذلك لم يكن أسعد منه ولا أهنأ يومئذ . ولما رآه تريلاونى يقود السفينة أخذ بذراع وليامز ، ونصحه بأن يبحث عن ملاح ماهر ، خبير بهذا الخليج . . .

وكان يصعب رسو « آرييل » على رصيف « كازامانى » لشدة التيار . فصنعوا زورقاً خفيفاً ليصلوا به إليه . . فأصبح الزّورق لعبة شللى الأثيرة عنده : يهيم بإطلاق نفسه ، تؤرجحه الأمواج ، فى هذه المحارة الخفيفة . .

وكان يحب الإقلاع مع صحبه هؤلاء فى « آرييل » فى ضوء القمر : عند قدميه مارى جالسة ، رأسها إلى ركبتيه ، تتذكر : كيف أنها ، هكذا ، منذ عشر سنوات ، قد عبرت وإياه المانش الهائج فى جو عاصف . . . ما أكثر ما مرّ من حوادث فى هذه السنوات العشر ! . . وما أكثر ما تمخضت الحياة الخائنة بخدع ، وكشفت عن أشياء لم يكن كلاهما عندئذ يتصورها ! . . وفى آخر المركب : جين ، جالسة تغنى لحناً هندياً ، وتوقعه على القيثارة . . بينا هو يتأمل : سماء يونيه الصافية ، والسحب البيضاء تتقنّع دلالا بضوء القمر الساطع . . لم يكن يفكر . . كان يحس روحه تنحلل وتذوب تحت سنا النور النقى ، فى عطور الليل الدافئة . . إن شخصه ، الذى قدّ

من لحم ودم ، قد تلاشى فى انجذاب روحى لذيذ ، فلم يعد إلا أثيراً ، يموج فى الفضاء بخفة . . ونسجت له عطور السماء ، وأضواء القمر ، وغناء جين ، شباكاً خفية ، يتأرجح فيها كالطفل فى مهده ، مصغياً إلى أنغام موسيقى باطنية ربانية . .

— ٣٦ —

كان شللى يرغب ، من وقت طويل ، فى دعوة صديقه الناقد هنت وأهله إلى إيطاليا ، لأن الدائنين وأعداءه السياسيين قد جعلوا عيشهم فى انجلترا مرّاً . وحصل من بيرون على وعد بأن يؤسس مع هنت جريدة تختص بحق نشر جميع أعمال بيرون. وهو امتياز كاف لنجاح الجريدة وذيوعها ، ويهيىء لهنت ثروة لا يحلم بها . وذهب بيرون إلى أبعد من ذلك فى السخاء فرضى بأن ينزل لهنت عن الدور الأرضى فى قصره بمدينة بيزا ... وتعهد شللى بأن يؤثثه لهم . . .

وبعد متاعب ومصاعب وُصلت قافلة هنت إلى ليڤورن فى أواخر يونيه ١٨٢٢. وكان تريلاونى ينتظرهم على اليخت «بوليفار». ووصل شللى وليامز على « آرييل » مندفعاً إلى الميناء ببراعة فائقة . وبعد مظاهرات الفرح باللقاء اتجهت القافلة ، بقيادة شللى ، نحـــو بيزا . . بينما ظل وليامز فى ليڤورن فى انتظار

صديقه شللى ليعودا فى المركب معاً

وفى صباح اليوم الثامن من يوليه وافاه شللى ومعه تريلاونى ، وقصد البنك ، واشترى مؤونة لبيتهم « كازامانى » . . ثم اتجه الأصدقاء الثلاثة صوب الميناء . وكان تريلاونى يريد أن يصحب المركب « آرييل » باليخت « بوليفار » . وأخذت السماء تربدّ شيئاً فشيئاً ، وتتلبد بالسحب ، وهبت ريح خفيفة . . وتنبأ الكابتن روبرتس بقرب هبوب العاصفة . فأكّد وليامز ، وكان يتعجل الرحيل ، أنهم سيصلون البيت فى سبع ساعات

وعند الظهر كان شللى ووليامز وبحارهما الفتى على ظهر « آرييل » ، وتريلاونى على ظهر « بوليفار » يعد عدته أيضاً للرحيل . ودنا منهم مركب حرس الميناء ، للتحقق من أوراقهم ، فسُمح لشللى ومركبه بالإبحار . أما تريلاونى فلم تكن لديه شهادة صحية ، وحاول التملص ، فهدده الضابط بالحجر الصحىّ خمسة عشر يوماً . فعرض على صاحبيه أن يذهب ليتمم أوراقه ويعود سريعاً ، ولكن وليامز كان لا يستقر على حال من القلق . ولم يكن لديهما وقت يضيعانه ، فقد كانت الساعة الثانية ، وكان الهواء قليلا ، فإذا جهدوا وصلوا عند دخول الليل

وأقلع « آرييل » من الميناء ، بين الثانية والثالثة ، فى نفس الوقت الذى أقلعت فيه « فلوكتان » إيطاليتان . . وألقى

تريلاونى « هلبه » غاضباً ، وطوى شراعه ، وظل يتابع ، بمنظار معظم ، مركب صاحبيه . فقال له ملاحه الجنوى :

ــ كان عليهم أن يقلعوا هذا الصباح ، فى الساعة الثالثة أو الرابعة ... بدلا من الثالثة مساء .. وهم يلازمون الشاطئ كثيراً ، فسوف يتمكن التيار منهم هناك !

ــ إن هواء الأرض لا يلبث أن يساعدهم

ــ ربما زاد الهواء عما يعوزهم منه . . وهذه القلاع العدة على سفينة بلا سطح « دك » ولا ملاح هى الجنون يدور بها ! . انظر إلى هذه الخطوط السوداء هناك ، والخرق القذرة العابرة فوقها ، وذاك الدخان على الماء . . . إن الشيطان يدّبر أمراً . . .

كذلك ، من وراء رصيف الميناء ، كان الكابتن روبرتس يرقب « آرييل » . فلما غاب عن بصره صعد إلى الفنار ، فرأى العاصفة توشك أن تهب وتتجه نحو المركب الصغير . . ثم لم تلبث السحب المدلهمة أن حجبته تماماً عن الأنظار !

وكان لجو الميناء وَقْدَة ، وقد انقلب خانقاً ، وصار الهواء شواظاً من نار . وساد صمت ثقيل ، يقبض الصدور ، وينقض الظهور . ونزل تريلاونى إلى كابينه ، ونام إعياء . وبعد لحظات استيقظ على دوى السلاسل . فقد كان البحارة يلقون هلباً آخر . وعمت الميناء كله حركة الهرج والمرج التى

تسبق هبوب العاصفة . وطووا القلاع ، وخفضوا الساريات ، وأخرجوا الحبال الضخمة ، ولم يبق هلب إلا تشبث بالشاطئ ، يعض عليه بأنيابه الفولاذية . وساد الظلام التام . صار البحر كتلة واحدة ، صماء قاتمة كالرصاص . الرياح تنفخ فيه ، والمطر المدرار يهطل من فوقه ، ولا ينفذ إليه . ولاذت زوارق الصيد بالشاطئ ، مسرعة ، متزاحمة ، لا تلوى على شيء . وكان يُسمع : صفير ، ونداءات ، وأوامر ، وصرخات . . ثم تغلّب على ضجة البشر ، فجأة ، هزيم الرعد ، مزق الحجب ، وزعزع الكائنات . .

وعند ما صحا الجو ، بعد بضع ساعات ، وراح تريلاونى وروبرتس يمسحان الخليج طويلا بالمنظار المعظم ، فى قلق ، أملا فى اكتشاف مركب شللى ، لم يجدا لأى مركب أثراً . . .

— ٣٧ —

ودت مارى لو دفن شللى قرب ولده فى مقبرة روما ، تلك التى رآها جميلة جداً . . لكن اللوائح الصحية لا تسمح بنقل جثث الغرقى . فاقترح تريلاونى أن تحرق الجثتان على الشاطىء ، على طريقة الإغريق القدماء . ولما تحدد يوم لهذه الشعائر أحاط به بيرون وهنت . وقدمت السلطات التوسكانية شرذمة من الجند

مزودين بالفؤوس والمعاول ، لكى ينبشوا فى الرمل على جثتى شللى وويليامز ، وكانتا قد طمرتا فى الرمل بعد أن دفع بهما البحر ، لحفظهما من المد والجزر . .

ونبش أولا على جثمان ويليامز . ووقف أصحابه على الرمل المحرق ينظرون إلى الجنود يعملون ، متطلعين ، بمزيج من الحزن والرعب ، إلى ظهور الرفات البشرى . . وظهر أولا طرف منديل من الحرير الأسود ، ثم ياقة ، ثم الجسد فى حالة من الانحلال ، بحيث كانت الأعضاء تتساقط بمجرد ما يلمسها الجند . . .

فنظر بيرون إلى تلك الكتلة المختلطة من اللحم والعظم ، وقال :

ـــ أهذه إذن رفات إنسان؟ ! . . كأنى بها هيكل حيوان !

وبلغ به التأثر ، فحاول أن يخفيه ، إذ عده غير جدير بالرجال .. وفى اللحظة التى رفع فيها الجنود الجمجمة قال : « قفوا لحظة ! . . حتى أرى الفك . . » . . ثم أضاف : « إنى أستطيع أن أعرف من الأسنان كل من خاطبته يوماً . . إنى أنظر دائماً إلى الفم ، فهو يقول ما تحاول أن تخفيه العيون . . »

وأعدت كومة كبيرة من حطب الصنوبر ، أشعل فيها تريلاونى النار . . فلم تلبث أن تأججت ، وهى تلتهم العظم واللحم ، وتلظت بسرعة حامية ، حتى تراجع المشاهدون . .

واستعرت النار بشراهة وحشية ، ثم تألقت صافية ، لامعة ، فضية ولما خبا قليلا أوارها اقترب منها بيرون وهنْت ، وألقيا على هذا الفراش الجنائزىّ المتوقّد : لباناً ، ومِلحاً ، وخمراً . .

وقال بيرون بغتة :

ــ هلموا . . ولنجرب قوانا مع هذه المياه التى أغرقت صديقينا . . ما مدى بعد مركبهما عن الشاطىء عندما غرق ؟..

وقفز إلى الماء عائماً . . وتبعه تريلاونى وهنت . .

ولما التفتوا وراءهم كانت محرقة الموت على الشاطئ لم تعد إلا ذبالة تضىء وتخبو . . .

وفى اليوم التالى جاء دور شللى ، الذى كان مطموراً قرب ڤيارجيو ، بين البحر وغابة الصنوبر

وكان الجو صحواً جميلا : رمال صفراء ، ومياه زرقاء ، تؤلف ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، لوحة رائعة . ومن وراء الأشجار ، تبدو قمم جبال الأبنين المتوجة بالثلوج البيضاء ، فى السماء الموشّاة بالسحب المرمرية الهاربة ، التى طالما أعجب بها شللى

واحتشد أطفال البلد لدى هذا المشهد النادر . . ولكنهم لزموا الصمت خاشعين . . وكان بيرون نفسه قد توزّعته الفِكَر والغموم :

ــ آه ! . . . أيتها الإرادة الحديد ! . . أهذا إذن كل ما بقى من شجاعتك ، ومضائك ، وعزيمتك ؟ ! . . لقد تحديت

الآلهة . . . وها أنت ذى ! . . لا عاصم اليوم من أمر الله ! . . .

وظل الجنود يحفرون نحو ساعة ، ولا يجدون الجثة . ثم فجأة ، سُمع صوت ضربة جامدة جوفاء ، أنذرتهم بأن فأساً قد ضربت جمجمة الرأس ... فارتجف بيرون ! .. ومرت بذهنه كالبرق صورة شللى ، يوم تلك العاصفة ، على بحيرة جنيف ، عندما كانا معاً ، وقد شبك شللى ذراعيه على صدره ، ببسالة وعجز معاً ! . . فبدا لبيرون أن تينك الذراعين كانتا رمزاً صادقاً لهذه الحياة الجميلة :

ـ لشد ما كان الناس قساة غلاة فى الحكم عليه ظلماً وعدواناً . . فهو خير الرجال بلا استثناء ، وأقل من عرفت منهم أثرة وأنانية . . . ثم أى جنتلمان هو ! . . الرجل الكامل . . لم يعبر قط صالوناً رجل أكمل منه ! . .

كانت الجثة مغطاة بالجير الذى لم يدعها إلا فحماً . فنُثر من جديد بخور اللبان والزيت والملح على اللهب ، وصُب النبيذ مدراراً على شللى ميتاً ، أكثر مما تجرع منه حياً . .

وضاق الجو ، وتكهرب بالحرارة الهائلة . . وبعد ثلاث ساعات كان القلب ، وهو على حجم كبير غير عادى ، لم يذب بعد . . فانتشله تريلاونى من الأتون المشتعل ، مجازفاً بإحراق يده .. وكانت الجمجمة التى شجّها معول جندى قد

انفتحت ، وظل المخ يغلى فيها طويلا . . كما لو كان فى بوتقة !

فلم يعد بيرون يستطيع احتمال هذا المشهد . ففعل ما فعل بالأمس : ألقى بنفسه متجرداً إلى البحر ، وسبح حتى يخته « بوليفار » ، الذى كان راسياً فى الجون

وجمع تريلاونى بقايا العظام المنتثرة ورماد الرفات ، ووضعها فى صندوق كان قد جاء به ، مصنوع من خشب البلوط ، ومبطن بقطيفة سوداء . .

* * *

ـ أما غلمان القرية ، الذين كانوا يحدقون بكل عيونهم ويعجبون ، فقد روى بعضهم لبعض :

ـ إن هذه العظام النخرة ، إذا ما عادت إلى وطنها ، عاد الميت فوُلد من رماده ، وهبّ من رقاده ! . .

اقرأ

حسن محمود

١٢٨

الجدة الصغيرة

دار المعارف بمصر

الجدّة الصّغيرة

حسن محمود

الجدة الصغيرة

اقرأ ١٢٨
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٨ — أول أغسطس ١٩٥٣

١

السفر

قد يكون السفر من القاهرة إلى الإسكندرية أمراً عاديا لدى الذين اعتادوه : فما هو إلا الوصول إلى ذلك البناء الكبير على الطراز العربى الذى هو محطة القاهرة منذ أنشئت السكك الحديدية ، وما هو إلا أن يذهب المسافرون إليه فى أسرع وسائل النقل التى يعرفونها ، وكانت فى العهد الذى نكتب عنه المركبة التى يجرها جوادان إذا كانت بالأجرة ، وجواد واحد إذا كانت ملكاً للمسافرين ، وما هو إلا أن يتغلبوا على ذلك الحشد من الحمالين الذين يهجمون على المركبة كما يهجم الباشق على فريسته ، أو يغلبهم هذا الحشد ، فتحمل من بين يديهم ، إما بالرضا وإما قسراً ، تلك الأحمال المختلفة التى يتزود بها المسافرون ، وهى عادة حقائب من الجلد ، إذا كان المسافرون من ذوى اليسار ، وأحياناً حقائب من القماش تحشى فيها الملابس حشواً ، ويسير الحمال مسرعاً ، حتى ليكاد يغيب

وسط الزحام عن أنظار صاحب الأحمال ، ثم بعد لحظة يضع الحقائب فى مكان خال ويطالب صاحبها بأجره قبل أن يستطيع المسافر أن يجمع نفسه . فإذا نقده أجره مهما كان كبيراً فهو لابد متذمر ومطالب بالمزيد . فإذا وجد إصراراً من المسافر انصرف صاخباً متذمراً وحينئذ ينزوى المسافر فى مكانه وتعود الأمور إلى طبيعتها وتعود الرحلة عادية لمن اعتاد كثرة السفر .

أما ما يتلو ذلك من عجلة المسافرين أمثاله ومن صخبهم ومناقشتهم مع الحمالين ومن قذف أحمالهم فى أمكنة خالية أو نصف خالية فهو أمر لا يعنيه . فلقد ردت إليه نفسه بعد أن جلس إلى مقعده وهو لا ينتظر غير الجرس يقرع إيذاناً للمودعين كى ينزلوا عن القطار بعد أن يحيوا أصدقاءهم ، وإيذاناً للمحب كى يقبل حبيبته القبلة الأخيرة ، وإيذاناً للأم كى تخرج منديلها لتمسح به دموعها التى بدأت تتناثر من لوعة فراق ابنها أو ابنتها . ولا ينتظر غير ذلك الصفير الطويل الذى يؤذن بتحرك القطار ومبارحة المسافر المحطة أو مبارحة المحطة له . وبعد ذلك بيوت ثم أكواخ تمر على ناظريه بسرعة مبتعدة عنه فإذا به فى تلك الحقول الخضراء التى تمتد إلى مرمى النظر ، وهى تسير مسرعة مبتعدة عنه لا تلوى على شىء ، وهى متكررة

متكررة لا يتغير منظرها ، ولذلك لا بد للمسافر فى هذا الطريق أن يملها بعد حين ويجد عنها شاغلا .

قد يكون ذلك شأن المسافر الذى ألف قطع هذا الطريق ولكنه لم يكن شأن كمال فى هذه الرحلة التى يمكن أن نعتبرها الأولى فى حياته . فقد كان كمال مسافراً لأول مرة وحده لا تصحبه غير جدته . وكان فخوراً بهذا السفر إلى أقصى حد . ولقد قطع هذا الطريق من قبل نحو ثلاث مرات ولكنه فى كل هذه المرات كان أحد أفراد الرحلة وأصغرهم شأناً . إذ كان يسافر فى صحبة والدته وأخيه الكبير وأخته التى تكبره . قطع هذا الطريق مرة فى الصيف ، وهو طفل محمول على كتف خادم . وليس من المعقول أنه كان كثيراً الانتباه لما رآه فى هذا السفر . وسافر مرة أخرى وفى الصيف أيضاً فى صحبة أسرته التى ذكرناها وكان يمشى على قدميه ، أجل ، ولكنه كان فى الخامسة من عمره . وهو يذكر تماماً أنه حاول أن يقف إلى النافذة ليتطلع للطريق فزجرته أمه وانتهى الأمر ببكائه ثم نومه فى حجر الخادم بحيث لا يمكن أن يقال إنه رأى الطريق . وسافر فى العام الذى يليه ولكنه كان بصحبة أسرته أيضاً . وابتدأ السفر بمشاحنة بينه وبين أخيه الكبير ، فأخذ أخوه طوال الطريق يعاكسه بألفاظ وإشارات نغصت عليه سفره ، ولم تفد

محاولة الأم وزجرها لابنها الكبير فى إيقاف هذا الابن عند حده . بل كان ينتهز فرصة التفات أمه إلى جهة أخرى فيقرصه أو يركله برجله مما جعل هذه الرحلة عذاباً له مقيما ؛ فلا يمكن أن يقال إنه رأى شيئاً من الطريق .

ولكن فى هذه المرة جاءت الجدة لزيارة ابنتها فى القاهرة وأقامت لديها شهراً وبضعة أيام وجاءت محملة بالهدايا من الإسكندرية وكان خير هذه الهدايا ما حملته إلى كمال الصغير الذى كان يتمتع بحبها خاصة . وبعد أن أمضت هذه المدة فى دار أهله أرادت العودة إلى دارها بالإسكندرية . فتعلق كمال بها وأبدى رغبة شديدة فى اصطحابها وكانت والدته لا تعتزم السفر إلى الإسكندرية فى ذاك الصيف . وكان كمال عندئذ قد ترك مدرسته الحرة استعداداً للدخول فى مدرسة حكومية . لذلك كانت لديه فرصة لتمضية الصيف فى الإسكندرية عند جدته وقد بلغ السابعة من عمره . وهو فى هذه السن قادر لحد ما على أن يسوس أمر نفسه فلم تمانع الوالدة وكان له ولجدته ما أراداه .

سار كمال إلى جانب جدته قاطعاً فناء محطة القاهرة وهو فخور مزهو وكان يمشى فى سرواله القصير مشية الرجل الكبير . وقد أمسك بيد جدته العجوز وكأنه يرى نفسه مسئولا عنها

وليست هى المسئولة عنه . وكانت هى فرحة مبتهجة وكأنها حذرت ما يجول فى نفسه . وكانت هى فخورة به تنظر إلى مظهر الحماسة فى مشيته وتتطلع إلى بريق عينيه واحمرار محياه لما تحملـّه من مسئولية على عاتقه . وسار بها إلى أن وجدا مقعدهما . وحينئذ جلس إلى جانبها هادئاً رزيناً لم يحاول فى هذه المرة أن يفعل فعلته فى المرات الأولى . حيث يقف على وسائد المقعد بقدميه . ولم يكن فى هذه المرة فى حاجة إلى ذلك . فقد طالت قامته ، طولا نسبياً إلا أنه طول ملحوظ . ثم كان يشعر أنه ليس من شيمة الرجال أن يقفوا على وسادة المقعد ليتطلعوا إلى المناظر التى تلوح لأعينهم من وراء نافذة القطار ، فما يفعل ذلك إلا الأطفال وهو لم يعد طفلا . ألم يعهد إليه فى حراسة جدته والسهر على راحتها كما ظن فى نفسه ؟

لذلك جلس هادئاً ، وإن فضل أن يتخذ المقعد الملاصق للنافذة . ولم تمانع جدته فى ذلك . فقد كانت الجدة تفهم بإلهام غريزى منحى أفكار ذلك الغلام الذى تحبه وتتعلق به آمالها . وهى بغريزتها الملهمة لم تمانع لأنها شعرت بأنه يمكن الاعتماد عليه . وهى تعرف هدوءه الطبيعى ، وتعرف فيه نوعاً من الرزانة ما دام على انفراد ، لا يعكر صفوه معاكسات أخ أو صديق .

جلس إلى جانبها جلسة الرجل وقد تدلت ساقاه وكان لا يستطيع غير ذلك . فإن هاتين الساقين لا يمكن أن تصلا إلى الأرض وإن وصلتا إلى نصف المسافة بين الأرض وارتفاع المقعد ، ولكن لم يكن هذا الأمر من ذنبه . وجلست الجدة إلى جانب صغيرها والحنو يكاد يطفر من عينيها .

وسار القطار فى حركته السريعة ونغمته المنتظمة وهو بين حين وآخر يرتعد رعدة خفيفة بينما الأشجار تمر بهم مسرعة ثم تتباعد سريعاً فى حفيف منتظم . وكانت تلك الخضرة الزاهية ، حتى لتكاد تنقلب إلى اصفرار الذهب ، تلوح ثم تغيب لتظهر لهم حقول أخرى خضراء زاهية . وكان هذا المنظر المتكرر الذى يألفه المسافر يبدو جديداً لعينى الغلام الذى لم يسافر قبل الآن معتمداً على نفسه . ثم بين حين وآخر يصل القطار إلى محطة من محطات المدن الكبيرة ، بعد أن يكون قد مر على محطات صغيرة فلم يأبه لها ولم يهتم بأن يخفف من سرعته فكأن هذه المحطات تغضب فهى تحثو التراب فى وجهه . فإذا وصل إلى إحدى المحطات الكبرى خفف القطار من سيره وسار وئيداً إلى أن تقف حركته ويستقر . وحينئذ ينزل عنه أفواج من الناس وتهجم عليه أفواج أخرى بين مسافرين يركبون القطار وبين باعة ريفيين ينادون على سلع أكثرها من المأكولات . أو

المشروبات ، ثم يتحفز القطار للسير ويخرج صفيره المعتاد ، ويعود هؤلاء الناس أشباحاً يتركها القطار أو هى تسير عنه مسرعة لا تلوى على شيء .

أمضى كمال الساعات الأربع التى قطعها القطار بين القاهرة والإسكندرية هادئاً رزيناً إلى جانب جدته ، يتطلع إلى ذلك العالم الجديد الذى يراه خلال النافذة ويسرح الطرف فى هذه المناظر الجديدة عليه . ولكنه بين حين وآخر ينظر إلى عينى جدته فيجدهما متطلعتين إليه مترقبتين من فوق نقابها الأبيض وهما تبسمان له . وقد برقتا حنواً وفرحاً . فكان أحياناً ينسى الصفة التى انتحلها لنفسه فيرمى برأسه بين أحضانها ، فتقبله من وراء النقاب ثم يعود إلى جلسة الرجل التى انتحلها لنفسه . وكانت تفتح حقيبتها الصغيرة بين وقت وآخر فتمد رجلَيها بقطعة من الشيكولاتة أو من الحلوى التى جاءت بها لكى لا يحتاج إلى شراء تلك السلع غير النظيفة فى الطريق . وشعر بالعطش ذات مرة فأخرجت من هذه الحقيبة الصغيرة زجاجة بها ماء وكوبة فشرب حتى ارتوى .

كان ذلك فى شهر مايو ولم يكن الحرّ قد اشتد اشتداداً كبيراً فى القاهرة ، ولكن طراوة الربيع أو ما يسمونه الربيع انحسرت عنها . فلم تكن الحرارة شديدة على أهل القاهرة

ولكنها تعتبر شديدة لدى سكان السواحل . ولذلك ما قطع القطار الطريق وبلغ دمنهور ثم مرّ بها قاطعاً الطريق إلى الإسكندرية حتى تغير الجو . وبدأ نسيم البحر يهب عليه . وبدأ المسافرون يشعرون بهذا التغير وكأن ثقلا قد انزاح عنهم .

وبلغ القطار محطة الإسكندرية وكانت فى ذلك العهد محطة حقيرة لا تتميز عن محطات المدن التى مرّ بها القطار فى طريقه إلا بشىء من الاتساع . وأمسك الغلام بيد جدته ونادى حمالا ، وحاول بيديه الصغيرتين أن يساعد الحمال فى تناول الحقائب . ولكنه بالطبع عجز عن ذلك واضطر إلى العدول عن مجهوده . فضحك بعض المسافرين لمحاولته .

ثم نزل مع جدته وركبا عربة سارت بهما تخترق شوارع الإسكندرية المبلطة ببلاط كبير الحجم حيث قصدا منزل الجدة فى أحد الأحياء القديمة .

لم يؤثر أحد فى حياة هذا الصغير إلى ذلك العهد مثل جدته المحبوبة ، فقد نشأ الصغير بين والديه ولكنه لا يكاد يذكر أحدهما ، وهو الوالد ، ذلك لأن أباه كان رجلا متقدماً فى السن وكان كمال أصغر أولاده الثلاثة وقد تزوج هذا الأب من الأم وهو يصح أن يكون والداً لها فالأم فتية فى شرخ الشباب بينما الأب بلغ سن الشيخوخة وإن كان لا يبدو عليه آثار الهرم

فقد احتفظ بشعر رأسه فى لونه الطبيعى ولم يفقد منه شيئاً وكان وجهه لا ينم كثيراً عن سنه فهو مكتنز باللحم ، حسن القسمات . وعيناه براقتان ولون الوجه الذى لوحته شمس الصعيد أسمر داكن مع ميل إلى الحمرة ، وكانت أسنانه تكاد تكون كاملة ، والحقيقة أن الأسرة خدعت فى سنه عند ما تزوج إلى إحدى بناتها . وكان شديد التأنق فى ثيابه فثوبه من خير أنواع الصوف الإنجليزى وأحذيته من صنع إنجلترا وقمصانه وملابسه الداخلية من الحرير ؛ وكان هذا التأنق الشديد فى الملبس يزيد فى خداع الناس عن سنه ولكن الزمن لا يرحم فما أن جاء ابنه الصغير كمال إلى هذا العالم حتى كانت الأمراض قد بدأت تؤثر فيه لا سيما أنه كان يحيا حياة جد قوى ولهو قوى .

وما أخذ كمال يدرك ما حوله من أمور حتى عرف ذلك الوالد ولكنه عرفه على أنه شخص يُحترم أكثر مما يُحب . ولم يكن الوالد غليظ القلب بل كان على العكس يفيض حناناً على أولاده ، فكان من عادته ألا يدخل الدار بعد الظهيرة حتى يكون قد حمل حلوى أو فاكهة تكدس للأطفال فلا تخلو الدار مطلقاً من نوعين أو أكثر من الفاكهة والحلوى والفطائر توضع لهم فى غرفة نومهم كى يطعموا منها كلما شعروا بالجوع فى لهوهم وعبثهم . ولم يكن كمال يشعر فى الحقيقة بما تنطوى عليه

تلك الهدايا الدائمة من حب وعطف فقد كان يظن فى تلك الفترة أنها أمر طبيعى لدى جميع الأطفال وأنها جزء لا يتجزأ من حياتهم ولذلك كان حبه لهذا الوالد مرتبطاً بهذه الفاكهة والحلوى التى تأتى إليه بلا عناء ، ولكن الشعور الغالب على نفسه هو شعور الاحترام لذلك الأب الذى لا يشهده إلا قليلا فيما بعد الظهر ، وكان يتهيبه . والواقع أن الوالد كان يفضل ابنته وهى الوسطى بين أبنائه الثلاثة ويؤثرها بعطفه فى المدة القصيرة التى يتاح له فيها مداعبة أطفاله . وكانت للصبية جرأة على هذا الأب فإذا احتاج أحد الصبيين إلى مطلب من المطالب فأقرب طريق إليه هو أن يسترضيا أختهما وقد يرشوانها بلعبة أو شىء من ذلك لكى تخبر أباهما ؛ ولا تتمنع الصبية أمام هذا الإغراء فهى بالرغم من عنادها ومشاحناتها مع أخويها رقيقة القلب عطوفة عليهما ، فما أن ترى أباها قادماً حتى تتقدم فى جرأة لم يكن يجدها الأخوان وتمسك بيده السمراء الغليظة فى يدها الصغيرة البيضاء البضة ، وحينئذ يجرها الأب معه إلى مقعده ليقبلها ثم تقبع إلى جانبه كالهرة الصغيرة وتحدثه تواً فى مطالبها أو مطالب أحد أخويها دون تردد بل تلتجئ أحياناً للهجة الآمر .

فصورة هذا الوالد إذن لم تكن مرتبطة لدى الصغير إلا

بهذه الألوان من الفاكهة والحلوى التى يعرف الوالد كيف يأتى بها من أكبر الحوانيت ، ومرتبطة بوقائع قليلة تافهة فى ذاتها وإن كان لها أثر هام فى نفس الصغير . فهو يذكر كيف أنه تقدم إلى هذا الوالد ذات مرة فى جرأة ليكلمه فى أمر غريب على الأطفال أن يتحدثوا فيه ذلك هو أمر مستقبله . وكان كمال عندئذ لا يكاد يتجاوز السادسة من عمره وقد تعلم القراءة والكتابة وتعلمها فى سن لا يستطيع تحديدها بالضبط ، وكأنه لم يتعلمها بل وجد نفسه وهو يقرأ ويكتب . لذلك وهو فى تلك السن فكر بعقله الصغير فى أمر مستقبله . فجاء إلى والده وقال له فى لهجة الجد « لقد فكرت يا أبى فى أمر دراستى ورأيت من واجبى أن أقترح عليك إلحاقى بالأزهر » وضحك الوالد لهذا الاقتراح ورحب به وربما عزم على تنفيذه. لأن تلك الفكرة وافقت هوى فى نفسه ووجدت وجيباً من عاطفته الدينية التى لا تظهر كثيراً إلا فى احتفاظه بصلاة الصباح دون باقى الصلوات . فهو رجل عاش مدنياً ولكنه من أبناء الصعيد . فهو قوى العقيدة وإن شغلته مشاغل الحياة عن القيام بالصلوات الخمس . ولكن الأم لم تكد تسمع باقتراح ابنها الذى وافق هوى فى نفس أبيه ، وبدت على الأب علائم الرضا عنه ، حتى تجهمت للصغير وللأب معاً فنظرت إليه بعينيها الزرقاوين وصاحت « أيكون

ابنى معمماً ؟ لن يكون ذلك أبداً ! » .

وهكذا انهارت هذه الفكرة وذهب الصغير ليفكر مرة أخرى فى أمر مستقبله . وكان الوالد قد جاء فى ذلك اليوم بنوع من الفطائر لذيذ حقاً هو فى مظهره تقليد للكمثرى وبلونها ولكن الطبقة الخضراء هى عبارة عن عجينة الفستق وجاء بها من محل مدام جيز . وقد بحلّت له هذه الفطائر اللذيذة اللغز الذى يبحث فى حله . فما أن شهد أباه بعد ظهر اليوم التالى حتى ذهب إليه للمرة الثانية فى جرأة وقال له « يا أبتاه لقد عارضت والدتى بالأمس فى أن أكون عالماً من علماء الأزهر فجاءتنى فكرة أخرى : إنى أريد أن أكون صانع حلوى »

وضحك الوالد ضحكاً طويلا متواصلا وكذلك فعلت أمه فلم يصر الابن وتركهما وشأنهما .

بعد ذلك اشتد المرض بالوالد فكان الأولاد لا يرونه كثيراً إلا لتحيته فى الصباح إلى جانب فراشه ، ولشدة حنوه يأمرهم بالانصراف للعبهم وعبثهم أو لدراستهم فما شأن الأطفال بالمرضى وكانوا هم من جهتهم أو على الأقل كمال أصغرهم لا يشعرون بخطورة ما ألم بوالدهم . وأدى المرض إلى أن تجرى للوالد جراحة ولكنه لم يبرأ من علته إلا قليلا ثم أجريت له جراحة ثانية مات أثنائها ، أو بعد ذلك بساعات قليلة .

إن كمال ليحتفظ بصورة اليوم الذى مات فيه أبوه . فقد نقل الأطفال قبل الإقدام على هذه الجراحة الثانية إلى منزل خالة لهم متزوجة من أحد الأقرباء . . وكانت تسكن فى حى بعيد عنهم بعض الشىء . وظل الأطفال عشرة أيام فى منزل الخالة يلعبون ويعبثون كأنهم فى دارهم . وكانت والدتهم تأتى كل يوم لزيارتهم ويسمعون أن أباهم مريض ولكنهم لا يقدرون خطورة المرض . وربما لا يتصورون شيئاً يأتى ذكره على ألسنة الناس ويسمونه الموت . فلم يجدوا ، أو على الأقل لم يجد كمال ، فى انتقاله إلى منزل خالته أمراً غريباً واعتبر هذه الأيام نزهة أو ما يشبه النزهة . ولم يكن حين يقابل والدته يكثر من السؤال عن الأب كما يفعل أخوه الكبير وبنوع خاص أخته الوسطى التى لا تكبره إلا بسنة ولكنها على الغالب افتقدت السيطرة التى كانت تتمتع بها .

فى أحد الأيام جىء بمركبة ودعى الأطفال للذهاب إلى منزلهم مع الخالة . وحدث قبل ذلك نوع من التراسل بين الدارين لم يعلم الصبى كنهه . وذهب الجميع فى المركبة وأغلب الظن أن الخالة كانت تعلم بخطورة حالة والدهم ، ولكن رأت الأسرة أو رأت الوالدة أن رؤية الأب لأبنائه قد تشد من أزر الأب فى صراعه للمرض وتدخل على نفسه من الارتياح ما يمكنه من

المقاومة وليس من المحتمل أنها فكرت فى أن يلقى الأب على أبنائه النظرة الأخيرة ، فإن شفقتها كانت تحول دون تعريض الأطفال لهذا الموقف. وقد يحتمل أن الأب أبدى رغبته وهو فى صراعه الأخير أن يرى الأطفال ، وكانت الأم لا تعلم باقتراب النهاية ولذلك وافقت على حضورهم .

وسارت بهم العربة حثيثاً . أما الخالة وبصحبتها الخادم ، فكانت واجمة يلوح عليها التفكير فيما هم ذاهبون إليه . وأما الأطفال فكانوا كعادتهم ينظرون إلى مشاهد الطريق ويتناقشون ويلغطون حتى إذا اقتربوا من الدار سمعوا عويلا فسكتوا وانقبضت نفوسهم الصغيرة توقعاً لشيء لا يعرفونه وحينئذ أمرت الخالة سائق المركبة بأن يلوى عنان خيله ويعود أدراجه إلى دارها .

وصل موكب الأطفال والخالة إلى الدار فى وجوم . ودخلوا فى سكوت مع خالتهم إلى غرفتها وهنالك طفرت الدموع من عينى الخالة فاندفع الأطفال يبكون ويعولون ولم يكن كمال يدرى تماماً ما حدث . ولكنه كان يبكى بكاء مراً غزيراً فأمسكت الخالة من دموعها فى جهد وأخذت تواسى الأطفال وتسكتهم . وأخيراً دعت خادماً كبيرة وأمرتها أن تعنى بالطفلين الصغيرين كمال وأخته وأخذت معها الأخ الكبير وخرجت عائدة إلى المركبة أما الطفلان فظلا يبكيان بعض الوقت والخادم تحاول أن

تسكتهما بالتدليه وبالألفاظ العذبة ثم أخذهما النوم فناما .

كان من المنتظر بعد هذا الحادث أن يكون الصغير كمال أقرب اتصالا بأمه ولكن هذا لم يحدث بل ظل موقفه منها أو موقفها منه كما كان من قبل ، ليس هو بأعز أبنائها إليها وإن كانت الأمهات تتعلق بأصغر بنيها عادة مدفوعة بعوامل الحنو الطبيعى لأن أصغر الأطفال هو عادة أضعفهم ، ولكن هذا لم يكن واقعاً فى هذه الحال فالأم تحب ابنها الأكبر أكثر مما تحب ولديها الآخرين . وكانت أمه بطبيعتها عطوفة إلا أن فى طباعها ما يحملها دائماً على أن تكبح مظاهر العطف .

كانت الأم عندئذ فى شرخ الشباب ولكنها أخذت تميل إلى البدانة . وليست البدانة ملائمة لها كثيراً إذ أنها أقرب إلى القصر منها إلى الطول . ومع ذلك فكان لوجهها بصفة خاصة جمال ورواء طبيعى . فهى قلما تزين وجهها بالأصباغ ووجهها أبيض ناصع البياض مشرب بالحمرة . وهو وجه مستدير متساوى القسمات والفم واسع بعض الشىء . وهو يدل لأول وهلة على أن الدماء التى تجرى فى عروقها ليست دماء عربية أو مصرية أصيلة ، بل كانت النظرة الأولى تدل على أنها منحدرة من أصل تركى وإن كانت لا تعرف من اللغة التركية شيئاً .

وكان شعر رأسها يزيد هذا الاعتقاد تأكيداً . فلم يكن أسود

ولم يكن كثاً مجعداً بل كان شعراً ناعماً بنى اللون . وأبرز ما فى وجهها عيناها فهما عينان خضراوان صافيتان معبرتان عن عقل مفكر كثيراً وإن كان الفم لا يفصح . فكانت حياتها المنزلية مع ذلك الزوج المسن الذى انحدر من أسرة من الصعيد حياة مرضية وهى تحبه ، ولكن هل هذا الحب من نوع غير حبها لأبيها الذى توفى وهى فتاة ؟ كان مظهرها يدل على رضاها عن حياتها والزوج شديد العطف عليها يجيب لها جميع رغباتها لو أنها تفصح عن هذه الرغبات . ولكن الواقع أنها لا تفصح فهى قليلة المطالب ومع ذلك يتلمس هذا الزوج رغباتها تلمساً ويغمرها بهداياه فتظهر له ارتياحها وشديد شعورها . ولعلها تشعر بما يشعر به أطفالها إذ يغمرهم أبوهم بالحلوى فإنهم لا يشعرون إلا أن ذلك أمر يأتيه جميع الآباء ويكون فرحهم منصباً بأكثره على الحلوى . ربما هذا شعورها ، ولكنها تعرف أن من واجبها أن تشكر للزوج هداياه ، وفى الوقت ذاته تشعر بأن هكذا يفعل جميع الأزواج لا سيما إذا كانوا فى مرتبة الآباء . ولعلها كانت إلى ذلك الوقت لا تفرق بين العلاقة الزوجيـــة وبين علاقة الأبوة ، وهى تقبل الوضعين على أنهما مسألتان أقرتهما الشرائع ، ولكنهما فى كنه أساسهما مسألة واحدة . فالعلاقة مع الغريب تسمى زوجية ولا تفترق عن الأبوة فى

شيء ، والعلاقة مع الأب هي في أساسها علاقة من نوع العلاقة الزوجية . فهي إذ تزوجت هذا الزوج الذى اختارته أمها لها . والذى عرضت عليها أمها هل تقبل به زوجاً دون أن تراه إلا لحظة عابرة من وراء نافذة ، والذى لا تعرفه أمها إلا بقدر ما تحدث عنه الوسطاء ، لم تقبل هذا الزوج إلا لمجرد الشعور الطبيعي برغبة التغيير فى حياتها . وهي إذ قبلته وعاشرته ورأت فيه طيبة ورعاية لها وحنواً عليها فأحبته ، وشعرت بأنها وجدت أباً بدل الذى فقدته . هذا هو نوع الحب الذى كانت تكنه لزوجها : حب قائم على عاطفة التعلق والاحترام .

وعند ما جاءت بأولادها إلى هذا العالم صارت تعنى بهم عناية كبيرة وتسهر عليهم تماماً . فهم يأكلون فى موعد محدود ، ويغتسلون فى موعد ، ويؤمرون بأن يأووا إلى فراشهم فى موعد . وإذا مرض طفل منهم وجد أكبر عناية . فهي تلجأ إلى طبيب يونانى تثق به كل الثقة وتتبع تعليماته فى دقة . ولكنها على غير ما ألف الأمهات فى مصر لا تظهر لهم شديد الحنو . فقلما تقبل أولادها وكأنها تعتقد أن هذه القبلات خطرة على صحتهم . وإذا ارتمى أحد الأولاد عليها وأراد أن يقبلها فى فمها تبعد فمها عنه ، وتكتفى بأن تتلقى قبلة الطفل على خدها أو رقبتها ثم تربت على خده وتدعوه فى رفق إلى أن يتابع لعبه وينصرف

لشأنه . وكان الصغير كمال فى تلك الفترة يهبها احترامه وجزءاً من قلبه .

أما أكبر جزء من هذا القلب الصغير فكان هبة لجدته التى أخذت بعد وفاة الوالد تزداد اهتماماً بالأسرة . وإن كان اهتمامها قبل ذلك ليس بالقليل . غير أن إقامتها فى مدينة أخرى هى مدينة الإسكندرية يجعل من قدومها عيداً لدى الأطفال لا سيما كمال الصغير . وكان كمال يدين لها بدين لم يقدره فى ذلك الوقت وهو طفل ، والواقع أن الجدة كانت هى المركز الثقافى لهذه الأسرة إن صح هذا التعبير . فهى تأتى إلى القاهرة فى أشهر الشتاء عادة فإذا جاءت لا تكتفى بأن تقبع فى البيت كما تفعل الجدات ، بل هى دائمة الزيارات للأسواق تشترى منها أشياء ، إما للبيت وإما للأطفال . وكثيراً ما تصحب كمال فى هذه الرحلات حيث يرى أسواق الموسكى وهى غاصة بالناس كالنمال فى ذهابهم وجيئتهم . وهو يعلم أنه لا بد عائد بهدية لنفسه وأحياناً لإخوته أيضاً . فإذا أمسى المساء لا تقنع الجدة عادة بالبقاء فى البيت . فهى تؤجر دائماً فى هذه الأشهر مقصورة فى أشهر مسرح للتمثيل العربى فى ذلك الوقت . وهو مسرح قائم بشارع عبد العزيز حيث تمثل فرقة الشيخ سلامة حجازى . وفى هذه المقصورة ومن وراء ستار الدنتلا تشهد جميع مسرحيات

الموسم . ومن الطبيعى أن تذهب الأسرة بأكملها لتشهد التمثيل إلا إذا كان أحد الأطفال مريضاً فحينئذ يذهب الأصحاء وتتخلف الأم .

ولا يذكر كمال بالضبط فى أى شهر صار من مرتادى المسارح . وغاية ما يذكره أنه وهو صغير كان جزء من سرورهم بحضور الجدة إلى القاهرة ناشئاً عن توقعهم الاستمتاع بالذهاب ليلا إلى المسرح . وكان ذهابهم لا يقابل بارتياح كبير من الأم لأنه يتعبها بعض الشىء ، فهى تخاف من البرد على أبنائها. لذلك يذهبون فيما يشبه القافلة : تأتى المركبة فى الساعة الثامنة ليلا حيث ينقل إليها أمتعة هى عبارة عن مخدة ووسادة وغطاء وإناء ملىء بالماء وإناء فارغ ويحمل الخادم هذه الأمتعة إلى المركبة ، ثم يأتى الأطفال مصحوبين بجدتهم الباسمة . وهم فرحون برحلتهم الليلية وتأتى الأم صامتة وعلى وجهها ترتسم علائم التذمر . ويذهب الجميع إلى المسرح وفى العادة يكونون أول القادمين . وحيث أن الجدة تؤجر المقصورة للموسم جميعه فإنهم كانوا معروفين لدى خدم المسرح . وحينئذ يدخلون المقصورة ويفرش الفراش فى جانب منها وهو معد لنوم الطفلين الصغيرين إذا ما أخذهما النعاس .

ويذكر كمال ذات ليلة إذ ذهبت الأسرة إلى المسرح

وجلس على مقعده يراقب التمثيل بانتباه من وراء ستار الدنتلا . وكانت المسرحية هي إحدى مسرحيات ڤيكتور هوجو وسميت بالعربية البرج الهائل . وهي المسرحية الوحيدة تقريباً التي لا يتخللها الغناء فقد كان الشيخ سلامة حجازي مغنياً قبل أن يكون ممثلا . ولذلك لجأ في المسرحيات التي تنقل له إلى طريقة هي أن يتخللها شيء من الشعر ويلحن هذا الشعر وينشده . وأكثر الجمهور في ذلك العهد يذهب لسماع هذا الغناء ولا يهتم كثيراً بالتمثيل ، ولذلك لم تكن هذه المسرحية مما يجد إقبالا كبيراً .

كان كمال الصغير شديد الانتباه للمسرحية فإذا به يرى رجلا كث اللحية يحمل في يده مصباحاً لا ينبعث منه إلا ضوء قليل هو حارس البرج . وكان المسرح يكاد يكون مظلماً . فدخل على قلب الصغير الخوف وبدأ يبكي في دموع غزيرة . ثم أخذ صوته يرتفع بالبكاء حتى كاد يشوش على التمثيل . فحملته أمه سريعاً إلى الممشى في خارج المقصورة وسارت به حتى أطلت على سلم الخروج وهناك جاءها أحد الخدم فطلبت إليه أن يبحث عن خادمها .

وكان الخادم ذا علاقة وثيقة بالمسرح لأنه على سواد بشرته مولع بالتمثيل . فعرف كيف يوطد أواصر الصداقة مع الممثلين وينتهز فرص بعض المسرحيات فيظهر في دور جندي ، أو أحد

أفراد الجمهور ، أو غير ذلك من الأدوار التى لا تحتاج إلى كلام . وما كانت لغته غير السليمة لتنفعه على المسرح لو أراد أن يعهد إليه فى دور . وقد ناداه خادم المسرح من وراء الكواليس فجاء وحمل الطفل وكان الطفل يركن إليه فسكت عن البكاء وسار به إلى خلف المسرح وهنالك هل تدرى من أول ممثل قابله ؟ إنه ذلك الرجل الكث اللحية الذى خاف منه وهو فى المقصورة وقد أمسك بالطفل وحمله وقبله . ولم يكن الطفل أقل خوفاً فى هذه المرة . إلا أن خوفه اقترن بالسكوت وكأن الخوف عقد لسانه . ولكن الرجل كان رقيقاً شفيقاً فجاء بمقعد وأجلسه بحيث يتمكن من رؤية ما يجرى فى المسرح ويتابع المسرحية . وبعد هنيهة ، حين ابتعد هذا الرجل المخيف طلب الطفل أن يعاد إلى جدته ومقصورته .

هذا حادث من حوادث طفولته الأولى فهو إذن لا يمكن أن يحدد تماماً متى كان اتصاله بالمسرح . ولا شك أن المسرح أوجد ميلا شديداً لدى الأطفال إلى تقليده فى منزلهم . وزاد من ميلهم هذا وجود ذلك الخادم الذى يشترك فى التمثيل . فإذا ما خلا الجو للأطفال الثلاثة بعض الأحيان بأن خرجت أمهم إلى زيارة ، ابتدأوا فى تمثيل مشهد من مسرحية إما يؤلفون فكرته اقتباساً مما يرونه أو يقتطعونه من مسرحية شهدوها . وكانت

أبرع الأعمال عندئذ يقوم بها ذلك الخادم الذى يتولى فى المنزل حينئذ الدور الهام ، إذ هو المخرج والمشرف على المسرح . فى حين أنه لدى مسرح الشيخ سلامة ليس إلا مجرد فرد يتمشى ولا ينطق . وأهم عمل يقوم به فى المسرح المنزلى هو نصب ستار يرتفع وينخفض كستار المسرح الحقيقى . وهذا الستار عبارة عن غطاء من الصوف الأحمر يأتون به من سرير أحد الأطفال ، وينصب بحيث يمكن رفعه . والفضل فى ذلك لحبال الغسيل وهكذا يمضى الأطفال فى عبثهم إلى أن يسمعوا خطوات الوالدة فيتكفل الخادم برد كل شيء إلى مكانه .

وحدث ذات مرة أن أخاهم الكبير قرأ ملخصاً لقصة عطيل فرواها لإخوته وقرروا تمثيل منظر منها ونصب الستار ولكنهم لم يتصوروا أن يقوم الخادم بدور عطيل . أجل إن الدور ملائم للونه ، غير أن الخادم كان نحيلا لا يمكن أن تبدو عليه ملامح الشجاعة كما يتصورونها . إلا أنه فى ذلك اليوم كانت لديهم ضيفة مقيمة هى تابعة الجدة . وهى فى الأصل من جوارى الجدة فلما أعتقت الجوارى ظلت فى البيت تابعة بل شريكة للسيدة . ولهذه الجارية وقار خاص وهى بدينة ومحترمة ، تحنو على الأطفال وتحبهم ، وهم يبادلونها الحب . فقر رأيهم على أنها خير من يصلح لتمثيل عطيل لما يبدو عليها من مظهر

الوقار والشجاعة وإن كانت امرأة . وذهبوا إليها وعرضوا عليها الفكرة ورجوها فى أن تجيب طلبهم . ولم تمانع هى بل أجابتهم إلى رغبتهم ضاحكة حيث رأت أن ذلك مما يدخل السرور إلى قلوبهم . واهتم الأطفال فى هذه المرة اهتماماً خاصاً ولذلك خلعوا أحد ستائر النافذة من الحرير الأحمر وأتوا بسيف قديم كان لوالدهم فتوشحت ممثلة الدور بالستار الأحمر وأمسكت بالسيف فى يدها . ولم يكن عليها إلا أن تكرر القول فى شجاعة لا يشوبها غير لكنة الجوارى عند النطق بالعربية وهى تهز السيف فى يدها وتصيح « أنا القائد المغربى ! أنا القائد المغربى ! » .

أما كمال ، فاقتنع بالأدوار الثانوية فى هذه المسرحيات المنزلية . وأكثر عمله أن يكون مشاهداً يجرى هنا وهنالك ، مناولا الخادم بعض الأشياء التى يتطلبها الفن ، أو حائماً حول أخيه الذى يتخذ لنفسه دوراً هاماً ، وينطق أحياناً بعبارات مبتدعة لساعتها وإن لم يكن فيها معنى كبير . وكان أخواه ينظران إليه من عل ، لتقدمهما فى السن عنه وفى التجربة . ولذلك يذكر أنه أراد أن يبزهما فعمد إلى تأليف مسرحية ووضع قسما من الحوار للمنظر الأول . ثم رأى بعد هذا النجاح الكبير أن يتلو هذا القسم على أخيه وأخته فتلاه فى زهو . وكان عندئذ لا يحسن رسم الحروف وكتب كلمات

حواره فى صورة عجيبة ، وقرأها قراءة عجيبة ، أثارت ضحك الأخوين ، واتخذا هذه العبارات وسيلة للسخرية به ومعاندته حتى اضطر لرفع شكواه منهما إلى أمه .

فالجدة إذن كانت العامل الأكبر فى ثقافة الأطفال والصغير منهم خاصة . ولم تكن الجدة مثقفة بالمعنى المعروف لدى الناس فهى لم تتلق دروساً إلا فى قصر أبيها ووالدتها من من معلمين قاموا بتثقيفها . وكانت فى تلك الأيام قد امتنعت عن القراءة فيما عدا الرسائل التى تأتى إليها من أولادها . إذ أخذت تشعر بضعف فى النظر اضطرها إلى استعمال نظارة عند القراءة ، ونظارة أخرى عند الرؤية من بعيد . ومع ذلك كان فى عينيها الخضراوين صفاء وسحر لم يؤثر عليهما مرّ الأيام ويحب كمال كثيراً هاتين العينين اللتين يفيض منهما الحنان والحب . ويحب أيضاً تقاطيع ذلك الوجه السمح الخالى تماماً من المساحيق . ولكن بشرته تكون أحياناً مشربة بالحمرة وأحياناً بيضاء ناصعة . وكانت الجدة قصيرة القامة وهى تتأنق فى لبسها بما يناسب الدور الذى اتخذته لنفسها أى دور الجدة . وإذا خرجت تلبس « حبرة » سوداء وتضع نقاباً أبيض غليظاً لا شفافاً كالنقاب الذى يستعمله بناتها . لأنها تتحاشى الأزياء الحديثة . وتفضل أن تستعمل الزى المألوف فى جيلها . وذلك إذا لم يكسبها

جمالا فهو يكسبها وقاراً .

وكثيراً ما سمع كمال نقاشاً بينها وبين والدته عند ما تكونان آخذتين فى تفصيل ثوب جديد للجدة . فالأم تعرض على الجدة أن تزين الثوب بزينة خاصة . فتأبى الجدة إلا أن يكون الثوب بسيطاً خالياً من الزينة بقدر الإمكان . وهى تتحلى بأبسط الحلى كخاتم من الماس فى يدها أو دبوس من الماس بسيط الصنع وأنيق يضم جانبى الثوب فى رقبتها . وهذه الحلى تجذب أنظار كمال بوجه خاص ويفضلها على حلى والدته كثيراً . ولعل ذلك بتأثير شعور فنى فى الصغير إذ كانت هذه الحلى مرصعة بأندر أنواع الجواهر .

ومما زاد فى ثقافة الجدة أمر غير مألوف بين سيدات ذلك العصر هو أنها مولعة بالسفر والسياحة وقد رأت ، على ما تقول ، فى شيخوختها وبعد أن تزوج بناتها ، أن ترى العالم ، أو العالم الذى تريد أن تراه . فقامت برحلات عدة ورأت الكثير من مدن البحر المتوسط . فذهبت فيه غرباً إلى بلاد تونس والجزائر ومراكش وفرنسا وشرقاً إلى لبنان وسوريا وتركيا . وهى تعجب إعجاباً خاصاً بالعاصمة التركية القديمة . ومن الطبيعى أن ترتاح إلى هذه العاصمة إذ أنها تحسن اللغة التركية بقدر إحسانها للغة العربية . فى حين أنها فى بلد مثل مرسيليا أو نابولى أو أثينا

يتعذر عليها التفاهم إلا ببضع كلمات وهى التى يتعلمها دائماً المحبون للسفر ، إلا أنها فى بلاد الأتراك ، فى أزمير أو إستامبول ، تستطيع التفاهم كاملا فهى إذن تتخذ هذه المدن مأوى لها لبضعة أشهـــر .

وكانت نفس كمال تنقبض حين يأتى والدته النبأ بأن الجدة سافرت فى رحلة . فإن هذه الرحلات تمتد أشهراً ولا يعلم بالضبط موعد عودتها . . فى حين أنها على إقامتها فى الإسكندرية يشعر أكثر الوقت بأنه لا يزال فى حماها . وكلما جاءت رسالة من أحد الأقطار البعيدة يجلس إلى جانب أمه فى لهفة ويتطوع أحياناً بقراءة الرسالة كى يسبق إلى الوقوف على محتوياتها . فإذا جاء النبأ بعزمها على العودة قريباً ابتهج ابتهاجاً شديداً لأن الجدة إذا عادت من رحلتها لا تمكث فى الإسكندرية إلا أياماً بقدر رؤية أولادها المقيمين بها ثم تأتى مسرعة إلى القاهرة لرؤية الأطفال ، ولرؤية الصغير كمال بنوع خاص ، وهى تحمل من الهدايا ما لا يرى فى البلاد المصرية إلا قليلا . فهذه أقمشة من الحرير الدمشقى النادر يمكن تفصيلها أقمصة للأطفال فاخرة يتباهون بها . وهذه أطباق من صنع إستامبول جميلة المنظر وهذه أوانى زجاجية اشترتها من نابولى إلى آخر الهدايا التى ترضى الغريزة الفنية فى نفسه الصغيرة .

وهى فى هذه الرحلات جميعاً تصطحب إحدى بناتها .
وعرف كمال أنه وهو طفل لا يدرك اصطحب فى إحدى هذه الرحلات مع أمه وأخواته ، وأنه عاش أشهراً فى لبنان وأزمير ولكنه لا يذكر من ذلك شيئاً .

وكانت الجدة عطوفة جداً على الأولاد وبها شيء من العناد . فهى تغضب لأقل إهانة تصيب طفلها المدلل ، ولو كان جديراً بهذه الإهانة . لذلك يصبح كمال لا يطاق عند حضور الجدة فى القاهرة . فيكظم أخوه وأخته غيظهما منه ويتوعدانه دائماً بالانتقام بعد سفر الجدة . وهو لا يتوانى عن الشكوى لجدته من أى عمل يأتيه الأخوان . فتتوسط الجدة فى الصلح بين الأطفال ويقبل الأطفال توسطها صاغرين إذ تنفحهم دائماً بالهدايا من اللعب والحلوى أو النقود .

كانت الأم تأخذ أحياناً على كمال حين تكون الجدة مقيمة لديهم أنه يخرج عن طور الآداب التى يجب أن يرعاها . فهو أحياناً يدخل المنزل دون أن يمسح حذاءه جيداً فى الممسحة. وهو أحياناً يجلس على الأريكة ماداً قدميه بطريقة لا يفعلها على الأقل فى غيبة جدته . فلا تلبث الأم أن تؤنبه على ذلك ، وإنما فى اقتصاد خوفاً من أن تغضب الجدة . وهى إذا غضبت تصر فى الحال على السفر هى وتابعتها . وإذا أصرت مرة فلا

شيء يثنيها عن تنفيذ عزمها ، ولا يستطيع أحد قط أن يثنيها عن السفر إلا كمال وتوسلاته .

وبعد أن أخذ كمال فى الإقبال على القراءة كان يحلو للجدة أن تطلب إلى كمال أن يقرأ لها الصحف أو يقرأ لها كتاباً من كتب القصص . والكتاب المفضل لديهما هو قصص ألف ليلة وليلة . فيجلس كمال إلى جانب جدته فى المساء ويأخذ فى المطالعة فيجد خير سميع فالجدة سريعة التأثر تضحك فى مواقف الضحك . ويبلغ بها التأثر أن تبكى أحياناً وتفيض دموعها . فيشعر كمال بزهو إذ يظن أن قراءته هى السبب فى هذا التأثير لا سرد القصة . وأحياناً يأخذه التعب من الجلسة فيضطجع ويضع رأسه على ركبتها لأن من عادتها إذا جلست على الأريكة فى المساء أن تضم رجليها تحت جسدها . فيضع رأسه ويأخذ فى التلاوة ويأخذه النوم أحياناً وحينئذ لا يشعر إلا فيما يشبه الحلم بقبلة حنان من جدته قبل أن ترفعه أمه فى ذراعيها لتضعه فى سريره .

تلك علاقة كمال بجدته العجوز فى الأزمان الخالية ، لا الزمن الذى يسافر فيه لأول مرة على انفراد مع جدته إلى الإسكندرية ، ومع ذلك فقد كانت تلك الأيام قريبة أكثر مما يتصور كمال فقد قلنا إنه سافر مع جدته وهو فى السابعة من عمره فهو لم يكن

قد سلخ فى هذه الحياة أكثر من سبع سنوات . وهذه الجدة التى يراها عجوزاً والتى اتخذت سمات العجائز لم تكن فى الحقيقة إلا فى منتصف العمر عندئذ فهى فى الثانية والخمسين من عمرها !

٢

دار فى الإسكندرية

أجل! هى المرة الأولى التى شعر فيها كمال بأهمية سفره إلى الإسكندرية وكان مقدراً أن يقيم فيها طويلا زمناً لا يحدد إلا بانتهاء الصيف القادم . والسبب فى أهمية هذا السفر أنه منفرد برفقة جدته العزيزة ، وسيحيا حياته تحت رقابتها بعيداً عن عينى الأم التى ترقب حركاته وسكناته فى يقظة وحذر لكى تنبهه إلى أى إهمال أوسوء تصرف من جانبه . أما هذه المرة فإنه تحت رقابة تلك العينين يملؤهما الحنو والعطف ، وإذا ما رفع نظره إليهما وجدهما ترنوان إليه وكأنهما تنبضان كما ينبض قلب الجدة الشفيق . فهو سيجرب إذن حياة لم يألفها من قبل . وهى حياة أشبه بحياة حبيبين استطاعا أن يتخذا لهما عشاً بعيداً عن أعين الرقباء يقضيان فيه شهراً أو بعض شهر .

وكان منزل الجدة عجيباً فهو يقع فى حارة صغيرة تتفرع من أحد الشوارع الوطنية الكبيرة فى جوار مسجد أبى العباس . هو منزل رحب يطل من الخلف على ساحة واسعة بها ضريح شيخ من المشايخ العديدين الذين بنيت قبورهم فى تلك الناحية إذ أن جامع أبى العباس كان فى الحقيقة مقبرته ومقبرة كثيرين من الأولياء والمشايخ وعظماء الإسكندرية . والعجيب فى أمر هذا المنزل أن كان به أيضاً قبر للجد الأكبر للأسرة . وإن خصت به حجرة منعزلة . لذلك كان الغلام على حبه لهذه الدار يجد نوعاً من الرهبة بحيث يحب دائماً أن يكون فى صحبة أحد إذا سار على السلم الذى يصل بين الطابق الأرضى والطابق الأعلى . ومما يزيد فى رهبته أن جارية جدته اتخذت غرفة صغيرة مؤلفة من انحناء هذا السلم فجعلت منها مخدعاً سرياً لها . لا تأوى إليه ولاتنام فيه ، وإنما هو لأمر تعتقده وتعتقد فيه بعض الأسر . فهذه الجارية تجرى طقوساً مختلفة يرى فيها الدواء من أدواء عديدة تشكو منها بعض أفراد هذه الأسر ، ولا يجد الطبيب لها علاجاً ، أو لا يوفق إلى علاج . فهذه « الميانجا » كما تسمى بلغة الجارية الأصلية ، وهى من أهل بورينو ، كانت موضع خوف وخشية من الغلام .

وفيما عدا ذلك كان الغلام ينتظر وقتاً لذيذاً مليئاً بالعطف

ومليئاً بالحنان فهو يجد وجوها قديمة عزيزة عليه . غير أنه لا يجد رفاقاً للعبه ولهوه . فالبيت خال من الرفاق ممن هم فى سنه ولا يوجد فى بيت جدته الحبيبة ، غير خالة له فى مقتبل العمر لم تتزوج بعد . وهذه الخالة إن لم تكن بمنزلة الأم ، فهى ليست بمنزلة الأخت ، لأنها ليست صغيرة بحيث يسهل اللهو معها . وهنالك الجاريتان إحداهما تقوم بأعمال الطهى والخدمة . والأخرى رفيقة تزامل الجدة فى جلوسها وخروجها . وهى صاحبة المكانة فى الأسرة ، وفى غيرها من الأسر ، لما لها من القوة السحرية . .

هذا كل ما يجده كمال فى دار جدته ولكن الجدة لم تلبث أن حذرت حاجة الغلام إلى شيئين لا تستطيع هى أن تقوم بهما أولها حاجته إلى الخروج ، ولا تستطيع الجدة الخروج فى كل يوم ، وحاجته إلى صحبة من هم فى سنه كى يلعب ويلهو بعض الشيء . ولذلك ما لبثت أن دبرت للغلام هذين الأمرين : أمر من يصاحبه فى خروجه للمحافظة عليه وأمر من يلعب ويلهو معـــه .

كان يتصل بالأسرة شيخ عجيب هو صاحب كتّاب لتعليم الصغار إلى جانب مقبرة ياقوت العرشى وهى لا تبعد عن مسجد أبى العباس إلا قليلا وهو رجل قصير القامة بدين ذو لحية كثة ، متصل بالأسرة منذ زمن . فهو فى الواقع معلم

لوالدة كمال وأخواتها ، علمهن القراءة والكتابة وشيئاً من القرآن وقواعد الدين . ولا نستطيع أن نقول إنه معلم كبير الاهتمام لعمله . ففيه نقيصة أساسية تحول دون إتقانه لهذا العمل . وهى حبه للمال وحرصه الشديد عليه . فكانت والدة كمال وأخواتها وهن فتيات يرشينه بالمال إذا عسر الدرس عليهن . لكى يخفف من غلوائه . ويسكت عن الدرس ويدعهن فى لهوهن ويكتم هذا العبث عن والدتهن . وفيه نقيصة أخرى هى نهم شديد وحب للحلوى ، فإذا أعوز الفتيات المال لا تعوزهن الحلوى . وقد استطاع هذا الشيخ أن يجمع مالا بحرصه وباتصاله بالأسر الكبيرة فابتاع منزلين صغيرين فى هذا الحى . وصار من الأثرياء إذا عد من يمتلك منزلين صغيرين ثرياً .

هذا الشيخ هو الذى رأت الجدة أن تعهد إليه فى مصاحبة الغلام إذا ما خرج . ولا ريب فى أنه كان راضياً عن مهنته الجديدة: مهنة « الدادة » لهذا الغلام فإن وراء ذلك ربحاً كثيراً ومشاركة فى الحلوى . ومما زاد فى فائدة هذا الشيخ أو سيدنا كما يناديه أهل البيت أن له غلاماً فى مثل سن كمال وحينئذ يستطيع أن يشارك كمالا فى نزهته ولعبه .

على أن سيدنا لم يكن أصلح شخص لهذه المهنة . أجل هو حارس وأمين بادى الاهتمام ولكنه ليس نشيطاً . فبدانته

الظاهرة تحول دون مساعدته للغلام فى ركوب الترام أو النزول منه . بل هو نفسه فى حاجة إلى من يساعده . على أن صحبة ابنه فى النزهات مما يوجد له هذا المساعد . ولا يصلح سيدنا أيضاً بذوقه الاختيار أماكن النزهة ، فهو يذهب بالغلام إلى مواضع ليس من رأى الجدة أن يذهب إليها . فكثيراً ما يقصد به إلى زيارة المساجد والأضرحة . وليس لدى سيدنا معلومات عن الأماكن وتاريخها أو عن النقش والبناء حتى تكون هذه الزيارة مفيدة . بل كل ما يفعله هو قراءة الفاتحة والتوسل ثم الخروج إلى مسجد آخر . وكان مطلوباً منه أن يقدم تقريراً شفهياً بالأماكن التى ذهب إليها مع الغلام فيتلقى تأنيب الجدة على هذه الزيارات لا لأنها ضارة فى ذاتها ، ولا لأن الجدة بعيدة عن الإحساس الدينى ، ولكنها شفيقة رئيفة بالغلام تود أن تدخل على نفسه السرور . ولا يمكن أن يدخل السرور مع هذه الأماكن المظلمة . وفى ذات مرة حاول سيدنا أن يغير من هذه النزهة بعد تأنيبه ، فذهب بالغلام إلى مكان للحاوى ، وهنالك أطعم الغلام مقداراً من البسبوسة طبعاً ، لا يمكن أن يعادل بما أكله سيدنا ولا بنصفه ولا بربعه . ثم لم يلبث أن عرج على محل آخر وهنالك سقى الغلام شراباً حلواً مليئاً بأنواع اللوز وجوز الهند والزبيب . فعاد الغلام إلى المنزل بعد ذلك وهو يشعر

بشيء من التوعك ، ولم يلبث أن ظهرت عليه أعراض التخمة . وتلقى سيدنا تأنيباً شديداً فى ذلك اليوم وتلقاه فى خضوع مكرراً قوله « لا حول ولا قوة إلا بالله » ولكن من الثابت أن سيدنا لا يهمه هذا التأنيب مطلقاً ، بل يفضل دائماً أن يلقى منه قسطاً كبيراً ، فكلما زاد التأنيب زاد العطاء .

الحقيقة أن سيدنا كان رجلا طيب القلب جداً ، وفيه جاذبية عجيبة تجذب من يتصل به إلى أن يحاول المزاح معه ، بالرغم من لحيته الكثة ومظاهر الوقار التى يصطنعها لا سيما فى وجود ابنه . وقد حدث أن خرج الثلاثة : سيدنا وابنه والغلام. وفى ميدان المنشية أرادوا ركوب الترام للذهاب إلى إحدى ضواحى الإسكندرية . وأخطأ سيدنا وهو قائد الرحلة اختيار الترام الذاهب إلى المكان الذى يقصدونه . فلما استعلم من العامل ونبهه إلى خطئه تعجل فى النزول، قبل أن يقف الترام فى المحطة التالية . وقفز الغلامان إلى الأرض أما هو فحاول أن يقفز ، فإذا جبته تشتبك فى عصاه ، وإذا به يقع على الأرض مرتمياً على وجهه . وكان بجبته الخضراء أقرب منظراً لضفدع كبير . فلم يتمالك الغلامان نفسيهما من الضحك ، وكان أكثرهما ضحكاً هو ابنه . وقام الشيخ من سقطته ينفض من ملابسه وهو محمر الوجه مغضب . وجعل يؤنب ابنه تأنيباً شديداً على سوء أدبه ، وهو أجدر باللوم

على تسرعه فى النزول وحضه للغلامين على القفز .

وكان كمال يحب سيدنا ويعطف عليه لا بالنقود ، فهو يستحى أن يقدم له شيئاً منها ، وحظه بعد منها قليل . كما أن سيدنا هو الذى يوكل بالإنفاق على كمال ويشدد عليه بأن يكون سخياً فى الإنفاق ، وأن يبتعد عما جبلت عليه نفسه من الشح والحرمان . وإنما كان كمال يحرص دائماً قبل خروجه للنزهة مع سيدنا على أن يملأ جيوبه بأنواع الحلوى . وهى متوافرة بالمنزل ، ثم يقدم لسيدنا كمية كبيرة منها وهم فى السير . كما يقتسم الباقى مع ابنه إن كان بصحبتهما . فيقابل سيدنا هذا بالدعاء . ويلتهم الحلوى التهاماً . والواقع أن الغلام فى عمله هذا لم يكن موفقاً فإنه يحمل أنواع الحلوى الثمينة لسيدنا . مع أن الشيخ لا يميز بين الأنواع ولو قدمت له قطع من السكر الخالص لالتهمها بنفس اللذة ، وربما بأكثر شهية من أنواع الشكولاتة والفندان .

وكان سيدنا من جهته ، يحب دائماً أن يبسط سلطانه ، ويبدى نوعاً من التفوق العقلى ، وهو بعد معلم للصبية . ، ولكنه إذ يتخذ هيئة الواعظ فى كلامه يبدو لأمر ما مضحكاً لدى الغلام ، كما بدا مضحكاً لدى والدته من قبل ، ولدى أفراد الأسرة جميعاً ولا يمكن تعليل هذا السر الذى يضعه الله فى بعض مخلوقاته . فكثيراً ما ترى رجلا فى سمات الشحاذين يمر بالشوارع والأزقة ،

فإذا الغلمان يرق قلبهم عليه . وترى آخر له هذه السمة يمر فى هذه الشوارع والأزقة ، فإذا غلمانها يعاكسونه ويسخرون منه ، ولا تعلم السبب فى ذلك . والظريف أن الذى يعامل بالعطف فى أحد الشوارع يعامل بالعطف فى الشارع الآخر . والذى يعامل بالسخرية فى أحدها يعامل بالسخرية دائماً فى كل شارع . وليس بين الغلمان رابطة أو اتصال ، وإنما هو شيء فى طبيعة الشخص لا يظهر دائماً فى حركته ، ولا يظهر دائماً فى مشيته ، بل هو جاذب عجيب يتصل بنفسيته ، يحمل هؤلاء الغلمان على السخرية أو الشفقة . وهكذا شأن سيدنا لدى هذه الأسرة : كلما ازداد وقاراً كلما هاج فيهم حاسة الضحك .

لذلك عند ما أراد سيدنا أن تكون له السيطرة الكبرى على كمال بأن أخذ يحثه على اتباع قواعد الدين ، وأراد أن يلقنه الصلاة ، فشل فى ذلك فشلا ذريعاً .

ففى صباح أحد أيام الجمعة جاء سيدنا لزيارة الأسرة ، وقال إنه ذاهب إلى رمل الإسكندرية فهل يحب الغلام أن يصاحبه ؟ فكان له ما أراد وخرج الغلام مع سيدنا وابنه كعادته وجعلت تدور فى ذهن سيدنا فكرة الذهاب إلى شاطئ البحر فى رمل الإسكندرية ثم أداء صلاة الجمعة فى مسجد سيدى جابر وفى أثناء الطريق سأل سيدنا الغلام :

ــ ألا تحب أن تصلى معى فى المسجد ؟

ــ وهل يجب أن أصلى ؟

ــ قد لا يكون ذلك واجباً الآن ولكن خير لك أن تبتدئ

ــ لامانع عندى من الابتداء ولكننى لا أعرف ماذا أفعل.

ــ سأعلمك ذلك وعليك أن تفعل مثلى وسأعلمك الوضوء ثم الصلاة وهى صلاة الجماعة فى المسجد ، وبعد ذلك سأعلمك الصلوات الخمس !

وتم فعلا وضوء الغلام . ولكنه لم يفعل دون أن يبلل ثيابه . وتمت الصلاة ثم خرجوا جميعاً عائدين إلى المنزل .

ولسوء حظ سيدنا ، أصاب الغلام برد على أثر هذا الوضوء ، فما أن جلس إلى الطعام حتى ظهرت عليه أعراض البرد . وبالسؤال لم يستطع الشيخ أن يخفى السبب . وكان جزاؤه من التأنيب كبيراً على سوء فعلته ، وإن قصد إلى الخير .

على أن حياة كمال لم تكن كلها تضيع فى النزهة مع سيدنا ، فهذه هى النزهات الصغيرة التى تبتدع لكى لا يمل الإقامة . أما النزهات الحقيقية فبصحبة جدته وخالته ، يخرجون فى عربة تسير بهم إلى شارع شريف أو المنشية الصغرى حيث الحوانيت الفخمة للثياب وهنالك تشترى الجدة حاجاتها . ويكون كمال دائماً فى تطلع . لأنه يعلم حق العلم أن لا بد من شراء شىء له . فإذا

لم يكن من نصيبه معطف جديد أو بعض الثياب الأنيقة فهو على الأقل سيحظى من مكان الحلوى المجاور بعلبة مليئة بالشيكولاتة أو ربطة من الفطائر الصغيرة ، والإسكندرية عندئذ لا تقل عن روما أو ميلانو فى الحلوى والشيكولاتة ، فإن أصحاب هذه الحوانيت من الإيطاليين كما أن جميع ما فى هذه الحوانيت وارد من إيطاليا أو فرنسا .

وتمتد هذه الزيارات بعد ذلك بنزهة فى العربة ، إما إلى شاطئ البحر وإما إلى المتنزهات المحيطة بالإسكندرية . وفى هذه النزهة يقضى الثلاثة أو الأربعة إذا صحبتهم خادمتهم وقتاً لذيذاً . ويكون كمال موضع العناية والتدليل . وتكفى إشارة منه أو رغبة خفية لكى ينال ما يريد .

وكان للجدة ابنة متزوجة من طبيب فى المدينة . وهذا الطبيب رجل مرح يحب المزاح ويكثر من الحديث بعد أن يفرغ من عمله المرهق . وقد تصفه فوق ذلك بأنه عمل محزن . فما لا ريب فيه أن الطب عمل محزن ، إذ لا يعامل الطبيب إلا أناساً يجأرون بالشكوى ، وتحيط به الآلام دائماً . وخير يوم يمر به فى عمله هو اليوم الذى لا يشهد فيه وفاة شخص من الذين عالجهم . فالطب مهنة شديدة الوطأة على من يكون رقيق القلب شديد الحساسية . ولذلك إما أن يتعلم الطبيب القسوة .

وليس تعلم ذلك على الرجل الرقيق بالشيء الهين ، وإما أن يظل طول حياته معذباً متألماً يداوى حزنه بأن يحاول فى حياته الخاصة أن ينساه . ولعل ضحك هذا الطبيب وشدة إقباله على اللهو والمزاح فى غير عمله ، نوع من التفريج عما يراه من شقاء الإنسانية وآلامها . وكان لا يترك فرصة أو وسيلة من وسائل التسلية الممكنة ، حتى يدعو الجدة إلى مشاركته فيها . وكان أيضاً كثير التعلق بكمال حيث أنه لم يرزق ولداً .

ويذكر كمال حين كان طفلا أن حل موسم الكرنفال فى مدينة الإسكندرية . وهو موسم لم تعرفه القاهرة قط إلا فى حفلات خاصة . أما مدينة الإسكندرية فتحتفل به عندئذ احتفالا عظيما فى الشوارع ، ويشترك فيه أهلها من الأوربيين ، وأكثرهم يعيد بذلك ذكرى بلاده . ولما كان أهم سكان هذه المدينة من الإيطاليين ، فقد كانت حفلات الكرنفال تأخذ روعة حفلاته فى بلاد إيطاليا الكبرى مثل ميلانو والبندقية .

وفى ذات يوم جاء الطبيب إلى الجدة وقال لها إنه فى تلك الليلة سيكون موكب كبير للاحتفال بالكرنفال . ودعاها إلى أن تصطحب الصغير مع ابنتها إلى عيادته فى المنشية الكبرى حيث ينتظرهم مع زوجته . وحينئذ يلبس الجميع ثياب التنكر ليشتركوا فى الحفلات . ويكونوا أحراراً فى الدخول إلى الأماكن

المختلفة ، التى يغشاها الأوربيون ، ولا يمكن للسيدات المصريات أن يدخلوها . ولم تكن الجدة لتتردد أمام اقتراح كهذا تستطيع به التفرج على شىء جديد . إلا أنها أبدت اعتراضاً بأن ضيق الوقت لا يسمح بترتيب ثياب للتنكر .

فرد الطبيب على اعتراضها بأنه أعد كل شىء : فقد استأجر ثياباً من أنظف الأماكن التى تؤجر الثياب فى هذه الفرصة . واختار لكل واحد زياً . وليس عليهم إلا أن يحضروا فى المساء إلى العيادة وهو الذى يتولى تنظيم كل شىء .

وفى الساعة الثامنة مساء تناول كمال عشاءه فى لهفة ، لأنه يفضل الذهاب على الطعام ، وخرج هو وجدته وخالته الصغيرة فى عربة إلى عيادة الطبيب بالمنشية الكبرى . فقابلهم وقد انتهى من عمله ، ووصلت زوجته ، وبدأوا فى ارتداء الملابس ، وقد أعد لكمال ثياباً مزركشة هى ثياب مملوك صغير بعمامته المطرزة . أما السيدات فارتدى كل منهن ثوباً عجيباً . وهو يذكر أن جدته ارتدت ملابس شيخ جبته من الحرير الأحمر المزركش . على أن السيدات الثلاثة وضعن على وجوههن قناعاً يخفى معالم الوجه ، ولا ترى منه إلا العينين . ولبس الطبيب زى مملوك أيضاً ولم يضع قناعاً . وخرج الجميع وقد اتفقوا على ألا يتكلموا إلا هامسين حتى لا تعرف جنسيتهم .

وكانت ليلة عجيبة : فأولئك الآلاف من الناس الذين يلبسون الأزياء المختلفة ، وتلك المواكب التى لا تنتهى والعربات المزينة بالأزهار والورود ، وذلك الصخب والمرح والتراشق بالأزهار ، وتلك المشاعل التى يحملها أفواج من الناس ، وتلك الموسيقات التى تعزف وهى سائرة ، مما لا يمكن أن ينساه الغلام ، هى شىء أشبه بالأحلام التى تمر وتتابع أحياناً فى نومه . غير أن أكثر هذه الأحلام إذا ما تتابعت على هذه الصورة كانت مخيفة ، أما الآن فهى أحلام متنوعة فى صور ، بعضها ما يخيف ولكن تتبعه مناظر مرحة جميلة .

وهكذا أمضى الطفل ليلة عظيمة وسط هذا الضجيج والمناظر المختلفة ولم يشعر بأية رغبة فى النعاس مع امتداد الليل ، وهو ممسك بيد جدته الحنون من جانب ، وبيد زوج خالته الطبيب من جانب آخر . وقد دخلوا أماكن مختلفة تموج بالناس واشترى له الطبيب أنواعاً عجيبة من الحلوى وفى نحو نصف الليل ركبوا عربة وعادوا إلى دارهم حيث خلع كمال ملابسه بعد أن ظل وقتاً ينظر إلى نفسه فى المرآة والجدة إلى جانبه تنظر معه ثم تقبله ، وأوى إلى فراشه فنام نوماً هنيئاً لا تزعجه أحلام إلى اليوم التالى ، حيث قام من فراشه فإذا الصباح قد امتد ، وأشرقت الشمس منذ زمن بعيد .

وفى يوم آخر من تلك الذكريات الحلوة أخذه زوج خالته فى يوم عطلته إلى نزهة فى ضواحى الإسكندرية وقصد به إلى بعض الحدائق وقد ارتدى معطفاً لأن الجو كان بارداً ومع ذلك اشتد البرد عند غروب الشمس اشتداداً كبيراً حتى أخذت أسنان الصبى تصطك وخشى عليه الطبيب تأثير هذا البرد ، فقصد به إلى حانة وسقاه كأسين متتابعين من خمر كونياك ، كما شرب هو نفسه شيئاً منه ، ثم ركب به عربة عائداً إلى المدينة . وكان للشراب الذى تجرعه الصبى تأثير سريع عليه . ودخل به زوج خالته متجر « شالون » ليشترى له قفازاً من الجلد . ولكن الصبى كان ثملا فصارت مشيته غير طبيعية . وتحدث الطبيب بالفرنسية إلى عاملات المحل ضاحكاً ، وهو يصف لهن ما حدث . وأقبلت الفتيات ، وكلهن جميلات فى شرخ الشباب . وأخذن يتبادلن تدليهه وتقبيله . وأتين له بقفاز جميل من الجلد الأصفر فلبسه وخرج به زوج خالته عائداً إلى المنزل ، بينما كان الغلام يبدى رغبة فى البقاء فى المدينة ، ويفضل لو أنه ظل بين تلك العاملات .

أما البحر فهو متعة لا تنتهى وله تأثير كبير فى نفس كمال ، وهو لا يشبع من الجلوس إلى جانب البحر يتأمل فيه ساعات طوالا ، يتفرج على تلك الأمواج التى ترتفع ثم تنخفض ، ثم

تضرب الشاطئ بزبدها في رفق أحياناً ، كأنها قبلة حبيب ، وفي قسوة أحياناً ، كأنها صفعة غاضب . وبين هذا وذاك تجد الرمال والقواقع تتحرك : إما متقدمة للقبلة وإما مدبرة هرباً من الغضب . وتجد ألوان البحر لا تنتهى . ومن قال إن البحر فى زرقة السماء فقد صدق ، ولكنه لم يقل كل الصواب . ومن قال إن البحر فى خضرة الزرع فقد صدق ، ولم يقل كل الصواب . فإن للبحر تحولا فى الألوان حتى ليتخذها جميعاً ويلبس منها حلة بعد حلة .

ولصوت البحر شأن آخر يختلف باختلاف حالته : فتارة هو تنهد ، وتارة هو زفير ، وتارة هو أنين ، وتارة هو زئير . وبين هذا وذاك تجد أنواعاً أخرى . ولذلك كان صوت البحر أكثر رخامة فى نفس كمال من تغريد الطير وتجاوبها على الأشجار . فهو إذ يصغى إلى صوت البحر وهدير المياه ، يسمع مجموعة من الأصوات كاملة ، لم يكن حينئذ يستطيع أن يجد لها شبيهاً ، فحظه من سماع الموسيقى إلى ذلك العهد كان قليلا . فهو لم يسمع أو لا يذكر أنه سمع غير صوت خالتـــه الصغيرة ، وهى تتغنى على آلة العود إذ تتعلم العزف على هذه الآلة الموسيقية ، وقد أتقنتها بعض الشيء . ولكنه عرف فيما بعد أن يجد للصوت شبيهاً فى تلك المجموعات الموسيقية

التى تتألف من الآلات المختلفة الأنواع ، منها ذات الأوتار ومنها ذات النفخ ،ومنها التى تدق . وما يعزف عليها من مقطوعات وضعها كبار الملحنين فى أوربا .

ذلك هو البحر عند كمال بلذته التى لا تفنى وتقلباته التى لا تمل . وهذا شأن المخلوقات الطبيعية فى تباينها مع مخلوقات الإنسان ، ففى الطبيعة لا تجد شيئاً يتكرر بنفسه فهذا الليل الذى يأتى بعد كل نهار ، لا تجده يشبه الليلة السابقة مطلقاً. وصفحة السماء التى نشهدها كل يوم ، لا تتكرر قط بل هى متجددة كل يوم فى ألوانها . قد يكون هذا التجدد مما لا تلحظه لأنك فى شغل عنه ولكنك لو لحظته كل يوم بعين المحب أو الفنان فلا بد أنك واجد اختلافاً فى كل يوم ، قد يكون هذا الاختلاف بسيطاً ، ولكنه اختلاف على كل حال ، يعطيك لذة متجددة لو كنت من الذين يتمتعون بنعمة الشعور بجمال الطبيعة . أما المخلوقات التى هى من صنع الإنسان فإنها تتكرر، وتكون فى تكرارها واحدة ، بحيث أنها إذا أشعرتك بمتعة، فلا يلبث أن تقل هذه المتعة لتكرارها ، وممارستك لها مرة بعد مرة ، بحيث يدخل إلى نفسك السأم .

كان كمال لا يمل الجلوس إلى جانب الشاطئ يتأمل مياه البحر ، ولم تكن هذه الفرصة لتتاح له كثيراً . فهو لا يترك

وحده إلا نادراً . وجدته أشفق من أن تتركه يخرج بغير صحبة . ولكنه استطاع مرة أو مرتين أن يختلس فرصة غياب مصاحبه ، وهو ابن سيدنا ، إذ يريد الغلام العودة إلى داره لأمر من الأمور ، وحينئذ يلح عليه كمال فى أن ينطلق حراً ، يغيب كيف شاء ثم يواعده عند شاطئ البحر . ولم يكن البحر ببعيد ، فإن البحر يبعد عن داره ببضع عشرات من الأمتار . وهنالك يقف الصبى الصغير على شاطئ الماء حيث يجد متعته .

ويحب كمال أحياناً أن يداعب الماء بقدمه ، فيتقدم إذا ما انحسر الموج ، فإذا رأى الموج زاحفاً جرى إلى الخلف مسرعاً . وفى ذات مرة كان الموج أسرع منه فابتل حذاؤه من القماش الأبيض ، وجواربه فإذا ما جاء زميله خلع الحذاء والجوراب وظل وقتاً ما حافياً إلى أن يجف البلل .

وهكذا قضى كمال فى الإسكندرية زمناً سعيداً فى عشرة جدته الصغيرة ، يجد من الحنو أكثر مما عرفه فيها ، إذ كان كل الوقت حنواً عليه وعطفاً والجدة تتلمس أقل رغبة من رغباته . ولكنه مع ذلك لم يكن فى آخر الأمر راضياً كل الرضا . فقد افتقد شيئاً عزيزاً لديه هو صحبة أخيه وأخته ، وذلك اللعب الصاخب معهما . ومهما يكن ابن سيدنا كثير اللعب فإنه يحتفظ لكمال بنوع من الاحترام ، أو على الأقل

من الرعاية . أما أخوا كمال فلا يرعيانه بل يشركانه فى لعبهما ، وهما يظنان أن فى ذلك تنازلا بالنسبة لصغر سنه ، وضعفه عنهما . وكثيراً ما ينقلبان عليه ، ويتفقان على تحقيره ، لا لسبب إلا لأنهما أقوى منه . فينقلب اللعب معاكسات ومشاحنات ، تنتهى بأن يذهب الغلام إلى أمه شاكياً باكياً . فيكون حظ أخويه التأنيب ، ولا يسلم هو من التأنيب أيضاً ، لأنه مع ضعفه شاركهما فى العبث . ونتيجة هذا التأنيب قيام شىء من الحفيظة فى نفس الأخوين ، فينتهزان فرصة انفراده لمعاكسته ، وحينئذ ليس أمامه إلا طريقان : أحدهما العودة إلى الشكوى وقد تنتهى هذه الشكوى المتكررة بتأنيب الجميع ، وأحياناً تأديبهم، والطريقة الأخرى أن يلجأ إلى الاسترضاء فيقدم إلى الأخوين شيئاً مما خص به من الحلوى دليلا وعربوناً على المصالحة .

افتقد الغلام هذا النوع من اللعب والعبث ، وافتقد الضجيج الذى يصاحب هذا النوع ، وافتقد الأفكار الجريئة التى يدبرها أحد الأخوين فى لعبهم .

ولربما افتقد أيضاً نوع الحب الذى يلقاه من والدته . وهو حب لا يتميز بالظهور والحنان البارز . وهو حب ليس عسلا كله كحب الجدة ، وهى ليست من الذين يغمرون أبناءهم

بالقبل . بل يظهر حبها بمظهر بسيط جداً بأن تربت على كتفه أو خده ، أو تقرصه قرصة خفيفة من أذنه . وهى لا تتردد فى تأديبه بعصاً صغيرة إذا ما أساء التصرف ، ولا تتردد أكثر من ذلك فى تأنيبه . ولكنها ترعاه بعين يقظة ساهرة فلا تسمح بأن تظل ثيابه قذرة ، أو أن يظل بغير طعام فى يومه . ولم تكن الجدة أقل يقظة من هذه الوجهة . ولكنها مع ذلك غفارة لذنوبه ، ولا تفكر مرة واحدة فى تأنيبه ، بل إذا أقدم على ذنب نبهته فى لطف ورقة . وهو لم يأت ذنباً مدة إقامته بالإسكندرية وهو فى هذه المعيشة ، وكلها رخاء ، بعيد عن صحبة أخويه ، فظل بعيداً عن تيار الذنوب . ولعل النفس البشرية مهما أوتيت من البراءة لا تحب هذا النوع من الفضيلة المستمرة ، بل تجنح إلى التزود بإتيان الذنوب ، بقدر جنوحها إلى التجمل بالفضيلة . ولعل هذه الفضيلة التى ظل كمال مجبراً عليها بحكم وحدته ، مما أثر بعض الشىء فى نفسه ، وأدخل عليها بعض الملل .

على كل حال فى ذات يوم كانت جدته فى جهة أخرى من الدار ، وجلس هو وحده فى غرفة ، وقد جاءته الجدة قبل أن تتركه بعشرات من صور الأسرة وأصدقائها ليتفرج عليها ويتسلى بها . فأخذ يقلب هذه الصور فيجد صور

أناس لا يعرفهم ، ووجد صورة لخالته المتزوجة وصورة لزوجها الطبيب ، ثم إذا به يعثر فجأة على صورة لوالدته . فأخذ يتأملها طويلا ورأى نفسه مدفوعاً لتقبيلها ، فإذا به يقبلها ، ويكرر تقبيلها فى شغف . وعادت الجدة لتطمئن عليه على أطراف أقدامها كى لا تعكر عليه صفو انفراده ، أو ربما ظنت أنه أخذه النوم ، فرأت ألا توقظه . فشاهدته وهو يقبل إحدى الصور ، فمدت يدها وتناولت الصورة فإذا بها صورة الوالدة .

وبوغت الغلام ، ولا يعلم لماذا أخذه شىء من الخجل . فنظر إلى جدته باسما ونظرت الجدة وهى تبتسم ابتسامة حلوة فيها شىء من الحنين ، وفيها مزيج من الأسف ، وقالت للغلام :

ـ ستكون غداً فى القاهرة .

٣

دروس

كانت أمينة هانم كتومة لا تكشف الستار عن مشاعرها . فهل هى موفقة فى حياتها أم أخطأها التوفيق ؟ لقد شبت فى بيت أسرتها ويمكن أن يسمى قصراً ، فاتساع غرفه الكبيرة وكثرة الجوارى والخدم والأتباع يدل على ما عليه الأسرة من ثراء . ولكن ظروف الحياة كانت فى الحقيقة تسير بالأسرة رويداً إلى الفاقة ، وإن لم تخسر مكانتها بين الأسر العريقة فى مدينة الأسكندرية .

رأت أمينة وهى لا تزال فتاة مظاهر هذا الثراء فى آخر أيامه . وشعرت بأنه يسير إلى زوال على أثر وفاة والدها ، وهو فى مقتبل العمر ، وبقاء والدتها وحيدة لا تحسن تدبير المال . وشعرت بأن الوصى عليها ، وهو رجل دين يعتقد فيه الوالد اعتقاداً شديداً ويتعصب له كل التعصب ، أخذ بطرق خفية ، يعمل على تحويل أموال الأسرة وأملاكها من يدها إلى يده أو يد أقاربه . وذلك بالتأثير على الوالدة ببيع أملاكها للنفقة على بعض القضايا التى تؤمل منها ربحاً مؤكداً . وقد يكون ربح

هذه القضايا مؤكداً لو وجدت من يهتم بها ويسعى لها ، ولكن رجل الدين لم يكن همه غير تحويل الأموال إلى يده . فأخذ يشجع الوالدة على بيع ملكها حتى انتهى الأمر بالأسرة إلى أن كادت تجرد من أموالها . واضطرت فى آخر الأمر إلى بيع ذلك القصر الكبير والانتقال إلى منزل صغير فى الحى القائم بجوار مسجد أبى العباس المرسى .

وكانت أمينة هانم وهى أكبر بنات الأسرة قد بلغت سن الزواج ، وهى سن مبكرة فى ذاك الزمن ، حين تقدم أحد الرجال عن طريق بعض أصدقاء الأسرة يريد لا خطبة الفتاة بل خطبة الوالدة .

وضحكت الوالدة لأنها تعتبر نفسها عجوزاً وإن كانت فى ربيع العمر وأبدت دهشة لمثل هذا الطلب إذ لم تتصور أن تفكر فى الزواج بينما أن لها ابنة تصلح له .

وألحف الوسطاء وطلبوا منها أن تشهد ذلك الرجل المتقدم للزواج وقالوا عنه إنه متقدم فى السن وقالوا عنه إنه سيكون نعم الأب لبناتها فنزلت عند إلحاحهم وقبلت أن تراه فى موعد خاص ، إذ يزور البيت ليشرب فنجاناً من القهوة بصحبة أحد أقارب الأسرة ، على أن تراه وهو مار من النافذة .

وتم ذلك . فإذا بها ترى رجلا أسمر اللون متوسط القامة غزير

الشعر أسوده يبدو عليه رواء الشباب .

وتكلم معها الوسيط بعدئذ ، فضحكت بأشد مما ضحكت فى أول مرة ، وعجبت كيف يطمع فى زواجها مثل هذا الشاب بدلا من التقدم لابنتها .

ونقل الوسيط هذا الكلام وعاد فإذا به يعرض الزواج من الابنة .

وحينئذ أخذ رأى أمينة فقبلت ، وكانت قد رأته مع والدتها ، ولكنها قبلت بدون ضغط وبدون حماسة .

ربما أنها أقبلت على الزواج إذ شعرت بأن الأسرة فى حاجة إلى من يحميها ويخلص فى حمايتها . وربما قبلت لأنها رأت فى ذلك مساعدة للأسرة فى حياتها المتدهورة ، أو أنها أحبت أن تجرب تغير حياتها بالزواج . ولم يكن للفتيات حينئذ من وسيلة لتغيير حياتهن غير هذه الوسيلة فلا تعرف الفتيات عندئذ طريقهن إلى المهن والحياة المستقلة . ولكنها قابلت هذا الزواج فى غير حماسة ، لأنه ليس فيه ما يوجب الحماسة . وكيف يراد من الفتاة أن تتحمس لرجل لم تعرفه إلا بنظرة من خلال نافذة ؟

وتم زواجها من هذا الرجل الشاب فى مظهره . والواقع أن الزواج لم يكن تجربة سيئة . فقد أحاطها الرجل بعناية كبيرة وحنو كبير . ولكنها اكتشفت فيه أمراً لم تكن تعرفه فقد بدا لها

من خلال النافذة شاباً كما بدا لوالدتها شاباً ، ولكن ظهر لها أنه ليس بالشاب الذى ظنته . وإنما هو رجل قطع مراحل الكهولة وأقبل على الشيخوخة بل اجتاز بابها . وإذا احتفظ برواء الشباب . وكان يصلح تماماً بأن يكون زوجاً لوالدتها . وهو على الراجح فى سن والدها لو أنه لم يفارق هذه الحياة .

هذا الاكتشاف لم يؤثر فى نفسها أو ربما ترك أثراً خفياً لم تظهره . وكيف تظهره ، والرجل يعاملها بمنتهى العطف والحنو ويعمل على إجابة رغباتها ، ويحب أن تظهر زوجته فى خير مظهر . ولم تشعر أنها فقدت شيئاً مما تتمتع به فى القصر الذى عرفته أيام صباها ، وإن كانت تسكن معه الآن داراً صغيرة فى القاهرة .

ولكن أليس هذا العطف والحنو أمراً ملازماً لتقدم السن ؟ وهل لا يشعر الزوج الذى بلغ الشيخوخة بالحنو قبل أن يشعر بالحب ؟

هكذا عاشت فى كنف هذا الوالد الذى يحنو عليها كما يحنو على ابنته ، والذى تنظر إليه نظرة حب البنوة لا نظرة حب الزوج ، وإن كانت العلاقة بينهما علاقة الزوجية المحتومة .

وجاء أولادها إلى هذا العالم واحداً بعد واحد فجاء ابنها الأكبر بعد زواجها بثلاث سنوات . ثم ظلت فترة طويلة هى

خمس سنوات ، راضية بهذا الابن حانية عليه . ثم جاءتها ابنتها وتبعها غلام آخر فقامت تعنى بأولادها ، وتعمل على تربيتهم ، وزادت الأولاد من تقربها إلى الوالد ، ترى حنوه على الجميع ورعايته لأسرته فتزداد اعتماداً عليه . وهو قرير العين بهذا الاعتماد. ولكن الزوج يسير بقدم ثابتة نحو الفناء . وأخذت الأمراض تنتابه بالرغم من قوة بنيته التى خدعت الناس فى سنه حين أقدم على الزواج . ومع ذلك كان لا يكل من إحاطة أسرته بأنواع الرعاية والكد ، لكى يوفر لها أسباب الراحة ورغد العيش .

وكانت الأم أكثر تعلقاً بابنها الأكبر منها بأخويه . وهى تحبه وتعطف عليه عطفاً خاصاً ولعل انفراده بالبنوة مدة خمس سنوات قبل أخويه ، مما جعل الأم تؤثره بالعطف الشديد . وهو غلام نحيل الجسد يبدو فيه نوع من ضعف البنية . ولكنه مع ذلك عنيد لا يأبه لهذا الضعف فى بنيته ، فيألف الألعاب الخشنة . فكانت الأم شديدة الخوف عليه . وكثيراً ما يعود من اللعب بجرح دام ، أو آثار سود من الدم المتعقد ، فيكون نصيبه العناية البالغة والتأنيب البليغ .

ولما كبر هذا الغلام أخذت قامته تميل إلى الطول ، ولكنه ظل نحيلا جداً . وألحق بمدرسة ابتدائية ، وأخذ يتلقى الدروس سنة بعد سنة ، ولكنه لم يظهر أى تفوق فى دروسه ، وكان يعيد

أكثر سنى الدراسة . فإذا وصل إلى السنة النهائية فى الدراسة الابتدائية . وجد فى الامتحان عقبة كؤوداً فأخفق فيه مرة بعد مرة .

لذلك رأى الوالد حاجة ابنه لمعونة خارجية ، فضلا عن الدروس التى يتلقاها فى المدرسة . وقدر أن لا بد له من معلم يراجع معه دروسه فى المنزل ، أو على الأقل يحجزه وقتاً ما بانتظام ، لكى يراجع هذه الدروس . فلم يكن هذا الكسل البادى على الغلام ناشئاً عن غباوة الفهم ، بل سببه على الأرجح انصراف ذهن الغلام إلى اللعب والتفكير فيه ، والرغبة عن دروسه.

وقامت مشكلة اختيار المعلم ، وحلها الغلام بنفسه . ففى أحد المساكن المجاورة شاب من أبناء الصعيد فى نحو العشرين من عمره جاء إلى القاهرة والتحق بعمل حكومى صغير وهو يحاول أن يحصل على إجازة الدراسة الثانوية بالمذاكرة ليلا . ويعتمد هذا الشاب على نفسه وعلى مرتبه الصغير . ويرجو أن يجد عملا لا يرهقه ، يزيد قليلا من دخله .

كان الغلام يحب لعب كرة القدم . وقد ألف بالرغم من صغر سنه جماعة لهذه اللعبة من أولاد الجيران ، ينتحون ناحية فى بعض الأراضى الخالية المجاورة ، ويأخذون فى اللعب والضجيج . فيأتى أحياناً هذا الشاب للتفرج عليهم ، ويشترك

معهم أحياناً ، فنشأ بين الغلام والشاب نوع من الصداقة على تباين سنهما . وكانا أحياناً يتجاذبان الحديث . وعلم الشاب من الغلام أن أباه يبحث له عن مدرس ، فعرض على الغلام أن يكون مدرسه ومراجع دروسه ورحب الغلام بتلك الفكرة وأسرع إلى والده يخبره بأنه يفضل أن يتلقى دروسه على يد الأستاذ وفيق .

وتم ذلك وبدأ الشاب يتردد على الدار . وكان شاباً مهذباً فارتاح إليه أهل الدار وشمله الوالد بعطفه.وتقدم الغلام على يديه فى دروسه . فهو لم يكن غبياً كما قدمنا ، وإنما ينصرف عن دروسه . وعرف الأستاذ وفيق كيف يسقيه مرارة الدروس على جرعات . فهو يتحدث إليه ويتبسط فى الحديث عن لعب الكرة مثلا ، أو غير ذلك من الألعاب التى تميل إليها نفس الغلام ، ويشاركه أحياناً فى اللعب بالآلات الميكانيكية أو بنماذج السكك الحديدية وهو بعد على أنه معلم لا يزال شاباً فى مقتبل العمر .

وكان وفيق طويل القامة لكنه نحيل الجسم أسمر اللون كأنه قطعه من البرنز متساوى قسمات الوجه ، بل هو جميل الصورة جداً لمن يتأمل وجهه ، إلا أن فى عينيه عيب هو نوع من الحول . على أن بهما بريقاً بحيث لا يكاد يبدو هذا الحول منفراً .

أخذ مركز وفيق يزداد أهمية فى الدار ، بازدياد إقبال الغلام على دروسه . وصار كثيراً ما يدعى للعشاء مع تلميذه ، فيجلسان إلى المائدة معاً فى الغرفة المخصصة لدروس الغلام ، وحينئذ لا يكون الحديث إلا حول البندقية التى اشتريت للعب بها أخيراً ، أو الكرة الجديدة التى تمكن الغلام من شرائها بما يعطى من نقود شهرية .

واستطاع الأستاذ وفيق أن يبث فى الغلام شيئاً من حب المطالعة . فبدأ يواظب على قراءة الصحف العربية . ويشترك فى بعض المجلات الإنجليزية الشهرية . ويقتنى منها مجانين مليئتين بالصور ، ويظهر أنه يفضل الصور على القراءة . وأخذ يجمع مجموعة من الكتب الإنجليزية . ولكن من الراجح أنه لا ينتفع بها ، بل يجمعها حباً فى الظهور بمظهر من يقبل على القراءة . ولكن المعلم يستفيد من هذه الكتب لأنه كثيراً ما يستعيرها من تلميذه . ومن المفهوم أنه لم يقدم على إعطاء الدروس إلا لضيق يده . ولعله استطاع أن يوفر بهذه الطريقة نقوده لمطالب الحياة . ويستمد مطالب العقل بحث تلميذه على شراء الكتب التى يريد قراءتها .

وكانت الأم تحرص حين يتلقى الغلام دروسه على أن يسود المنزل الهدوء . فهى تحول بينه وبين عبث أخويه . ولذلك منع

الأخت والأخ الصغير من دخول الغرفة فى أثناء الدرس .
والحقيقة أنهما لو تركا لنفسيهما لما ترددا فى معاكسة أخيهما أثناء درسه . فقد كان أخوهما كثير المعاكسة والمعاندة لهما ، أو كثير المعاكسة والمعاندة لكمال بنوع خاص ، لأن الأخت كشأن النساء تنضم إلى الجانب الأقوى لتتقى شره . وفى جلوس الغلام أمام معلمه فرصة للانتقام بمعاكسته ، حيث لا يستطيع أن ينهض تاركاً المعلم ليقابلهما بلكمة مثلا ، وفى هذا الوقت يكون الغلام هو الضعيف ، ولذلك تنضم الأخت للصبى الصغير .
فإذا حل الدرس أخذ الأخ والأخت يحومان حول غرفة الغلام ، وأكبر أمنية لهما أن يعكرا صفو خلوته لدروسه . ولكن عين الأم اليقظة ترمقهما شذراً فيكفان ويتباعدان .

ويظل هذا حالهما طول مدة الدرس ، فهما بين وقت وآخر يقتربان من الباب فتلقى عليهما نظرة عابسة فيرتدان إلى غرفة أخرى ، حتى إذا ما فتح باب غرفة الدراسة وأعلن انتهاؤها ، هجم الصبى والصبية على الغرفة ، واستطاع الغلامَ أن يقابلهما بالضحك والمداعبة ، أو السخرية والملاكمة ، حسب العلاقات القائمة بينهم فى ذلك اليوم .

وابتدأ كمال وأخته يألفان أيضاً الأستاذ وفيق لاسيما حين لاحظا أنه يهتم بأمورهما الصغيرة ويشاركهما الحديث . فإذا

قام بين الأخوة نزاع تداخل وحاول أن يحل الإشكال فى لطف . وإذا كان بينهم ما يستدعى التحكيم اعتاد الأولاد أن يحكموه فى الأمر ويأخذوا برأيه .

ويدخل كمال وأخته الغرفة أحياناً بعد الدرس ونفسهما مليئة بروح الشر والعبث ، ولكن وفيق يعرف بطريقه ما كيف يعالج هذه النزعة الشريرة فى هذه النفوس الصغيرة . لا بالزجر ولا بالنصيحة التى لا تفيد فى هذه الحالة ، بل بالمشاركة والفهم للنزعة والعمل على اقتلاعها فى صبر وسماحة .

وهكذا ظل وفيق يتخذ مكانه بين هذه الأسرة ويوالى أكبر الأولاد بعنايته ، إلى أن اضطربت الأمور بالمرض الأخير للأب ، فانقطعت الدروس عند ما اشتد المرض وظلت منقطعة فترة طويلة بعد وفاته .

ونشأ عن وفاة الوالد نتيجة أخرى هى أن الأسرة أبدلت دارها ، وانتقلت من حى إلى حى . واختيرت دار أقرب إلى المدرسة التى ينتظر أن يلتحق بها الأخ الأكبر ، بعد حصوله على إجازة الدراسة الابتدائية . واتفق أن حصل عليها بعد وفاة والده بأشهر . ومن الطبيعى أنه لم يعد بحاجة إلى دروس . ولكن أستاذه ظل يتردد على الدار كصديق ، وليس بالغريب أن يكون صديقه . فإن التفاوت فى السن لم يكن كبيراً ، فست

سنوات أو سبع قد تبدو كثيرة فى التفرقة بين شخص وآخر ، ولكنها فى مجال العمر وفسحته ليست بالفرق الكبير .

وكان يجد ترحاباً من جميع أفراد الأسرة . فالأخ الكبير الذى التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية ، يجد فيه صديقاً فى أحاديثه وفى ألعابه المنزلية . والوالدة تجد فيه ابناً أكبر تستشيره فى أمورها . أجل إنه ليس صغيراً فى السن بحيث يصح أن يكون ابناً لها ، على أن ابنها الأكبر لا يزال يافعاً لا يمكن الركون إليه فى الأمور . وقد وجدت فى هذا الأستاذ الصغير السن من تركن إليه . وهو من جهة يظهر اهتماماً بأمر الأسرة والتودد إليها ، وكثيراً ما يدعى لمشاركتها فى طعامها . ويقضى أيام الجمع لدى الأسرة .

ومضت سنة على ذلك ترك فى آخرها الابن الأكبر الدراسة الثانوية . فهو لم يخلق للدراسة المنتظمة بل أن روحه الرياضية وحبه للحركة يدفعانه إلى المدرسة الحربية . وأتيح له القبول بها ، وفيها صار يقضى الوقت مقيما بالمدرسة ، لا يأتى الدار إلا فى أوقات العطلة .

فكان الأستاذ وفيق يحضر فى أيام العطلة إلى الدار ويخرج للنزهة مع تلميذه السابق وفى وسط الأسبوع يقوم أحياناً بزيارة الأسرة ، يسأل الأم عما إذا كانت فى حاجة إلى خدمة يؤديها ،

فتشكره على هذه العاطفة وتعهد إليه أحياناً فى شراء أو اختيار بعض الأشياء التى تحتاج إليها لأولادها .

أخذت أمور الأسرة فى تلك السنوات تتطور من الوجهة المادية فإن الأب لم يترك ضياعاً . وإنما ترك مالا فى ذمة بعض الأشخاص يتطلب الوصول إليه قضايا كثيرة ، وقد عهدت الوالدة إلى قريب لها فى استخلاص هذا المال واتخذته وكيلا ، وهذا القريب من ذوى اليسار . واعتقدت الوالدة أن فى يساره ضماناً للأموال ، وحسن تدبير لها ، ولكن اليسار غير القناعة .

نجح هذا القريب فى استخلاص الأموال . وكانت من الكثرة بحيث يستطيع بها أن يشترى ضياعاً تبقى على المال للأسرة ، فيعيش أفرادها فى رغد . ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك ، وقد اقترحت عليه الوالدة أكثر من مرة أن يفعل ، صار يسوف ويستنزف هذه الأموال لنفسه ، ويطمئن الأم بأنها ستجد حاجتها دائماً . فلا معنى للإسراع خشية الوقوع فى شراء ضيعة غير صالحة .

وهكذا دخل عنصر القلق إلى حياة الأسرة ، والأم الكتوم لا تظهر شيئاً منه ، والابن الكبير لا يأبه له ، لأنه منصرف إلى نفسه . وقد التأم مع الجو الذى يعيش به كطالب بالمدرسة الحربية . فهو لا يخرج إلى عطلته حتى يبحث عن اللهو والعبث ،

وهو آمن إلى العمل الذى سيجده بالمدرسة .

ولكن الذى شعر بهذا القلق هو كمال الصغير . قد لا يكون عرف سببه أو أدرك تماماً موقف قريبه من الأم ، ولكنه قرأ فى عينى أمه الخضراوين هذا القلق . وشعر بأنها تخفى فى جوانحها عدم الاطمئنان إلى المستقبل ، وأخذت تشعر بشىء من الوحدة والانفراد فى هذا العالم . لا سيما أن والدتها سافرت فى تلك الشهور فى رحلة من رحلاتها البعيدة الطويلة إلى تركيا وآسيا الصغرى ولبنان وسوريا ، تأتيها منها الرسائل حيناً بعد حين ، كلها شوق وحنان واهتمام . وهى من جهتها ترسل رسائل متباعدة ولكنها لا تذكر فيها متاعبها الفكرية . فهى متاعب لم تتجسم بعد ، وهى متاعب قائمة على الخيال أكثر من الحقيقة الملموسة . فالقريب رجل معسول اللسان لبق وكيس فى معاملتها . وليس لها أن تشكو من معاملته فلم تر أن تقلق بال والدتها فى سفرها البعيد من أجل مجرد إحساس وتخيل .

فكانت تكتم هذا القلق . وتكتمه بصفة خاصة عن أولادها . وكل عنايتها منصرفة إلى أن يظل صغارها بمنأى عن المتاعب . وكان من طبيعتها ألا تحدث الصديقات فى شئونها الخاصة ، ولا تطلعهم على أمرها . ولكن هنالك شخص أخذ يهتم بهذه الأمور ويحاول أن يستجلى موقفها . وهو الأستاذ وفيق

يفعل ذلك بحذر وبعطف ، فأخذت أمينة هانم تفضى إليه شيئاً فشيئاً بما يساورها من قلق .

ولا يستطيع الأستاذ وفيق أن يأخذ الأمر فى حزم بيده بل هو يكتفى بالعطف وشىء من النصيحة . ونصائحه موفقة فى أكثر الأحيان . وزادت الأم اهتماماً بمعرفة رأيه فى أمور شتى : ألم يكن يعلم ولدها الأكبر تعليما أدى إلى نجاحه فى الامتحان بعد طول إخفاق ؟ ألم يكن الرجل الوحيد حولها الذى تستطيع أن تركن إليه شيئاً ما ؟

وكان كمال الصغير على اهتمامه بدروسه وانصرافه إلى القراءة والاطلاع ، يراقب الأمور مراقبة دقيقة أكثر مما ينتظر ممن هو فى عمره ، ومع ذلك لا تكلفه هذه المراقبة شيئاً . فهى ليست مراقبة مادية تقوم على النظر والسمع . وإنما هى مراقبة بالحس والشعور ، وما يشبه أن يكون الغريزة ، فقد تكفيه ملاحظة أو كلمة تقال هنا أو هنالك ليفهم ما ينطوى عليه فكر المتحدث . وليتصل بالموضوع اتصالا وثيقاً مدفوعاً بحاسته ومدفوعاً بحبه لوالدته وإشفاقه عليها .

أخذ يرحب بما رآه من الأستاذ وفيق من عطف واستجابة لشكوى الأم واهتمام بأمورها . ولم يك لهذه الشكوى حتى ذلك الوقت أساس . فإن القريب المستولى على الأموال لم يسفر عن

غرض من الأغراض . بل كل ما ظهر منه تراخ وإهمال فى تدبير المال بحيث يمكن استثماره والاحتفاظ بأصله . أما رغبات الوالدة فتجاب للحال . ويمدها بكل ما تحتاج إليه من مال . ويفهمها تماماً أنها سوف لا تحتاج لمال إلا وجدته ، فالأموال كثيرة تكفى حتى يشب أولادها ، وهم فى يسر . كما أن قرابته لها تجعلها منه بمنزلة الأخت وهكذا تطمئن حيناً ثم يعاودها القلق .

ومما يزيد فى قلقها أنها لم تكن خبيرة بتدبير أمور المال . فهى لا تعلم شيئاً من طريقه استثماره ، وكل ما ترجوه أن يشترى بهذا المال عقاراً يحفظ الأصل ويدر ريعاً . ومما يزيد فى قلقها أنها شهدت ذلك القصر الذى كانت تجرى فيه فى أيام صباها . وشهدت كيف انتقلت بهم الأمور إلى المنزل الصغير بجوار مسجد أبى العباس . وأن العامل الأكبر فى ضياع ثروة والدتها الواسعة هو ذلك الشيخ الطاهر التقى الورع ، الذى أقامه والدها وصياً عليهم .

لقد شهدت ذهاب تلك الدور والضياع فكيف لا تذهب تلك الأموال ، وإنفاقها أسهل منالا من بيع تلك الدور والضياع ؟

أمام هذه المتاعب الفكرية لم تجد راحة إلا فى التحدث إلى الأستاذ وفيق ، وأن تبوح له بما يساورها من قلق .

٤

المعـــلم

كان الأستاذ وفيق إلى تلك الفترة لا يزال يسكن فى المنزل القريب من بيت الأسرة القديم . وهو المنزل الذى سكن فيه وهو طالب يتم دراسته الثانوية . وظل ساكناً فيه حين وجد عملا فى إحدى وزارات الحكومة وفكر فى أن يتابع الدراسة ليلا ، ولكنه انصرف بعد قليل عن الدراسة . وزاده انصرافاً أن وجد وسائل ليضيف إلى مرتبه الصغير بعض دريهمات بإعطاء الدروس لصغار التلاميذ .

وقد رأينا كيف التحق بالأسرة ليعاون ذلك الغلام القليل العناية بدروسه . وفى تلك السنة نجح الغلام . فعزى نجاحه إلى كفاءة المعلم . وعرف الأستاذ وفيق بين أعيان الحى فاتخذه واحد أو اثنان منهم معلماً لأبنائه . وهكذا وجد الأستاذ وفيق ربحاً جديداً .

وكان الأستاذ وفيق بقامته الفارعة ، وجسمه النحيل ووجهه الأسمر الجميل القسمات ، وعينيه اللتين بهما شىء من الحول غير كريه ، محبباً إلى نفوس الآباء وإلى من يتصل به من أهل

الدور التى يغشاها . ومسلكه وطريقة معاونته لتلاميذه مما يزيد فى قيمته . فهو مؤدب لين العريكة . وهو مع تلاميذه لا يتخذ سطوة المعلم بل يشاركهم ضحكهم ولعبهم بمجرد انتهاء الدرس . ويسلك معهم مسلك الأخ الأكبر ولم يكن عادة ليكبرهم كثيراً .

وعندما زاد دخله لم يعمد إلى تدبير المال وادخاره ، بل عمد إلى زيادة التأنق فى ثيابه ، فهو بطبيعته ميال إلى التأنق فى الثياب ، وقد اعتاد وهو طالب أن يعيش على مبلغ ضئيل يأتيه من والده من أقاصى الصعيد ، فلا يستطيع إشباع رغبته فى الثياب الجميلة . ولكنه حرص مع ذلك على العناية بالحلة الوحيدة التى يمتلكها واحتفظ دائماً بنظافة ثيابه مما عوض عليه كثرة الثياب وتنوعها .

والآن وقد صار موظفاً وزاد دخله بالدروس التى يلقيها ، لم يحاول أن يتوسع فى مسكنه . فلم يغير من شقته الصغيرة ولا بدل من أثاثها الحقير وإنما غير وزاد من ثيابه . فصارت له ثياب مختلفة الألوان ، وعرف الطريق إلى رباطات الرقبة الملونة بألوان بهيجة ، واقتنى عصاً ذات يد ملتوية مذهبة كالمألوف فى ذلك العصر ، وهو يميل بطربوشه شيئاً ما إلى اليمين ويمشط شعر رأسه الأسود الفاحم بطلاء يجعله لامعاً ، وكثيراً ما يسير

فى الحى بادى الأناقة ليقصد دار أحد تلاميذه أو ليقصد دار الأسرة التى انتقلت من ذلك الحىّ .

وكان من الممكن أن تصبح تلك الأناقة منفرة ويصبح المظهر الذى اتخذه كريهاً ، وأن يقضى تأنقه على تلك الدروس التى يأتيه منها دخل يكاد يتعادل مع مرتبه ، ولكن هذا التأنق لم يكن مقروناً بشىء من الخيلاء ، بل احتفظ وفيق بظرفه ورقته . ولم تؤثر هذه الأناقة فيه ، ولم تثر عليه ثائرة الناس كما تفعل الأناقة أحياناً .

ربما كان الواجب أن يرسل شيئاً من المال الذى يأتيه إلى أبويه . فإن والده رجل رقيق الحال عمل فى وظيفة حكومية صغيرة وظل بها طوال حياته ولم يرتفع مرتبه إلا قليلا . وكان عمله قريباً من القرية التى نشأ فيها فإذا بلغ السن التى يعتزل فيها العمل آوى إلى قريته يعيش على معاش ضئيل ، عيشة قريبة من عيشة الفلاح . أما والدته فقروية نشأت فى القرية ذاتها واحتفظت بطابع الفلاحات . وهما يعتبران ابنهما بعد أن وجد عمله الحكومى من الأثرياء . ولا شك فى أن الأب طلب أحياناً من ابنه بعض المساعدة المالية فأجابه الابن إلى طلبه وأرسل إليه القليل من المال ، ولكنه لم يفكر فى إرسال مساعدة منتظمة ، لأن طموحه وحاجته إلى الظهور يفرضان عليه نفقات تستغرق كل ما يحصل عليه من مال .

وكان وفيق موفقاً فى تلاميذه فجميعهم من الذين يجد آباؤهم سعة من العيش ولذلك ينزل وفيق منزلا رحباً ، وكثيراً ما قدم له الغداء أو العشاء ، من نوع لا يمكن أن يحصل عليه بنقوده .

وهكذا شعر وفيق أنه يدور فى غير الوسط الذى يجب أن يدور فيه ، فلا هو وسط أسرته ولا هو وسط أقرانه فى العمل . وأخذ يشعر بأنه قريب من طبقة هذه الأسر التى يختلط بها ، ولا يجد سعادة إلا فى عشرة هذه الطبقة . وصارت له حساسية يتلمس بها التلاميذ . فإذا تقدم إليه تلميذ من غير هذه الطبقة تملص واعتذر بكثرة مشاغله ، مفضلا أن يبقى بين الأسر التى ألفها وألف معاشرتها .

وكان يكثر التردد على دار تلميذه القديم . وهذا فى طريقه لأن يصير ضابطاً بالجيش ويذهب فى يوم الخميس عادة لزيارة الأسرة حيث يوافيه تلميذه . فتحتفل الأسرة بيوم العطلة الأسبوعية التى يسمح فيها لطلبة المدرسة الحربية بزيارة دورهم والمبيت فيها وفى تلك الليلة يتناول مع الأسرة عشاء معداً عادة بعناية أكثر منه فى أيام الأسبوع الأخرى . وبعد العشاء يصحب وفيق تلميذه القديم إلى أحد الملاهى وتمتد هذه السهرة إلى ما بعد منتصف الليل . ثم يعود مع تلميذه إلى الدار فيودعه

عند بابها ويسير قاصداً منزله وهو مرتاح النفس راض بالمتعة التى وجدها فى سهرته دافئ بالخمر التى شربها مع تلميذه .

وهنالك يصل إلى غرفته التى أخذ أخيراً فى العناية بها وتنظيمها كلما وجد معه فضلامن مال . وفى هذه الغرفة يشعر أحياناً بلذة السهرة إذا ظل متأثراً بها ، أو بشىء من الانقباض للوحدة التى هو فيها بالمقارنة لما كان فيه من مرح صاخب .

صارت هذه الزيارة فى يوم الخميس مقدسة لديه لا ينقطع عنها إلا لأمر جليل . ومع ذلك لم تكن هى الزيارة الوحيدة للأسرة ففى أثناء الأسبوع يزور الأسرة مرة أو مرتين بعد ظهر اليوم . وهنالك يجد الأم مع ولديها الصغيرين وقد اعتادا هذه الزيارات فصارا يترقبانها ويجلسان بعض الوقت مع امهما والضيف ، ثم ينصرفان للعبهما وتجلس إليه الأم تتحدث عن أموره أحياناً وعن أمورها أكثر الأحيان . فهو يروى لها كل ما يحدث له فى حياته العادية وهى تفضى إليه بمتاعبها التى كانت حتى ذلك الوقت مجرد أوهام وقلق أكثر منها أموراً واقعية .

وبدأ من جهته يترقب هذه الزيارات فإن أمينة هانم لم تكن بالسيدة التى عرف لها مثيلا فى أقاربه وأهله . فهى من معدن خاص ليس له به عهد وحديثها وتفكيرها يسترعى النظر . فما هى ثرثارة تكرر القول فى الهام والتافه بل تتحدث فى منطق

مرتب وإذا تناولت أمراً من الأمور التافهة فى ظاهرها بينت وجه الأهمية فى الخوض فيه .

وقد شرحت له موقفها تماماً وهو موقف لا يبدو له خطيراً لأن المال الذى تركه زوجها بعده وفيق ثروة كبيرة ولا يتصور كيف ينفد هذا المال العظيم فى نظره . فأخذ يطمئنها كثيراً ولا يرى الأمر خطيراً كما تتوهم .

وفى بعض الأحيان حين ينفرد إلى نفسه فى غرفته يترك لأفكاره عنانها فيتخيل حظه لو أوتى مالا كمال هذه الأسرة ، وماذا يفعل وكيف تصبح حياته سعيدة .

وحينئذ تسارع إليه فكرة طالما ترددت فى مخيلته هى الشعور بالوحدة ، فالمال إذن سيعينه على القضاء على هذه الوحدة . وتسارع إليه تلك الفكرة التى خاضت فيها أسرته من قبل، وهى فكرة الزواج من ابنة عمه .

فلعمه ، وهو مزارع بسيط ، فتاة ريفية صغيرة كان وفيق يحملها وهى طفلة ، وهو غلام فى المدرسة الابتدائية ، فتتشبث به الطفلة وإذا ما قبلها تقبله فى براءة الأطفال المداعبين . فخيل إلى العم وامرأته أن لا بد من اقترانهما على ما بينهما من فرق فى السن . ورآها وفيق وهى صبية ثم رآها فى آخر مرة عند ما زار قريته . وهى فتاة صغيرة تجلى جمالها ، جمال ريفى بسيط

يستمد الحسن مما يحيط به من مناظر الطبيعة ، فهى نحيلة الجسد فى ثوبها الأسود جميلة قسمات الوجه واسعة العينين سمراء فى مثل لون وفيق ، ولكنها شديدة الحياء خجولة تسرع بالهرب إذا ما رأت وفيقاً فى طريقها ، وكأنها شعرت بما قدر لها أو لعلها سمعت أقوالا عن ذلك ، ولم تكن نافرة بل هى ترى فى وفيق غاية أملها .

وانتظر الأبوان من وفيق أن يتقدم إليهما بطلب يدها بمجرد التحاقه بالعمل ولكنه لم يفعل . وتحدث إليه أبوه فى أمر هذا الزواج فى آخر مرة رآه فيها فأبدى وفيق أن الفتاة صغيرة جداً فهى فى الثالثة عشرة من عمرها ولا يجب التفكير فى زواجها الآن بل يجب الانتظار . ولم يفهمه أبوه فى بادئ الأمر . إن هذه السن يراها الأب سناً صالحة للزواج . واضطر وفيق إلى تكرار الشرح لأبيه بأنه يجب الانتظار فلم يقتنع الأب ولكنه سكت وعزى آراء ابنه إلى ما شاب آراءه من حضارة المدن ، وعلى أن وفيق قد بلغ أقصى درجات التعليم فى رأى أبيه وصار من أولى الأمر ، إذ التحق بعمل فى الدولة وغدا مرتبه وهو فى الدولة أقصى ما وصل إليه أبوه فى نهاية خدمته . فلم يسع الأب إلا السكوت والنزول على إرادة ابنه .

أخذت صورة هذه الفتاة تتمثل لديه فى وحدته . ومن

الطبيعى أن يشعر برضاً لهذه الصورة ، ولكنه لم يشعر بشىء من ذلك ، والفتاة جميلة ، ولكن هذا الجمال لم يكن مؤثراً فيه . ولقد بدأت الفتاة وأبواها يعلقان الآمال على هذا الزواج ويعتبرانه أمراً محتوماً ، ولكنه هو نفسه لم يعد يعتبره من الأمور المنتظرة ، بل صار يعتبر مثل هذا الزواج عثرة فى طريقه تقضى على مستقبله وعلى ما يطمح إليه .

فكيف ترضى نفسه بفتاة قروية مهما كانت جميلة وقريبة إليه ؟ إنه أحياناً ليستشعر شيئاً من الخجل حين يقدم والده ليمضى بضعة أيام فى المدينة . فإن والده يرتدى بذلة ولكنها رثة عتيقة ، اتسعت وترهلت على جسمه النحيل . فكان عند هذه الزيارات يفضل الانقطاع عن التردد على الأسر . ثم إذا زاره أحد تلاميذه حاول أن يفهمه أن هذا الشخص هو أحد أقربائه من بعيد ، لا يفعل ذلك صراحة ، بل يشير إلى ذلك بطريقة عارضة لأنه يخشى افتضاح الأمر وظهور الحقيقة ، فيقف موقف الكذابين . ولذلك يكتفى بالتلميح ويقتنع هؤلاء التلاميذ عادة وهم صغار فى السن بهذا التلميح ، ويثبت فى أذهانهم أكثر من تصريحه .

فإذا كان الأمر قد وصل به إلى هذا الحد فيما يتعلق بأبيه فكيف يتخذ من تلك الفتاة القروية شريكة لحياته ؟

إن أعظم أمانيه أن يجد فتاة فى الوسط الذى ألف أن يعيش فيه . وداخله الوهم بأنه سيجد فتاة تكون أختاً لأحد هؤلاء التلاميذ . وهى بلا ريب فتاة متعلمة ميسورة يستطيع أن يعتمد على أهلها ويعيش فى ظل أسرتها عيشة الرخاء .

وحبذا لو أن تلك الفتاة جميلة : تشبه من ؟ حبذا لو أنها فى صورة أمينة هانم بعينيها الخضراوين ولونها الأبيض الزاهى المشرب بالحمرة ، على أن تكون فى سن ابنة عمه الريفية .

٥
قلق

لم يعد إحساس القلق هو الأمر الوحيد الذى طرأ على أمينة هانم فى حياتها ، فإلى جانب هذا الإحساس أخذت تستعرض حياتها الماضية ، وظروف زواجها والمدة التى قضتها فى هذا الزواج ؛ وأخذت تشعر بأن هذه الحياة التى ركنت إليها وقضت فيها زهرة العمر ليست حياة موفقة . فهى قد استكانت إلى هذه الحياة ورضيت بها ، ولكن رضاءها قائم على أمرين أحدهما تلك العناية المادية التى أحاطها بها زوجها بحيث وجدت خفض العيش ، وثانياً ذلك العطف والحنو الأبوى الذى أحاطها به زوجها بحيث شعرت كأنها تعيش فى كنف أبيها . ثم جاء أولادها إلى هذه الحياة فوجدت متعة جديدة وقيمة جديدة لحياتها . غير أنها بدأت تفكر هل الحياة الزوجية لا تنطوى على غير الحنو والعطف الأبوى ؟ أليس للزواج بريق خاص حين يتكافأ الزوجان وتأتلف نفساهما ؟ إن هذه الألفة لم تشعر بها قط . فهى لم تشعر بأنها شريكة لزوجها . كانت تحترمه وتحبه ولكن هذا الحب تكملة لما تشعر به نحو أبيها ؛ وليس من شأن الفتاة أن تعتبر نفسها شريكة لزوجها الهرم، بل هى تتلقى عطفه

وتركن إليه كما تركن البنت إلى أبيها . فإذا أشار برأى من الآراء ترى من واجبها أن تطيعه وأن تعتبره على صواب . وإذا كانت الطاعة غير ممكنة — وهذا قلما يحدث — فإنها تعترض عليه فى رفق كما يفعل الابن فى أمر صدر إليه من أبيه فوجده صعب التنفيذ على نفسه .

أخذت تراجع حياتها فتجد أنها اجتازت عتبة الصبا وصارت امرأة مكتملة الشباب دون أن تعرف حقيقة الزواج ، ودون أن تشعر بتلك الغبطة التى تظهر على بعض صديقاتها حين يذكرن أزواجهن . وهى من جهتها فى أثناء حياتها الزوجية لا تستطيع أن تشير إلى زوجها إلا بما يدل على الاحترام وفى مخاطبتها له لا تستطيع أن ترفع الكلفة . وأخذت الآن تتذكر ذلك باستغراب فى نفسها لأنها لم تكن فى فترة زواجها تشعر بأنها تفعل ذلك بل وجدته أمراً طبيعياً ، فهى الآن تتذكر كيف أن صديقاتها يتكلمن عن أزواجهن بل يخاطبن أزواجهن فى الظروف القليلة التى استطاعت فيها أن تسمع هؤلاء الزوجات ، فترى أنهن يكتفين بالنداء بالاسم بلا كلفة أما هى فلم تجرؤ على ذلك مرة واحدة .

والعجيب فى الأمر أن الزوج لم يأخذ على زوجته تلك الكلفة بل وجدها أمراً طبيعياً ؛ وكان من جهته يناديها باسمها

كأنها ابنة له . وبدأت ترى الآن أن الزوج كان شاعراً بهذا الأحساس البنوى فلم يحاول أن يغير من مجراه.ولعله إن حاول يجد نفوراً . فهو لصالح نفسه قد فعل خيراً إذ لم يقدم على هذه التجربة ؛ واكتفى بأن يقف منها موقف الوالد ، وهو موقف أجدر بسنه ويدل على حكمته وتبصره .

إذن فهى تعتبر نفسها بأنها لم تتزوج قط ، أو على الأقل لم تعرف معنى الزواج وإن عرفت حنو الأمومة .

لم تفكر فى هذا فى حياة زوجها ؛ فقد كانت تنعم بهذا العطف وتكتفى به ؛ لا لأنها تعرف أن هنالك ما هو أكثر من هذا العطف . ففى حياتها وهى طفلة فى دار والديها الواسعة تمرح بين الجوارى ويزورها أقاربها من أطفال فى مثل سنها ، لا يعرف الجميع ولا يهدفون إلا لحسن المسلك والتفوق بمراعاة قواعد الأدب . وهم جميعاً فى جو بعيد عن الدنايا ، ولكنه جو بعيد عن معرفة حقيقية للحياة بما فيها من قوة الألم وقوة اللذة . فهذه الحياة الخاصة قد باعدت بينها وبين معرفة الحياة الحقيقية ، وهى حين تزوجت ، لم تكن إلا طفلة كبيرة ، وزواجها من هذا الرجل الهرم الذى يفرق بينها وبينه عشرات السنوات إنما هو ارتداد لشىء فقدته هو حنو والدها قبل وفاته ، وقد كسبت بهذا الزواج أن عاد إليها هذا الحنو ، ولذلك شعرت

بأن كسبها فيه كبير ، وهي قد عاشت معه ناعمة البال لأنها تشعر بأنها متمتعة بكل شيء . أجل لم يكن زوجها فى مثل الثراء الذى عرفته فى صباها ولكنه أتاح لها بجده حياة رخاء . فلم تشعر قط بضيق الحاجة إلى المال .

وحين ولدت صغارها وجدت لذة جديدة أتيحت لها فى العناية بهم والسهر عليهم . ومما زادها غبطة أن الوالد المرم كان شديد الحنو على أطفاله كبير العناية بهم بالغ الاهتمام بحاجياتهم . ولم تشعر بأنهم عبء عليه ولا بأن رزقه ضاق بهم .

وقد أخذت تحب أولادها حباً صادقاً وإن لم تعدل بينهم فى الحب فهى أكثر تعلقاً بابنها الكبير . ولعل السبب فى ذلك أنه سبب لها من المتاعب والتفكير أكثر من إخوته . فهو فى طفولته كثير العبث يزج بنفسه فى مغامرات الطفولة فكان أكثر تعرضاً للإصابة بكدمات أو جروح . فإذا التحق بدراسته لم يسر فى الدراسة سيراً سريعاً بل احتاج إلى من يحثه على الدراسة ويراقبه مراقبة شديدة كى يكب على دروسه . وقد رأينا أنه احتاج فى آخر الأمر إلى المعلم والدروس الخاصة .

وأخذ بعد أن شب يميل للألعاب العنيفة . فلعبة كرة القدم من أحب الألعاب إليه ، وكثيراً ما أصيب بضربات من أقدام زملائه . فهى إذ تقتطع وقتاً أكبر فى مراقبته والسهر عليه ،

تظهر له ميلا أكبر مما تظهره لإخوته .

أما الوالد الكهل فقد ذكرنا أنه كان كبير التعلق بابنته الوسطى بين الأطفال الثلاثة والابنة تشعر بهذا الحب فإذا ماحل الأب بالدار التجأت إليه حيث تقبع إلى جانبه فى مقعده كالهرة . وذكرنا كيف عرف الأخوان أنها المفضلة عند أبيهما ، وأنها لا يرد لها طلب . فكانا يتخذانها آلة يسخرانها لإجابة مطالبهما دون تردد . فإذا أراد انوعاً من الفاكهة أو الحلوى حرضاها على طلبها من الأب . فلا تلبث أغراضهما أن تتحقق .

وكانت الابنة خاضعة بنوع خاص لتأثير أخيها الأكبر ، وهى تنضم إليه دائماً فى الفكرة أو فى العبث بأخيهما الصغير .

وأما كمال فهو بمعزل عن كل هذا يدخر سلطته للوقت المناسب حين تكون الجدة مقيمة لديهم . وفى غير ذلك يلجأ إلى الحكمة والمداهنة كى يحصل على أغراضه .

فلما مات الوالد زاد اهتمام الأم بابنها الكبير ، فهو مطمح آمالها . ولكن هذا الابن يتعثر فى دراسته على عكس إخوته ثم وجد مخرجاً من تلك الدروس التى لا يستسيغها كثيراً حين التحق بالمدرسة الحربية . فالدراسة فى تلك المدرسة تتفق وهواه ، وفى حياة الجندية كثير من تلك اللذة التى يجدها فى الألعاب الخشنة . أما الدراسات النظرية فى المدرسة فهى قليلة ولا يعلق عليها أولو الأمر أهمية كبيرة .

كانت الأم تنتظر بفارغ الصبر إتمام دراسته ولكنه لم يكد يلتحق بهذه الدراسة حتى أخذت تشعر بهذا القلق الذى انتابها على المال الذى تركه زوجها . ولعل لقلقها هذا سبباً آخر . فهى إذ شعرت بهذا الخوف أرادت أن تصارح ابنها الأكبر ولكنها لم تجد منه ذلك الاهتمام الذى تنتظره . ثم بدا فى حياته عنصر جديد ذلك أنه يقضى الأسبوع فى المدرسة فلا يأتى اليوم الأخير من الأسبوع حتى يسمح له بالذهاب إلى داره مدة ليلة ويوم . يأتى إلى الدار فى الظهر فى يوم الخميس فيتناول الغداء الممتاز الذى يعد له . فإذا أقبل العصر عادة وفى المساء فى بعض الأحيان طلب من أمه أكبر مبلغ من المال ، ثم خرج إلى السهر مع أقرانه وأصدقائه . فهو إذن عنصر من عناصر القلق على المال وحاجته المتزايدة إليه مما يزيد قلق الأم . وهى تشعر فى أعماق نفسها أن مسلك ابنها غير قويم . وتشم فى صباح يوم الجمعة أحياناً عبير الخمر فى أنفاسه مما يدل على أنه أمضى ليلة صاخبة ولكنها فى الحقيقة لم تحاول مناقشته فى هذا الأمر بل أخذت تسدى إليه النصيحة فى إشارات لو أراد النصح لانتصح بها .

وهو من جهته لم يحاول قط أن ينتصح فإن زملاءه جميعاً أو أكثرهم فى المدرسة ينحون هذا النحو ، ويرون فيه نوعاً من

الرجولة التى تليق بمن سوف يخاطر بحياته فى سبيل وطنه . وإن لم تكن هنالك أقل فرصة للمخاطرة إلا فى عالم الفتيات .

فهذا الابن الذى تتعلق به أكثر من ولديها الآخرين هو إذن مصدر من مصادر قلقها . فهى تخشى أن ينفد المال سريعاً قبل أن يتم دراسته بالمدرسة وحينئذ من يعينهم؟ إنها تستطيع أن تلجأ طبعاً إلى أمها ولكنها لا تريد مثل هذا الموقف . فهى قد استقلت بحياتها مع هذا الرجل الذى حباها السنين الطوال بعطفه وفهمت لذة الاستمتاع بهذا الاستقلال فكيف تعود إلى الاعتماد على أسرتها ؟ ومع ذلك كانت موارد أموال الجدة قد نقصت نقصاً كبيراً بحيث أنها لا تعيش فى رخاء نسبى إلا بسبب تناقص أولئك الذين يعتمدون عليها ، فهذا الملجأ إذن هو آخر ما تفكر فيه .

حتى تلك اللحظة لم يكن الخوف من انتهاء المال الذى تركه زوجها بارزاً فى صورة واضحة . وكل ما أثار فى نفسها الشكوك هو تراخى قريبها فى العمل على شراء ممتلكات لاستثمارها بهذا المبلغ ، وبذلك يحتفظ بالأصل . وكلما حادثته فى ذلك تعلل وهدأ من خاطرها بالوعد بأن يفعل . وأخبرها بأنها لن تحتاج إلى مال مهما كان الأمر وما دام فى قيد الحياة . ولكنه لم يفهم قط طباعها ولم يفهم أنه لو قدر لهذا المال أن ينفد فلن تقبل

من هذا القريب شيئاً . وهل ينتظر منها وهى التى عرفت ذلك الرخاء الذى وجدته فى كنف زوجها الفقيد أن تمد يدها إلى قريب أو غريب ؟ إن ذلك موقف لا تتصوره وهى تفضل الموت عليه .

فى هذه الفترة لم تكن بحاجة إلى شىء من هذا . وكل ما ترغب فيه من الحماية شىء من العطف يقطع وحدتها ، ولو أن والدتها لم تكن فى سفر بعيد لوجدت هذا العطف . أما وهى وحيدة وأخواتها يسكن بالإسكندرية فقد شعرت بهذه الوحدة المريرة . وكانت تجد عزاء لو أن ابنها الأكبر أظهر أقل اهتمام بما يساورها من قلق . وقد حاولت أن تبعثه على الاهتمام فلم تجد إلا عدم مبالاة . ولعل سنه أصغر من أن يقدر هذا الأمر بالرغم من ثيابه العسكرية . ولكن الحقيقة أن المسألة لم تكن متعلقة بالسن بل متعلقة أكثر من ذلك بتحول أخلاقه بحيث توافق أخلاق الذين يعاشرهم . فهو الآن لا يلتمس فى أوقات فراغه إلا اللذة والاتصال بالفتيات والظهور بمظهر الغنى وسط أقرانه ، وهذا هو السبب فى حاجته الدائمة إلى المال .

ومع ذلك وجدت الأم شخصاً يستمع لشكايتها وما يساورها من قلق ويبدو لها أنه يشاطرها أفكارها ويحمل معها عبء هذه الوساوس ، وهو الأستاذ وفيق الذى يتردد على دارها فى كل

يوم خميس تقريباً فيتناول الغداء مع تلميذه القديم . فإذا آوى التلميذ إلى الفراش بعد الغداء استعداداً لسهرة الليل يجلس الأستاذ وفيق إلى أمينة هانم يتحدث معها فى شأن الدار ويبادلها الأفكار والآراء فتجد عزاء .

فإذا قام تلميذه القديم واستعد للنزول إلى أصدقائه يرافقه الأستاذ وفيق فى أغلب الأحيان ؛ وترتاح الأم إلى هذه المرافقة لأنها واثقة من أن الأستاذ وفيق سوف يسهر على ولدها ويرعاه كما لو أنها حاضرة .

فإذا تبين لها فى اليوم التالى أن ابنها قضى سهرة صاخبة لم تشرك الأستاذ وفيق فى ذلك الأمر . فلأمر ما تشعر أن الأستاذ وفيق تركه مع صحابه ، أو أن ابنها عرف كيف يتخلص منه ، أو على الأقل أن ابنها كان يمضى ليلة أكثر صخباً ، وأن حالته تكون فى اليوم التالى أسوأ منها ، لو أنه على انفراد مع زملائه بغير صحبة الأستاذ وفيق .

فقد اتخذ الأستاذ وفيق فى نظرها مكاناً خاصاً فهى لا تستطيع أن تفهم أنه يعاقر الخمر كابنها ، أو على الأقل يكثر من شربها ، ولا تستطيع أن تتصور ألا أنه عامل خير فى وسط هؤلاء الرفاق الذين يألفهم ابنها وتراه فى موقف المعلم مع هؤلاء الفتية الطائشين .

وكانت أحياناً تحاول أن تعرف من ابنها أنباء عن طريقة تمضيته السهرة فيجيبها الابن إجابة غامضة . وإذا مست أمر الأستاذ وفيق وما فعله فى صحبته ، تهرب من ذكر أى شىء . ولا شك فى أن التفاهم كان وثيقاً بين الابن الأكبر والأستاذ وفيق . ولعل وفيقاً من أخف الناس صحبة وأشدهم مرحاً . حين تلعب فى رأسه الخمر . ويصير هو محور الجماعة فى التماس أسباب السرور . وقد ينقلب شيطاناً مريداً ، ولكنه ظل فى نظر الأم ذلك الملاك الطاهر .

٦
تطور حياة

أخذت حياة كمال فى هذه الفترة تسير على أسلوب غير الذى ألفه من قبل . فلم يكن الأخوة يجتمعون للعب كما كانوا يفعلون . وقد شب الأخ الأكبر ومرّ بدور الطفولة سريعاً لأنه يكبر أخويه كثيراً . فصار الأخوان ينظران إليه نظرتهما إلى والد . ولكنه لم يكن جديراً بمركز الوالد لأنه لا يهتم بأمرهما كما يفعل الآباء عادة ، بل انصرف كل الانصراف إلى مدرسته الجديدة ، وإلى رفاقه فيها وإلى نزهاته فى أيام العطلة .

أما كمال فأقبل بكليته على دروسه فى المدرسة وأظهر اجتهاداً ونشاطاً . وكان دائم القراءة والاطلاع فى الكتب التى تخرج عن نطاق درسه بقدر ما تسمح له ظروفه . وانصرفت أخته أيضاً إلى دروسها إذ التحقت بمدرسة ابتدائية أميرية للبنات . وأخذت تتلقى علومها كما تتلقى دروساً فى العزف على البيانو وفى الحياكة والتطريز . وقد اشترى أبوها من قبل بيانو انتظاراً للفترة التى يبدأ فيها تعليم الفتاة الموسيقى . وظل هذا البيانو جزءاً من الأثاث لأن الأم درجت فى دار لا تعرف هذه الآلة

الأوربية ولا تعزف عليها . والآن إذ أخذت الابنة فى دروسها
كان صوت هذه الآلة يملأ الدار أحياناً بقطع موسيقية صغيرة
جميلة ، وأكثر الأحيان بتمارين متكررة يمل السامع من تكرارها ،
وتثير بعد أن تستمر ساعة أو أكثر أعصاب السامعين إذا كانوا
من الكبار . أما كمال فلم يتضايق لهذه التمارين بل يجد من
الواجب تشجيعها . وود لو استطاع أن يشارك أخته هذه التمارين
ولكنه وجد نفسه مثقلا بدروسه وقراءاته فأرجأ تعلم هذه الآلة
العازفة . ولعل طبيعته تميل إلى الأمور النظرية أكثر من العملية ،
وأخذت تظهر فيه علائم تدل على هذه الطبيعة . فهو منذ
صغره لم يتقن الألعاب كثيراً . وعند ما شب تنازل عن هذه
الألعاب فى الحال ، واتجه بنفسه ومن غير حث إلى القراءة ،
وصار يتذوق الكتب ويجد فيها لذته . وهذا على غير ما فطر
عليه أخوه الأكبر .

فقد رأى الأخ الأكبر أخته تعزف بعض الألحان فأخذ
يجرب عزفها . ولم يلبث أن أحسن عزف هذه المقطوعات بمجرد
السماع . وكان أحياناً يسمع رقصات فيعزفها على البيانو بعد
قليل من التمرين ، أو على الأقل يعزف اللحن دون أن يشوهه
كثيراً ، ومع ذلك لا يبدو بمظهر الجد فى حديثه بل يظهر فى
تصرفاته شىء من الخفة والطيش .

لم يكن الأخ الأكبر إذن مجرداً من الشعور بالموسيقى ، ولكنه لا يألف غير الموسيقى المرحة الراقصة من القطع الأوربية ، وأحياناً يدعو أخته إلى عزف قطع شرقية ، وكثيراً ما يصاحب العزف بالغناء إذ كان صوته غير قبيح .

وحدث حينذاك أن أتاح الأخ الأكبر لأخويه فرصة عجيبة : إذ تعرف بشقيق لأحد زملائه تلقى دروسه فى سويسرا وأقام بها سنوات طويلة . ويظهر أنه لم ينصرف إلى الدرس بقدر انصرافه إلى غير ما تنتظره أسرته . فتعلم العزف على الكمنجة وأتقنه إتقاناً كبيراً ، وعلق الآمال على أن يصبح موسيقياً كبيراً وعاد إلى مصر فإذا بآماله تنهار . فإن أهله لم يقبلوا أن يحترف ابنهم الموسيقى ويصير عازفاً ، وليس من المستطاع أن يجد مدخلا إلى سوق العازفين ، وهو عندئذ وقف على الأجانب من الإيطاليين بصفة خاصة ، فلا يستطيع العمل بإحدى الفرق الموسيقية ، ولا يجد عملا منتظماً بل تضمه بين فترة وأخرى إحدى الفرق إذا ما احتاجت إلى زيادة عددها أو إكمال نقص بها . وهذا العمل المتقطع لا يمكن الاعتماد عليه . وظل يعتمد فى نفقاته على أسرته وهذه حال لا يمكن أن تستمر .

دعا الأخ الأكبر هذا الشاب وصديق له إلى تناول الشاى فى عصر يوم من أيام الجمعة فجاء الشاب ومعه كمنجته فإذا

تناول الجميع الشاى أخرج تلك الآلة العازفة وبدأ يشد أوتارها لكى يوازنها . ثم أخذ يجرب عزف ألحان عليها . ثم بدأ قطعة موسيقية هى الرقصة المجرية الخامسة لبراهمز ، وهى قطعة مليئة بالحرارة شأن الموسيقى المجرية .

وأخذ كمال يصغى مشدوهاً إلى تلك النغمات السريعة التى تناثرت من لمس القوس للوتر . وكانت رنة الأنغام التى تخرج متجمعة من لمس القوس لوترين أو ثلاثة فى وقت واحد غريبة عليه ، وقد ملأت جو الغرفة بل الدار بالنغمات . وخيل إليه أن قلبه يتجاوب مع هذه الموسيقى السريعة الحارة . ولاحظ عن يقين أن بعض الأشياء الجامدة الموضوعة فوق البيانو من أوانى وزهريات تتجاوب مع العازف . بل قام فى ذهنه أن أنات تخرج فى بعض الأحيان من جوف البيانو ، وكأنها تتآلف مع روح النغمات الخارجة من الكمنجة ، لتصعد النغمات معاً فى الفضاء .

وعزف الشاب قطعة ثم قطعة . ومرت ساعات وكمال قابع فى ركن الغرفة لا يتحرك ، وترك لأخويه العناية بالضيف . فإذا انتهى العزف طلب فى لطف إلى الشاب العازف أن يريه الكمنجة فأخذ الشاب يشرح له الأوتار ويريه جوانبها وتجويفها . وتناولها كمال فى يده برفق وخفة كأنه تناول جواهر تاج ملكى .

وعندما هم العازف بالانصراف أعرب كمال عن عظيم سروره فى حياء وفى عبارة مقتضبة . ودعا العازف إلى التردد على الدار مع أخيه . ومن الطبيعى أن العازف أجابه بالشكر . ولم يدر فى خلده أن كمال قصر فى عبارته المقتضبة عن الإعراب عما يجيش فى صدره . ومن الطبيعى أنه لم يهتم كثيراً برغبة هذا الغلام الصغير .

أما الغلام نفسه فقد استولى عليه حلم جديد فهو لم يجد حتى ذلك اليوم فى قراءاته تأثيراً كالذى وجده فى الإصغاء إلى هذه الألحان وكان لهذه الآلة العازفة صدى فى نفسه لم يعرفه فى ذلك البيانو الكبير الذى يملأ ركن غرفة الاستقبال فى دارهم . وربما كان التأثير نتيجة للألحان التى عزفت ، وكمال فى ذلك الوقت لا يميز بين نوع الألحان . ولكن العازف لم يعزف غير قطع تعد فى المقام الأول من الموسيقى الأوربية .

وهكذا نشأ فى كمال ذوق آخر فنى إلى جانب ذوقه الأدبى . وتركت هذه الزيارة فى نفسه أثراً عميقاً . ولكن هذا الأثر لم ينتج نتيجة إيجابية فى ذلك الوقت . فلم يتجه فكره إلى تعلم الموسيقى بل كانت ألحان القطع التى سمعها تتجاوب فى نفسه أحياناً . وكأنها تعزف داخل نفسه على أوتار ممتدة بين دمائه . ولكن من الغريب أنه إذا أراد أن يعبر عنها بصوته لم يكن يوفق . فهى

ترن فى نفسه رنيناً ، وقد اتخذت غوراً بعيداً فى تلك النفس ، بحيث لم تعد تقبل التعبير عنها بالصوت الإنسانى . وخيل إليه كلما مضى الوقت ، وظلت هذه الألحان ترن أحياناً فى نفسه ، إنها انقلبت ضوءاً داخلياً بدلا من أن تظل ألحاناً صوتية .

وتردد العازف على دارهم مرة ومرة ، وفى كل من هاتين المرتين يبلغ كمال أقصى السعادة بعد أن يظل صامتاً يستمع إلى هذه الألحان العجيبة من مقطوعات كبار الموسيقيين . ثم انقطع العازف عن المجىء إلى الدار ولعله سار فى تيار فنه ، تاركاً الأخ الأكبر الذى لم يكن فى الحقيقة محباً لهذا النوع من الألحان بذاته ، وليس فى نفسه من العمق ما يستطيع به تقدير هذه الموسيقى . وإنما هو قد تعلق بالعازف وقتاً قصيراً كما يتعلق الناس عادة بالشىء الجديد ، ثم تركه وسار فى الحياة الصاخبة التى يحبها . وهى حياة تعيش على أطراف الفن ولكنها تفر من الفن الحقيقى .

وكان كمال فى قراءاته قد اتجه نحو الأدب الأوربى وبدأ يتفهمه . ويجد إحياناً اشارات للموسيقى الغربية ، فصار لهذه الإشارات من تلك الأيام معنى آخر غير الذى وجده من قبل . فهى دائماً ترتبط فى نفسه بالأثر الذى تركته تلك الموسيقى التى سمعها من كمنجة العازف ، وثبتت فيه حتى صارت جزءاً

من الخلايا التى يتألف منها جسده . وصار إذا عثر على عبارة تشير إلى الموسيقى يحاول أن يتفهمها بالبحث عن معنى ألفاظها ، ولعله يبالغ فى معنى هذه العبارات ، ويتصور صورة لم يكن الكاتب ليقصدها .

هكذا نرى حياة كمال فى هذه الفترة : حياة بحث واستقراء واستفادة ودرس . ومما زاده فى هذا الاتجاه وصرفه إليه ، أن أخذ يخيم على الدار ذلك القلق الذى استولى على والدته وجعلها أكثر صمتاً مما هى عادة ، وزادها وجوماً . وتألم كمال لما انتابها ولكنه لم يجرؤ على سؤالها عن السبب ، وهو يعلم تمام العلم بأنها سوف تعتبر مثل هذا السؤال منه نوعاً من التطفل . فليس يعقل لمن هو فى سنه أن يتدخل فى شئون الدار وشئون والدته . ولقد ذهب ذلك العهد الذى استطاع فيه كمال أن يقترح على والده الالتحاق بالأزهر فضحك منه . فهو الآن صبى كبير ويجب أن يقدر ما يقال وما لا يقال . وفى الوقت ذاته لا يقام لرأيه وزن فلا يستشار فى أمر من الأمور .

والواقع أنها لو أرادت أن تشركه فى دخائل نفسها لما استطاع أن يفهم المشكلة . فهو أصغر سناً من أن يفهم . وكل ما هنالك أنه شعر بمجرد إحساساته أن والدته كثيرة التفكير فى أمر يهمها . فصار يتألم من أجلها وشعر بأنه قد يكون لهذا

الأمر دخل بالنفقات . فتجنب إرهاق والدته بطلب المال وصار لا يطلب شيئاً منه إلا إذا أعطى له .

ولقد سرّ حين رأى والدته تجد فى الأستاذ وفيق المعلم السابق لابنها الأكبر شخصاً تستطيع أن تعتمد عليه وصار يرتاح لزياراته سواء فى يوم الخميس أو غيره من الأيام .

ومما زاد فى الاطمئنان إليه ما وجده لدى أخيه الأكبر من سرور لرؤية الأستاذ وفيق ، ومصاحبة له فى سهراته .

وزاده رضى أنه وجد والدته مغتبطة بهذه الصحبة مطمئنة لها ، لأنها تطمئن إلى وفيق ، وتلمس به فيه من الرزانة ما لا تجده فى ابنها الأكبر

وعلى ذلك صار كمال يرتقب هذه الزيارات كما ترقبها والدته ، ويساعدها أحياناً فى ترتيب المائدة إذا ما ألحت على الأستاذ وفيق فى تناول طعامه فى الدار ، ويتخذ حيئذ كمال مجلسه إلى جانب الأستاذ وفيق وهو يفيض بشراً ، كما تجلس أخته إلى الجانب الآخر ، وتجلس الأم فى مواجهة وفيق ويتناول الأربعة طعاماً شهياً . ويأكل كمال أكثر مما يأكل عادة حين تكون المائدة قاصرة على أخته ووالدته . فإن تلك الصحبة تزيد فى شهيته ولعلها تزيد فى شهيتهم جميعاً . وكان الأستاذ وفيق أكولا بالنسبة للأسرة . فهم جميعاً قليلو الأكل بالرغم من أن الوالدة فى تلك

الفترة أخذت تميل إلى البدانة شيئاً ما .

أما أكلتهم الفاخرة فهى عادة وجبة الغداء بعد ظهر يوم الجمعة وهى التى يشاركهم فيها أخوهم الأكبر .

وهكذا مرّت الشهور حتى صار هذا النظام فى الأيام مألوفاً، وصار من الطبيعى أن يشارك الأستاذ وفيق الأسرة فى طعامها ؛ فإذا لم يفعل فهو الأمر غير المألوف ويدور الحديث فى أثناء الطعام ليناً سهلا بين الأم والابن الأكبر والمعلم . فالابن الأكبر بالرغم من أنه شب حتى كاد يبلغ مبلغ الرجال لا يزال محتفظاً بميله نحو المعاكسة شأنه فى طفولته. ولكنها اتخذت الآن مظهر المداعبة . فهو لا يمل الفكاهة ولا يترك فرصة للمزاح حتى مع والدته أحياناً . فتضحك أمينة هانم منه وتلومه على المداعبات إذا أثقل بها بعض الشىء على أحد المشاركين فى الأكل. والأستاذ وفيق يضحك من هذه المداعبات فى غير كلفة ويشارك تلميذه السابق فيها . ولكن طريقه الأستاذ وفيق المفضلة لديه هى رواية القصص الفكهة . فهو يحسن روايتها فيجد من سامعيه آذاناً صاغية تضحك لكل فكاهة ونكتة . وهكذا كانت تلك الأوقات سعيدة لدى كمال وإن لم يشترك فى الفكاهة . فإن كمالا بطبيعته قليل الكلام ولكنه ليس مع ذلك عبوساً بل يضحك سريعاً لأية نادرة تبعث على الضحك . وإذا حالت قلة كلامه بينه وبين

أن يكون عضواً مشتركاً فى الحديث فإن رغبته فى الإصغاء وما يبدو على وجهه من البشر وما يبدو على ثغره من ابتسامة تكاد تكون دائمة فتظهر من ثنايا شفتيه وفمه العريض أسنان صغيرة بيضاء وما يبدو فى عينيه من حب للفكاهة وإقبال عليها كل ذلك يجعله شريكاً محبوباً فى مثل هذه الاجتماعات .

هكذا سارت حياة كمال فى هذه الفترة فهو يحلم بقراءاته ويعيش بخياله فيما سمعه من موسيقى عجيبة ويحيا بين هذه الأسرة التى تتألف الآن من خمسة بينهم المعلم والتى تجتمع أكثر من مرة فى الأسبوع على مائدة الطعام وقد يجتمع شملها أكثر من مرة ويقوم بينها ما يدل على وفاق . غير أن هنالك فترات يستولى فيها الهم والكدر على الأم وتكون مقطبة الجبين مربدة الوجه منطوية على نفسها وحينئذ تعلو حياة الصغير غمامة من القلق . ولكنه أخذ يلاحظ فى مبدأ الأمر أن هذا الضيق الذى ينتاب الوالدة ينفرج إذا ما اقترب يوم الخميس وهو اليوم الذى ينتظر فيه حضور الابن الأكبر من المدرسة ومبيته بالدار ، وينفرج أحياناً على أثر زيارة فى وسط الأسبوع من الأستاذ وفيق وتحدثه طويلا إلى الوالدة فكأنها تجد بعد هذا الحديث شيئاً من الراحة والرضا أو التسليم إلى الحياة .

ولكنه بدأ يلاحظ أن هذا الضيق ينفرج أحياناً قبل مجىء

الأستاذ وفيق إذا كان مجيئه مرتقباً أو بمجرد وصوله إذا لم يكن هذا المجيء مرتقباً . ولأمر ما أخذ كمال يشعر بعدم ارتياح إلى هذا الاختلاف فى مسلك الأم . وهو لم يستطع تعليل عدم الارتياح الذى عراه . وكان يستطيع أن يفهم أن ارتقاب مجيء أخيه الأكبر يزيل ما جثم على عقل الأم من هموم . ويفهم أن أحاديث الأستاذ وفيق وطرق إقناعه تؤثر فى الأم فتبدد ما بنفسها من غيوم . ولكنه لم يفهم لماذا تبدد غيوم الأم لمجرد حضور الأستاذ وفيق .

وبقدر ما شعر بأن مجرد قدوم الأستاذ وفيق يلقى ترحاباً من الأم ، شعر بانقباض فى نفسه عندما زاد هذا الترحاب . وتحول إلى ارتقاب من الأم لحضوره فتزيد نفسه انقباضاً عند حضوره إلى الدار .

وتغيرت أطوار كمال . وكان أحياناً يراجع نفسه ويلومها ويحاول أن يعرف كنه هذا الانقباض . فلم يجد له سبباً معقولا . ويحاول أن يلتمس فى مسلك والدته أو فى مسلك الأستاذ وفيق ما يبرر هذا التحول فى نفسه فلم يجد لنفسه عذراً .

وأخذ فى مبدأ الأمر وبعد أن أعياه التماس الأسباب أن يجد لنفسه مخرجاً أو أن يعود إلى حالته الأولى فلم يصل إلى هذا أو ذاك . وكل ما أمكنه أن يقنع به نفسه أن حالته الطارئة لم

يلحظها أحد فلم تشعر بها الأم ولم يشعر بها الأستاذ وفيق . وهذه هي غاية ما وصل إليه من أمل . فإنه يتضايق جداً لو شعر أحد منهما بما تنطوى عليه نفسه . فهو يسير فى شعوره هذا على غير سبب ملموس . وهذا ما دعاه إلى الاعتقاد بأن به مرضاً خفياً . ولعل هنالك شخصاً واحداً شعر شيئاً ما بما تنطوى عليه نفسه . وهذا الشخص هو الفتاة الصغيرة التى كانت تشاركه اللعب وهو طفل وتنضم إلى أخيه الأكبر والأقوى فى عبث الإخوة ، وهى تكبره بسنة واحدة. لعلها شعرت بشىء ما مما تنطوى عليه نفسه . فهى أحياناً تفاجئه فى وحدته وهو فى تفكير عميق فتضمه إلى صدرها وتقبله قبلة حنو وفهم .

٧

الجدة

مضى على كمال نحو السنة لم ير فيها جدته ثم بلغه أن الجدة عادت إلى دارها فى الإسكندرية . وأبلغته أمه حين وردت إليها الرسائل من والدتها بأنها جاءت ببعض الهدايا لهم وأنها كانت تهرع إلى القاهرة لو لم تشعر بشىء من التعب . ولكن كمال الآن وقد كبرت سنه لم يعد كبير الاهتمام بهدايا جدته كشأنه وهو طفل صغير . وهو يذكر أن جدته جاءت من رحلة لها فى بلاد الشام محملة له ولإخوته بنوع من القماش هو نسيج حريرى أبيض فيه خطوط ذهبية ، فصنع منها له ولأخيه قميص يلبسه بدل السترة تحت سرواله القصير وتمنطق بحزام أزرق اللون فبدا كما بدا أخوه فى حلة قشيبة إذ ربط لهما فوق هذا القميص الحريرى رباط للرقبة من الحرير الأزرق أيضاً مما جعل لبسهما لافتاً للأنظار بروائه وأناقته . أما الآن فهو لا يطمع فى مثل هذا القماش الحريرى لأنه لا يصلح إلا للأطفال . وإذا أتت الجدة بنوع يصلح أن يكون قميصاً تحت السترة فلا بد أن يكون بعيداً عن الزخرف وعن هذه الخطوط الذهبية .

وجاءت الجدة أيضاً من رحلة أخرى بنوع من الصحاف المصنوعة فى إستامبول ، وهى من الزجاج ذى اللون الأزرق والأصفر رسمت عليها نقوش بارزة فى أشكال هندسية جميلة . وهذه الصحاف جذبت نظر كمال كما جذبت أنظار الضيوف الذين لهم ذوق مترف . وهى لوضع الفاكهة المطبوخة وهى تصطبغ بلون شرابها إذا كان الشراب ذا لون أحمر قان .

أما الآن فهو لا ينتظر غير رؤية جدته ، ولا يهمه أن تذكر الهدايا أو أن تخبره أمه بأنها أشارت إلى الهدايا فى رسالتها ، والظاهر أن الرسائل كانت متبادلة بين أمه ووالدتها وهى رسائل طويلة يرى والدته وقد أخذت فى تلاوتها ثم عمدت بعد التلاوة إلى التفكير . ويتعجب كمال لذلك وقد أحس بأن ثمة أمراً هاماً تتراسل الأم والجدة فى شأنه . وكان كمال يجلس إلى جانب والدته حين تأتيها رسالة من الإسكندرية وهو ينظر إلى وجهها متطلعاً وهى تقرأ الرسالة باهتمام ثم يجدها تضع الرسالة إلى جانبها فيرقبها متطلعاً حين يراها وقد عمدت إلى الصمت والتفكير . .

لم ير كمال أمه وهى تكتب رسائلها رداً على رسائل والدتها . ولعلها تفعل ذلك فى ساعات انصرافه إلى المدرسة أو عندما تأوى إلى مخدعها . ولكن كثرة الرسائل التى ترد من الجدة ولم يكن من العادة فيما قبل أن ترد الرسائل من الإسكندرية أكثر

من مرة فى الشهر حمل كمال على الاعتقاد بأن حديثاً طويلا وحواراً يدور بينهما بالتراسل .

وأخيراً جاء يوم أخبرته فيه والدته أن الجدة سوف تأتى إلى القاهرة بعد يوم أو يومين . وكان سروره عظيما لرؤيتها فهو شديد الشوق إليها . ولكن سروره هذه المرة لم يكن خالصاً كشأنه فى المرات السابقة بل يشوبه شيء من الجد وشيء من التوقع لا يعلم سببه .

ولم تحضر الجدة فى اليوم التالى . ولكن فى اليوم الذى بعده عاد من المدرسة وهو يوم خميس فإذا به يجد جدته جالسة ترنو إليه . فألقى بنفسه فى أحضانها وسرّ فى تلك اللحظة سروراً عظيما خالصاً لا تشوبه شائبة . واحتضنته الجدة وظلت تقبله ويبادلها القبلات . وجلس إلى جانبها وهو لا يريد أن ينفصل عنها . وجرى بينه وبينها حديث عذب يدل على العاطفة العميقة التى يشعر بها نحو جدته وهى تشعر بمثلها وجلست والدته تراقبها وعلى وجهها شيء من الارتياح لم يبد عليه من زمن بعيد . وكان من الطبيعى أن تكون رؤية والدتها قد بعثت فيها شيئاً من الراحة ، ونامت هواجسها وهمومها لوقت قصير . وعادت الجدة تستأنف حديثها مع ابنتها وهى تحيط خصر كمال بذراعيها وهو جالس إلى جانبها . وفى تلك الفترة استطاع وهو ساكت يصغى أن

يتفرس فى جدته فبدا له أن الجدة شاخت كثيراً . وبدا عليها شيء من الهزال . والجدة لا تستعمل شيئاً من المساحيق أو الأصباغ مطلقاً وبشرتها الناعمة تبدو صافية كبشرة الطفل الصغير . وهى فى هذه المرة لا تزال صافية . ولكن تلك الحمرة البسيطة التى تبدو من خلال جلدها كما يبدو الشراب الأحمر ، إذا وضع فى كوبة من زجاج مطفأ ، قد اعتراها الكثير من التغيير . فصار لون جلدها كالشمع الرائق المائل قليلا إلى الاصفرار . وأثر الهزال عليها فتجعدت أساريرها . وذلك لم ينقص من وسامتها بل زادها وقاراً . وبدت خيوط كثيرة من الشعر الأبيض خلال رأسها أما عيناهاالرماديتان فلم يزل فيهما تلك النظرة الأخاذة التى يحبها فى عينى جدته ، وهى تنبيء عن صفاء نفسها ومعين الحب التى تختزنه لمن يلوذ بها .

ودار الحديث فى هذه الجلسة طبيعياً مرسلا ، تصف فيه الجدة أبناء الأصدقاء فى الأسر المتصلة بها فى الإسكندرية ، وتتساءل عن أحوال دراسة الغلام وأخته ، وتتساءل عن الوقت الذى سترى فيه الأخ الكبير . وتنتقل فى ذلك الحديث الذى لا يشبع منه وهو جالس إلى جانب جدته .

وظهر أن الجدة جاءت بهدايا عديدة بعضها لوالدته وأخته ، وهى أنواع من الأقمشة المطرزة البديعة . أما هو فنصيبه أنواع

فاخرة من الشكولاتة المحشوة بعجينة اللوز والفستق ، ونوع من الجوز مثلث يحبه كثيراً ، وكمية كبيرة من الفواكه المسكرة .

وأشاع وجود الجدة السرور فى جوانب الدار وكان يوم الجمعة التالى يوماً سعيداً ، جاء فيه الأخ الأكبر من مدرسته ولاحظ كمال أن الأستاذ وفيق لم يظهر فى البيت ، ولم يحضر فى الغداء الذى صار أشبه بمأدبة : لا بكمية الأكل وإنما بأناقته وبالحديث العذب الذى يدور حوله .

وهكذا مضت أسابيع والجدة مقيمة معهم والحياة فى الدار تغيرت كثيراً عما سادها فى السنوات الأخيرة من وجوم ولكن لاحظ كمال أن الجدة أحياناً تصاب بذلك المرض الذى انتشر فى الدار أخيراً . فإنه باغتها وهى مفكرة . ولكنها لم تكد تراه حتى انبسطت أساريرها ، وأظهرت له حبها وحنوها . فهدأت نفسه وخلد إلى هذا الحب ينعم به وبشيع فى نفسه الرضا مكتفياً بيومه عن غد .

وبعد هذه الأسابيع فوجىء بأمر آخر . إذ عاد ذات يوم من المدرسة فوجد خالته المقيمة مع والدتها فى الإسكندرية قد حضرت إلى القاهرة . واجتمع شمل الأسرة فى الدار ، وخيل إليه أن الهدوء والارتياح قد سادها ، ولكن غمامة كانت تظل القلوب . وبين ما يبدو فى أحاديث الأسرة من الاسترسال

الطبيعى البعيد عن التكلف ، كانت الحياة وربما العيون تنم عن شىء يشغل النفوس .

وعلم كمال بعد قليل أن الجدة قدمت إلى القاهرة لتقيم فيها . وليس ذلك بالأمر الغريب عليه . فكثيراً ما تقيم الجدة الشهر والشهرين . ولكنها فى هذه المرة اعتزمت أن تتخذ منزلا خاصاً لها ، وأعلنت أنها ستقيم خمسة أشهر إلى أن يحل الصيف ، فيذهب مع جدته للإقامة فى دار الإسكندرية . وهى تسعى لأن تكون الدار التى تستأجرها قريبة من المدرسة التى يذهب إليها حتى لا يتكلف مشقة الذهاب إلى دراسته اليومية . وهذا النظام غريب ، ولو أنه لم يجد فيه غرابة . فقد تعود أن يكون إلى جانب جدته ما دامت مقيمة فى القاهرة . وهو الآن على أنه شب وكبر قد ترك كل علاقاته بأصدقائه وزملائه ، وترك كل وسائل التسلية لكى يبقى إلى جانبها . فلم يكن غريباً عليه إذن أن تختار الدار بحيث يكون مقيما فيها مع جدته . وقد ظن فى بادىء الأمر أن والدته ربما تنتقل مع جدته إلى دار واحدة . ولكن لم تلبث هذه الفكرة أن تبددت أولا لأنه لم يجد فى كلام الجدة والأم ما يشعر بأن والدته سوف تنتقل إلى الدار الجديدة ، وثانياً لأنه إذ ردد الفكرة فى هذا الأمر وجد أن هذا الانتقال صعب لا سيما بعد أن اختارت الجدة مسكناً صغيراً وإن كان

مريحاً ، فى إحدى العمارات فى حى عابدين القريب من مدرسته وهو لا يمكن أن يتسع لأثاث دارهم .

وجاء اليوم الذى انتقلت فيه الجدة إلى المسكن الجديد بعد أن ابتاعت أثاثاً بسيطاً، ونظمته بحيث خصصت له غرفة مستقلة فيها سرير ومكتبة ونقلت كتبه . أما خالته وأخته فاعتزمتا الانتقال إلى الإسكندرية لتقيما مع الجارية والطاهية . وربما تأتيان وقتاً بعد وقت ولكنهما تتخذان الإسكندرية مقاماً إلى الصيف .

وفى يوم الجمعة كان كمال يزور والدته وتتردد الوالدة على الجدة فى أثناء الأسبوع . وعند ما زار والدته فى أول أسبوع وجد أخاه وقد جاء من مدرسته . ووجد الأستاذ وفيق حيث تناولوا الغداء معاً . وبعد الظهر عاد إلى جدته واصطحب أخاه ليرى الجدة أيضاً .

لا يمل كمال الحياة مع جدته بل يرتاح إلى ذلك راحة كبيرة وهى تتلمس كل رغائبه قبل أن ينطق بها فى غير حاجة لأن يقول شيئاً ، وترعاه رعاية كبيرة دون صخب ؛ فالهدوء يسيطر على الدار . وقد اعتاد أن يبقى طويلا فى المنزل بعكس ما كان يحدث فى الأيام التى عاش فيها مع والدته حين استولى عليها القلق .

ولاحظ أن والدته فى زياراتها لهما وفى زياراته لها ، قد ذهب عنها القلق كثيراً . ولكن حل محله نوع من عدم الرضا لعله أثر انشغال البال فى أمر هى قادمة عليه ولم توفق إلى أن تقنع نفسها بسلامة الخطوة التى تتخذها .

ولاحظ أيضاً أن الجدة تنظر أحياناً إلى ابنتها بعين ملؤها الأسى وإن لم تفه أمامه بكلمة يشعر منها بأى لوم لوالدته ؛ والغالب أنها لا تفعل فى غيبته ، وليس من طبع الجدة أن تسيطر ولا أن تتحكم فى أحد حتى بناتها . ربما كانت فى الشباب عنيفة مسيطرة، ولكن انقلب ذلك مع مرور الزمن حلاوة فى الخلق وهدوءاً .

وقد تبين له أنها مرتاحة إلى انتقالها للقاهرة وإلى أنها سكنت مع حبيبها كمال الصغير . ولعل الجدة التى لم ترزق ولداً ، بل كان أولادها من البنات ، حققت أمنية شبابها فى هذا الصبى الذى هو ابن بنتها . فهى تجد فيه عوضاً عما حرمته . وهى تحيطه بكل عناية وتتحدث إليه أحياناً كالمدلهة ، وتتحدث إليه ذاكرة ما تنتظر له من مستقبل فى الحياة ، وتبسط له الآمال التى ترجو أن تتحقق وهى إلى جانبه . ويتفتح لها ذهنه حين تتكلم عن هذه الآمال . وبدأ يخرج من تلك الأحلام الكئيبة التى تعود أن يفكر فيها فى وحدته مع والدته ، فإذا الحياة تبدو

له فى هذه الأيام بهيجة وردية اللون .

وكانت الجدة لكثرة أسفارها وانتقالاتها قد اكتسبت فى الحياة خبرة لا توجد لدى معاصراتها من السيدات المصريات . فى حديثها طلاوة لا يجدها الغلام إلا فى الكتب التى يكب على قراءتها فى تلك الأيام . ويجب أن يروى ما فيها لجدته لأن أكثر هذه الكتب باللغة الإنجليزية . وهى عبارة عن قصص مما أعد للأطفال . ففى ذلك الوقت أخذ يقرأ الترجمة الإنجليزية لقصص هانس أندرسن ، وفى ذلك الوقت أخذ يتلو قصص الأطفال للكاتب الأمريكى هاوثورن . وهى قصص تصف حياة أبطال الأساطير اليونانية . وكأن اختياره وابتداؤه فى تلاوة القصص موفقاً . فإن قصص الأساطير اليونانية هى مفتاح لكل أدب أوربى . ولا شك فى أن الفضل فى هذا الاختيار لأستاذه فى اللغة الإنجليزية . فهو الذى أعاره هذه الكتب وأعطاه قائمة ببضعة كتب ليشتريها . وبذلك تفتحت نفسه للقراءة فى تلك الأيام ورأى حافزاً اهتمام جدته عند ما يقص عليها إحدى القصص التى قرأها وكانت الجدة تجلس إلى جانبه طويلا هادئة ساكنة وهى تراه يقرأ فإذا قامت لأمر من أمور الدار قامت فى هدوء تحاول ألا تشغله عن قراءته . وكانت حياته إلى جانبها غنية حقاً بما يتوافر لجسمه من راحة ولذهنه من هدوء .

وابتدأ يشعر بشيء من الأسف إذا ما حل يوم الجمعة لأنه يضيع ذلك اليوم فى رأيه فيما لا يفيد ؛ وإن خفف من ذلك الأسف رؤيته لوالدته وأخيه الأكبر .

فهو بعد يحب والدته حباً كبيراً وإن خيل إليه أنه يحب جدته أكثر منها . وهو بعد يشتاق لرؤية أخيه الأكبر وإن باعدت الطريق التى اتخذها فى حياته بين تفكير الصبي والشاب . فالصبي بطبيعته نازع إلى أمور الذهن وحب التأمل . والأخ الأكبر ابتعد عن الكتب مع ميله القليل إليها من قبل وانغمس فى الحياة الاجتماعية . فهو لا يهتم إلا لأناقة ملابسه والتمتع باللهو فى أيام خروجه من المدرسة ويجد فى الأستاذ وفيق زميلا أكبر منه سناً .

وقد شعر الصبي أن الأستاذ وفيق ليس أقل ميلا إلى اللهو من أخيه وإن كان لا يظهر بمظهر المتهالك على اللهو بل إذا دعاه الأخ إلى النزهة معه يتمنع ويبدى صدوداً ولكن كمال أحس أنه إنما يفعل ذلك لرغبة فى نفسه ، هى أن يبدو طاهر الذيل أمام الوالدة وأحياناً يتخذ دور الواعظ . ومع ذلك فإن هذا الواعظ لا يقل انتهاكاً لما يعظ به عن أخيه ، الذى يتلقى هذا الوعظ بابتسامة ساخرة تدل على أنه يعلم من أمر الأستاذ وفيق أكثر مما يجب ، وما يعلمه يزيده تعلقاً به ورغبة فى مصاحبته .

كانت الوالدة أحياناً هى التى تنصح الأستاذ وفيق باصطحاب غلامها لعله يخفف من غلوائه وحينئذ ينطلق الاثنان فى صحبة ، يشعر كمال بمقدار ما فيها من ألفة .

وهذا الشعور لا يزيد من قدر الأستاذ وفيق فى عينيه بل ينقص من قدره وأخذ يحس باشمئزاز نحوه . ولعله بالغ فى هذا الإحساس لأنه فى الواقع أخذ يعزو نقائص أخيه إلى الأستاذ وفيق ، ويظن أنه لا بوعد بين أخيه وبين الأستاذ وفيق لانقلب أخوه ملاكاً طاهراً .

لم تكن هذه الفكرة صائبة . ولكنه بالرغم من أنه الآن صبى فارق الطفولة فإنه لم يزل طفلا فى علمه بالحياة . ولم تزل الحياة لديه سراً غامضاً . ولو أنه نشأ فى أسرة غير تلك الأسرة التى يتمتع فيها برغد العيش ، أو هى على الأقل تحاول إلا يشعر أبناؤها بمتاعب الحياة إذا حل بها الضيق ، لعلم من الحياة أكثر مما علم وخبر منها أكثر مما خبر . ولكن هذه الأسرة التى ترى أن ينصرف أبناؤها فى طفولتهم وصباهم إلى دراساتهم ، لم تكن لتمده بهذه الخبرة فى الحياة .

غير أن الحياة لا يمكن أن تتركه هكذا جاهلا . فإذا كانت الأسرة لا تريد أن تقحمه فى غمارها ، فالحياة نفسها تقتحم عليه هدوءه وسكونه .

فنى ذات يوم جمعة ، وكانت أخته قد عادت منذ أربعة أيام من الإسكندرية لزيارة جدتها وزيارته مصحوبة بالخالة ، دعا أخته إلى أن يصطحبها فى تلك الجمعة لزيارة والدتهما ، ولكن الأخت التى لم تر الوالدة منذ سفرها إلى الإسكندرية تمنعت . واندهش كمال لهذا التمنع . وقصد جدته يستطلعها ، فإذا بجدته تشير عليه بأن يظل هذا اليوم مع أخته ، ولا يذهب لزيارة والدته فإنها مشغولة فى ذلك اليوم .

فزاد عجبه وإن لم يقل شيئاً ، وبقى فى دار جدته فى ذلك اليوم يتحدث إلى أخته ويداعبها ، وإن شعر بظلام يملأ نفسه .

وفى ذلك المساء علم تدريجياً من أخته أن والدته عقدت زواجها فى ذلك اليوم وأنها تزوجت من الأستاذ وفيق معلم أخيه...

٨

زواج

لعل كمال لم يشعر فى سنى حياته الاثنتى عشرة بمثل الألم الذى شعر به عند ما علم أن والدته تتزوج للمرة الثانية . إن هذه الفكرة بعيدة عن ذهنه فلم يكن ليتصور أن هذه الوالدة تستطيع أن تتخذ زوجاً بعد أبيه ، وهى مسألة عجيبة لديه ولغز لا يستطيع حله ولا وصفه . فهو يعتقد أن والدته مجموعة من الصفات الفاضلة الطاهرة . فإذا به يراها فى عينيه مثال الخديعة والخيانة . لم يفكر لحظة أن الخديعة لا تكون إلا حيث يكون هنالك مخدوع ، ولم يفكر لحظة أن الوالدة لم تخن أمانة أحد ، فزوجها الأول قد غيب فى القبر منذ نيف وسبع سنوات وصبرت طول هذا الوقت على مكاره الحياة ، وصبرت على الوحدة والقلق فكيف يمكن أن توصف بالخيانة ؟

ولكن « كمال » لم يفكر هذا التفكير فهى فى نظره ، خانت ذلك الرجل الذى كان فى نظره أيضاً ، مثال الفضيلة . لم يفكر لحظة فى أنه لا يعلم من أمر أبيه شيئاً . فقد غادر والده هذه الحياة وهو لا يزال طفلاً ، وكان الوالد فى السنوات

الأخيرة من حياته دائم التردد بين الصحة والمرض . فإذا أجهد كمال الذاكرة لم يجد من صورة هذا الوالد إلا شبحاً باهتاً وشيخاً ضعيفاً ولكنه مع ذلك لا ينسى القليل من الابتسامات التى شمله بها الشيخ ، ولا ينسى تلك الهدايا من الحلوى التى تملأ غرف الأطفال وينعمون بها . تلك أمور ماثلة فى عقله : أما غير تلك ، وأما قسمات وجه والده ، فهو لا يكاد يتذكرها . ومع ذلك سمع من جدته ثناء على هذا الوالد . فانطبعت الكلمات فى ذهنه وسمع من والدته ترحماً على هذا الماضى فانطبعت الكلمات فى ذهنه . ومن هذه العبارات والقصص المبعثرة تجمعت فى الذهن صورة ، ربما لم تكن الحقيقة . ولكنها لديه صورة جميلة محببة على كل حال . وصار يعتقد كل الاعتقاد أن الوالدة تكن لزوجها الأول احتراماً ، وصار ينتظر أن تكن له الوفاء أيضاً حتى فى مماته ، وحتى بعد تلك السنوات الطويلة ولكنه يرى الآن أن آماله فى والدته قد انهارت ، فهلا يعد ما ارتكبته خيانة ؟

ومع ذلك يمكن أن يقال إنها ارتكبت خيانة فى حق أولادها أيضاً : فهى قد أقحمت فى حياتهم رجلا غريباً . وهو لم يفكر لحظة فى أنه يعرف الأستاذ وفيق منذ زمن مديد ، فقد صار هذا السيد فى نظره منذ هذه اللحظة غريباً ، بل عدواً يستحق الكراهية.

انهار أمام عينيه ذلك التمثال الطاهر الذى يتمثل فيه صورة والدته ، فأى شىء حملها على هذا الزواج إن لم يكن شهوة مثل تلك الشهوة التى تميل بالناس إلى الدعارة ؟ أى نعم إلى الدعارة فليست هنالك كلمة أقرب إلى وصف مركزها من هذه الكلمة ، يقول الناس إن الزواج أمر مشروع ولكن كيف يكون مشروعاً والابن يقابله بهذا الألم العميق ، والجدة تقابله بهذا الوجوم .

لم يفكر لحظة أن والدته عاشت سبع سنوات ترعى أولادها وحيدة فى هذه الحياة . وأنها أخذت فى السنوات الأخيرة تشعر كغريق يرتفع مد الحياة من حوله فهو يعلم مصيره المحتوم . ولم يفكر لحظة فيما شمل حياتها من وحدة مريعة بحيث صارت لا تحتمل تلك الوحدة . فأولادها لم يكبروا بعد إلى الدرجة التى يستطيعون فيها المساعدة فى تدبير أمورها. فهو فى تفكيره لا يرى كل ذلك وإنما يرى أنها خائنة : خائنة لذكرى ذلك العزيز الراحل .

لم يعنَ له لحظة أن هذه السيدة قضى عليها أن تتزوج من رجل يكاد يكون فى عمر أبيها . وأنها لم تنعم بعشرة رجل فى سنها تستطيع أن تتفاهم معه . وأنها فى حياتها مع زوجها الأول تعامله معاملة الوالد وهو عطوف عليها كما يعطف الوالد على ابنته .

فهى لم تنظر إليه كزميل ولم تعرف الزمالة فى الزواج . وإنما تنظر إليه كرئيس يسيرها وفق إرادته وإن كان بها رئيفاً . وقد تتطلع إلى أن تجرب الزمالة فى الزواج : ولكن هل هى فعلت ؟ إنها بزواجها من الأستاذ وفيق قد عكست الآية . أجل إنها ليست فى سن والدته ولكنها تكبره بحيث يصح أن تكون له أختاً كبرى من تلك الأخوات اللاتى يسيطرن فى الدور على إخوتهن الصغار ، ويسهرن على تربيتهن إذا شاخت الأم وصارت عاجزة عن ذلك . فهى بهذا الزواج لم تجد الزميل ، وهى بهذا الزواج سببت ألماً لأطفالها ولكن هل فكرت هى فى ذلك ؟

لم يفكر كمال لحظة فى أمه وموقفها من هذا الزواج ، ولم يحاول أن ينظر إلى هذه المسألة نظرتها . فهى شأن كل مخلوق تبحث عن السعادة ولربما فكرت فى أن سعادتها تتحقق بالزواج من هذا الشاب الذى اختارته . ولعلها فكرت طويلا أنها عرفت الحنان ولم تعرف الحب . وكانت تخشى معارضة أولادها ولكنها لم تجد من الابن الكبير أية معارضة بل وجدت تأييداً وتشجيعاً . وهذا التشجيع مما يتفق مع رغبتها فلم تعمل حساباً لآراء ولديها الصغيرين بل من الطبيعى ألا تفكر فى استشارتهما فى هذا الأمر . أجل إنها وجدت ممانعة واعتراضاً من والدتها ومن أختيها ، ولكن العاطفة تغلبت على العقل . وهى

بطبيعتها الكتومة ليست سهلة القياد كما يبدو لأول وهلة ، فإن سكونها ينطوى على نفس ثائرة . ولقد رأت أنها خضعت طويلا للتقاليد وبدت لها الحياة الماضية التى نعمت بها فى ظل الزوج الشيخ حياة أسر . فهى إذن لم تعرف معنى الزواج ولم تكن موافقتها إلا خضوعاً للتقاليد . ولم تشعر مطلقاً نحو زوجها بأكثر مما تشعر به نحو والدها . وشتان ما بين هذا الشعور وما أخذت تشعر به فى الأشهر الأخيرة نحو الأستاذ وفيق . ذلك الذى أطل على الظلام الحالك فى حياتها فبدده ، وإذا هو ينقلب نوراً . ذلك الذى أخذت تركن إليه فإذا هى بعد حين تشعر بأنها لا تستطيع أن تعيش بعيدة عنه .

ولكنها مع ذلك لم تفكر هى أيضاً فى موقفها الغريب منه ، ولم تفكر قط بأن مركزه منها هو مركزها من زوجها الأول . ولكن الموقف يختلف فى شىء واحد ، هو أن الأستاذ وفيق إذ يتودد إليها ويتقرب منها ، يحاول أن يصل إلى الغرض الذى رأى أخيراً أن يصل إليه وهو أن يتزوج منها . لا نستطيع أن نقول إنه كان خالصاً فى حبه ، ولكننا نستطيع أن نقول إنه شأن جميع الناس ينشد السعادة ، ويرى أن السعادة سوف تتحقق إلى جانبها .

وهو منتبه كل الانتباه إلى هذا الفارق فى السن ، ولكنه فى

الوقت ذاته ينظر إليها على أنها تحفة من التحف . فهو لم ير فى أسرته من هى فى مثل ملاحة هذه السيدة . وهو فى أسرته لم يعرف امرأة فى مثل رجاحة عقلها وتربيتها المنزلية . فأثرت عليه السيدة وتعلق بها ووثق أنه يجد رغداً فى حياته إلى جانبها . وهى فضلا عن ذلك سيدة ميسورة الحال وإن بدت أمورها مرتبكة . وهو يطمع فى تسوية هذه الأمور ، وحينئذ يعرف كيف يصيب من ثروتها البسيطة . وإن كانت عظيمة لديه بالنسبة لحاله وحال أسرته . فكان سعيداً بهذا الزواج وعمل له فى تدبير وفى موالاة ، فاكتسب ثقتها وأخذ يشير عليها بما فيه صالحها . فلما ركنت إليه ووجدت أن آراءه صائبة ، وهى التى لا تعرف فى أمور المال شيئاً كأكثر السيدات اعتمدت عليه . فقبل ذلك عن طيب خاطر . وصار يتدخل فى حياتها شيئاً فشيئاً إلى أن صار له مركز خاص لديها . وهو مع ذلك دائم الرعاية لها . ولكنه لم يسلك المسلك الذى يتخذه عادة زملاؤه . فلم يحاول أن يظهر لها الحب والتوله ، ولو فعل لجفلت منة بل كان لا يظهر غير الرجولة والشهامة ومحاولة خدمتها . وبذلك انفتح له قلبها فإذا ما وثق من استيلائه على هذا القلب فاتحها فى أمر الزواج .

أما كمال فلم يقدر كل هذا أو شيئاً من هذا ، فهو على

نضجه أصغر سناً من أن يطالب بتقدير الأمور وزنتها بميزان . وهو أصغر سناً من أن يتبين وجهة نظر الآخرين . ففى سن الطفولة والصبا والشباب لا ينظر الإنسان إلا إلى نفسه ، فالعالم من حوله منحصر فى نفسه والناس من حوله هم كائنات اعتبارية تكون أهميتها بقدر اتصالهم به وتأثيرهم فى حياته . فأصدقاؤه هم أصدقاء ، لأنه يعتقد فيهم أنهم يخلصون له الود ، لا لأنه يخلص لهم الود هو نفسه . وخصومه هم خصوم لأنهم لا يعطفون عليه وينتقدونه ، ولا يبحث عن السبب فى ذلك . وأقرب الناس إليه ممن حوله الذين يرعون مصالحه . وليس للإنسان فى هذه السن تقدير لظروف الناس وأحوالهم ، أما فى سن الشيخوخة فالمرء كالمتفرج الذى يستطيع الحكم على الأمور لأنه لا يقف على خشبة التمثيل . قد يتأثر أحياناً وقد يفقد ميزان الحكم ، ولكنه لا شك راجع إلى الحياة الحقيقية وما فيها من تلاطم .

وهكذا لم يهتم كمال مطلقاً لموقف والدته ، والظروف التى تحيط بها ، ولم يلتمس لها الأعذار . فيشعر أن القلق الذى استولى عليها فى السنوات الأخيرة لا بد أن يؤدى بها إلى تغيير فى حياتها . وكل ما رآه كمال هو الوالدة التى تهجر أولادها من أجل رجل غريب ، والوالدة التى تخون ذكرى زوجها الأول الذى كان مثال الطيبة وهي تذكره دائماً بالخير . وأى لؤم أكبر

من خيانة هذه الذكرى ؟ وأى جحود أعظم من أن تقابل الإحسان بالإساءة ؟ وأى قسوة أفظع من أن تطرح أولادها جانباً وتحرمهم من الحنان الذى هم فى أشد الحاجة إليه ؟

ومما زاد كمال عقيدة فى رأيه ما رآه من تجهم الجدة وغضبها . فلو أن عمل الوالدة صائب لما غضبت والدتها لهذا الأمر . ولم يفكر كمال لحظة فى أن الجدة تغلبت عليها العاطفة فحكمت على موقف ابنتها بحكم العاطفة دون حكم العقل .

لم يفكر كمال فى هذا ولا ينتظر منه أن يفكر . وكل ما شعر به أنه فقد والدته وهى خسارة أورثته حزناً عميقاً ولا يمتزج هذا الحزن بالعطف ، بل مزاجه شعور غضب أليم .

٩

قطيعة

سارت الحياة فى موكبها ، وخفت حدة الألم الذى شعر به كمال عند زواج والدته ، ومضت شهور دون أن يراها . وكل ما يسمعه عنها نتف من الأخبار . وإذا سأله أحد معارف الأسرة عن والدته وعن صحتها يجيب إجابة مصطنعة بأنها فى خير صحة ، ويحاول أن يغير الموضوع . فهو لا يريد أن يطلع الأجانب على سره ، ولا يريد أن يظهر بمظهر الضيق من موقف والدته ومقاطعته لها ، ولم تحاول الوالدة طول هذه المدة أن ترى الجدة ولا الأطفال لأنها علمت بسخطهم ، ولكنها ترى شقيقتها أحياناً ومنها تتناثر الأخبار عن موقفها فى الحياة . وكان الابن الأكبر لها يزور أحياناً جدته وهو على علاقة وثيقة بوالدته وزوجها . وفى غير ذلك لم تحاول الجدة إصلاح الأمور بل كل ما عملته هو اتخاذ كل وسيلة لراحة كمال وراحة أخته . فتحيط كمالا بالعناية الشديدة وهو يجد من وسائل الراحة والرخاء ما لم يجده فى داره . وكان يحلو للجدة أن تعامله معاملة الرجل فتذكر له أنه رجلها ، وأن عليه تعتمد فى مستقبل الحياة . وتصف

له ما تنتظره له من حياة سعيدة وتفتح بحديثها العذب وأمانيها وآمالها آفاقاً واسعة . وقد بلغ كمال أول مرحلة فى دراسته الثانوية وهو من أصغر زملائه فى المدرسة .

فكانت الجدة تحدثه عن دروسه وعن أساتذته ، وتستمع إليه فى حنو ظاهر ، وتسأله عن الكتب التى يقرؤها ، وتظهر دهشة حين يلخص لها بعض القصص التى قرأها باللغة الإنجليزية. ويحلو له أحياناً أن يتلو معها بعض كتب الأدب العربى المحتوية على قصص أدبية أو تاريخية فيجد فيها خير مستمع . ولم تكن الجدة بجاهلة للقراءة ، وإنما انتابها فى السنوات الأخيرة تعب فى نظرها . لذلك ابتعدت عن القراءة والكتابة وصار اعتمادها على ما يتلوه عليها كمال فيما يقضيان سهرات لطيفة هادئة فى الدار .

وكانت تدلل كمالا بكل وسائل التدليل . وعادت إلى الدار الحلوى والفطائر المختارة التى يذكرها وهو طفل . ولم يعد كمال كثير الاختلاط بالزملاء فى خارج البيت بل يقضى أكثر سهراته فى المنزل فى القراءة . ولم يكن ذلك عصر انتشار السينما فى القاهرة بل الواقع أنه لم تكن توجد فى القاهرة غير دار واحدة للسينما أو دارين ويغشاهما جمهور أكثره من الأوربيين . ولكن الجدة التى تسبق إلى كل ما هو حديث ، تأخذه إلى السينما

حيث يندهش بصفة خاصة لذلك المشهد الذى هو أعجوبة الأعاجيب فى ذلك الوقت ، حين يظهر على الشاشة قطار قادم من بعيد وإذا به يتقدم ويقترب من الجمهور ويكبر أمام عينيه ، حتى ليشعر المتفرجون أن القطار سيدهمهم ، فتخرج من أفواههم صيحة ذعر ودهشة .

وكانت الآلة الحاكية من أكبر وسائل التسلية فى الدار . وأخذت الجدة تذهب به إلى حانوت الأسطوانات وتطلب منه أن يختار ما يعجبه ، ولم ينس إعجابه بذلك الصديق لأخيه الذى تعلم العزف على الكمنجة فى أثناء دراسته بسويسرا ، فأخذ يختار قطعاً من الموسيقى الأوربية ، والجدة توافقه على ذلك . ولكنها تشير بشراء بعض البشارف التركية أيضاً وتختارها ، ولا ريب فى أنها تفضلها على الموسيقى الأوربية .

وفى ذات مرة تحادثا عن الاختلاف بين النوعين من الموسيقى ، وأخذت الجدة تصف وتطنب فى محاسن الموسيقى التركية ، وما يمكن سماعه منها فى إستانبول . وتكلم هو عن إعجابه بالعزف على الكمنجة كما سمعه من هذا الصديق الذى تعلمه فى أوربا . وذكرها بما سمعاه فى دار الأوبرا ، فأبدت له أمنية فرح لها فرحاً عظيما إذ قالت له إنك صغير السن ، فلماذا لا تفكر بعد إتمامك القسم الأول من الدراسة الثانوية فى أن

تتخلف عن الدرس سنة ، ونذهب معاً فنعيش هذه السنة فى إستانبول بصفة خاصة ، وربما تنتقل بعد شهور إلى بلاد أخرى ، ليكن ذلك ! وحينئذ تستطيع أمرين أن تتلقن مبادئ فى الموسيقى ، وسأشترى لك كمنجة من هنالك ، وهم قوم مغرمون بالفنون . والأمر الثانى أن تعرف اللغة التركية فقد حاولت تلقينك إياها ، وأنت لا تظهر لها نشاطاً ، ولكنى واثقة أنك سوف تحبها لو سمعت كيف يتكلمونها فى إستانبول ، فهنالك تسمع لغة هى الموسيقى بعينها .

والواقع أن كمال لم يكن به ميل للغة الترك ، على ما يظهره من نشاط فى تعلم اللغات الأوربية ، ولا يشاطر الجدة تحمسها لبلاد الأتراك . ولكن فكرة السياحة لذاتها هزته هزاً . وهو يعلم حق العلم أن حديث الجدة بمثابة الوعد : وهو يعتمد على وعودها كل الاعتماد . كما عرف أنها ما أخلفت وعداً بل تتلمس رغباته دون وعد فتنفذها .

وكانت هذه الفكرة الجديدة موضوع الحديث الطويل فى بعض الليالى . فالجدة تصف له ما ينتظر أن يراه من مناظر ، وما سوف يتمتع به من جمال الطبيعة ، فتصف له منظر البحر من الباخرة حين لا يشهد غير الماء فى حركته الدائمة وأمواجه يتوجها الزبد الأبيض ، وغير السماء تسبح فيها سفن من السحاب .

وتصف له لذة التطلع عند الاقتراب من الشاطئ ، وما له من تأثير فى نفس راكب السفينة ، حين ترسو هذه السفينة على أحد الموانى فى طريقها ، وهى تحدثه عن ميناء بيروت الصغير والجبل يحيط بالمدينة وتتكلم عن ميناء بيريه التى تبدو كقرية صغيرة . ولكنه إذا انتقل إلى أثينا على مسيرة نصف ساعة ، رأى تلك المدينة العجيبة بآثارها الفخمة من مجد الماضى البعيد . وتنتقل فى الحديث أحياناً إلى منظر طلوع الشمس وغروبها على صفحة المياه المتلاطمة ، وما له من تأثير فى نفس راكب السفينة الذى أتيح له الوقت والفرصة كى يتمع بهذه الألوان الطبيعية ، ثم تصف له مرور السفينة بالدردنيل وظهور تلك الأراضى الصفراء للجزر فى مدخله وجانبيه ، فإذا دخلت السفينة إلى بحر مرمرة اختفت الأرض . ولكن الركب لا يلبث أن يرى جزيرة برنكيو الخضراء ذات المشاهد البديعة ، وهى تبدو على مقربة منه ثم تقترب السفينة من مضيق البسفور . ويلوح القرن الذهبى وإذا مدينة إستانبول تبدو كأجمل صورة ، وتعلو على أى رسم رسمته يد فنان . فهى بلا ريب أجمل مدينة يراها المشاهد من السفينة . هذا رأى الجدة فيما رأت وهذا ما سمعته عمن شاهداً بلاد أكثر منها .

وكانت الجدة تتوسع فى هذا الحديث كلما رأت إقبال كمال

عليه . فتصف له الذهاب بالقوارب فى البسفور رائحة غادية ، تنقل الناس من الشاطئ الأوربي إلى الشاطئ الأسيوى ، حيث يكون الصيف نزهة للجميع ، يذهب الناس بالقوارب إلى الأحراش وعيون المياه المتفجر فى الجبال الخضراء ، ومياهها العذبة السائغة .

ويتأثر كمال بهذه الأوصاف فيطيل التفكير فيها ، حتى لتكاد ترتسم صورها أمام عينيه فإذا غلبه النعاس ، تراءت له هذه المناظر فى الأحلام .

كان هذا الحديث حافزاً له ، فأخذ يجتهد فى دروسه كى يتحقق هذا الوعد ، ويظفر برؤية هذه المناظر العجيبة ، التى سوف تزيد لذتها بصحبة جدته المحبوبة .

وكانت الجدة تحدثه أحياناً بل كثيراً فى أمر مستقبله ، وفى ذات مرة تكلمت إليه فى صراحة فقالت له إنى عازمة عزماً أكيداً على أنك بعد إتمام الدراسة الثانوية ، تتم تعليمك العالى بفرنسا . فأصحبك إلى باريس حيث نعيش سوياً هناك .

وطرب كمال لهذه الفكرة الجديدة وبلغ بها أمنية ماثلة فى خاطره . وغطت هذه الفكرة على الزيارة التى وعد بها لتركيا . وصار الأمل الجديد أكثر حافزاً له من الوعد الأول . وهو لا يشك لحظة فى أن الجدة ستحقق هذه الآراء . فهى ضنينة

بالوعود ولا تتكلم فى شأن تراه خطيراً كهذا الشأن ، إلا بعد أن تقلب الرأى على وجوهه .

وسألها ذات مرة هل رأيت باريس يا جدتى ؟ فقالت له لا كل ما رأيته من بلاد فرنسا هو مرسيليا ، إذ مررت بها ذات مرة فى أسفارى وهى مدينة تشبه الإسكندرية ، وإن اتسعت أكثر منها أضعافاً .

وسألها مرة أخرى وهل ستلبسين القبعة يا جدتى ؟ فقالت لا وإنما سأضع غطاء من الدنتلا السوداء كما يفعل العجائز من الأوربيين فى مدينة الإسكندرية .

وهكذا كانا يقضيان ليالى كثيرة فى هذا الحديث اللذيذ لدى الاثنين .

لا ريب فى أن فكرة التعلم فى فرنسا كان لها وقع هائل فى نفسه . فقد تعلم من الكتب التى قرأها من الآداب الأوربية أن يحترم الفكر الأوربى . وأتاحت له تربيته الشىء الكثير من الحرية الفكرية ، ونشأ فى وسط يحترم الدين ولا يفرضه على أولاده ، فاحترام الدين لديه نوع من العقيدة النفسية التى ترتاح إليها النفس وتحث على الفضائل أكثر منها القيام بواجبات وفروض مرسومة. وهو بعد قد قرأ قسطاً من الكتب العربية الأدبية ، واستطاع أن يقارن بين ذلك الكنز القديم، وما فى

الكنوز الحديثة التى يخرجها الأدب الأوربى من فرق اكتسب نتيجة لمرور الزمن . وعلى ذلك طرب كثيراً إذ وجد أن الزمن سيواتيه؛ وأن يتاح له الاتصال المباشر بالثقافة الأوربية إذ يتعلم بالمدارس الأوربية ، ويستنشق عبير الجو الأوربى فى عاصمة من أكبر قواعد العلم فى أوربا .

وهكذا ناقش جدته فى حكمة قضاء سنة فى إستانبول مما يباعد بينه وبين الزمن الذى يذهبان فيه سوياً للعيش فى باريس. ولم يحاول أن يثنيها عن فكرتها وإنما حاول تعديلها ، وقبلت الجدة هذا التعديل ، وتم الاتفاق على أنهما يمضيان أشهر الصيف التالى لإتمامه القسم الأول من الدراسة الثانوية على ضفاف البسفور ، ويزيدان الأجازة شهرين بالاتفاق مع مدرسته ؛ ثم يعود ليتم دراسته ، وكان كمال واثقاً أن هذين الشهرين لا يحولان دون نجاحه فى آخر السنة وبذلك استطاعا أن يوفقا بين الفكرتين ، بما لا يفوت تنفيذهما

وتمر الأيام هكذا بين عمل ، وبين أحلام أوشكت أن تتحقق ، واغتبط كمال لها كل الاغتباط . والجدة مرتاحة إلى هذه الأحلام التى تريد تحقيقها لخير حفيدها المحبوب وحتى لقد نسى كمال فى غمار هذه الأحلام آلامه التى نشأت عن خيانة والده . بل لعله حمد لوالدته أن أقدمت على تلك الخيانة .

لأنه يشعر الآن باغتباطه بجدته وأنه صار ابناً لها . وهى تعامله كما تعامل ابنها وتسهر عل راحته وعلى مستقبله . أما تلك الوالدة التى فضلت أحضان رجل غريب فلم ينتظر أن تفكر فى مستقبله. أو على الأقل إذا استعرض الماضى لم يجد فيه أنها تفكر فى مستقبله فحياته السابقة إلى جانبها حياة قلق دائم . والآن وهو يظن أنها وجدت استقراراً ، فلتكن لها حياتها إذن التى ارتضتها ولتكن له حياته تلك التى تبشر بمستقبل باسم .

وكان لا يسمع عن أخبارها إلا قليلا إذ لا تزال الجدة مغضبة من ابنتها . ولا يتصل بهذه الابنة إلا شقيقتاها فينقلان إلى الأم أنباء ابنتها . وهى أنباء تدل على أنها تعيش فى كنف زوجها الجديد حياة هادئة مستقرة . لا يمكن القول بأنها تنعم بالحياة ، أو أنها تشكو حظها ، لأن طبيعتها الكتومة تتغلب عليها ، فهى تقتصد فى الحديث عن زوجها لا سيما أنها تعلم أن الأسرة بأكملها لم تكن متحمسة لهذا الزواج . وهى بطبيعتها العنيدة ترى أن هذا الأمر من شأنها ، ولم تظهر عليها أية تغييرات فى مسلكها نحو الحياة فهى قد اتخذت الخطوة فلا تحب ولا يجمل بها أن تتراجع . والحقيقة أنه لم يكن سبيل للتراجع فى هذا الأمر بعد أن نفذته ولذلك قبلت أختاها هذا الوضع وأن لم تهضمه والدتها .

وكان كمال إذا ما جاءت سيرة والدته فى الحديث صمت ولم يتكلم مطلقاً ، ولا تنتظر الجدة منه أن يتكلم ، وهى لا تلبث أن تغير من الحديث لأنها حريصة كل الحرص ألا يتألم الصغير وربما غالت فى ذلك لأن مرور الزمن لم يترك من آثار الجرح إلا وخزاً ضعيفاً . يشعر به كمال بين حين وحين فهى بعد أمه ، وهو يحبها كثيراً . وهو إذ يسائل نفسه هل لا يزال يحبها يجد نفسه يجيب بالنفى فى شدة ، ولكن شعوراً أعمق منه يعيش فى جانب مظلم من أغوار نفسه يضحك منه ساخراً حين يجيب بالنفى .

وفى ذات يوم عاد من المدرسة فأرسلته جدته إلى دار خالته المتزوجة ، ليخبرها بأمر من الأمور . ولم تكن الخالة تتوقع زيارته . فعند ما دخل إلى ردهة الدار قيل له إن الخالة جالسة فى غرفة الضيوف ، فتردد فى الدخول ، ولكن خادماً عجوزاً فى الدار أخبرته بأن لا مانع من دخوله فليس هنالك غريب . وعلى ذلك دخل الغرفة فإذا به يرى منظراً لم يكن يتوقعه . فقد جلست والدته تتحدث إلى خالته وبعض الأهل من الأقارب والأنسباء . وفوجىء كمال بهذه المقابلة التى لم تكن منتظرة . وفوجئت الخالة والأهل كذلك ، وهن يعلمن ما بين الابن والأم من جفاء ، وكان الموقف صعباً فقد تردد كمال لحظة وهو ينظر .

إلى والدته . وهى تنظر فى ترقب إليه بعينيها الخضراوين الحزينتين لترى ماذا يفعل ، ولم تتحرك من مكانها ولم تمتد يدها إلى ابنها . وشعر كمال بوخز أليم فى نفسه ثم وقع تحت تأثير هاتين العينين الحزينتين ، فإذا به يتقدم إلى والدته ، ويلقى بنفسه فى أحضانها وضمته إلى صدرها وأخذت فى تقبيله .

كانت هذه المفاجأة سبباً فى عودة الوالدة إلى حظيرة الأسرة ، تزورها وتتردد عليها مرة بعد مرة ، وحيناً بعد حين .

١٠

آمال

كان هذا الصيف آخر صيف يقضيه كمال على شاطئ الإسكندرية قبل الذهاب إلى ضفاف البسفور . وبدت له مدينة الإسكندرية أبدع مما كانت . ولعل ما يجيش فى صدره من آمال جعل للدنيا من حوله بريقاً غير الذى ألفه . فكان مغتبطاً بكل شىء مما حوله ؛ بالدار التى تسكنها جدته ، وبالمناظر التى تحيط بها حيث تموج الساحات بالناس ، وبالبحر وشاطئه الممتد حيث يمضى أهل لإسكندرية والوافدون عليها صباحهم ومساءهم ، متنزهين أمامه أو غائصين فى مياهه .

ولم يكن كمال يحسن السباحة فهو على أنه أمضى أوقاتاً كثيرة فى الإسكندرية ، كان كأهل المدن البعيدة عن البحر يخشى ماءه وأمواجه ، ولكنه مع ذلك يذهب كل صباح للاستحمام وتمضية ساعة وبعض الساعة فى الماء . ولم يلبث أن وجد أصدقاء من طلبة مدرسته يصاحبونه ويصحبهم وهكذا يمضون أوقاتاً سعيدة . وأحياناً يذهب بصحبة بعض أولاد سيدنا ممن هم فى مثل عمره ، وكانت الشواطئ عندئذ رملية لا

توجد عليها الحواجز التى أقيمت فيما بعد ولا يمتد أمامها الطريق الممهد الذى تقطعه السيارات ذاهبة جائية . وكانت العربات هى وسيلة التنقل وترام الإسكندرية هو وسيلة العامة .

ومن الطبيعى أن كمال كان يقيم مع خالته وأخته فضلا عن جدته . وأما والدته فلم تصحبهم إذ ظلت مقيمة مع زوجها بالقاهرة .

وقد صارت بعد أن تمت المقابلة بينها وبين كمال تتردد على منزل الجدة وتقابل كابنة للأسرة . لم توجه إليها الجدة تأنيباً ، ولم تحاول أن تثير ما مضى أو تغير من الحاضر ، وإنما الجدة تكتم فى نفسها جرحاً يصعب اندماله . أما الزوج فشعر بأن الأسرة لا ترغب فيه وأفهم ذلك وكان يود لو يتغلغل فى أعماق هذه الأسرة حتى يعد فرداً من أفرادها . ولكن زوجته أفهمته جيداً أنه من الخير ان يبتعد عن زيارة الجدة وبذلك ظلت علاقة الجدة به منقطعة .

ولم يكن من المنتظر أن يشعر كمال بنقص فى حياته إذا لم ير والدته . والحقيقة أنه على صفحه عنها شعر بأنها سببت له من الآلام ما سوف يترك فى فؤاده أثراً عميقاً . وكل ما هنالك أنه عاد إلى حبه لها وضم إلى تلك العاطفة عاطفة أخرى هى أقرب إلى الرثاء لحالها . وكان يرى أنها انزلقت فى طريق الخطيئة ،

ولم يخطر له مطلقاً أنها بريئة كما يفكر الناس : فأمام القانون ما عليها حرج فى الزواج وما عليها حرج فى أن تختار زوجاً بعد أن أمضت سنوات طوالا بلا عائل ؛ هكذا يرى الناس ولكن كمالا لا يمكن أن يرى هذا ولا الجدة أيضاً فهما يحكمان بحكم العاطفة . والجدة ذاتها لم تفكر مطلقاً فى الزواج بعد وفاة زوجها بل قامت على تربية بناتها . فشعورها المرهف لم يتصور كيف تقدم أم على الزواج وفى أحضانها أبناء أحق برعايتها ، وكيف تنبذ حب الأمومة وتملأ قلبها بحب رجل غريب .

ومع ذلك أدت عودة الأم لحظيرة الأسرة إلى اطراح التفكير فى هذا الموقف جانباً ،واطراحه بأكمله ، بحيث ابتعد كمال وجدته عن التفكير فيه كلما مرّ بخاطرهما ، ويطردانه كما يطرد المرء خاطر سوء .

ولم يكن فى الإسكندرية مجال كبير للخواطر السيئة . فلذة الفراغ والراحة والتنزه تتجدد فى كل يوم على شاطئ ذلك البحر المتغير المتلون الذى لا يثبت على حال . فهو ملائم كل الملاءمة لحياة الإنسان الذى يحب بطبيعته وتكوينه التغير من ساعة إلى ساعة .

ولمرحلة النمو لدى الشباب هذه الميزة : هى أن الحياة والمناظر فى نظر الغلام الذى يخرج من طفولته ليتصل بالصبا والرجولة

تتغير شهراً عن شهر وسنة عن سنة فهو يرى الأشياء فى السنة التى يعيش فيها على غير ما يراه فى السنة السابقة وعلى غير ما يراه فى سنته اللاحقة ، لأنه فى طور تحول قوى وسريع . والإسكندرية فى تلك السنة فى عينى كمال غير ما عرفها فى السنوات السابقة . فهو فى تلك السنوات كان خاضعاً لنوع من الرقابة ، إن لم يكن نوعاً مرهقاً ، إلا أنه على كل حال يحول بينه وبين أن يشعر بأنه المسيطر على حياته . وإن كان هذا الشعور فى ذاته غير نام فيه عندئذ . ولكنه فى هذه المرة أخذ يشعر بأن عليه أن يعتمد على نفسه ويدبر أموره . ولا ريب فى أن الجدة وطريقتها فى ملاطفته تبعث فيه هذا الشعور بالاعتماد على النفس . فهى تخاطبه على أنه رجلها الذى ستعتمد عليه فى المستقبل لا اعتماداً مادياً وإنما اعتماداً روحياً ؛ وتصف له أحياناً كيف ينتظر أن تراه بعد سنوات قصيرة إذ ينمو شاربه وإذ يقوم بعمل هام فى الحياة ، وهنالك تعرج على تعليمه فى أوربا وما يبثه هذا التعليم من اعتماد على النفس نتيجة للاختلاط بحياة قوم يأخذون حظهم من الحياة بأكمله فى جدهم وفى لهوهم . فاتساع الأفق يتبع هذا التعليم والاختلاط بالأمم الأخرى والوقوف على عادتها تقضى على التعصب الضيق فى الفكر .

وهكذا تسترسل الجدة فى هذا الحديث العذب على سمع

الصبي الناشئ . ومن العجيب أن يقال مثل هذا الحديث على لسان سيدة مصرية فى ذاك العهد ولكنه ليس عجيباً على الجدة التى هداها تفكيرها إلى التنقل والسياحة فى البلاد .

وكان بحر الإسكندرية يردد لكمال هذه الأقوال فى صوت الأمواج المتلاطمة أبداً على الشاطئ . فيقضى كمال الساعات الطويلة واقفاً أمام البحر متطلعاً إلى الأفق ، وهو يشهد تلك الأمواج آتية من بعيد بيضاء فى تحركها أشابت رأسها التجارب وهى تجرى نحو الشاطئ فى سرعة ، وكأنها تريد أن تتحدث إليه لتخبره أن أفق الحياة أمامه وأن الآمال البعيدة الباسمة ترتبط برحيله إلى ما وراء تلك الآفاق التى لا يبين ما وراءها . وتأتى الموجة تتبعها الموجة فى سرعة وكل منها كأنها حين تلتطم بالشاطئ لتتوارى وتنتهى فى أحضان هذا الشاطئ تسر إليه وتكرر حديث السفر وتقول له جئت من بلاد فيها الحياة الحقيقية ، فالحياة هنالك .

ومن الطبيعى أن يتأثر كمال بهذه المشاعر التى تملأ نفسه بعد حديث الجدة وبعد قراءاته العديدة . وهو إلى ذلك العهد لم يتعمق فى الآداب الأوربية ولكنه يختار كتبه بعناية . ولعله كان مدفوعاً إلى هذا الاختيار والتدقيق فيه بالرغبة فى الاقتصاد فإنه يعمل على ألا يكلف جدته إلا أقل ما يمكن ، وهى فى

شعورها واهتمامها به تعمل من جهتها على ألا يعوزه شيء . ولذلك يحاول كمال أن يكون جيبه دائماً مليئاً بالدراهم حتى إذا ما أرادت جدته أن تعطيه شيئاً منها ، أبدى لها أنه لا يزال معه الكثير من النقود . ومع ذلك لم تكن الجدة لتقتنع بقوله بل تسهر على ألا يكون فى حاجة إلى المال أبداً .

فى هذه الفترة من حياته ، وفى مدينة الإسكندرية ، توطد اتجاه الفتى مرة أخرى : إذ حدث أنه بينما كان يسير ذات مرة أمام شاطئ البحر على مقربة من محطة مواصلات الرمل إذ به يقابل زميلا له فى المدرسة ، وهذا الزميل من أسرة تركية . وكان صبياً متباعداً فى المدرسة لا يألف إلا القلائل من الزملاء ، واعتبره زملاؤه فى المدرسة متكبراً ، ولم يكونوا يحبونه كثيراً إذ يبدو أنه من طبقة غير طبقتهم . فملابسه معتنى بها يتبين أنها من قماش ثمين وابتعاده مما يزيد فى هذا الإحساس نحوه . ولكن كمال اقتنع بأن ابتعاده لا يصدر عن كبرياء وبذلك تقدم إليه مرة متحدثاً فوجده مثالا للأدب وحسن التربية والظرف ولم يكن عدم اختلاطه بالزملاء عن كبرياء بل هو نتيجة لطبيعة خجوله تلقت تربية خاصة جعلته يبتعد كثيراً عن عبث الصبية . وألف كمال منذ عرفه أن يتحدث إليه فى شأن الكتب التى يقرؤها من كتب الآداب الأوربية . فظهر له أن هذا

الصبي على علم كبير بهذه الكتب وبغيرها ، وعلى ذلك قامت
بينهما ألفة وود فهما يتبادلان الكتب ويتبادلان الحديث عنها ،
وعلم كمال منه أنه مغرم بالتصوير يمارسه فى البيت وأعار كمالا
كتباً فى الفن فيها صور متقنة لأكابر المصورين الأوربيين
مما هو محفوظ فى المتاحف الأوربية . وبدأ كمال من هذه
الكتب يهتم لأمور لم تشغل خاطره من قبل فهو لم ير قبل هذه
الصور متحفاً من متاحفها . إذ أن القاهرة كانت خالية منها
عندئذ ورأى فى هذه الكتب جانباً آخر من حياة الأوربيين
وكيف يسعون إلى المتع الرفيعة وكيف تشغل حياتهم .

قابل كمال صديقه يوسف هذا ووقفا أمام البحر نحو
ساعة يتباحثان . ثم عند ما أراد كمال أن يفارق صديقه قال له
يوسف يجب أن تزورنى فى منزلنا فإنى أقضى الصيف مع عمى
الذى اتخذ بيتاً فى رمل الإسكندرية بشارع ستانلى باى . فوعد
كمال وعداً غير أكيد . ولكن يوسف ألح عليه فى تلك الزيارة
وأن تكون بعد ظهر الغد حيث يتناولان الشاى معاً . وأخبره أن
عمه هذا متخرج حديثاً من كلية الحقوق ولكنه لا يرغب
العمل فى المهن القانونية لأنه من هواة الموسيقى الأوربية . وهو
يحسن العزف على البيانو . ولذلك فهو يعد نفسه للسفر إلى
باريس والالتحاق بالمعهد الموسيقى هنالك ، إذا أمكن ، أو

يتلقى الموسيقى على أساتذة من كبار الموسيقيين غير أن ما منعه من السفر فى تلك السنة هو أنه يرغب فى تدبير أموره المالية قبل هذا السفر .

وكان هذا الوصف حافزاً لكمال فما تردد بعده فى قبول الدعوة ، بل حدث أكثر من ذلك كله أنه ظل بقية يومه وليلته يفكر فيها ويترقبها .

فلما جاءت الساعة المحددة أخذ كمال طريقه إلى الدار ووصل إليها . وهى دار كبيرة ذات حديقة بديعة تدل على الثراء والرخاء . ولم تكن ملكاً لفؤاد بك عم صديقه يوسف بل يؤجرها بأثاثها من أحد أثرياء الأوربيين وقد سافر صاحبها إلى أوربا .

ودخل كمال الدار وهو يشعر بالخجل ولكن هذا الخجل ما لبث أن زال فى سرعة ، لأن طريقة يوسف فى مقابلته بهدوئه المعهود وبعده عن التصنع جعله يشعر بأنه فى منزله . وكان العم شاباً طويل القامة أبيض اللون هادئ النفس فى صوته بحة خاصة بسيطاً فى مظهره . فهو يرتدى ثياباً بسيطة وقد تدلت خصلة من الشعر فوق جبينه ولكنه لم يتخذ مظهر رجال الفن بل غاية ما حاول تقليده هو أنه يتخذ رباط رقبة عريضاً أسود ، ولم يسع إلى تربية شعره كما يفعل غيره ، بل اكتفى بهذه الخصلة من الشعر التى تطول قليلا . وهو حليق اللحية والشارب .

وسأل فؤاد بك كمالا فى بساطة : هل هو مغرم بالموسيقى الأوربية وهل يزاول العزف على إحدى الآلات . فأجابه كمال فى بساطة أيضاً : أنه لا يستطيع أن يقول بأنه هاو لتلك الموسيقى وإنما القليل الذى سمعه منها أيقظت ذهنه ، وأن لها مكاناً فى نفسه ، وأنه يعتقد بما يراه من تفوق الأدب الأوربى ، أنها لا بد متفوقة على مثيلتها فى الشرق . وروى كيف سمع عازفاً على الكمنجة صديقاً لأخيه وكيف حضر إحدى المسرحيات الموسيقية . وكان الشاى قد جاء مصحوباً بالفطائر وشربه الثلاثة فدعاه فؤاد بك إلى التفرج على بعض الصور التى رسمها فى حجرة عمله وبعض الصور التى رسمها صديقه يوسف . وانتقلوا إلى غرفة العمل حيث شاهد كمال لأول مرة كيف يعمل المصورون . وكان اهتمامه بذلك أكثر من اهتمامه بالصور التى شاهدها . ومع ذلك أعرب كمال عن دهشته وارتياحه ، وكان مندهشاً ومرتاحاً حقاً .

وعادوا إلى مجلسهم وكان البيانو فى جانب من الغرفة وجلس إليه فؤاد بك وسأل ماذا تريدون أن أعزف ؟ ومن الطبيعى أن يهز كمال رأسه أما يوسف فاقترح على عمه أن يعزف ليلة من ليالى شوپان ، ولتكن الليلة التاسعة . وبدأ فؤاد بك فى العزف وبدأ ذلك اللحن الطويل الحالم الذى تبتدئ به تلك القطعة .

وانتقل كمال إلى عالم آخر ، عالم جديد لم يعهده من قبل ، فلما انتهى فؤاد بك من العزف . لم يكن لدى كمال ما يعبر به عن تأثره واغتباطه . فاكتفى بكلمة الشكر ولعلها أبلغ لدى فؤاد بك مما لو أزجى إليه الثناء .

وعاد فؤاد بك فوضع يديه على البيانو وقال سأعزف لكما قطعتى المحبوبة فهتف يوسف فى سرور « لاباسيوناتا » وعرف كمال أنه سوف يسمع قطعة خالدة لبتهوفن قرأ عنها ، ولكنه لم يتوقع سماعها هكذا قريباً . وكان يحلم باليوم الذى سوف يذهب فيه مع جدته إلى باريس ، فيتاح له سماع هذه القطع التى يقرأ عنها ، ولكن الفرصة تأتى على غير انتظار .

وبدأ فؤاد بك وأنامله تجرى على صفحة البيانو بمفاتيحها البيضاء والسوداء ، فتتأثر منه تلك النغمات التى تذهب فى الحزن أحياناً حتى تبلغ حد اليأس ، وتذهب فى الاحتجاج مرات أخرى حتى تبلغ حد الغضب . وبين ذاك وذاك توسلات وإقناع . وانتهت تلك القطعة كما ابتدأت دون أن يستطيع كمال أن يقدر إلى أى حد كان تأثره . غير أنه بانتهائها تنفس طويلا كالمريض الذى أعوزه الهواء . وكان فى أثناء عزفها منهباً للعواطف المختلفة التى يصورها ذلك الموسيقار بما لم يستطع أحد أن يصل إلى تصويرها .

وبعد ذلك جرى حديث طويل عن الموسيقى وعن المؤلفين الموسيقيين ، وأخذ فؤاد بك يختار قطعاً صغيرة لتمثل أقواله ، وكانت تلك أول مرة أحب فيها كمال البيانو . وبدا لديه تماماً تفوقه على الكمنجة واستقلاله عن آلات العزف الأخرى . فهو بمثابة الصورة التي ترسم بغير الألوان بل بمجرد التباين بين البياض والسواد .

وأقبل المساء فتأهب كمال للانصراف ، وهو يود ألا ينصرف من تلك الصحبة الطريفة . وأخبره فؤاد بك عند انصرافه أنه يخصص بعد ظهر السبت من كل أسبوع لمقابلة بعض الأصدقاء الهواة للموسيقى الأوربية ، ودعاه إلى أن يتردد في غير كلفة على الدار في تلك الأيام ليتاح له سماع بعض العازفين من الأصدقاء، وليتاح له سماع بعض القطع تعزفها الجماعات الموسيقية على الفونوغراف ، وقال إنهم أخذوا منذ بضعة أسابيع يسمعون سنفونيات بتهوفن وأنهم بلغوا الرابعة منها فإذا جاء في يوم السبت القادم فإنه يسمع الخامسة وإذا والى الحضور فسيتاح له سماع التاسعة .

وألح عليه يوسف في بساطة بأن يوالى الحضور في تلك الأيام ووعد كمال بذلك ولم يكن كمال ليجد فرصة خيراً من هذه الفرصة . ولا أصدقاء خيراً من هؤلاء الصحاب .

وعاد كمال إلى دار جدته وهو فى حالة اغتباط عجيب ونشوة . وتحدث طويلا إلى جدته عما سمعه بعد ظهر يومه . وقد سرت الجدة لسروره وشجعته على أن يوالى التردد على تلك الأسرة فى يوم السبت وقالت له ضاحكة هلا يقبلوننى معكم ؟ فقال كمال جاداً : بلاشك أنهم يقدرون حضورك ويرحبون به ، وكان يعنى ما يقول ولم يفكر فى تحمسه أن هؤلاء الصحبة ربما لا يرحبون بوجود الجدة لا لشىء إلا لأنهم لم يألفوها . وإذا كانوا قد ألفوا كمال سريعاً فذلك لتحمسه لفكرتهم والتحمس للفكرة يزيل جميع الفوارق ويوطد الصداقة سريعاً .

فلما رأت جدته أنه يحدثها هكذا جاداً عادت تضحك وتقبله ، وتخبره بأن كل ما تريده هو أن يوالى الذهاب إلى تلك الجلسات التى لا شك فى أنها ممتعة . وأن يوالى فى مساء كل سبت رواية ما سمعه فى تلك الجلسات وتنوير ذهنها عن الموسيقى الأوربية . وعادت إلى ضحكها وهى تقول من يعلم ربما هويت الموسيقى الأوربية مثلك وإن كنت قد بلغت أرذل العمر . وحينئذ نستمتع بها معاً فى باريس .

ونبهت عبارة أرذل العمر كمالا ونظر إلى جدته محتجاً . والواقع أن الجدة لم تكن قد بلغت أرذل العمر كما تقول . ولم يزل كمال يرى ذلك الوجه المحبوب الذى ينم عن جمال كبير لم

تزل آثاره . ولكنه شاهد فى هذه المرة شيئاً من الشحوب فى
وجه الجدة وترهلا فى جلد وجهها لم يكن فد انتبه إليه من قبل .
كما أن العينين زال بريقهما شيئاً ما وغشيتهما غشاوة بسيطة. فهما
تنظران من وراء حجاب رقيق ولعل تلك النظرة نتيجة لشكوى
سمعها فى الأيام الأخيرة تتمتم بها الجدة لأحدى بناتها بأنها تشعر
فى نظرها بشىء من التعب ، كما أنها فى تلك الأيام تشعر بأنها
غير متمالكة لجميع قواها وإن كانت لا تشكو من مرض بذاته .

وأحس كمال بعطف شديد. وعادت ذاكرته إلى القاهرة
وإلى تلك الأم التى هجرت أهلها وأبناءها فى سبيل معاشرة رجل
غريب . وساءل نفسه هل جنت هذه الأم على الجدة كما جنت
عليه ؟

١١

نهاية

تبعث الآمال فى النفس نشاطاً وهمة لا سيما فى نفوس الشباب ، وصارت الآمال العريضة التى ملأت نفس كمال حافزاً له على الاهتمام بدروسه عند بدء الدراسة بعد انتهاء الصيف فأقبل على هذه الدروس فى نشاط عجيب وأوشك أن يتحقق أمله الأول فى نهاية ذلك العام إذ يسافر فى سياحته مع جدته إلى إستامبول فيركب الباخرة الكبيرة لأول مرة فى حياته ويسير فى ذلك البحر العجيب الذى لا ينتهى من النظر إليه وهو يمضى الساعات أمامه فى الإسكندرية . وستتاح له الفرصة فى أن يرى بلاداً عدة فقد بلغه أن الباخرة ستمر على مدينة بيروت حيث يقضى ساعات صاعداً فى ذلك الجبل الأخضر إذ تمكث الباخرة على الأرجح نحو يوم . وسترسو الباخرة فى ميناء بيريه فيزور مدينة أتينا القديمة متوجة بالأكروبول . ثم تسافر بهما الباخرة إلى إستامبول ليشهد محاسنها . وهذه الرحلة بداية جميلة لما ينتظره بعد سنتين من آمال واسعة وحياة رغيدة فى بلاد فرنسا .

فكيف لا يعمل وكيف لا يجتهد ؟ إن الحياة باسمة أمامه بفضل هذه الجدة التى ترعاه وتفكر فيه وتفكر له . وظهرت نتائج هذا النشاط فى سرعة لأساتذته فابتدأوا يشعرون بأنه من خير تلاميذهم وأخذوا يعطفون عليه و يرعونه رعاية خاصة . فإن الأساتذة يغتبطون إذا رأوا ثمار دروسهم يتلقفها طالب فى سرعة وذكاء ويظنون ذلك نتيجة براعتهم فى الدروس . ولم يفكروا مطلقاً أن ذلك من تأثير خارج عن إرادتهم بعيد عن مجهوداتهم هو تأثير الدار ، بدلا من أن يكون تأثير المدرسة .

وأخذت الجدة تلاحظ هذا الاهتمام من كمال وتغتبط له . ومن الطبيعى أنها تعتقد فى ذكاء كمال وتبالغ فى ذلك . والحقيقة أن كمالا لم يكن غبياً ولم يكن خالياً من الذكاء وإنما ذكاؤه رهن بشعور عاطفى ، فهو إذا وجد تشجيعاً صار من أنشط الناس فى دروسهم وتظهر فى الحال عليه علائم تدل على نجابة . أما إذا لم يجد تشجيعاً أو كره أستاذه فإن هذه النار تخبو سريعاً ويتأخر فى فهمه لدروس هذا الأستاذ الكريه ولكن حياته فى تلك الفترة لم تكن متعلقة بالأساتذة فهو مغتبط لأمر داخلى فى نفسه أمر بعيد عما ألفه أقرانه وهو يكتم هذا الأمر فى طيات نفسه ولا يتحدث فيه لأحد ، ولكن هذا الأمر يشع فى نفسه ضياء فينيرها ، ولذلك صار فى تلك الأشهر لا يفرق بين المدرس

الذى ينجذب إليه والذى لا يحبه فهو يقبل على دروس الجميع والجميع عنه راضون .

كان كمال فى تلك الفترة من حياته يفضل الدار كثيراً . فهو بمجرد عودته من دروسه يلزم الدار ولا يخرج إلا نادراً حتى فى مساء يوم الخميس . ولاحظت جدته ذلك فصارت تدعوه للخروج فلا يستجيب لها ، والجدة فى ذلك الحين لا تخرج كثيراً كما كان شأنها من قبل . فإنها بدأت تشعر شيئاً ما بوطأة الزمن . وتشعر أحياناً بشيء من التعب صارت معه لا تحب الخروج بحفيدها . وهى فى مساء يوم الخميس بصفة خاصة تكرر عليه القول بأنه يخرج ليتنزه بضع ساعات .

وجد كمال أن خير سبيل لشغل وقته فى غير ساعات استذكار دروسه هو الإقبال على القراءة . وهو يشترى كتباً عديدة بعضها يبحث فى موضوعات أدبية كعادته . ولكن البعض الآخر يدور حول البلاد التى ينتظر أن يزورها . فاشترى دليلا لرحلة فى البحر المتوسط واشترى دليلا لتركيا وبلاد اليونان وعاد فاشترى كتباً فى تاريخ الأتراك وفى تاريخ اليونان القديم واشترى كتباً فى الآثار وأخرى فى الفنون وهكذا يعيش فى رحلته القادمة ويضاعف الاستمتاع بها أولا بالقراءة قبل أن يستمتع بهـــا بالسفر .

واشترى كتباً عن فرنسا وتاريخها وآثارها ومحاسنها القديمة والحديثة . وهو واثق كل الثقة بأن آماله ستتحقق فهو لا يشك مطلقاً فى قول من أقوال جدته .

أما والدته فكانت فى ذلك الحين بعيدة عن حياته وقريبة . فهى قريبة لأنها تتردد على دار جدته بين وقت وآخر ولكنها تتردد كالغريب . تقضى بعد ظهر اليوم فى تلك الدار ولكنها لا تبقى كثيراً بعد الساعة الثامنة مساء ولا تبقى إلا نادراً للعشاء وكانت تهتم لأمور كمال فهى تشرف على ثيابه وتنظمها كلما حضرت إلى الدار . ومن الطبيعى أن الجدة تسمح لها بذلك فهى بعد ابنتها ، وهى بعد أم لحفيدها ، ومن حق الأم أن ترعى أمور ابنها ، ولو كان يعيش فى غير دارها . ولكن كمال كان لا يشعر فى الحقيقة أنه ينتمى لهذه الأم فكل قلبه لجدته . وهو يعامل أمه بالاحترام الواجب للأم ولكنه لا يقدم لها قلبه . ولو أن الجدة تتخذ لنفسها دوراً ثانوياً عند حضور الأم . ولعل ذلك لأنها تقدر عاطفة الأمومة ، أو لعلها تحب أن تبعد عن الأم الفكرة فى أن الجدة سلبتها قلب ابنها .

واستطاعت الأم أن تسترضى الجدة شيئاً ما إلى درجة أن جاء زوجها معها فى زيارة للجدة بضع مرات ، ولكنها مرات قليلة . وهو يأتى فى تلك المرات مصاحباً زوجته ليوصلها إلى دار

الحدة . أو يأتى بعد أن تمضى الأم وقتاً طويلا فى منزل والدتها
لكى يصطحبها إلى داره . والجميع يعاملونه معاملة لائقة ولكنها
خالية من الحماسة . واستطاعوا أن يفهموه أنهم لا يمكن أن
يعتبروه فرداً من أفراد الأسرة . وأنهم ينظرون إليه نظرة اللص
الذى سرق منهم ابنتهم . ولكن شعور كمال نحو هذا السيد
كان غريباً : فهو لم يكن يحنق عليه وإن كان لا يحبه . وقد
عدل عن اتهام والدته بالخيانة عند ما زالت سورة غضبه وحدة
ألمه . وصار يعتبرها نفساً ضالة أقدمت على هذا الضلال لتهرب
من حالتها النفسية التى اعترتها من قبل .

وأخذ الآن يشعر شعوراً عميقاً لا يمكن تعليله بأن الأم لم
تكن سعيدة بزواجها . وهو إذا ساءل نفسه عن السبب فى هذا
الشعور وعن المبرر له لم يجد سبباً ولا مبرراً : ولكنه أقنع نفسه
بهذا الأمر وحاول تعليله إذ أنه يرى على والدته سهوماً أكثر مما
كان من طبيعتها . وكان إذا صادف أن وقعت عيناه على تلك
العينين الخضراوين ، خيل إليه أن عليهما سحابة حزن وكآبة
تحاول النفس أن تخفيهما . وهو يعلم أن والدته دائماً كتومة ولكنه
يرى هدوءها الآن أكثر مما ألفه . وهى تبتعد عن الحديث عن
حياتها الزوجية وقد يكون ذلك اعتقاداً منها أن الحديث الذى
يتردد فيه اسم زوجها ليس محبوباً لدى السامعين . وقد يكون

ذلك أيضاً لأن الحياة الزوجية لم تحقق ما تصبو إليه .

حدث ذات مرة أن كانت الخالة المتزوجة فى زيارة للأسرة، ولم يكن كمال جالساً مع الجدة والخالة وهما يتحادثان . بل كان جالسا فى غرفة مجاورة يقرأ فى كتاب استغرق كل اهتمامه . ولكن الذهن يتعب أحياناً من القراءة . ويحب أن يلعب بصاحبه قليلا فيشرد إلى مكان آخر غير تلك الحروف التى تبدو فى الكتاب . وهكذا شرد ذهن كمال قليلا ، فإذا هو ينتبه فجأة إلى الحديث الذى يجرى فى الغرفة المجاورة . وإذا به يسمع الخالة تقول إن هذا الرجل ليس مخلصاً لأختى ، فقد شاهدته سائراً مع فتاة وهو يتحدث إليها فى شغف ظاهر للعيان حتى إنه لم يشعر بمرورى إلى جانبه . وارتسمت هذه العبارة فى ذهن كمال وزادته يقيناً فى أن والدته تعسة فى زواجها. والآن بهذه العبارة عرف السبب وشعر بنوع من الشفقة .ولكنه لم يلبث أن انقلب شعوره إلى نوع من الارتياح . فهذا هو الانتقام لما رأى فيه خطيئة .

كان هذا انتقاماً للخطيئة : فهذا الزوج المسجى فى رمسه شملها بكل عطف . وهى تفضل عليه رجلا آخر ، وتختار شاباً من وسط أقل منها شأناً ، تنظر إليه أسرتها على أنه رجل أفاق غرر بابنتهم ، وأن هذه الابنة تكبره سناً حتى ليكاد يكون

فى عمر ابنها الأكبر . والآن تفتحت عيناها ، أو هكذا خيل لكمال ، ولكنها فى تكتمها وكبريائها لا تريد أن تعترف بالحقيقة

وزاده يقيناً وإمعاناً فى هذا الرأى أن والدته تتردد على دار أمها كثيراً فى الأيام الأخيرة . وأخذ كمال يفسر ذلك بالفكرة التى تسلطت عليه حتى صارت عقيدة ، بأنها تهرب من جحيم دار زوجها . أجل إنه لم يسمع قط شكاية من والدته ولكنه رجح ألا تشكو أمامه . وقد تكون أسرت لجدته بشيء مما بها ، وإن كانت الجدة لم تظهر أمامه ما يدل على شيء . والراجح أن خياله يذهب بعيداً ويغلو فى هذه الناحية . وكانت أمانيه وآماله فى فشل هذا الزواج هى التى تجسم هذا الخاطر حتى ليصير حقيقة فى ذهنه . ولم يفكر قط بأن والدته سعيدة مع هذا الزوج الشاب . وأن سعادتها زادت إذ استطاعت أن ترجع إلى أحضان أسرتها .

وهنالك سبب آخر يبعث على تردد والدته كثيراً على المنزل ، فإن شتاء تلك السنة كان بارداً بنوع خاص . وأصيبت الجدة بسببه بنوع من الأمراض التى تنتجها برودة الجو وعدم الاحتياط لا سيما إذا كان الجسم ضعيفاً . واضطرت الجدة إلى ملازمة الفراش وأتت الأسرة بالطبيب فوصف لها الدواء ومنعها من الأكل ، فهزل جسمها أكثر مما كان . ومن الطبيعى أن تتردد

والدته لخدمتها فى كل يوم تقريباً . وكمال يجلس إلى جوار سريرها ساعات طويلة وهو يحادثها أحياناً أو لا يحادثها إذا رأى منها رغبة فى الإغفاء . ويذاكر بعض دروسه أو يقرأ بعض الكتب التى يطلع عليها إلى جوار السرير وكانت إذا رنت إليه حاول تقبيل يدها أو وجنتها أحياناً فتنتعش نفسها وتتبين الغبطة على وجهها .

ولم يقل الطبيب أن المرض خطير ولكن الجدة ضعيفة ولذلك طال مرضها بعض الشىء . وهى على كل حال تجد من عناية ابنتها والدة كمال وخالته كل ما يمكن أن تجده ، فمن طبيعة والدة كمال أنها دقيقة تتبع تعليمات الطبيب حرفياً ، وذلك مما يشجع على زوال المرض . وكان كلام الطبيب مطمئناً فالهزال الذى زاد شأناً أنما هو نتيجة ضعف الجدة . وقريباً ستبرأ من مرضها ثم تقضى فترة النقاهة حيث تسترد قواها شيئاً فشيئاً بعد زوال المرض .

وكان كمال يفكر فى أن الرحلة إلى إستامبول ستعود بالجدة إلى سابق صحتها . فهذا المرض الذى طال وإن لم يكن خطيراً لا يقضى على آثاره كل القضاء إلا تغيير الجو . هكذا قال الطبيب فى بعض حديثه فإن الطبيب يعرف الأسرة ويعرف الجدة ويهتم لها كل الاهتمام . ومع ذلك نصح الطبيب بأن لا

تبارح الجدة فراشها وأن يحال بينها وبين أى مجهود . واتبعت الأسرة مشورته . وكان كمال إذا ما حاولت الجدة أن تبارح فراشها يسألها فى رقة ألا تفعل خضوعاً لأمر الطبيب ، فتستسلم فى الحال لرغبته وإن احتجت فى ضعف بأنها قد ملت الفراش . فيبتدئ كمال فى حديث يقنعها به بأن هى إلا بضعة أيام حتى يزول المرض وحينئذ تستطيع أن تعود سيرتها الأولى وتترك هذا الفراش البغيض . وأحياناً تسائله الجدة محتجة أى مرض هذا الذى يقول الطبيب إنه برد اشتد قليلا ثم يدعوها إلى ملازمة الفراش . فيتوسل إليها كمال يرجوها قائلا : هونى عليك يا جدتى فإن الطبيب إنما يريد زوال المرض فى أقل وقت مستطاع ولا بأس عليك من إطاعته . وهى تقول له أحياناً أننى لا أمل الفراش وأنت إلى جانبى ، وإنما أمله فى الساعات التى تذهب فيها إلى المدرسة ؛ فيقول لها فى حماسة إذن أترك المدرسة وأظل إلى جانبك ؛ فترد عليه الجدة إنما كل آمالى معقودة على المدرسة ، وإتمامك لدروسك ، فتكون فى المستقبل القريب رجلى فى الأسرة .

وفى ذات صباح استيقظ كمال من نومه مبكراً كعادته . وأرتدى ثيابه للذهاب إلى المدرسة ، ثم تناول فطوره . وبعد ذلك دخل غرفة الجدة ليحييها تحية الصباح إذا كانت قد استيقظت

ووجدها فعلا مستيقظة . ووجدها جالسة فى فراشها، وخالته تمشط شعرها . ونظرت إليه مبتسمة ، وكأن المرض قد زال منها فجأة . ولأول مرة تألم كمال من شحوب وجهها وما وصلت إليه من هزال . فقد بدا وجهها على حقيقته فى هذا الصباح وريع كمال لذلك الوجه الأبيض كالشمع . وتلك الغضون المرتسمة من أثر الهزال ولكنّ العينين الصافيتين تنظران إليه والفم يبتسم له . وطلبت إليه الجدة أن يقترب منها فاحتضنها وقبلها وقبلته ثم سألته : هل وقت الذهاب إلى المدرسة قد حان ؟ وهل يستطيع أن يجلس إلى جانبها قليلا ؟ فأجاب فى الحال بأن هنالك متسعاً من الوقت وأنه يستطيع الجلوس . وجلس إلى جانبها وأخذت تتحدث إليه أحاديث الحب التى لا تنتهى كما كانت تفعل لا سيما وهو طفل صغير حين يجلس إلى جانبها . وقد وضعت يدها حول خصره تضغط عليه فى ضعف كى تضمه إلى صدرها . فيلصق صدره إليها دون أن يكلفها عناء ويجيب على عباراتها بما يقابلها من إظهار حبه وتعلقه بها . وظلا هكذا بعض الوقت ثم قالت له : لتذهب الآن إلى مدرستك ومدت يدها تحت الوسادة ونفحته بخمسين قرشاً فأبى أن يأخذ النقود وأخرج لها من جيبه كمية منها ليؤكد عدم حاجته فأصرت

واضطر لكى لا يرهقها إلى أن يأخذ هذه النقود .

خرج كمال إلى مدرسته ومنظر الجدة المريضة بوجهها الشاحب ماثل أمام عينيه . ونفسه مليئة بالشفقة والعطف عليها ، ولم يشعر فى ذلك اليوم إلا بهم جاثم ، وظل سحابة يومه متألماً تمر به ساعات الدرس وهو على غير عادته غير منتبه لها ، ويبدو له أساتذته وزملاءه كالأشباح . وإنما الحقيقة هى فى ذلك الوجه الشاحب وتلك العينين اللتين تنظران إليه وهما تسيلان رقة وعطفاً .

وإذا انتهى اليوم الدراسى قصد إلى دار جدته وهو لا يزال يشعر بألم وانقباض شديدين . ووصل المنزل وصعد الدرج وقرع الباب ، ولاحظ فيه نوعاً من الضجة وكأن أناساً كثيرين وفدوا عليه . وترجح لديه أن خالته المتزوجة جاءت . وبعد برهة ، بدت كأنها ساعات ، فتح الباب وظهرت والدته . وكانت عيناها مليئتين بدموع غزيرة وقالت له : انزل الآن مع زوج خالتك واذهب إلى دار الخالة . فإنك سوف تبيت عندها الليلة . وخرج زوج الخالة من ورائها وأمسك بيده وقال له : تعال معى الآن يا ولدى .

لم يقل له أحد فى تلك اللحظة شيئاً أكثر من ذلك . ونزل الدرج وهو لا يكاد يرى موضع قدمه . ولكنه أحس بكل شىء وعرف دون أن يقول له أحد شيئاً ، أن جدته قد ماتت .


أرنبو والكنز
عيد ميلاد فلة
ثمن النسخة
٧

مطبوعات حديثة

		ص
عليّ وبنوه	للدكتور طه حسين	٤٠
المغرب فى حلى المغرب (من مجموعة ذخائر العرب)		
تحقيق الدكتور شوقى ضيف		١٠٠
القضية الفلسطينية (باللغة الفرنسية)		
للدكتور يعقوب خورى		١٠٠
البرامكة فى ظلال الخلفاء	للأستاذ محمد أحمد برانق	٤٠
اللغة العربية وطرق تدريسها		
للدكتور عبد العزيز عبد المجيد		٥٠
المدخل إلى علم النفس الجماعى	للدكتور حكمت هاشم	٣٠
شاعر الطيارة	للبدوى الملثم	٢٥
مشاهد القيامة فى القرآن	سيد قطب	٢٥

أولادنا

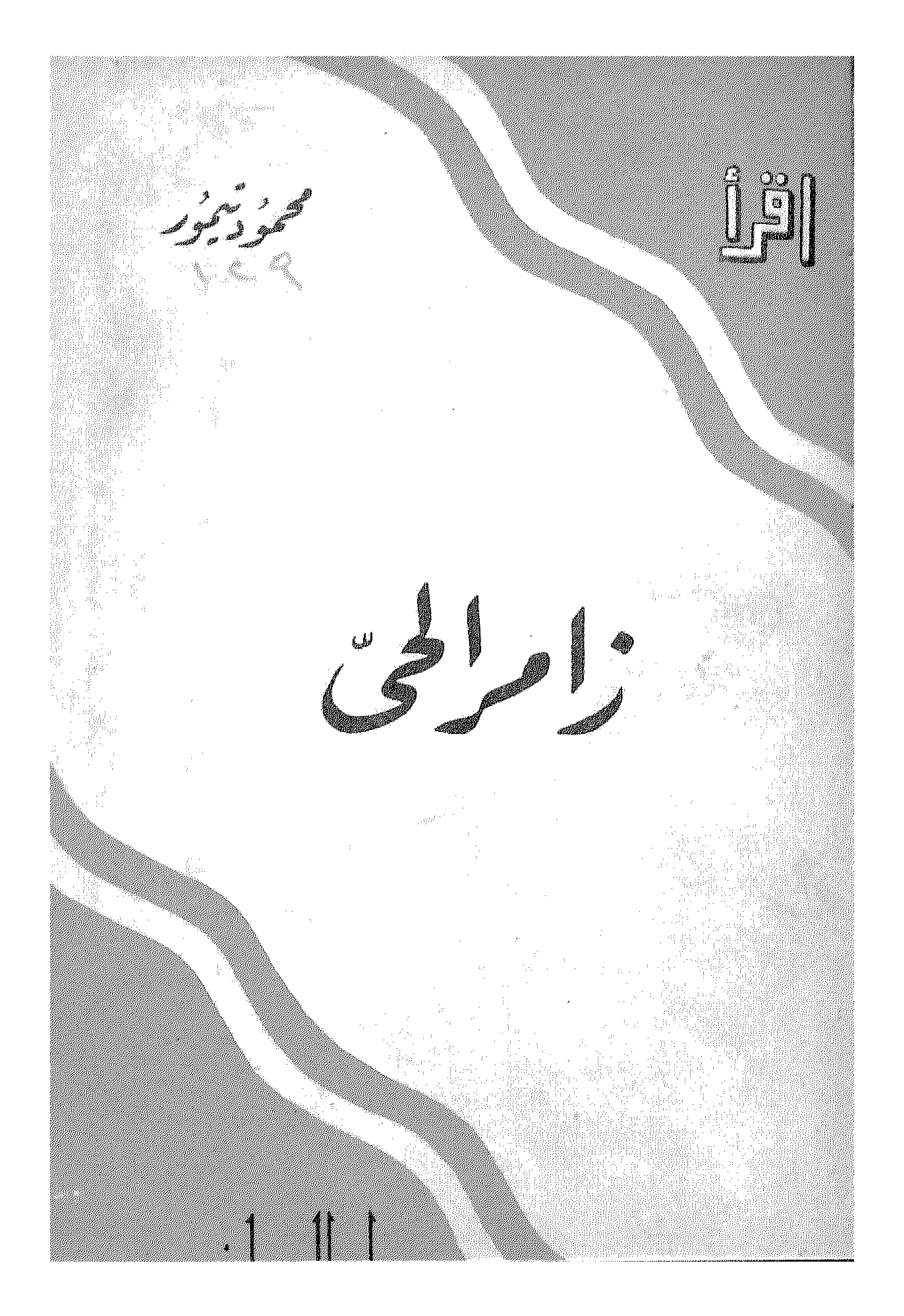
مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعـــة والثقافـــة وسمو النفس

		م
١	عمرون شاه	١٢
٢	مملكة السحر	١٢
٣	كريم الدين البغدادى	١٢
٤	آلة الزمان	١٢
٥	الأمير والفقير	١٢
٦	كتاب الأدغال	١٢
٧	بينوكيو	١٥
٨	نبوءة المنجم	١٢
٩	روبن هود	١٢

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد


اقرأ
محمود تيمور
زامر الحي

زامر الحيّ

محمود تيمور

زامر الحيّ

اقرأ ١٢٩

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٩ – أول سبتمبر ١٩٥٣



زامر الحى . . .

كنت وأنا فى أوج الصبا أسكن حىّ « درب سعادة » ، ذلك الحى العتيق الذى تتزاحم دوره ، ويتضايق طريقه ، حتى لكأن الدور على جانبيه توشك أن تتعانق . . .

ولم يكن روّاد هذا الحىّ كلهم من سكانه ، فمن بين أهليه طوائف من الناس تختلف إليه طرفى النهار وبعض الليل ، لا يكادون ينقطعون عنه فى يوم ، ولا يخفى عليهم من سكانه أحد ، أولئك هم الباعة الجوّالون ، والعفاة من طلاب الصدقات ، وغيرهم من المرتزقة بفنون الملاهى وألوان التسلية وضروب الإضحاك والتفكيه .

وقبيل الصيف ، أظلتنى أيام الامتحان ، فألزمتنى الدار أستذكر وأستوعب ، فإذا ثقلت علىّ الوطأة ، ودار بى رأسى ، خرجت إلى الباب أتخذ به مقعداً يشهدنى مواكب الطريق .

وفيما أنا جالس ذات يوم ، صافحتْ سمعى رنات لحن حنون تبعثها صفارة من مكان قريب ، وما برحت هذه الرنات

الشجية تتوارد علىّ مستبينة وضّاحة ، حتّى تجلى بها زامر للحىّ لم يكن لى به عهد .

وجه ضامر عليه سماحة ، تزينه لحية خفيفة كساها الخضاب ، وزىّ على سذاجته بادى النظافة رائق الهندام ، ومشية وادعة مسترخية تتطلع فيها أنظار الرجل إلى السماء ، كأنها تستملى منها ما يستوى عليه النغم من إيقاع .

وراعنى من لحن ذلك الناى أنه كان حزين النبرة ، ينبض باللوعة ، وكأنه ينطوى على سر حبيس يحاول أن يصونه ، ولكن السر يأبى إلا أن يتسلل فى حنايا النغم ، كأنما هو نفثة مصدور .

صادف هذا اللحن من نفسى هوى ، بل مسّ من قلبى الشغاف ، فجعلت أحرص على الجلوس ساعة الأصيل ، أرتقب صاحب الناى فى موعده المألوف ، فإذا مر بى الصوت ، وغاب عن سمعى الصدى ، أحسست بروحى تتبعه ، هائمة معـــه .

وعلى مر الأصائل تم التعارف بينى وبين شيخ الناى ، أستوقفه ببعض وقت ، وأدعوه إلى الجلوس بجانبى فى الأحايين .

٧

وكان كلانا يأنس بصاحبه ، يجاذبه ألوان الأحاديث ... أما هو فلا تفرغ له جعبة من الطرائف والنوادر والحكايات ، يحسن كيف يرويها خلابة الوصف ، شائقة العرض . وأما أنا فلا أمل سؤاله فى شأنه : كيف كانت أطوار حياته ، وأية آفاق تقاذفته ؟ فيجيبنى إجابة المقلّ الكتوم ، يضن بالإفاضة ، ويتحرز من التصريح .

ومما كنت التزمته فى هذه الأيام التى أتأهب فيها للامتحان أن أؤدى الفرائض فى أوقاتها لا أتهاون ، وكان على مقربة من دارنا مسجد صغير أقصده طالباً صلاة الجماعة ، وحضر وقت المغرب وأنا بالباب أتحدث إلى شيخ الناى ، فدعوته معى إلى المسجد ، فاشرأب تائه النظر فى كبد السماء ، وهو يقول مجمجماً :

أعفنى . . .

ثم لملم نفسه يهم بالمضىّ عنى ، وهو يقول :

قم لصلاتك . . . إنى ذاهب فى سبيلى !

وهرول فى مشيته تخفيه طيات الطريق ، فوقع تصرفه من نفسى موقع الغرابة ، واستربت بأمره ، ولكنى شغلت عنه

بإقامة الصلاة .

وفى أمسية من الأماسىّ ، قفلت من المسجد بعد أداء فريضة المغرب إلى الدار ، فلمحت شيخ الناى يحوم حول الباب كأنه يتفقدنى ، فأخذت بكتفه أبادره بقولى :

أنت هنا ؟ . . . أطال انتظارك إياى ؟

— حضرت منذ قليل ، وأطلقت صوت الناى يدعوك .

— كنت فى المسجد . . . لماذا لا أصادفك فيه ؟

فوجم الرجل ، واكفهر وجهه ، ثم رجفت شفتاه دون كلام . . . فحدقت إليه أقول :

ماذا يقعد بك عن المسجد ؟

— المسجد ؟ المسجد ؟

واستبانت الرعشة فى صوته وهو يقول :

إنما الأطهار من عباد الله هم الذين يؤمّون بيوت الله .

وما عتم أن استدار عنى ينفتل ماضياً ، وهو يلوّح لى مودّعاً بيده . فانقبضت نفسى مما رأيت ، وبلغت بى الحيرة فى شأن الرجل كبير مبلغ ، وأقسمت لأعرفن من جلية أمره ما يخفى .

٩

ما بال صاحب الناى يتحدث عن الأطهار كأنهم من طينة غير طينته ، وكأنهم على شاكلة غير شاكلته ؟ ومن الأطهار إن لم يكن من بينهم هذا الرجل الذى تنطق سماته وقسماته بالطيبة والصلاح ؟ ومن أولى بالصلاة من ذلك الذى يأكل لقمته من كسب حلال ، فى عفة نفس ، وشرف سعى ، لا يشرك الناس فى نقائص الناس ؟

ولبث صاحب الناى على حاله فترة من الزمن ، وهو لغز عصىّ يستغلق علىّ ، وكأنما زادنى هذا الإبهام الذى يكتنفه إقبالا عليه ، وتعلقاً به . ولكنى مع ذلك تهيبت أن أقتحم عليه سره ، خشية أن يضيق بى ، فينفر منى .

وتواصل الود بيننا . . . أسبغ عليه من عطف ولطف ، وأبثه الحديث فى خاصة أمرى ، وأطلب مشورته فيما يساورنى من مشكلات دنياى . وهو يمحضنى النصح ، ويقدر ثقتى به ، ويكبر ما أستودعه من سرى ، حتى شرع يرفع الكلفة بينه وبينى .

وكان فى الحين بعد الحين يسترسل فى إنشاد بعض الأهازيج الريفية التى تنطوى فيها لواعج الحب وتباريح الهيام .

وكأن هذه الأناشيد تترجم بالكلام ما كان الناى يرسله من أنغام . . . فإذا فرغ من إنشاده ، بعث من أعماق صدره تنهدات حارّة ، وأفاض فى حديث عاطفى مشبوب ، يقص علىّ ما يلقاه العاشقون من ضروب الوجد والحنين ، وما يعترض طريقهم من عقبات وأشواك ،وأنا أخالته نظرات تستشف ما وراء تلك النفس المعذبة الحيرى .

وبينما كنت يوماً جالساً إليه ، وقد ترنم بالغزل ، وقص علىّ ما قص من مصارع العشاق ، جذبت يده إلىّ ملاطفاً ، وأنا أحملق فيه ، وعلى فمى بتسامة ، وقلت مباغتاً فى صوت رفيق :

يميناً لقد كانت لك عصفورة . . . عصفورة طارت من عشك !

فرعدت يد الرجل فى يدى ، وزوى بصره عنى ، وجمجم يقول :

عصفورة ؟ عش ؟ أية عصفورة ؟ وأى عش ؟

واستأنفت أقول :

يميناً لقد لوّعك الحب ، وإن قلبك لينطوى على جرح دفين !

فأطرق يشدّ على يدى قائلا :

دعنى بربك دعنى . . . خلّنى وما بى . . . إنه سرّى !

ثم تغشاه الصمت هنيهة ، وأنظاره تسبح فى أعراض الأفق ، وإذا هو تنفرج شفتاه ،رقيق الصوت ، حزين اللهجة كأنما يناجى نفسه . . . يقول :

« . . . يحكى أن . . . يحكى أن فتى يدعى « سرحان » درج فى قرية تسمى « الشباريق » ،وكان أخوه الشيخ «محمد الرخ » إمام المسجد الكبير فى القرية يكفله منذ الطفولة ، وقد أحسن تنشئته وتربيته ، فعلمه القراءة والخط ، وأحفظه ما استطاع أن يحفظ من كتاب الله ، واستعان به فى خدمة المسجد ، وأداء الأذان فى مواقيت الصلاة .

شغف هذا الفتى منذ صباه برجل ينتسب إلى بعض الطرق الصوفية لا يخلو من لوثة ، أكبر همه النفخ فى صفارته ، وترديد الأذكار ليل نهار ، فاتخذه الفتى أستاذاً له ، لقن منه فن الصفير ، وروى عنه الأغانى والترانيم .

ويوماً ، والفتى فى نحو السابعة عشرة من عمره ، وقف

على رأس الطريق ضحوة يرقب ، فإذا أخوه الإمام قادم بعد غيبة عن القرية نحو شهر . . . وراع الفتّى أن يرى أخاه قد اصطحب إحدى النساء منتقبة تكسوها الملاءة السوداء .

من تكون ؟ إن امرأة أخيه قضت نحبها منذ أشهر قلال ، وما كان لأخيه أن يصطحب من النساء إلا ذوات القربى ، وليس يلوح على هذه المرأة أنها من أهله . . .

وبينما الفتّى فى دهشته ، إذ دنا منه أخوه يرغب إليه فى أن يحمل عن صاحبته ما فى يدها من صرّة المتاع ، وهو يقول له :

صافح زوج أخيك !

وعقدت البغتة لسان الفتّى ، فمشى عاثر الخطا تتنازعه خجلة وفضول . . . وهمهم يريد التحية ، ولا يدرى بأى قول نطق ، وما لبث أن تناول صرة المتاع مسرعاً إلى الدار .

كانت عروس الإمام فى زهرة الصبا ، وضيئة الطلعة ، ما كاد الفتّى يعايشها أياماً حتّى أنس بها أنساً لم يحسه لأحد من من قبل . وكلما تقادم العهد جدّ من ألفة الفتّى لها ما يملأ نفسه هماً ، وبان له أخيراً على غير شك أنه يهواها ، وأن الهوى

يذيبه ، فهاله الأمر ، واستنكف أن تكون له هذه العاطفة الذميمة نحو زوج أخيه . . . أخيه الذى هو فى مقام أبيه ، وليّ نعمته فى عيشه كله .

وعالج الفتى أن يرد عن قلبه ذلك الهوى الغشوم ، فحرص دوماً على ألا يخلو بزوج أخيه ، وتحاشى جاهداً أن يطارحها الحديث ، فكان كأنما ينفخ فى النار ، يزيدها من ضرام . . .

ولم يجد بداً من أن يقبر فى أعماق نفسه سره الفاضح ، لا سلوى له إلا صفارة من قصب ، يودعها نفثات ملهوفة من صدره المقروح .

وضاق الفتى ذرعاً بما كان يلحظه من رعاية زوج أخيه له ، وبرها به ، ولا سيما فى مغيب أخيه . . . فإذا خصته بشيء من طريف ما تطهو من طعام ، تأبّى أن يقربه ، متلمساً ألوان المعاذير ، وإذا تعللت ببعض الأسباب لإطالة حديثها معه ، تعمد اقتضاب الكلام ، بغية الإفلات .

وذات يوم ، والشمس على أهبة الغروب ، كان الفتى خالياً بنفسه خلف الدار ، آخذاً بصفارته يبثها نجواه ، وهو تائه الفكر هيمان ، فاستشعر على حين بغتة أن خلوته يشوبها

طارق . وما إن تلفت حوله حتّى لمحت عينه « هنيّة » زوج أخيه تواريها كومة من حطب عن كثب ، وهى ترنو إليه فى سكينة وخشوع ، فملكته رعشة ، ونهض من فوره يقول :

أنت هنا ؟

فأجابته فى صوت عطوف :

حضرت منذ قليل .

فقال لها فى اضطراب :

ما أتى بك ؟

فكسرت عينها ؛ وهى تقول :

جذبنى صفيرك .

ورآها تتهادى إليه حتّى واجهته ، فقلقت قدماه ، يبغى هرباً . . . فأمسكت « هنية » بطرف كمه تقول :

ماذا يعجلك ؟ لتلبث قليلا . . .

فصاح الفتى صيحة مختنق ، وهو يدير عنها بصره ، وينحيها عنه بيده ، قائلا :

دعينى . . . دعينى . . .

فهمهمت تقول له فى مسكنة وانكسار :

ماذا يبعثك على كرهى ؟ لم تضيق بى ؟

واستبدت بها نوبةمن البكاء والنحيب ، فأحس الفتى شغاف قلبه ينهتك ، ورأسه تغلى مراجله ، واقترب منها يقول فى تلعثم :

أنا أكرهك يا « هنية » ؟

فأشرعت إليه عيناً تشرق بالدمع ، وفى نظراتها تعرف واستخبار ، فوقف حيالها يحكم أوصاله ، ويقهر عاطفته ، فإذا هى تلقى برأسها على صدره ، ويداها تتشبثان بمنكبيه ، وجفناها ينسدلان ، وخيل إليه أنها توشك أن تتهاوى ، فألفى نفسه يطوقها بذراعيه ، وكانت بينهما فورة من تقبيل وعناق !

وأنبهتهما من نشوة الصبوة أصوات حملها النسيم من بعيد ، فتطلعت أعينهما هنا وهنالك ، فاستبانت لهما على جسر الترعة أشباح سيرها وئيد ، فارتجفت « هنية » وهى تقول :

هذا أخوك فى صحبة بعض مستأجرى أرضه .

وقفزت تدخل الدار ؛ فاتخذ الفتى طريقه فى الحقول يطيل سيره ، وهو يحاول أن يراجع صحوه من سكرة تلك الساعة .

وعاد الفتى إلى الدار ، فوافق أخاه جالساً إلى صينية الطعام ،

وقد شرع يصيب عشاءه ، فلما وقع بصر الشيخ على أخيه ، صاح به وفى قوله رنة فرح واستبشار :

أين كنت ؟ ما أطيب الليلة ! . . . أقبل . . . أقبل . . .

فوقف الفتى حائراً لا ينبس ، وواصل الشيخ قوله متضاحكاً :

سنة كلها خير وبركة . . . لقد أجرنا الأرض الليلة بقيمة فاقت ما كنا نؤمل . . . الحمد لله . . . تعال فخذ نصيبك معى من الطعام .

فجلس الفتى إلى الصينية قبالة أخيه ، وطفق يأكل ، يده إلى فمه تلقى باللقيمات وترجع إلى الصينية تصيب منها عوداً على بدء ، وذلك على غير وعى منه ولا تيقظ ، عبثا يحاول أن يلملم ما تشعث من فكره ، ويضبط ما اهتاج من أعصابه .

وفى الفينة بعد الفينة تهل « هنية » على الحجرة بجديد من الصحاف تارة وبقلة الماء تارة ، وهى تسير ممتقعة الوجه ، مسترخية الجفنين ، لا تستطيع لخطوها وزناً .

وما إن تقبل على الحجرة ، حتى ينكس الفتى رأسه ، ويمضى فى الطعام متشاغلا به عجلان ، ولم تكن « هنية »

تلبث إلا ريثما تضع الأشياء فى مواضعها وتعود أدراجها على الفور .

أما زوجها الشيخ ، فكان متطلقاً يثرثر فى حديثه عن الإجارة ، وهو بما ظفر به مغتبط تيّاه .

وبغتة ، والفتى منكبّ على صحفة طعامه ، تطن حول سمعه كلمات أخيه لا يعى منها حرفاً ، أزعجه من غفوته سقطة جسم فى الحجرة ، وتحطم بعض الآنية . فالتفت يتعرف الأمر ، فإذا أخوه ينهض مسرعاً إلى زوجه ، وقد تهاوت على الأرض ، وانزلقت من يدها الصحاف ، وسمع أخاه يقول :

ما بك يا « هنية » ؟

فاعتدلت المرأة تصلح شأنها ، وهى تهمهم :

لا شىء . . . أصابنى دوار !

وأنهضها الشيخ بين يديه ، وصحبها إلى مخدعها قائلا لها فى تحنن :

استريحى قليلا .

ولزمها حيناً يعنى بها ويلاطفها ، والفتى ماكث فى مكانه يرقب ما يجرى مخبول النظرات ، كأنه تمثال من حجر ،

لا يملك لنفسه من حراك .

ورجع الشيخ إلى مكانه من صينية الطعام يستأنف عشاءه ، وقال للفتى :

أجهدتْ المسكينة نفسها فى أعمال الدار .

ولما لم يبادله أخوه الحديث ، ممسكاً عن الطعام ، أردف قائلا وقد رفع إليه بصره :

مالك لا تأكل ؟

فعالج الفتى أن يجيب ، وبعد لأى قال متحشرج الصوت ، يزيغ بصره عن أخيه :

اكتفيت !

وأعجب ما كان من أمر الفتى أنه كان فى هذه الساعة لا يطيق أن ينظر إلى أخيه ، وأن يتابع الحديث معه . . . إنه ليجد فى نفسه طارئاً من الشعور بأنه يمقت أخاه ، وينكر عليه حظه من الحياة !

وهبّ واقفاً يطلب الخروج ، فسمع الشيخ يقول له :

إلى أين ؟

– إلى المسجد ، لأغلق بابه . . .

وأدبر عن الدار ، تقوده قدماه إلى البقعة التى كان فيها منذ قليل مع « هنية » يستمرئان متعة اللقاء . . . وما هى إلا أن طاف ببصره يمنة ويسرة ، ثم انخرط فى نشيج وبكاء ، وظل على حاله فترة ، وكأن روحه تذوب فى مسيل الدموع !

ولا ينسى الفتى كيف قضى تلك الليلة العسراء ، فقد مرت به ساعاتها أرقاً تتقاذفه الأركان والجدران ، خلف الدار ، فإذا غلبته إغفاءة تمثل له شبح أخيه الشيخ شائه الوجه ، تتلظى عيناه ، فى يده يلتمع سيف المسجد الخشبى ، وما يلبث أن يهوى به على جسد الفتى فى قساوة وضراوة يقطعه إرباً إرباً ، فيصحو الفتى مذعوراً محموم الأوصال كأنما يريد أن ينسلخ من جلده .

ولم تكد تتجلى عنه ظلمات الليل ، وتنضح جبينه أنداء السحَر ، حتى سكنت سورته ، وغشيه سبات ثقيل . . . فلما اعلا الضحا ، وأراد أن ينهض ، خانته قواه ، واستشعر الخور يملك عليه جسده كله ، فجلس إلى جذع من جذوع النخيل ، والفتور ينجاب عنه شيئاً بعد شىء . وفى الحين بعد الحين تسنح لخاطره بعض الصور ، فيثور عليه الضمير ، وتخزه ندامة .

ونادى المؤذن لصلاة الظهر ، فلباه الفتى قاصداً المسجد ، وهناك وافق أخاه ، فسارع إليه يعتذر من التخلف بألوان من الأكاذيب . . . وما عتم أن هبط على يد أخيه مرتجفاً يقبلها غير مرة ، وهو يقول :

سأكون دائماً طوعك ، أبتغى مرضاتك . . . فكن راضياً عنى .

فقال له الشيخ فى تحنان :

أنا راض عنك دائماً . . . هداكِ الله ، ووفقك للخير ، وعصمك من الشرور والآثام . . .

فسما الفتى بعينه إلى وجه أخيه ، فطالعته قسماته تتجلى فيها محبة وإخلاص ورضا .

وأبى الفتى أن يريم المسجد بقية يومه ، فلما أسدلت العشية أستار الظلمة ، كان الفتى قد أقسم بينه وبين نفسه على أمر ، وعول على أن يبر بقسمه أبد الدهر . . . لقد لطف الله به فيما جرى من ملاقاته الآثمة لزوج أخيه ، ولن يعود لمثلها ما بقيت فيه حياة .

وتوالت على الفتى أيام قضى أكثر ساعاتها فى المسجد ،

يطيل الصلاة ، ويكثر التسبيح ، وكان لا يتوخى الدار إلا عند الضرورة القصوى ، بمحضر من أخيه لا بد . . . فأما « هنية » فكان لا يكلمها إلا لماماً فى اقتضاب ، متحاشياً أن تلتقى عيناها بعينيه ، وأما صفارته فقد هجرها فى مرمى بعيد ، لا ترطبها أنفاسه العذاب !

وانقلب الفتى ناسكاً وقور السمت ، صلب القسمات ، يريد نفسه على ألوان من التقشف والشظف ، ولكنه أدرك من أمره أنه كان سريع الذهول ،طالما أخطأ فى صلاته ،وطالما شرد فكره وهو آخذ فى تسبيحاته ، فإذا هو تتراءى له أطياف لا يكاد يتبينها حتى ترتعد فرائصه ، وهو يهمهم :

إنه معها . . . إنها له . . .

ويرجع إليه ما عزب من صحوه ، فيضرب جبهته بيده ، هاوياً على سبحته ، يستغفر الله العظيم !

وتواردت الأيام على الفتى تدور به فى آفاق شتى ، يقبل على عبادته حيناً،وتلعب به الوساوس والتصورات حيناً آخر ، وهو فى عامة أمره يجاهد نفساً باتت فريسة الحيرة والقلق .

وبينما يكون الفتى مطمئناً إلى أنه ملاك زمام شعوره ،

إذا به بغتة يروعه هتاف تتردد أصداؤه فى أحناء صدره ، فيدوى فى مسمعه صوت يقول :

إنه معها . . . إنها له !

ويخرج هائماً على وجهه ، لا يعرف إلى قرار من سبيل .

وذات عشية ، وقد جهدته نوازع نفسه الجياشة ، وطال به التطواف فى أطراف الحقول ، تحت جنح الليل ، ألفى نفسه بعد لأى تجاه المسجد ، فدخله فى استسلام ، واستلقى على الحصير يبيح لأوصاله أن تسترخى ، ولوعيه أن يغيب . . .

وفيما هو على حاله تلك ، إذ شعر بيد تلمس كتفه ، فرفع جفنيه يتبين فى ضوء القمر المنساب من الكوة ، وما هى إلا أن وثب مذعوراً كأنما لسبته عقرب !

إنها « هنية » عينها ، زوج أخيه ، يلمحها فى تلك الساعة الواغلة فى صميم الليل ، وفى ذلك المكان الذى ليس فيه سواه .

وسألها فى تلعثم :

فيم جئت ؟

— لم تحضر إلى الدار طوال يومك !

ـ وما شأنك بى ؟

فتدانت منه تأخذ بكتفه وهى تقول مبهورة الأنفاس :

لم يبق لى صبر . . . جئت لأراك فى خلوة . . .

ـ أنسيت يا « هنية » أن لك زوجاً هو أخى . . .

أنت له . . . أنت له . . .

ـ بل إنى لك دون سواك .

وتشبثت بصدره تتعالى تنهداتها وهى تقول :

لا تكن جافياً قاسي القلب . . . كفى ما كابدت لأجلك من عذاب !

وانتظمت جسمان الفتى انتفاضة عارمة زلزلت كيانه ، وأوقدت فيه ناراً حامية ، فدارت يداه على الفور بالمرأة تطوقها وتهصر عودها ، وهوى عليها يقبلها منهومة شفتاه ، وهو يردد فى أنفاس تتلاحق :

أنتِ لى . . . لى أنا وحدى !

ولبث الفتى مع « هنيّة » ساعة من ساعات الغرام العنيف . . . ساعة رائعة يستطيع الفتى أن يقسم لك غير حانث أنه قد أصاب فيها من النعيم ما لم يصبه أحد منذ خلقت الأرض . . .

إنها فى حساب الزمن ساعة، ولكنها فى الحق أحفل عنده بالمتعة والنشوة من أعمار طوال .

نام الفتى وصاحبته متعانقين ، لا يعنيهما من الوجود شيء ، حتى لاحت فى الأفق تباشير الفجر ، ولم توقظهما إلا طرقات بالباب ، يتبعها صوت ينادى :

يا « سرحان » . . . افتح يا « سرحان » . . .

فقالت المرأة للفتى فى همس راجف :

هذا أخوك . . .

وتواصل الطرق على الباب ، وتابع الصوت نداءه :

يا « سرحان » . . . افتح يا « سرحان » . . .

فوجد الفتى نفسه يجيب عالى الصوت :

سأفتح . . . سأفتح . . .

ولم تجد المرأة بدأً من التسلل ، صاعدة إلى سطح المسجد ، على حين اتخذ الفتى طريقه إلى الباب يفتحه ، ودخل أخوه مقطب الجبين يقول :

أما زلت تنام فى المسجد يا « سرحان » ؟ . . . أليست لنا دار تسعك ؟

ـ سرقتنى إغفاءة ، بعد صلاة العشاء ، فامتد بى النوم على الرغم منى . . .

وجلس الشيخ صامتاً بعض وقت ، ثم استأنف يقول فى قلق :

لقد صحوت من نومى ، فلم أجد « هنية » فى الدار . . .

فقال الفتى مأخوذاً يعانى التلفظ :

كيف ذلك ؟ أين ذهبت ؟

فقال الشيخ هين الصوت :

خرجت . . . أتكون قد ذهبت لتملأ الجرة ؟ أتكون فى بيت جارة لها تخبز ؟

فهمهم الفتى :

لا بد أن يكون ذلك لا بد . . .

وخلا الشيخ لنفسه صامتاً هنيهة ، ثم نهض قائلا :

هلم إلى الصلاة يا « سرحان » .

ومثل الفتى عن كثب من أخيه يركع ويسجد ، وكانت صلاة آثمة باركها الشيطان .

وشرع الناس يتوافدون على بيت الله ، يؤدون له مكتوبة

الصبح ، والفتى يقاسى من حاله محنة عسراء ، فما شهد أخاه يبارح المسجد حتى انسل صاعداً إلى السطح وهو يتلفت ، وما كان أشد دهشته حينما ألفى السطح خالياً ليس فيه من إنسىّ . فطوف ببصره غير مصدق ، وجعل يذرع السطح متأملا كل رقعة فيه ، حتى كأنه اختبل ، وانتهى به التطواف إلى حافة السطح خلف المسجد ، وأفلتت منه نظرة إلى الأرض ، فندت من حلقه صيحة مصعوق . . . وسرعان ما ألفى نفسه ينحدر على الجدار ، حتى بلغ مسقط «هنية» فإذا هى ملقاة تئن فى خفوت ، فأقبل عليها فى هلع ولهف ، وهو يسائلها :

ما بها ؟

فعالجت أن تجيب فى عناء :

لقد تحطمت يا « سرحان » . . . تحطمت . . .

وكانت تعض على شفتيها فى عنف ، لتكتم التأوه ، فاحتضنها الفتى يواسيها ، ولا يدرى ماذا هو قائل ؟ وماذا هو فاعل ؟ فسمعها تهمهم :

أوجاعى لا تطاق . . . إنى أموت !

وما وجد الفتى بداً من أن يحتملها فى رعاية واحتراس ،

والأسى يمزق نياط قلبه ، ورأسه تتضارب فيه المخاوف .

وانتحى بها بيت « أم عبد الجليل » وكانت مستودع سره ، عطوفاً عليه ، وفية له ، فأفضى إليها ببعض الأمر ، وناط بها تدبير المخرج .

فنهضت المرأة ناشطة إلى دار الشيخ تنهى إليه الخبر . وما أسرع أن نقلت « هنية » إلى دار زوجها تحوطها العناية والتعهد .

وأشاعت « أم عبد الجليل » أن « هنية » قدمت عليها قبيل الفجر لتخبز ، وصعدت إلى سطح الدار ، تجلب منه الوقود ، فزلت بها القدم ، وسقطت تلك السقطة الحاطمة .

ومضى يومان ، تكابد فيهما « هنية » آلاماً مبرحة ، والفتى عائذ بتلك البقعة الخالية وراء الدار ، حيث ارتشف أول قطرة من غرامه المحرم . فكانت تنوبه ثورات تحتدّ به ، حتى ينحى على شعره تقطيعاً ، وعلى جبهته لكماً وجيعاً ، وهو يغمغم مختنق الصوت :

أنا الذى يجب أن يعذب . . . أنا الذى يجب أن يموت !

وقضت « هنية » نحبها فى الغداة ، وشيعت جنازتها إلى

جبانة القرية على النحو المألوف فى عرف الريف .

وتجلد الفتى أول الأمر ، يكبت مشاعره فى جهد ، فقام بما وكل إليه من شأن المأتم ، ولكنه كان يؤدى عمله فى تبلد ووجوم . وكثيراً ما تزدحم عليه التصورات والأخيلة ، فيحس كأنما هو يهوى من حالق ، أو كأنما هو تنخسف به الأرض .

وبعد أيام عراه انقلاب ، فلم يعد يطق اللبث فى مكان ، وإذا هو يهيم على وجهه فى المطارح القصيّة ، كأنه ثور انفك من قيوده ، فهاج وماج .

وأسلمه ذلك بعد حين إلى انهيار وخمول ، فلزم الدار أكبر وقته ، وهو يحاول جهد إمكانه أن يتجنب مواجهة أخيه ، فإذا التقيا على رغم منه وكره ، أحس كأنما أخوه يوشك أن يسأله :

كيف سولت له نفسه أن يفعل ما فعل ؟

وعلى مرّ الأيام أحس الفتى بأن سره ينمو فى صدره ، ويكاد ينطق بجريرته الشؤمى ، وأن العيون من حوله تقول :

خذوه !

وكان إذا برح الدار، تنقّل فى أرجاء القرية ، متنكباً

عن المسجد لا يقربه ، فجاءه أخوه ذات يوم يسأله :

فيم تخلفك عن بيت الله ؟

فلم يجد الفتى مندوحة من الذهاب إليه ، ومعاودة القيام بعمله فيه . . . وفيما كان يروح ويجىء ، تتمثل له مشاهد ليلته التى قضاها مع « هنية » فيه ، فينقبض صدره ، وتغيم عيناه ، وتنهشه الأفكار السود .

ولما جن به الليل فى المسجد ، أحس الخوف يدب فى أوصاله ، ويتسرب فى كيانه ، ولكأن أشباحاً مفزعة تدف حواليه ، وهمساً راعباً يطن فى أذنيه .

وما كاد المسجد يخلو من قصاده ، حتى عمد إلى الباب ليوصده ، وبينما هو فى طريقه إليه استشعر خفق أقدام فوق سقف المسجد ، فأرهف السمع ، ولقلبه وجيب دءوب . فألقى نفسه يهرع إلى السطح صاعداً ، وتراءى له على الحافة طيف يتردد ، فأقبل نحوه ، فانهوى الطيف دفعة ، ورن فى أذن الفتى وقع سقطته ،وتتابعت إليه أناته يتوجع . فانحدر الفتى على الجدار ليبلغ مسقط الطيف ، فإذا هو فى البقعة التى احتوت « هنية » منذ أيام جسداً ملقى يئن فى خفوت .

وحوّم الفتى بعينيه على حذر وتخوف يبحث عن الطيف ، فلم يجد له من أثر ، وما إن خطا خطوة حتى صادف أخاه الشيخ قادماً من جانب المسجد ، فبوغت بمرآه ، وما عتم الشيخ أن قال فى استنكار :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! . . . أنت هنا ؟ . . . فيم بقاؤك فى الظلام ؟ !

فوجم الفتى واقفاً يدور رأسه ، وتزيغ عيناه ، ويبدو ارتباكه واضطرابه . . . واستأنف الأخ قائلا :

ماذا بك ؟ ما الذى تخفيه عنى ؟ . . . تكلم !

فصاح الفتى فى غير وعى :

لا تسألنى . . . لست مجيبك . . . هذا قضاء الله .

فتعجب الأخ من قوله ، وتدانى منه يتفرس فيه ، فرده الفتى عنه يصيح مخنوق الصوت :

لا تقربنى . . . لا تقربنى !

وانطلق يهيم على وجهه كمن أصابته جنّة . . .

وكان هذا آخر عهده بأخيه ، وبقرية أهليه .

وتقاذفته البلاد على تنائى أطرافها ، يحيا حياة الطريد

الشريد ، لا أنيس له ولا سمير إلا تلك الصفارة الحنون .

وها هو ذا يستقر به المطاف فى هذه المدينة ، حيث تراه ! . . . »

* * *

ونكس زامر الحىّ رأسه ، وقد نال منه الجهد ، فقلت وقد شجانى حديثه :

لماذا لا يستغفر الخاطئ ربه ، مستأنفاً تقواه ؟ إلى متى يتخلف عن بيت الله ؟

فرفع الرجل وجهه إلىّ ، وقد برقت الدموع فى محجريه ، وهمهم :

أترى يغفر الله له ما قارف من إثم ؟ أترى ينفسح لمثله المسجد الطهور ؟

وما هى إلا أن اجتذب صفارته من صدره ، وانكب عليها يوقع لحناً رقيقاً يتفطر من ضراعة وندامة وحنين !

مظاهرة ...

اتخذ « حسنين أفندى » سبيله إلى داره ، ضائق الصدر ، على جبينه قطوب ، تسرع به قدماه ، مديد القامة ، يهتز عوده فى السير اهتزازة النخلة حين تعتورها الرياح .

لقد كان فى مشربه المختار ، يقضى على مألوف عادته فترة الأصيل ، بيد أنه بادر إلى ترك المشرب بعد أن بنى عزمه على ألا يعود إليه ، حتى تستقر الحال ، ويستتب الأمان .

خير له أن يعتكف فى داره ، متنكباً عن دواعى القلق ، وأسباب الاضطراب ، ناعماً بالسكينة والطمأنينة فى مستقره الأمين ، آنساً بذلك السرب الألوف من قططه ، مسترخياً على كرسيه الوثير ، يستروح نسمات العشىّ من تلك النافذة التى تريه وجه الطريق .

بُعداً للمشرب فى ذلك العهد العصيب . . . فإنه لم يعد يتيح لقصّاده ما كان يتيح لهم من متعة وبهجة وإيناس .

كان الرجل فى مواضى أيامه يتوخى المشرب فى الأصائل ،

لكى تطالع عيناه أفواج الناس ومواكب النور ، ولكى يتلقط سمعه ما عسى أن يكون من أخبار وأحداث ، ولكى يطارح جلساءه أطايب النكات والأفاكيه . . . وهو فى الفينة بعد الفينة يشنف أذنيه بالاستماع إلى ما ينقله المذياع من الأغانى والأناشيد، فإذا أصاب من ذلك كله ما أصاب ، قفل إلى الدار ليستقبل فراشه رضىّ النفس هادئ الأعصاب .

وماذا يراد منه أن يفعل وقد ذرّف على الستين من عمره، وبليت قواه فيما مارس من وظائف حكومية أسلمته إلى التقاعد ؟

إنه فى مرحلته الجديدة من حياته ليعد الساعة التى يقضيها فى المشرب هى الساعة الخصيبة فى يومه الجديب .

أما الآن فلكأن الزمان قد نفس عليه هذه الساعة الطيبة ، وأبى إلا أن يحيلها ساعة فزع واهتياج .

ماذا بقى فى المشرب يحدوه ويستهويه ، بعد أن صار أشبه ما يكون بحومة قتال تدوّى فيها جلبة المناقشة والحوار ؟

الناس اليوم فى المشرب زرافات يتنازعون الصحف ، ويتبارون فى قراءتها والتعليق على ما فيها ، عالية أصواتهم ، ثائرة نفوسهم ، لا يفترون ولا يملون .

وليس عجباً أن يجرى ذلك فى المشرب ، والشعب كله يرتقب أن تتمخض الأيام الحاضرة عن موقف حاسم فيه تقرير لمصير البلاد .

لم يعد « حسنين افندى » يجد فى المشرب من يناقله الحديث فى أخبار الناس وأسرار البيوت ، يتخذ منها مثاراً للوم والاستنكار ، وسبيلا إلى التلهية والسلوى .

وما كان لأحلاس المشرب أن يشغلوا أنفسهم بما كانوا يشغلونها به من قبل ، والقوم فى طول البلاد وعرضها مصروفون إلى التأهب للكفاح ، واستقبال ما يطرأ من جسام الأحداث .

وهذا المذياع المهذار الذى كان طروباً ضحوكاً لا يسأم ترداد المهازل والمعابثات ، ما باله أصبح وقوراً محتشما كله جدّ وتزمت ، غناؤه تحميس للنفوس ، وأحاديثه تذكير بالواجب الوطنى ، وأنباؤه تمهيد للموقف الحاسم العتيد .

ما للدنيا من حول « حسنين أفندى » قد تبدلت ، فإذا هى عنف وقسوة ، وإذا هى دعوة إلى مقاومة ونضال ، وإذا هى فى مجمل أمرها ثورة أىّ ثورة ؟ . . .

ما شأن الرجل بهذا كله ، وهو فى شيخوخته يطلب الراحة

بعد التعب ، ويريد أن يستمرئ ما بقى من أيامه على ظهر الأرض سالماً معافى ؟

لقد أدى ما عليه للوطن ، فخدم الحكومة سنين طوالا ، طاهر الكف ، موفور الأمانة ، وخرج منها مشكور السعى ، حميد الأثر .

إنه ليذكر عهوده الغابرة ، فلا يفتأ يشيد بما كان يشيع فيها من أمن ويمن ورفاهية ، حيث لا موجب لثورة ، ولا دعوة إلى كفاح . . .

بلغ الرجل باب داره ، ورأسه تتناوح فيه الهواجس والأفكار ، فدخل عجلان يغلق الباب خلفه ، وقد واثق نفسه على ألا يغادر الدار حتى تنجلى العاصفة ، وتنزاح الغمة ، ويراجع الحياة سلام .

وكرت أيام لزم فيها الرجل مكمنه ، يصبح حيث يمسى ، ويمسي حيث يصبح ، لايزور ولا يزار ، ولا يعايشه من الناس إلا خادمه الصبي الذى يضطلع بمرافق الدار ويقوم على شؤون المطهى ، وليس له من أنيس إلا ذلك السرب الألوف من القطط ، يقضى معه أطيب الأوقات .

وفى إحدى الأماسىّ كان « حسنين أفندى » كشأنه متهالكاً على مقعده حيال النافذة ، يستنشى نسيم الليل ، ويرعى نجوم السماء ، وهو يستغفر الله من خطاياه ، وفى حجره قطه المختار « مشمش » يسترسل فى قرقرة كأنه يرتل بها صلوات وتسابيح !

وبينما كان الرجل آنساً بقطه ، يربت ظهره ، إذا هو على حين بغتة يكف عنه يده ، ويحدق إليه ، وما هى إلا أن همهم:

لقد أطلت المكوث معى ، حتى خدرت ركبتاى . . . أما آن لك أن تتزحزح ؟

وما لبث أن وكز القط فى غير عنف ، وهو يواصل قوله :

استيقظ يا صاح. . . أملكت ركبتىّ فأصبحتا لك وحدك؟ حقاً لقد أغرتك طيبة نفسى فجاوزت حدك .

وسرعان ما وكز القط مرات فى شدة وحدّة ، فرفع إليه القط رأسه يتبين : ما الخبر ؟ ولم يلبث أن تنحّى عن حجر سيده ، واثباً إلى أديم الأرض ، فى غير عناد ولا إنكار .

وجعل القط يتمطى ويقوس ظهره ، متعالياً به ، ثم قصد إلى إحدى النمارق ، فتكوّر عليها كأنه حلقة .

إن « مشمش » ليعجب من شأن سيده فى هذه الآونة . . .
ثمة شىء غير مألوف ، ثمة باعث على هذه الروح التى فقد بها « مشمش » ما كان يخصه به سيده من عطف .

لا مرية فى أن الرجل مغلوب على أعصابه ، ليس يملك لنفسه من قرار .

على أن « مشمش » لم يقم لذلك الانقلاب كبير وزن ، ولم يعره مزيد اهتمام .

ما برح « مشمش » يتبوأ مكانته فى الدار ، فهو عميد القطط غير منازع ، وهو موفور الحظ من رخاء وتنعيم .

واستأنف القط قرقرته عن كثب من سيده ناعم البال .

فألقى عليه الرجل نظرة حاسد ، وحدث نفسه يقول :

حقاً ما أسعد دنياك يا « مشمش» . أنت لاتحس ضيقاً ولا تلاقى من كرب . . . أنت تستمرىء حياتك بارئة من كل شوب . . . أكل ونوم . . . وهذه القرقرة التى تبعثها كأنما هى صوت معدتك الطحون ! . . . لو قضيت سجين الدار عاماً تلو عام لما فاتك من الدنيا شىء، لأنك حيوان أعجم لا تعقل ولا تفهم . . . أفحسبت الناس يماثلونك فى غباوتك وخمولك ،

يرضون أن تحتويهم الحوائط والجدران ؟ !

ونهض « حسنين أفندى » متبرماً متسخطاً يرمى القط بشواظ من عينه ، وملء نفسه زراية عليه ، واحتقار له . ولكن القط لم يعبأ بمايقول سيده ، وانخرط فى قرقرته المنسجمة ، وهو مكور يتداخل بعضه فى بعض ، حتى لا تدرى أين ذيله وأين رأسه ؟

وأدبر الرجل عن الحجرة يجتاب الدار ، وقد استبدت به الحيرة ، وعزّ عليه أن يستقر .

فى مثل هذه الساعة من أماسيه الماضية ، كان المشرب العامر الوضّاء يضمه إلى رفاقه ، حيث يثرثر ويقهقه ، ويسمع المعجب والمطرب !

أما هنا ، فى كسر البيت ، فإنه لا يجد من يتحدث إليه ، إلا هذا القط الخرف ، يتابع قرقرته المملولة التى تحاكى حشرجة الاحتضار !

وأحس الرجل بأن ريقه يغيض ، وأن حلقه يكاد يتشقق ، فرغب فى شربة ماء ، وذكر أنه طلب إلى خادمه منذ العصر أن يملأ القلل ، وأن يضعها على طنف النافذة البحرية ، فحث خطاه مؤملا أن يبل صداه بماء مثلوج .

ولما بلغ حافة النافذة ومدّ إلى القلل يده ، ألفاها ناضبة ليس فى واحدة منها قطرة ، فما عتم أن ثارت ثائرته ، وانبعث صائحاً :

يا « عبد الفتاح » . . . يا ولد يا « عبد الفتاح » . . .

وعدل عن النافذة ، متجهاً صوب المطهى ، وهو يدعو غلامه مرة بعد مرة ، وصوته تتجاوب به أرجاء الدار ، دون أن يظفر بمجيب .

وازداد الرجل من حنق ، وانطلق مهدداً :

سيرى . . . سيرى . . .

وفيما هو يذرع الحجرات ذهوباً وجيئة ، فتح الباب ، وبدا منه الغلام مقبلا يقول فى اهتياج :

سيدى . . . سيدى . . . خبر مهم . . .

فأشرع إليه الرجل نظرات احتقار ، وهو يحاول ضبط أعصابه ، وقال له :

أى خبر يا ولد ؟

— خبر إلغاء المعاهدة . . .

فأخذ « حسنين أفندى » وجعل يردد الجملة على لسانه :

المعاهدة ؟ . . . إلغاء المعاهدة ؟

فأعلى الصبي صوته بقوله :

لقد حدث هذا والله العظيم ! . . . بأذني سمعته . . .
انتهى الأمر . . . الحكومة ألغت المعاهدة الليلة !

وتوسط الصبي الردهة ، وصرخ قائلا :

فليسقط الطغاة . . . لا معاهدة بعد اليوم !

وشعر رب الدار بأن غلامه قد جاوز الأدب اللائق فى حضرة سيده ، وأنه قد رفع صوته متشدقاً أمامه ، مطلقاً للسانه العنان . . . فأراد الرجل أن ينهره ويزجره ، ولكنه ما لبث أن أمسك ، يحدوه باعث خفى لا يعرف له مأتى . . .

وعبرت فمه ابتسامة استخفاف وهو يقول رزين النبرة ، وقور اللهجة :

وهل تعلم معنى كلمة طغاة يا بطل ؟

فقال الصبي جريئاً :

نعم ، أعلم . . . فليسقط الطغاة . . . فليسقط المستبدون...
الجلاء ، الجلاء ! . . . الوحدة ، الوحدة !

وما كاد ينتهى الصبيّ من قولته ، حتى ترامت إلى الدار

صيحات الشراذم من غلمان الطريق ، يرددون :

الجلاء ، الجلاء ! ... . الوحدة ، الوحدة !

وبهتَ الرجل ، وتمشت الرهبة فى أوصاله ، ومثل يستمع للهتاف المتوالى ، وهو يتزايل على مدّ الطريق .

فأما الغلام فإنه ما كاد يسمع ذلك الهتاف ، حتّى راح يتواثب ويصفق ، وينظر إلى سيده قائلا :

صدّقتنى يا سيدى ؟ أتسمع يا سيدى ؟

وإذْ هدأت الجلبة تدانى الغلام من « حسنين أفندى » يقول :

أتريد عشاءك يا سيدى ؟

فأجاب الرجل مهزول الصوت ، يحاول عبثاً أن يلفظ كلماته فى فخامة وتنفخ :

لا أريده الآن . . .

وهمّ الرجل أن يأخذ على غلامه تقصيره فى ملء القلل ، ولكنه لم يزد على أن يشير إليه بيده أن ينصرف .

على أن الصبى لم يبرح مكانه ، بل شرع يقول لسيده ، وهو يهتز :

ستتألف غداً مظاهرة كبيرة . . .

وعلا الشحوب وجه الرجل ، وهو يهمهم :

مظاهرة ! مظاهرة !

ـ نعم ، مظاهرة كبيرة . . . تجوس خلال المدينة من أقصاها إلى أقصاها . . . مظاهرة تضم الطوائف كلها ، لكل طائفة رايتها . . .

وعمد الرجل إلى الباب ، يحكم إغلاقه بالمزلاج والمفتاح معاً . ولم يزُلْ عن الباب حتى استوثق من أمره كل الاستيثاق ، ورجع يجرّ خطواته إلى حجرته ، ملقياً بنفسه على المتكإ ، مهمهماً :

مظاهرة . . . لا حول ولا قوة إلا بالله ! . . . ألا يتركون الناس فى طمأنينة وراحة ؟

وعمد ذقنه بيده ، وقد اعتلجت أفكاره تدير رأسه ، وتطوف به كل مطاف .

وبكرة أصبح الرجل يتفقد غلامه ، فلم يجد له فى الدار من أثر ، وعجب منه كيف استطاع الخروج ، والباب مغلق ، والمفتاح فى حرز حريز !

وعجل الرجل إلى المطهى ، يفتش ويتعرف ، فاستبان له أن كوة عالية قد انكسر زجاجها ، وفطن إلى أن الغلام قد اتخذ منها إلى الطريق مهرباً . . .

ووقف الرجل يضرب كفاً بكف ، وهو يهدر ويبصق ، ويصبّ لعناته على ذلك الغلام المتمرد الشغوب . بل على ذلك الزمن النكد الذى صار فيه الغوغاء ذوى رأى وتدبير . يقحمون أنفسهم فى جسام الشئون والمعضلات .

وبقى الرجل وقتاً يزمجر ، فصكت سمعه صيحة عالية أفزعته ، ودنا من إحدى النوافذ على ترقب ومحاذرة ، فانجلى له أن الصوت ينبعث من المذياع فى بيت الجار . . .

وأرهف الرجل سمعه ، يتطلع ، فتناهت إليه عبارات حماسية تتردد فيها كلمات : « توحيد الصفوف » و « الكفاح حتى يتحقق الجلاء » و « بذل النفوس فى سبيل الوطن » . . .

وما أسرع أن تواردت على الطريق زمر من الناس يهتفون ويتصايحون ، فعلم الرجل على غير شك أن المدينة فى هذا اليوم يموج فيها تيار كهربى فوار يشبه اضطراب الجو قبيل العاصفة !

ولم يتمالك الرجل أن يتوخى نوافذ حجراته ، فيحكم إقفالها جميعاً .

واستقر به المقام فى حجرته يستريح ، فسمع طرقاً على الباب ، فتصامم عنه ، ولكن الطارق لم يمل ولم ييأس ، فنهض الرجل إلى الباب على كره ، وسأل :

من ؟

فكان الجواب :

اللبّان .

ففتح الرجل أغلاق الباب فى احتراس ، واستقبل « المعلم سند » وهو يناوله وعاء اللبن ، ويحييه بقوله :

صباح الخير يا « حسنين افندى » .

— صباح الخير يا معلم .

وهم أن يرد الباب ، ولكنه وجد نفسه مدفوعاً إلى مجاذبة اللبّان بعض الحديث ، وإذا هو يقول :

كيف الأحوال يا معلم ؟

— الأحوال طيبة . . . البلد كلها على قدم وساق .

— ولماذا ؟

— ألم تسمع نبأ المظاهرة ؟

— سمعت .

ـ ستشترك فيها بلا ريب ، فإن لذوى المعاش من الموظفين مكاناً خاصاً فيها . . . ولهم راية خاصة بهم . . .

ـ راية ؟

ـ نعم ، راية . . . ألا علم لك بهذا ؟

ـ أعلم . . . أعلم . . .

ـ أما راية اللبانين فهى راية عظيمة . طولها خمسة أمتار . . .

ـ وللبانين راية أيضاً ؟

ـ أنكون أقل منكم وطنية يا « حسنين أفندى » ؟ . . . كلنا مصريون !

ـ عفواً . . . لست أقصد . . .

ـ لقد اختارنى اللبانون لأكون فى مقدمة الفوج : أحمل الراية ، وأطلق الهتاف . . .

ـ أى هتاف ؟

فعلا الرجل بصدره ، وأرسل فى حلقه صيحة مجلجلة ، يقول :

الجلاء . . . الجلاء . . . لا احتلال بعد اليوم !

فحدق « حسنين أفندى » إلى « المعلم سند » هنيهة ، ثم

قال له وهو يبتسم فى تخابث :

أنت تعرف معنى الجلاء حتما . . .

– وكيف لا ؟ أجاهل أنا ؟

– وماذا يعود عليك من الجلاء يا معلم ؟

– نعيش فى هناء ورخاء . . . الخبز يرخص ، والملابس تتيسر ، والخير يعم . . .

واقترب « المعلم سند » من محدثه ، آخذاً بيده ، يشد عليها ويقول :

صلّ على النبى . . . أزمة وتنفرج . . . الله معنا !

ودخل « حسنين أفندى » مسكنه ، مغلقاً بابه عليه ، ومضى يسوق رجليه ، وهو يجمجم :

لذوى المعاش مكان خاص فى المظاهرة . . . ولباعة اللبن راية وهتاف !

واتجه الرجل إلى المطهى ، وفى أذنيه أصداء حديثه مع بائع اللبن ، وأقبل يعدّ الفطور لنفسه وللقطط ، وكان قد تعود أن تحيط به فى مثل هذا الوقت ، تستنجزه الطعام فى مواء وهرير ، فأدهشه أنه لا يرى لقط ظلا فى هذا الصباح ، فدار بعينيه فى

الحجرات ، يدعوها بلهجته التى ألف أن يدعوها بها ، ومضى يناديها بأسمائها :

« مشمش » . . . « بلبل » . . . « فواكه » . . . أين أنت أيتها القطط المتكاسلة ؟ . . . هذا طعامك قد أعد .

واشتد العجب بالرجل حين انتظر طويلا ، دون أن يستجيب له من القطط أحد . . . فرجع إلى المطهى ، وحانت منه نظرة إلى الكوة العالية التى انكسر زجاجها ، وانطلق الغلام منها ، فغمغم يقول :

أترى القطط قد هربت أيضاً ليكون لها نصيب المشاركة فى هذا اليوم المشهود ؟ إن هذا السرب من القطط لم يبرح البيت منذ عهد عهيد ، فما باله فى هذا اليوم يلتمس له مخرجاً إلى الطريق ؟

وبلغت سمع الرجل أنغام موسيقية يبعث بها مذياع الجار ، وقد راسلها نشيد حماسىّ فوار . . . فلبث الرجل يصغى وقد راقه اللحن ، وما هى إلا أن جاشت نفسه ، واعتلجت فيها مشاعر . . .

وألفى أصابعه تنقر حافة المائدة نقرات يتابع بها وقع الأنغام ،

ثم ما عتم أن راح يخطو خطوات راتبة كأنها خطوات جندى . . . وانتبه لما يفعل ، فأدركه خجل . . . أطفلٌ هو تملك لبه أناشيد الصبيان ؟

وشرع الرجل يطعم ، وأنغام المذياع تتوارد على أذنيه ، حاملة إليه ألوان الأهازيج ، فكان يرعيها سمعه ، فتسرى فى أوصاله باعثة فيها الهزّة والانتفاض .

وانكب على طعامه يلتهمه التهاماً ، وخفتَ صوت المذياع شيئاً فشيئاً ، حتى انقطع ، فحمل الرجل قدح القهوة إلى حجرته ، يترشّفه فيها على مهل ، وقد حاصرته ألوان من الخواطر والأفكار تسبى مشاعره . . .

وفى الفينة بعد الفينة تتهادى إلى سمعه أصداء تصايح وهتاف ، فكان يشرئب إلى النافذة ، مستطلعاً ما عسى أن يكون ، ثم يتبوأ مقعده يترشف ما بقى من قهوته .

وعلى حين بغتة سمع صوتاً جهيراً ينادى :

فليسقط الغاصبون !

فانبعثت أصوات أخرى تردد النداء فى حماسة واحتداد .

الغاصبون . . . الغاصبون !

وحملته الذكرى إلى عصر شبابه ، حين كان موظفاً طاوَع حركة الإضراب العام إبان الثورة الوطنية . . . إنه لم ينس حتى اليوم وقفة المذلة والمهانة أمام المفتش الإنجليزى وهو شامخ الأنف ، منتفخ الشدقين ، يبالغ فى تعنيفه ، ويستهزئ بوطنيته ، وينتقم منه ما وسعه سلطانه عليه أن ينتقم . . .

إن « حسنين أفندى » ليشعر الآن بأن هذه الصورة القديمة كأن يداً تخرجها من زوايا النسيان ، وتجلو عنها غبار الزمان !

الغاصبون . . . فليسقط الغاصبون !

وضاق الرجل بمجلسه ، فقام يتسكع فى الحجرات ، وعرج على المطهى ، فألفى طعام قططه لم يمس . . . يا عجباً لهذه القطط ! . . . كيف استخفت فلم تعد لكى تتناول فطورها ؟ وكيف رضى أن يتابعها فى هذا الصنيع قطه المختار « مشمش » ، ذلك القط الهرم الذى يلازمه ويصافيه ؟ أوَيجحد « مشمش » فضل سيده عليه ، ويتركه وحيداً فى هذا اليوم الصاخب العصيب ؟

وجنح الرجلُ إلى النافذة يطل ، فإذا البيوت تنفض أهلها من شبان وشيب ، وإذا الناس يجتمع بعضهم إلى بعض ، وهم

يتسايرون فى حمية ، ويتنافلون الأحاديث فى جدّ ، متجهين جميعاً صوب الطريق العام . . .

ومن ثمّ أخذت الأصوات تترسل على سمع الرجل متواصلة متميزة ، تحمل ألوان الهتافات والنداءات ، فترك الرجل نافذته يغدو فى الحجرة ويروح ، وفى نفسه حيرة ، وفى صدره حرج .

ها هو ذا قد تخلى عنه غلامه ، وتخلت عنه قططه ، وبقى وحده فى عقر داره يخيم عليه الركود والخمود ، على حين أن المدينة كلها على قدم وساق ، وأن الناس أجمعين متظاهرون يحتويهم الطريق !

وأعدّ الرجل لنفسه قدحاً آخر من القهوة ، وبلغ به الاهتياج كل مبلغ ، فكان يتنقل فى أرجاء مسكنه ، والقدح فى يده ، تارة هو فى المطهى تصافح سمعه الأناشيد الحماسية ، وطوراً هو مطل من النافذة يشهد الناس متزاحمين فى ضوضاء . . .

ولمحت عينه فوجاً من فتيات صغيرات ، تكسوهن أردية بيض ، وفى أيديهن رايات خضر ، وعلى وجوههن تهلل وإشراق كأنهن قد خرجن فى يوم عيد ! . . . فجعل الرجل يقفوهن بنظراته ، وقد أخذن بمجامع قلبه . . . يا لله ! . . .. حتى

هؤلاء الصغيرات لهن فى مظاهرة اليوم نصيب !

وتزايلت رويداً حركة الطريق ، وقلت السابلة ، وتضاءل الصخب ، وأخيراً أقفرت المسالك ، وأصبحت الدور خاوية قد أطبق عليها صمت . . .

لقد نزح الأهلون إلى الميادين ، وإن « حسنين أفندى » فى وحدته وسكونه ليسمع على البعد حسيس الضجة وأصداء التنادى والهتاف !

وألقى الرجل قدميه تدفعانه إلى الباب ، فتسلل خارجاً منه ، ووقف على رأس الشارع حيران يتلفت . . .

واستبانت له بعض أصوات ، فجعل يرهف لها السمع ، وما لبث أن انطلق صوب الطريق العام . . .

وكان كلما مضى خطوات تجلى له الضجيج ، كأنما يشده نحوه ، ويهديه إليه .

وما هى إلا أن أشرف على مزدحم الناس،فانتبذ من الطوار مكاناً يتطلع منه ، وبدت له أفواج المتظاهرين كأنها الموج يلتطم ، فانعقدت بها عينه يرقبها فى حمية واهتياج . . .

إن هذه الخلائق فى شغل بما هى فيه من الأمر العظيم . . .

فلقد جاز به فى غمار الزحام أناس ممن يعرف ، فلم يأبهوا له ، وتابعوا مسيرهم فى الموكب ، لا يصرفهم عن أمرهم شىء !

ولاح له بين الزحام بائع اللبن « المعلم سند » ماثلا على أعناق رفاقه من الباعة وهم يحملون أوعيتهم الكبيرة بين أيديهم وقد اتخذوها صنجاً يضربونه . . . وهو يهتف فيهم بأعلى صوته :

فليسقط الغاصبون !

والرفاق وراءه يرددون الهتاف ، والجموع من حولهم يصفقون معجبين متهللين . . .

ورجف قلب « حسنين أفندى » وبرقت عينه ، وأحس قدمه تنساب به إلى الأمام ، فسار لا يدرى أية غاية يقصد ؟ حسبه أنه مع الناس يسير !

وما لبث أن دارت به الزحمة ، واحتوته ألفافها المتشابكة ، وضغطته الجماهير ترج به ، والنداءات تصك سمعه ، فاستشعر الدم فى عروقه يتوقد ، وأعانته قامته المبسوطة على أن يطوف ببصره يمنة ويسرة ، فراعه ذلك البنيان المرصوص الذى يمضى قدما .

لم يعد للطريق وجود . . .

فهذا الذى يراه « حسنين أفندى » ليس إلا بحراً متدفع

الموج ، قوىّ الهدير !

لم يعد للطريق وجود . . .

فهذا الذى يزخر به المكان ويعج ليس إلا قلب أمة يخفق ، قلباً عزيزاً طعنته الأحداث ، فتسايل منه الدم قانياً يشعل المشاعر ويوقظ الأرواح . . .

وما عتّم الرجل أن انفجر صائحاً :

لا استعمار بعد اليوم . . . فليسقط الطغاة !

فإذا الأفواج المطيفة به تردد صيحته ، وإذا هو يواصل النداء أجهر صوتاً وأشد عنفاً ، فلا تمل الجموع ترديد ندائه فى قوة ونشاط . . .

وراعه أمره . . . أحقاً هو صاحب ذلك الصوت المدوّى؟ أحقاً هو باعث تلك النداءات ونافث ذلك الحماس ؟

وزهيت نفسه بهذا الصنيع ، وندّت منه نظرة إلى الراية فى يد حاملها ، فألفاها تترنح وتوشك أن تتهاوى ، فما أسرع أن امتدت يده ينتزع ساريتها ويسمو بها ، فخفقت الراية تظل الرءوس ، فتعالت الصيحات « لحسنين أفندى » تحييه وتشيد به فى إكبار .

وما هى إلا لحظات حتّى احتملته الناس على الأعناق ،

فشمخ بالراية يجأر هاتفاً برفعة الوطن وسقوط الغاصبين .

وتقدمت الجموع في سيرها حتى وردت ميدان الثورة ، وهنالك تحلق كل جمع حول خطيب يفيض في تكريم البطولة وتمجيد الاستشهاد .

وما كاد « حسنين أفندى » يتوسط الميدان فى جمعه ، ويسمع الخطباء بين الجموع متنافسين ، حتى ألفى نفسه يرتجل الكلام ارتجالا ، ويرسله إرسالا ، والسامعون له يوالونه بتصفيق الإعجاب .

وبغتة اختنق الكلام فى حلق الرجل ، وما لبث أن ترنح جسمه يريد أن ينقض ، وريع الناس لذلك ، فسارعوا إلى الرجل ينزلونه ويتفقدون أمره ، ولا يدخرون وسعاً فى إسعافه وإنعاشه .

وفى ضحوة غد كانت الوفود يزحم بعضها بعضاً قبالة الدار التى يقيم فيها « حسنين أفندى » وبعد قليل سارت هذه الوفود يتقدمها نعش الرجل مسجى بالراية الخضراء ، كأنما هو ما برح فى مظاهرة أمس : يحمل الراية ، ويقود الجمع ، ويخطب فى تكريم البطولة ، وتمجيد الاستشهاد !

إلى السارق ...

فى قرية من قرى الريف البعيد ، على حجر عريض ، بالقرب من أحد المخازن المهجورة ، جلس الفتى « عبد السميع » يحد نظره إلى الطريق الزراعى الممهود ، ذلك الطريق الذى يخترق أراضى « حسن أغا » وما وراءها من المزارع ، تصطف على حافتيه أشجار فارعة معتدلة ، كأنها أحراس أيقاظ تتولى خفارة هذه البقعة المترامية الأطراف .

وكان الفتى يبعث فيما أمامه نظرات حائرة قلقة ، تجوز فى تشوّف وارتقاب بمن يعبرون السبيل . فهنالك صبية يتواثبون خلف الدواب فى مرح واستخفاف . وأولئك رجال يلقون على أكتافهم الفئوس ، فى وجوههم سيماء الركون إلى محتوم المصاير ومكتوب المقادير . وهؤلاء نسوة تخب فى أكسية سابغة قاتمة ، وقد انبسطت قاماتهن ، واشرأبت هاماتهن ، ومضين فى لباقة ودربة ، يحملن على رءوسهن قفاف الزاد .

وتطلق محيا الفتى بغتة ، وافتر ثغره عن ابتسامة بدت بها

أسنانه مرصصة لامعة ، فنهض عن الحجر ، وافى العود، عريض الأكتاف ، وسيم الملامح ، ينتفش فى صدره العارى شعر غزير ، وينحسر جلبابه عن ساقين ضخمتين كأنهما قدّتا من جذوع النخيل !

وما هى إلا أن صاح الفتى منادياً فى تكرار :

« صابحة» . . . يا « صابحة » . . . يا بنت يا « صابحة » .

وكانت « صابحة » قد أخذت بمقود حمار على جانبيه غرارتان فارغتان . . . فما إن سمعت النداء حتى استدارت نحو مبعثه ، فألفت « عبد السميع » مهرولا إليها ، فاستشعرت نفسها ابتهاجاً كاد يتجلى على قسمات وجهها ، فأمالت خمارها الأسود على فمها ، تستر ابتسامها . ولم تلبث أن داعبت ظهر الحمار بضربات من عصاها ، فهم الحيوان مغزاها ، فانفتل يقمص عائداً إلى الدار .

وبلغ الفتى مكان الفتاة وهى تعانى أن تكتم ما بها من اهتياج ، ولا تجد من وسيلة لذلك إلا أن تشد خمارها على جانب وجهها طوراً بعد طور ، ومضى الفتى بفتاته إلى المخزن المهجور ، ووقفا ببابه فى صمت وقلق .

وما هى إلا أن أطرق « عبد السميع » ، وطال به الإطراق ، وهو يحدّق فى أديم الأرض ، ثم همهم يقول :

لم تحضرى للعمل منذ أيام يا « صابحة » !

فتراخت يد الفتاة عن خمارها ، تنفض الغبار عن جلبابها ، فانبلج محياها تتنضر فيه زهرة الشباب . ورفع الفتى إليها بصره يتملىّ مفاتنها ، فأسرعت الفتاة إلى خمارها تسبله ، وفى عينيها حيرة وتحرّج .

أنس « عبد السميع » إلى « صابحة » منذ وصل بينهما العمل فى دار « حسن أغا » إذ كان الخادم الخاص لرب الدار ، يضع فيه ثقته ، ويستودعه سره ، فهو الأمين على متاعه وماله ، وهو الحريص على أداء واجبه فى نزاهة واستقامة وإخلاص .

وكانت « صابحة » تتردد على دار « حسن أغا » كلما استدعت بعض الأعمال استخدام صبايا القرية حيناً بعد حين .

ونبتت بين الفتى والفتاة مودة وألفة ، فشاع فى القرية ما بينهما ، حتى إنهما كانا إذا تراءيا معا تهامس الناس يقولون :

هنيئاً للحبيبين !

وتناهى إلى والد « صابحة » ما بين ابنته وبين الفتى

« عبد السميع » من محبة وهيام ، فلم يقع ذلك منه موقع الرضا ، وكيف يروقه ذلك وابنته مهوى فؤاد « شيخ البلد » نفسه ، والأمل وثيق فى أن يتم بينهما زواج .

وحدث ذات يوم أن توخى الفتى منزل والد « صابحة » يطلب يد ابنته ، فثار عليه الرجل ، وعنف به ، وأنكر منه أن يجرؤ على خطبة فتاته . . .

فأراد « عبد السميع » أن يؤيد طلبته ، ويعزز خطبته ، فانبرى يكشف لوالد « صابحة » عما يعتلج فى نفسه من مشاعر الود وعواطف الحب ، فما هى إلا أن عصفت بالرجل عاصفة الغضب ، فاندفع يقول للفتى :

أنت تهين شرفى بما تقول . . . أتدرى من تطلب يدها ؟ أقادر أنت على أن تمهرها ؟ اغرب عن وجهى ، وإياك أن تتعرض للفتاة ، إياك أن توقعها فى حبائلك ، وإلا ساءت العقبى .

فخرج الفتى خزيان محسور القلب ، ولكن ذلك لم يفت فى عضده ، ولم يفقده الرجاء . . . فعوّل على أن يعمل على إرضاء والد « صابحة » ، كلفه ذلك ما كلفه من جهد وعنت !

تواصل صمت « صابحة » وهى ماثلة قبالة فتاها يتملاها

ولا يملّ ، وفى نظراتها يستبين ما طبعت عليه نفسها من طهارة وصفاء ، وما يعمر جوانحها من طيبة وإيمان .

وكأنما ذكر الفتى سؤاله لفتاته منذ فترة : لماذا تخلفت عن العمل منذ أيام ؟

فاستأنف يقول :

أكانت غيبتك لمرض يا « صابحة » ؟

فنكست رأسها ، وهى تجيب :

لم أكن مريضة !

ـ ما سرّ غيبتك إذن . . . ؟

فازدادت الفتاة من إطراق ، وجعلت تفرك يديها ، ولا تجيب ، فقال لها الفتى :

ومتى تعودين للعمل ؟

فهمهمت تقول :

لن أعود !

فعرت الفتى دهشة ، وتعجل قائلا :

كيف لا تعودين ؟

فهمت الفتاة أن تجيب ، ولكن الكلمات كانت تحتبس

بين شدقيها ، وأخيراً رفعت إليه رأسها تقول :

ذلك ما أراده أبي !

— ماذا جرى ؟

فشرعت الفتاة تدير على وجهها طرف خمارها ، وهي تقول :

لقد ساء أبي أن تكون بيني وبينك صلة !

فاهتاج الفتى صائحاً :

أيريد أبوك أن يفرق بيننا ؟

فقالت في استسلام :

ذلك ما يريد .

— وما رأيك أنت ؟

— ماذا في مكنتي أن أصنع ؟

فتوقدت عين الفتى ، وقال مضطرب الأنفاس :

لا يستطيع أبوك أن يفرق بيننا . . .

فاندفعت الفتاة تقول :

إن هي إلا أيام . . .

فصاح الفتى :

ثم ماذا يكون ؟

فلم تجب الفتاة ، فأتبع الفتى قوله مغيظاً :

لماذا لا تتمين قولك ؟ لماذا لا تصارحينني بأنك أصبحت مخطوبة « لشيخ البلد » ؟ . . . ولكن أقسم لك بالله العظيم ثلاثاً إن هذا الزواج . . .

وهنا اختنق صوته ، ونفرت أوداجه ، واضطربت كلماته ، وهو يقول :

أقسم لك بكل يمين إن زواجك هذا لن يتم . . . لن تكوني لغيري ما دمت حياً !

ورانت على وجهه جهامة وقطوب ، واكتست قسماته طابع الشراسة والعنف ، فعاجل الفتاة توجس وحذر ، وزوت بصرها في رقبة وجزع ، وراحت تسائل نفسها : ما لها ترى فتاها على حال لم تعهده من قبل ؟ ما لها ترى سحنته قد انقلبت سحنة نمر مفترس ؟ أهذا « عبد السميع » الوادع الطيع الذي لم ينشب بينه وبين أحد يوماً شجار ؟

ولبث الفتى على حاله هنيهة مكروب الأنفاس ، يبعث من عينيه نظرات شيطان . . . فأقبلت عليه الفتاة تسكن من

روعه ، وتهدئ من ثائرته ، وهى تقول :

روّق دمك يا « عبد السميع ». . . وخل عنك الطيش والنزق !

فاستلان الفتى يقول :

ماذا تريدين منى أن أفعل ؟

— ليس لنا إلا أن نتذرع بالتؤدة والصبر .

— إلى متى نصبر ؟ أننتظر حتى يخرج الأمر من يدنا ؟ أنسكت حتى يتم كل شىء ؟

فأشرعت الفتاة حدقتيها إلى السماء ، كأنها تخصها بقولها :

الأمر كله بيد الله . . . وإنا لمشيئته خاضعون !

فهمهم « عبد السميع » ساهم النظرات يقول :

لم يبق لى فى قلبك حب يا « صابحة » . . . ليس هذا شأن المحبين !

فصمتت الفتاة برهة ، ثم انخرطت فى البكاء دفعة ، فاضطرب الفتى فى وقفته ، ومال عليها يأخذ بيدها إلى داخل المخزن المهجور ، وأجلسها هنالك على كومة من المشيم ، وطفق يمسح دمعها ، ويقول لها فى تلهف وتوجع :

لا تبكى يا « صابحة » . . . فإن بكاءك يذيب قلبى . . .
إنى على ثقة بحبك إياى . . . ولكن هذه الخطبة وقعت من
نفسى كأنها طعنة خنجر . . . لن أدخر وسعاً فى سبيل فسخ
هذه الخطبة . . . سأعود إلى أبيك أخطبك إليه ، وما أحسبه
هذه المرة يردنى كما فعل من قبل . . . ليوافقنّ . . . ليوافقن . . .

فحدقت إليه « صابحة » وعيناها مخضلتان ، وسألته :

كيف يوافق أبى على خطبتك إياى ؟ كيف تفسخ خطبة
« شيخ البلد » ؟

فهم « عبد السميع » أن يتكلم ، ولكن شرق بريقه ، فلم
ينبس ، وظلت الكلمات تتقاتل بين شدقيه ، وعيناه تبصّان ،
وأخيراً أفلتت منه هذه الجملة :

ليوافقن أبوك على أن أخطبك لى . . . الوسيلة هذه المرة
حاضرة . . .

ــ أية وسيلة ؟

فجعلت حدقتاه تدوران فى محجريهما ، لا يقر لهما قرار . . .
وبعد قليل مدّ يده إلى كتف الفتاة يهزها ويقول :

عندى المهر . . . عندى المهر !

فرفعت الفتاة يدها إلى عينها وأنفها ، تمسحهما بكمها .
وتألقت على وجهها ابتسامة ، وحملقت تقول :

أعندك المهر ؟ . . . أعندك ثلاثون جنيهاً ؟

— عندى . . . عندى !

— معك ؟

— معى . . . فى جيبى . . . أتريدين أن تريها ؟

ثم دس يده فى جيبه ،وأخرجها تحمل رزمة من ورق النقد ، ومضى يقلبها أمامها مهتاج الأوصال ، وهو يعدّ بصوت مسموع :

خمسة . . . عشرة . . . خمسة عشر . . .

فلما بلغ الثلاثين سما إلى الفتاة ببصره يقول :

هذا مالك يا « صابحة » . . . هذا مهرك الذى سأقدمه غداً إلى أبيك . . . تأمليه . . . خذى هذه الأوراق فقلبيها بين يديك ، إنها لك وحدك !

وألح عليها فى أن تأخذ ورق النقد ، بيد أن « صابحة » أبت أن تمد إليه يمينها ، إذ كانت شاردة الفكر ، تسأل :

من أين لك هذا المال يا « عبد السميع » ؟ . . .

فعقد الفتى ما بين عينيه ، وأجابها :

ليس لك أن تعلمى . . . حسبك أن مهرك حاضر !

وتكلمت « صابحة » كأنها تناجى نفسها بقولها :

ليست لك دابة فأقول إنك بعتها ورجعت بثمنها !

ثم سكتت لحظة تحدق إليه وتقول :

وليس لك أقارب فأقول إنهم أقرضوك أو أعانوك !

فقال « عبد السميع » ثائراً :

لم أستدن من أحد قريب أو غير قريب !

فاستكملت الفتاة قولها :

أما سيدك الشحيح « حسن أغا » فهيهات أن يجود لك بشىء . . . أنّى لك هذه الجنيهات الثلاثون ؟ اصدقنى !

فاغتم الفتى لهذه المحاصرة التى تديرها حوله الفتاة ، وقال فى شدة واحتداد :

لا شأن لك بشىء من هذا كله . . . لست مسئولة !

فقالت فى اهتمام :

أريد أن أعلم مصدر هذا المال . . .

فصاح يقول :

لقد هبط علىّ من السماء . . . فلا تسأليني من أين ؟

فواجهته الفتاة بنظرات استشفاف تتوقد فطنة وفراسة ، وهو يحاول أن يزيغ عنها بصره ، كأنه يحذر أن تقرأ ما ستر من أمره . . .

ولبثت الفتاة وقتاً وهى تتكشف وتتعرف ، ثم ضربت صدرها بيدها وهى تقول :

أخشى أن يكون هذا المال مال « حسن أغا » . . . وأنك مددت إليه يدك !

فصرخ « عبد السميع » مرتبكا يقول :

ما هذا الكلام الفارغ ؟ قلت لا شأن لك بشىء من هذا كله . . . أنت تقحمين نفسك فيما لا يعنيك !

— الأمر واضح يا «عبد السميع» . . . ليس المال مالك، فردّه مكانه ، واستعذ بالله من الشيطان !

— إنه لى ، أتصرف فيه كما أشاء . . .

— بل إنه ليس لك . . . فلا تكابر !

— أتريدين أن تضيع الفرصة ، وأن تتعذّر علىّ الخطبة، فيتم « لشيخ البلد » أن يفعل ما يريد ؟

— لا يكون مهرى من مال حرام !

فهاج الفتى قائلا :

ما هذا الهراء ؟ سأدفع بهذا المال إلى أبيك وأنا أخطبك إليه . . . وستكونين لى على الرغم من كل شىء !

فأقبلت عليه « صابحة » تلاطفه ، وتقول معسولة الحديث :

لا يسؤك قولى يا « عبد السميع » . . . إنى أحبك ، وأحب الخير لك ، وهذا المال الحرام لا بركة فيه ، ولا نفع منه . . . وإن زواجاً يتم به لا يرضى الله عنه !

وتساقطت العبرات على وجنتى « صابحة » وهى تتضرع إلى فتاها قائلة :

عدنى أن تعيد المال إلى صاحبه !

— لن أعيده إليه . . . لقد أصبح فى حوزتى . . . لا يستطيع أحد أن يسترده منى !

فشرقت الفتاة بدمعها ، وصاحت مخنوقة الصوت :

لا يكون مهرى مالا مسروقاً . . . لا أقبل . . . لا أقبل أبداً !

فمال عليها يكلمها مشبوب الفؤاد :

وأنا لا أطيق التخلى عنك يا « صابحة » . . . محال أن تكونى

لغيرى زوجاً !

والتصق بها يصعّد أنفاسه المتوقدة ، وهو يقول راعش الصوت :

من أجلك يا « صابحة » سرقت هذا المال . . . سرقته من خزانة « حسن أغا » سيدى وولىّ نعمتى . . . ولكنها سرقة يعلم الله أنها عادلة . . . إنى فقير معدم ، لا حول لى ولا طول ، وقد ابتلانى الله « بشيخ البلد » ينافسنى فيك بجاهه وثرائه . . . فبأى سلاح ترينى أحاربه ، وأنا كما تعهدين ؟ لقد سرقت ، ولست أبالى أن أسرق ، إذا كان ذلك سبيلا إلى أن نحيا معاً حياة الهناءة والنعيم . . . لقد قتلنى نبأ خطبتك « لشيخ البلد » ، فقطعت ليلى جالساً القرفصاء ، جاحظ العينين ، وبغتة خطر لى أن أفعل ما فعلت . . . أن آخذ هذا المال . لا أدرى كيف ساقتنى قدماى ، فمددت إليه يدىّ . . . وما أكثر ما وجدت فى الخزانة من مال ، ولكنى لم أصب منه إلا مهرك المنشود . . . قليل من كثير ، وقطرة من بحر . . . ويشهد الله أنى أنوى ردّ المال الذى أخذته حين يتيسر لى فى قابل أيامى أن أرده شيئاً بعد شىء . . . ذمتى لا تقبل مال أحد . . . حدّ الله بينى وبين مال الناس !

وكانت « صابحة » ما برحت تنشج مكتئبة النفس ، وشعرت بأنفاس فتاها تسبح على وجهها ، وبفمه يلامس وجنتها ، وهو يدس ورق النقد فى كفها ، ويقول لها فى صوت أبحّ كأنه فحيح الأفاعى :

أحبك يا « صابحة » . . . لا عيش لى إلا بك يا « صابحة » . . . أنت روحى . . . أنت نور عينى ! . . . ذلك هو مالك فخذيه ، وتصرفى كما تشائين فيه . . .

وطفق « عبد السميع » يلتهم من خدّ الفتاة قبلات تلو قبلات ، فكانت « صابحة » تشعر بهذه القبلات كأنها لسعات عقرب . . . كما أحست يدها لذع النار حين لمست ورق النقد . . . فإذا هى تدفع فتاها عنها ، وتنأى بنفسها عنه ، وهى تقول :

دعنى يا « عبد السميع » . . . دعنى !

ووقعت عينها عليه ، فأنكرت ما ترى من سحنة راعبة تتمثل فيها نزعات الشر والأذى والافتراس . . . ولكأن هذا الوجه صفحة من الدم قد علتها غبرة قاتمة . . . فما لبثت « صابحة » أن استشعرت مسّ الخوف يسرى فى حناياها . . . فظلت

تتناءى عن الفتى ، وهى تتوسل إليه أن يدعها وشأنها ، ولكن « عبد السميع » لم يكن يفهم مما تريد شيئاً ، وأخذ يقبل عليها فى تلك الهيئة الشنعاء ، فلمح وجهها تتقلص قسماته ، وشفتيها تتأهبان لإطلاق صرخة . . .

فما أسرع أن قفز إليها يحصرها بين ذراعيه، ويحتضنها بشدة ، وهو يرغو ويهدر . . .

ونشبت بين الفتى والفتاة معركة كانت الغلبة فيها له . . . فانبعثت « صابحة » تطلق الصيحة بعد الصيحة ، ولكن « عبد السميع » أطبق على فمها بيده الغليظة ، يرد صراخها إلى حلقها مقهوراً مهزوماً . . .

على أن الفتاة استطاعت أن تزحزح يده شيئاً عن فمها ، وهى تقول :

اتركنى . . . لا أقبلك . . . اذهب عنى . . . إنى أكرهك!

فأجابها الفتى بصوته الأجشّ الموحش :

لن تكونى زوجاً لغيرى . . . أنت تحبيننى وأنا أحبك !

— بل أنا أكرهك . . . أكرهك !

فضغطها الفتى ضغطة عنيفة ، فندت عنها صرخة عالية

مفزعة ، تجاوبت بها أرجاء المخزن ، فاضطرب « عبد السميع » في موقفه ، وخيل إليه أن الناس موشكون أن يحدقوا به ، وأن الفتاة مفلتة من يده ، صائرة إلى سواه . . . إلى « شيخ البلد » غريمه !

وأحس الرجفة تهزّ كيانه ، وكأن غمامة تنبسط على عينيه . وإذا بيديه تحوطان الفتاة فتضغطان عنقها ، وتكتمان أنفاسها ... على حين كان فمه يجمجم هذه الكلمات كأنها خوار ثور محتبس:

لن تتزوجي « شيخ البلد » ! ... لن تكوني لأحد دوني ! ... أنت لي وحدي !

وتداعت قوى الفتاة ، فتراخت عنها يدا « عبد السميع » فإذا هي تتهاوى على كومة الهشيم . . .

ومكث الفتى يحدق إليها لحظات ، وأخذ يستعيد وعيه ، ويثيب إليه رشده ، فركع بجوار فتاته يهزها ، وهو يهيب بها قائلا :

انهضي . . . انهضي !

واندفع يلكزها بقوة ، وقد علا صوته في رعشة يقول :

ما لك لا تجيبين ؟ . . . انهضي !

وأخذ بكتفها ينهض بها ، فألفى رأسها يميل على صدرها ، وإذا بجسدها يسقط من بين يديه ، لا حراك به .

فسدّد الفتى نظره إليها فى لوعة وفزع ، وهو يرتد عنها خطوات ، وما عتم أن صاح :

كلا . . . لم أفعل شيئاً !

ثم انكفأ على التراب يمرّغ وجهه فيه ، وينبش الأرض بأظفاره ، وهو يئن ويتوجع .

وكان « حسن أغا » آنئذ يجوز بتلك البقعة يتطلع ، وقد أكب على سبحته يتمتم ، وهو يجر قدميه فى خفيه الباليين ، تكسوه جبته الناصلة التى تكاثرت فى جوانبها الرقاع ، وعلى رأسه طربوشه الأزعر يتراخى على أذنيه .

وبينا هو سائر إذ تراقى إلى سمعه أنين ، فدنا من المخزن يتبين ، فرأى « عبد السميع » على حاله يتقلب ، فهرع إليه يقول :

ماذا بك يا « عبد السميع » ؟

فسما إليه الفتى برأسه ، ووجهه مغبر ، وعيناه تغشاهما العبرات ، وقد بسط يده برزمة ورق النقد ، وهو يقول فى

حشرجة المحتضر :

دونك مالك . . . حدّ الله بيني وبينه !

فسرعان ما لقف « حسن أغا » رزمة الورق ، وهو يتفحصها ويسأل :

ألم تمدّ يدك إلى سواها ؟

فصاح به الفتى محنقاً :

ابعد عني . . . دعني !

وفي هذه اللحظة ، لمح « حسن أغا » جثة الفتاة على الهشيم ملقاة ، فتدانى منها مذعوراً يستكشف ويتعرف ، فما إن تجلت له حقيقة أمرها ، حتّى اضطرب في وقفته ، وارتد إلى الوراء راكضاً يصيح :

إلى السارق ... إلى السارق ... إلى القاتل ... إلى القاتل !

فاته القطار . . . !

بلدة « المحاسنة » قرية من تلك القرى القابعة فى صميم الريف ، لا يميزها إلا شيئان : تلك المحطة العجوز الشوهاء التى يقف عليها خلال اليوم قليل من قطارات الركاب فى ذهاب وإياب ، وذلك المكتب الذى يحمل على جبينه لوحاً شاحباً ترياً ، تقرأ عليه ما تبقى من حروف كلمة « بريد » .

فى هذا المكتب يتربع « العنترى أفندى » يصرّف الأمور ، وهو رجل تكاملت له الأربعون ، ظل يعمل فى مكاتب البريد منذ التحق بخدمة الحكومة ، وما زال يتنقل من صقع إلى صقع حتى اطمأن به المقام وكيلا لمكتب بلدة « المحاسنة » ، فلبث بها قرابة خمسة أعوام لا يصافح وجهه بلداً سواها .

وكان « العنترى أفندى » يقضى فى هذا المكتب أكثر يومه ، جالساً على كرسيه ، مقبلا على كومات الرسائل يطبعها بخاتمه ، ويقذف بها ذات اليمين وذات الشمال ، وهو مهتاج الخاطر ، مقطب الجبين ، فلا يكاد يلمح غلامه

الذى يدعوه « بالمراسلة » حتى يصب عليه جام غضبه ، آخذاً عليه صنوفاً من التقصير والإهمال ، ناقماً على تلك الساعة التى رمته بهذه البلدة الحقيرة المغمورة ، لاعناً أولئك الأهلين الأجلاف الذين يسببون له ما لا يطاق من المضايقات ، فإن سئم لسانه تكرار الشتم والسباب لغلامه ولأهل القرية عاد باللائمة على نفسه المتطامنة الكسول ، تلك التى رضيت بالخنوع والاستسلام .

وبعد فترة تمتد يد « العنترى أفندى » إلى درج مكتبه ، ينبش فيه ، فإذا هو يستخرج إضمامة فى جانب من الدرج ، وما هى إلا أن يبسطها بين يديه ، ويتوسم ما ضمت من صور الغانيات وكواكب المسرح والسينما ، تلك الصور التى كان يحرص على انتزاعها من الصحف والمجلات ، ويعنى بحفظها فى هذه الإضمامة ليتملاها حيناً بعد حين . فإذا قضى « العنترى أفندى » وطره من التوسم والتملى ، وأرضى نزعة الشغف بين جنبيه ، شاعت على أساريره سارية من الطلاقة والارتياح .

وينتهى « العنترى أفندى » من عمله ، ويغلق باب مكتبه ، فيبرز إلى الطريق متهالكاً فى سترته الصفراء الكاسفة ذات

الأزرار النحاسية الصدئة ، وهو يجر رجليه فى نعلهما البالية العفراء ، حتى إذا بلغ قهوة « مانولى » اقتحمها فى غطرسة وتأمّر ، ولا يلبث أن يقتعد كرسيه المختار فى صدر المشرب ، وما هى إلا أن يوافيه « مانولى » بقدح القهوة وبالجوزة متوهجة عليها النار ، فينقل فمه بين القدح يترشف منه ، والجوزة يجتذب أنفاسها ، وعينه مشرعة إلى الطريق تروح عليه مواكب السابلة وقطعان الدواب مثيرة حولها سحائب الغبار .

ولا تكاد الجوزة تلفظ على شفتى الرجل آخر أنفاسها ، حتى يقوم من مكانه آخذاً سبيله إلى « جسر الترعة » يذرعه ، متلهياً بمرأى نساء القرية وهن يردن الماء ليملأن الجرار ، ويصدرن عن الترعة آيبات إلى الأكواخ . . . وكثيراً ما قام بنفسه أن يتدانى منهن ، وأن يبادئهن بالحديث والمداعبة ، ولكنه كان فى كل مرة لا يكاد يهم بذلك حتى يحجم هيّاباً ، ويرتد خجولا ، وهو يصعد من صدره زفرات اللوعة والتحسر !

ولا يفوت « العنترى أفندى » أن يلزم مكانه من الجسر ، حتى يجوز « القطار السريع » أمام عينيه ، يهز الأرض بسطوته

ويملأ الفضاء بزئيره ، فيثير فى نفس الرجل نشطة وحيوية ، ويحمل إليه نفحة من عالم اليقظة والنور .

ويختم « العنترى أفندى » طوفته بالتعريج على حانوت « عم ربيع » الذى لا تدرى أى شىء هو مختص بالاتجار فيه ، فلك أن تقول إنه حانوت لا يحوى من شىء ، ولك أن تقول إنه حانوت يتوافر فيه كل شىء !

فى هذا الحانوت يستطيع « عم ربيع » أن يسد جوعة « العنترى أفندى » حين يحل به طالباً الطعام ، فيجهز له ما تيسر ، ويبسط له من طوارئ الأخبار ومن الطرف والنوادر ما فيه متعة وسلوى .

و « العنترى أفندى » يعرف فضل يومى « الجمعة » و « الأربعاء » على سائر أيام الأسبوع ، فهو يظفر فى هذين اليومين بألوان من الحياة يستروح فيها بعض الترفيه والمتاع .

فى يوم « الجمعة » يحرص على أداء الفريضة فى زاوية البلدة ، لا يعنيه إلا أن يتفرج بمنظر الوافدين عليها للصلاة ، وهم متزاحمون على حوض الماء يتوضأون ، مستمعاً إلى ما يخوضون فيه من أشتات الأحاديث .

وهو فى يوم « الأربعاء » يحرص على أن يشهد « سوق الأسبوع » لا ليشترى أو ليبيع ، ولكنه مع ذلك لم يكن يدع شيئاً مما يعرض فى السوق إلا ساوم فيه ، وإنه ليغلو فى مماكسته للباعة ، حتى ينتهى أمره معهم إلى مشاجرة وعراك ، فإذا به يتوسط الحلقة منتفخ الأوداج ، يلوح بيديه ، ويرفع من صوته ، منددا بأولئك الباعة الذين خربت فيهم الذمم ، واستبد بهم الشره ، فراحوا يتكالبون على كسب حرام . . .

فإذا فصل عن السوق ، مضت به إلى البيت أتان عجفاء ، وقدماه متدليتان تشقان على أديم الأرض خطين واضحين يباريان ما تركته حوافر الأتان من آثار . . .

وتذهب به الأفكار فى مسيره كل مذهب ، فتراه ينحى على شعرات لحيته التى لم تمسها الموسى منذ أيام ، مقتلعاً إياها من منابتها ، دون وعى . وفى الفينة بعد الفينة يتصيد ما تشعث من شاربه ، فيقرضه بأسنانه فى غير إشفاق .

ولم يكن فى القرية أحد يراه « العنترى أفندى » كفئاً لصداقته ، فعاش الرجل فرداً لا يأنس إلى جليس ، طابعه التجهم والعبوس . حتى إن « ناظر المحطة » على رفعة مقامه

وعلو سنه لم يكن يحظى منه بألفة وإيناس ، فهو — فيما يراه « العنترى أفندى » — رجل خامل الروح ، تافه الشخصية ، بغيض . . . على أن ذلك كان دأبه فى معاملة كل من تعاقبوا على نظارة المحطة خلال إقامته فى البلدة خمس سنين !

ويوماً هبط المحطة ناظر لها جديد ، فكان لا بد أن يخف إليه « وكيل البريد » يستقبله ويهنئه ، فلم يجد فيه شيئاً يجتذب هواه ، بل راعه منه ما يخشاه ، إذ كان الناظر الجديد هائل الجرم ، مقطب الجبين . . . له عين براقة كعين الصقر ، وله شارب غزير متمرد الأطراف !

وتواردت أيام ، واستطار فى البلدة أن الناظر الجديد له زوجة سودانية هى آية فى الملاحة والحسن ، وأنها فى زهرة العمر ، رشيقة القدّ ، ذات دل وظرف ، لها فن المتحضرات فى حسن التزين ، ولها ذوقهن فى وسائل العيش .

وكانت أنباء هذه المرأة تتزاحم على سمع « العنترى أفندى » يوماً بعد يوم ، تتجلى فيها خلابة الوصف وروعة التصوير ، فجعل يرهف السمع لهذه الأنباء شيئاً بعد شىء ، بل إنه حرص على أن يتلقّطها من كل سبيل . . .

وعجب الرجل من أمره بعد ذلك ، كيف إذا استرخى على مقعده ، تمثلت له زوج « خميس أفندى » ناظر المحطة طيفاً رفافاً يبعث فى قرارة نفسه نشوة الأحلام .

وبينما يكون « وكيل البريد » فى غمرة من عمله ، منكفئاً على الرسائل ينهال عليها بالخاتم المعهود،وعن كثب منه ركام اللفائف يتناولها فيقذف بها هنا وهنالك ، وقد وقف تجاهه غلامه الذى يدعوه « بالمراسلة » يتلقى أوامره بلا حساب — إذ به يقبل على الغلام بغتة يسأله :

ألم يقع بصرك على زوجة « ناظر المحطة » يا ولد ؟

فيفغر الغلام فاه فى ابتسامة بلهاء ، وهو يقول :

لم أرها قط يا أفندى !

فيحدجه الوكيل بنظرة إصغار ، ويغمغم قائلا :

ماذا تعمل إذن فى هذه البلدة يا غبى ؟

وألفى « العنترى أفندى » نفسه على توالى الأيام متودداً إلى « خميس أفندى » ناظر المحطة الجديد ، راغباً فى أن تتوثق بينهما أواصر الإخاء ، فقد استبان له أنه كان مخطئاً فى الإعراض عن ذلك الرجل ، مسيئاً فهم شخصيته الجديرة

بالتكريم والإكبار ، ومن ثم أصبح الآن يختلف إلى المحطة ، بعد أن كانت قدمه لا تطؤها إلا فى الندرة . وحين يقف « قطار الركاب » على رصيف « محطة المحاسنة » ، ويهل الناظر من حجرته متخطراً كالضرغام الركين ، يتراءى فى ظله « العنترى أفندى » ، وهو يكثر من التطلع إليه ، ولا يفتأ يفرك يديه ، وعلى فمه تنطبع ابتسامة التودد والزلفى . . .

ونمى إلى « العنترى أفندى » أن زوجة « ناظر المحطة » قد ألفت أن تخرج فى الفترات أصيلا إلى دار العمدة تزور زوجه، وأنها تجوز فى طريقها إلى الدار بحانوت «عم ربيع»... فلم يكد « العنترى أفندى » يعرف ذلك حتى أدخل على برنامجه اليومى تعديلا جديداً لم يكن له به عهد .

ما إن يرفع « شيخ الزاوية » صوته بأذان « العصر » حتى يتراءى « العنترى أفندى » مغادراً بيته ، حليق اللحية ، نظيف الملبس ، يلتمع حذاؤه ، وهو يسير متبختراً يتفقد هندامه ، ومن ورائه غلامه يتبعه حاملا كرسياً ذا مسندين ، ووجهتهما معاً حانوت « عم ربيع » فيقتعد الرجل كرسيه واضعاً ساقاً على ساق، وفى عينيه بريق الترقب ، وعلى وجهه إشراقة الأمل . . .

وقد ينقضى الأصيل ، وتغرب معه الشمس ، وقد ذهب الترقب سدى ، وضاع الأمل هباء ، وحرمت عين « العنترى أفندى » أن تقر بمرأى الغادة السودانية المنشودة ، فينهض الرجل فى غبشة الليل ، راجعاً إلى بيته ، محنى الهامة ، يقرض بأسنانه ما تشعث من شاربه ، وقد غشيه سهوم . . .

على أن الشمس كانت تطلع على « العنترى أفندى » فى صبيحة غده ، تجدد من ترقبه ، وتحيى من أمله ، فلا تكاد الزاوية تعلن أذان العصر حتى يأخذ سبيله إلى حانوت « عم ربيع » ، وخلفه غلامه يحمل له الكرسى العتيد !

وذات أصيل ، بينما كان « العنترى أفندى » متسنما كرسيه ، على باب الحانوت ، إذ أحس برعشة تسرى فى أوصاله ، وارتباك يسود حركاته ونظراته . . . لقد مرت به الحسناء السودانية ، فعلقت بها عينه منذ لاحت من بعيد ، حتى طوتها معاطف الطريق ، ولكنه على الرغم من ذلك طفق يسائل نفسه :

ماذا رأى منها ؟ وماذا استبان له من سماتها وقسماتها ؟

فلم يجد عند نفسه من جواب ، وقصارى أمره أنه مسحور

العين بما رأى ، وأنه عامر القلب من غبطة وانتشاء .

وهكذا أصبح « العنترى أفندى » يجرى فى حياته على نظام جديد ، فلم يعد يقصد إلى قهوة « مانولى » يقضى فيها ساعة الأصيل ، ولم يعد يذهب إلى « جسر الترعة » ليرقب حاملات الجرار من نساء القرية ، وأمسى « القطار السريع » يمر فى جلجلة ودوىّ ، دون أن يوليه الرجل نظرة أو يلقى له سمعاً . . . أما « سوق الأسبوع » فقد تخلف عنها « العنترى أفندى » فأراح واستراح ، وأما صلاة « الجمعة » فلم يعد يجتذبه منها ما كان يشهده فيها من قبل .

لقد صار « العنترى أفندى » على مر الأيام رسالة بريدية حية ترد إلى حانوت « عم ربيع » أصيل كل يوم بانتظام . . . وتسنّى « لوكيل البريد » بهذه المثابرة الموصولة أن يرى زوج « ناظر المحطة » غير مرة ، وأن يتملى فتنتها على مهل . وكان مما يهزّ نفسه نحوها شعوره القوىّ بأنها توليه لفتة من طرف خفى ، وعلى فمها تختال ابتسامة فتانة خلوب .

ولطالما بنى « العنترى أفندى » عزمه على أن يرد تحية المرأة بمثلها ، ولكن كانت تخذله إرادته ، ويقعد به جموده ، فلا يملك

لأوصاله تصريفاً .

ونبتت بين « العنترى أفندى » و « عم ربيع » مودة وائتلاف ، فهما يقضيان الوقت أمام الحانوت يخوضان فى شجون من الحديث ، وكان « عم ربيع » أذناً صاغية يجد فيها « العنترى أفندى » مجالا طيباً كريم الساحة ، يودعه كل ما يجيش فى وجدانه من عواطف ومشاعر ونزعات .

وفى أكثر من مناسبة سمع « عم ربيع » جليسه « العنترى أفندى » يتحدث إليه فى خصائص السودانيات ، وما يتميزن به من طراوة أجسام ، واستواء قامات ، وما يتجلى فى نفوسهن من حيوية العاطفة وحرارة الشعور !

وكان « العنترى أفندى » وهو يتوخى هذا الحديث ، يبدو وهاج النظرات ، مشبوب الشغف ، قوىّ الحنين ، لا يمل الترداد والتكرار ولا يبالى علائم السأم التى تتوضح على وجه « عم ربيع » وهو يعانى مرارة الصبر والاحتمال .

وأحس غلام « المراسلة » بأن سيده « وكيل البريد » قد تبدلت حاله ، وأنه قد عراه انقلاب ، فهو يدخل المكتب ناشطاً ، بسام المحيا ، أنيق البزة ، ملتمع الحذاء ، يلقى على

غلامه تحية الصباح في وداعة وتلطف ، وهو لا يفتأ يجاذبه أطراف الحديث في غير تطاول عليه ، ولا أنفة منه . وإنه في شتى شئونه لهيّن لين لا عنف فيه ولا وعورة ، حتى إن الرسائل لم يفتها نصيبها من هذا الانقلاب ، فقد أصبحت الآن تتلقى وقع « خاتم البريد » من يده في رفق وهدوء !

وأكبر ما فرح به غلام « المراسلة » من آثار هذا الانقلاب أنه قد انزاح عن عاتقه ذلك العمل الذي كان يؤديه على كره ، وهو القيام بغسل ثياب سيده ، فقد اختار « العنترى أفندى » إحدى نساء القرية لتقوم بغسل ثيابه ، فكانت هذه أول امرأة تدخل بيته منذ هبط القرية .

وحدث ذات يوم أن دخل الغلام بيت سيده على حين غفلة ، فرأى ما هاله وأذهله . . . رأى هذه المرأة واقفة عن كثب من طشت الغسيل ، وهي في ثوبها الذي يكشف عن ذراعيها وساقيها ، وقد اعتنقها « العنترى أفندى » في وجد وتوقد وهيام . . . فارتد الغلام عن البيت متسللا يحاول أن يكتم اهتياجه . . .

وكثيراً ما كان سيده يدعوه في العشيّ ليأتنس به ، ويبدد

معه مكاره الوحدة ، فإذا طاب لهما السمر ، تطلع « العنترى أفندى » إلى السماء ، وجعل يترنم بأغنية لم يكن يمل تكرارها ، وهى :

القمر له ليالى . . . يطلع لا يبالى !

وكان يطلب إلى غلامه أن يردد معه مقاطع الأغنية ، فيجيبه إلى ذلك فى طرب وابتهاج .

ويخرج الغلام بعد هدأة من ليل ، فيخلو « العنترى أفندى » بنفسه ، متخذاً له مجلساً بجوار النافذة ، مطلقاً لفكره عنان الخيال ، فإذا به يحوم بنظراته فى فضاء الطريق ، وقد شاعت فيه الحلكة ، وخيمت عليه الوحشة ، ولا يفتأ الرجل محدقاً حياله، مرهف السمع ، مشبوب الهيام ، يؤمل أن يلوح لعينيه طيف من يحب، مسترقاً إليه الخطا، قاصداً أن يطرقه فى جنح الظلام !

وقد صب « العنترى أفندى » عبقريته ولباقته فى إظهار الولاء لناظر المحطة الجديد ، يتطوع له بالخدمة ، ويتحدث عنه بالخير فى كل مكان ، ويغلو فى الحفاوة به جهده ، بل لقد ألزم نفسه بأن يهدى إليه فى الفينة بعد الفينة طرائف من

خيرات الريف ، فلم يجد « ناظر المحطة » إزاء هذه المودة والتلطف إلا أن يدعو « وكيل البريد » إلى تناول الغداء معه فى بيته ، فتقبّل الرجل هذه الدعوة والدنيا لا تكاد تسع فرحته واغتباطه ، وقدم على بيت الناظر فى اليوم الموعود يتألق كالعروس واتخذ مجلسه مذهولا تستغرقه الأخيلة والأحلام . وقضى وقته مع مضيفه يستمع إلى حديثه الفياض . لقد لبث « خميس أفندى » يسرد ما قام به فى حياته من خطير الأعمال ، وما جدّد من نظم المحطات ، وما احتمل من جسيم التبعات . فكان « العنترى أفندى » يمجد عمله ، وهو يردد كلمته المألوفة :

الله . . . الله . . . عظيم . . . عظيم !

وفيما هو يصغى إلى جليسه ، كانت تتهادى إلى أذنه خفقات أقدام رقاق ، تصحبها وسوسة أساور ورنات خلاخل ، فينصرف إليها بسمعه كله ، وقد هزته نشوة ، وازداد قلبه من خفوق .

وتكررت دعوات الناظر الجديد لوكيل البريد ، واستفاض حديث الرجل فيما اضطلع به من خدمات لمصلحة السكة الحديدية ، خدمات لو كوفئ عليها حق المكافأة ، لكان

الآن على رأس المناصب ينعم بعليا الدرجات . فلا يملك « العنترى أفندى » إلا أن يعلو صوته بكلمته الخالدة :

الله . . . الله . . . عظيم . . . عظيم !

وهو فى وليجة نفسه مرهف الحس، دقيق الترقب، يتسمع لكل نأمة تجرى فى البيت ، حتى إنه لا تفوته الهمسات من وراء الحجرات . . .

وكانت فطنة « العنترى أفندى » تأبى عليه إلا أن يؤمن بأن كل مايجرى فى البيت من حركات وأصوات لم يكن إلا رموزاً وإشارات تبعث بها زوجة الناظر ، حاملة معها معانى التواصل والتودد والترحيب .

وفيما كان « العنترى أفندى » صبح يوم على مكتبه ، يدق الرسائل بخاتمه ، إذ دخل عليه رسول من قبل « ناظر المحطة » يبلغه أن حضرة الناظر سيهدى إليه ظهر اليوم لوناً طريفاً من الطعام يكون له غداء شهياً !

وعجل « العنترى أفندى » إلى بيته ينتظر الهدية المرموقة ، ويعدّ العدة لاستقبالها ، ورأسه تتناوح فيه الأخيلة والأطياف . وجاء رسول بيت الناظر يحمل إليه صينية تتوسطها صحفة من

« الويكة » الفاخرة ، ذلك المطعم الذى لا يجيد طهوه إلا الماهرات من بنات « السودان » . . . فشمر « العنترى أفندى » عن ساعد الجوع ، وقد التهبت شهيته ، وجاشت مشاعره ، وأقبل يلتهم الطعام ، وهو يتمثل فى خاطره تلك السودانية الحسناء ، متلطفة به ، ترنو إليه ، فى فتنة وإغراء ، وكأنها تقبل عليه تسأله :

كيف وجد مذاق طعامها الذى طهته له ، تخصه به ؟

ولم تخامر الرجل خلجة من شك فى أن أمر هذا الغداء لم يكن إلا من تدبير زوجة الناظر ، فهى التى تخيرت صنفه ، وهى التى اقترحت إهداءه ، وما زوجها حيال ذلك كله إلا « أداة تنفيذ » !

ولبث « العنترى أفندى » فى هذا الأفق الجديد من حياته فترة طيبة ، ينعم بالأنس والبهجة والأمانى العذاب .

وفى ضحوة يوم دخل غلام « المراسلة » على « وكيل البريد » مهتما يقول :

ألم تسمع الخبر يا أفندى ؟

ــ أى خبر يا ولد ؟

ــ نقل حضرة الناظر .

وبوغت « العنتّرى أفندى » فغص بريقه ، وبقى هنيهة لا يملك أن ينبس . ثم نهض دانيا من الغلام محملقاً فيه يقول :

نقل حضرة الناظر ؟ كيف ؟ !

وأخذ بكتف الغلام يهزه ، وهو يقول :

من أين علمت الخبر ؟

ــ من المحطة .

وأسرع الرجل يغادر مكتب البريد ، قاصداً المحطة ، مندفعاً إلى حجرة الناظر ، فما إن دخلها حتى واجه « خميس أفندى » بقوله :

أىّ خبر هذا الذى سمعته ؟

فابتسم له الناظر قائلا :

هذا ما كان . . . تلقيت أمراً بنقل عاجل . . . سأرحل فى الغداة !

فامتقع « العنتّرى أفندى » وارتعشت شفتاه ، دون كلام ...

فلاطفه « خميس أفندى » بقوله :

إنى أعرف شعورك ، وأقدّر صداقتك . . . ولعل فراقنا لا يطول !

وخرج « العنترى أفندى » يدور رأسه ، ويزيغ بصره ، واتخذ سبيله إلى مكتب البريد ، فاستقبله الغلام ترتسم على فمه ابتسامة بلهاء ، وهو يقول :

ألم تجدنى صادقاً فيما أخبرتك به ؟

فحدجه الرجل بنظرة نكراء ، وهو يقول له :

أراك لا تنشط إلا لأخبار السوء يا غراب البين . . . أنفضت عن المكتب غباره اليوم ؟

ـــ نفضته يا أفندى ؟

فمر الرجل بإصبعه على ظهر المكتب ، وهو يقول :

كذاب . . . كذاب . . . المكتب يعلوه الغبار !

وما هى إلا أن هجم على الغلام ، تارة يعرك أذنه ، وطوراً يلكزه ويركله ، حتى تركه بباب المكتب يتلوّى من الألم ، وينخرط فى البكاء .

وفى الظهيرة رئى « العنترى أفندى » سالكاً الطريق إلى حانوت « عم ربيع » وهو ساهم يقرض ما تشعث من شاربه ،

ووراءه غلامه يتبعه بالكرسيّ .

وأصاب الرجل غداءه أمام الحانوت لقيمات ، ولبث هنالك ينتظر ، متنقلا بكرسيه يمنة ويسرة ، وهو يوازن بين المواقع ، ليختار أكثرها ملاءمة للترصّد ، وأحسنها تمكيناً له من التملى وإنعام النظر . . .

وطال بالرجل الجلوس ، وشقى ساعات بالانتظار ، حتى انسدل أمام عينيه ستار الحلكة ، فلم يدر أظلمة نفسه هى أم ظلمة الليل ؟ !

ونهض « العنترى أفندى » وقد خاب أمله فى أن تكتحل عينه بمرأى الغانية السودانية فى ليلة الرحيل . . .

وعاد إلى بيته منهوك القوى ، كسير الفؤاد ، يحاور نفسه :

ماذا أبطأ بها عن الخروج عصر اليوم ؟

أتراها أشفقت على نفسها وعليه من نظرات التناجى فى ساعة التوديع ؟

وعانى « العنترى أفندى » ليلة ليلاء ، ينبو وساده به ، ويشتد أرقه وقلقه ، حتى انشق أمام عينيه عمود الصبح ، لم يذق فى ليله غمضاً . . .

وما هى إلا أن ألفى جسمه يتثاقل ، وأعصابه تخمد ، فلكه سبات عميق .

ولم يوقظه إلا طرق عنيف بالباب ، فإذا غلامه يخبره بأن الساعة قد جاوزت العاشرة ، وأن السائلين عن وكيل البريد كثير ، وأن المحطة تحفل بمن قدموا يودعون الناظر المنقول . فهبّ الرجل مذعوراً عجلان يسبّ غلامه ، ويصبّ على رأسه جام غضبه ، آخذاً إياه بأنه قصّر فى الحضور لإيقاظه فى البكور .

وما هى إلا هنيهة حتى كان « العنترى أفندى » يعدو إلى المحطة عـــدواً ، وهو يفتل شاربه ، وينقذ ما يمكن إنقاذه من زيه المهوّش . . . وأقبل على المحطة حائر النظرات ، سريع التلفت ، يدفع بمن يصادفه فى طريقه ، حتى ألفى الناظر يتوسط المحطة فى لمة من المودعين ، فهرع إليه ينحنى على يده ، وهو يقول :

داهمنى مرض كاد يحرمنى أن أحضر لتوديعك . . . ولكنى تحاملت على نفسى .

فربّت الناظر كتفه ، يشكر له عاطفته ، ويقدّر له

موفور وفائه ، على حين كان « العنترى أفندى » يحوّم بنظراته فى أرجاء المحطة يتوسم ويتنسم ، لعله يعرف مكان درته الغالية ، ليتزود منها بالنظرة الأخيرة . . .

وجلجل القطار يتهادى إلى المحطة ، فازداد « العنترى أفندى » من ترصّد وتطلع ، وما إن وقف القطار حتى تخطر إليه « خميس أفندى » وهو يشدّ على أيدى مودّعيه ، فلم يملك « العنترى أفندى » إلا أن يقول للناظر فى لهفة وتشوّف :

والسيدة حرمكم ؟ . . . والسيدة حرمكم ؟ . . .

فأجابه الناظر ، وهو يصعد المركبة :

لقد سبقتنى بالسفر فى قطار الصبح .

فوجم الرجل فى وقفته ، وعراه ذهول ، ولم يشعر بنفسه إلا وقد غمره المودّعون متسابقين إلى تحية الناظر ، تحت نافذة القطار ، وهو على أهبة المسير .

وتحرك القطار فى تؤدة وأناة ، فأتبعه « العنترى أفندى » نظرات حسرة والتياع ، وجعل القطار يتزايل رويداً عن عينيه ، فيشعر بأن جانباً من حياته يتزايل معه ، جانباً كريماً كان أثمن كنز عنده ، وأعز شيء لديه .

وأصيلا دخل غلام « المراسلة » على « العنترى أفندى » يقدم له قدح القهوة ، فما إن ارتشف الرجل منه رشفة حتى قال للغلام عابساً :

ما هذه القهوة الكريهة ؟ إنها من بن ردىء !

فعجل الغلام بقوله :

هذا هو البن الذى أصنع لك منه القهوة كل يوم يا أفندى .

— كذاب . . . كذاب !

— والله العظيم .

فقاطعه الرجل صائحاً به ، وهو يقذف بالقدح فى وجهه :

اغرب عنى ، وإلا حطمت رأسك . . .

فأدبر الغلام هارباً .

وفى الصبيحة دخل الغلام على « العنترى أفندى » يخبره بمقدم المرأة القروية لتقوم بغسل ثيابه فى موعدها الأسبوعى ، فزمجر الرجل قائلا :

وما صناعتك أنت إذن يا ولد ؟ . . . لا تدخل بيتى امرأة . . . اغرب عن وجهى !

وانسابت الأيام تذهب شيئاً بعد شىء بما كان يبدو

فيه « العنترى أفندى » من أناقة وحسن هندام ، وتغيض ما كان له من بشاشة ولطف وإيناس .

وأصبح الرجل يظهر فى سترته الصفراء الكاسفة ذات الأزرار النحاسية الصدئة ، متبكع الخطوات إلى قهوة « مانولى » يدخن الجوزة صامتاً ساهماً يخلط بأنفاسها زفراته الحرّى ، ثم ينهض خاملا إلى « جسر الترعة » يرمق حاملات الجرار بنظرات فيها لهفة وتحسر ، حتى يمر به « القطار السريع » كالبرق الخاطف ، فيبارح مكانه وهو يقتلع شعرات لحيته التى لم تمسها الموسى منذ أيام ، وينحى على على ما تشعث من شاربه يقرضه بأسنانه ، وهو يجر قدميه فى نعله البالية العفراء . . .

وإذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، ذهب إلى الزاوية يفرج عن نفسه بمرأى أهل القرية ، وهم يتزاحمون على حوض الماء يتوضأون ، مستمعاً إلى ما يخوضون فيه من أشتات الأحاديث .

وإذا حضر يوم الأربعاء قصد إلى سوق الأسبوع ممتطياً تلك الأتان العجفاء ، ويظل فى ممارسة ومكاس ،

لا يهدأ له حال إلا بعد تطاحن وعراك .

وإنه ليحرص فى بعض الأصائل على أن يعرج على حانوت « عم ربيع » ، يتصيد صاحب الحانوت ، ليفرغ فى أذنه ما يضيق به من سخط وتذمر وشكاة ، ناعياً على هذه الحيـــاة أن دأبها معاندة ذوى النفوس الطيبة ، وتكدير ما تنطوى عليه جوانحهم من صفاء ونقاء ، آخذاً على الأقدار أنها تفرق بين القلوب المتلاقية فى غير رحمة ولا مبالاة ، مستصغراً شأن هذه الدنيا التى يخطىء الناس فى الإغلاء بها ، وما هى إلا هباء فى هباء !

وبينما هو يحتد ، إذا ببصره قد تطلع إلى الطريق الذى كانت تجوز به السودانية الحسناء ، فيغشاه صمت ، وينعم نظره كأنه يتفقد ذلك الشبح الغارب ، مستعيداً ذكراه . . .

ولا يملك « العنترى أفندى » وهو على هذه الحال ، إلا أن يبعث من صدره تنهدة جياشة ، ملؤها الحسرة على حلم جميل كان وانقضى !

ست الكل . . .

كانت الشقة التى أسكنها فى شارع « درب الجماميز » تطل على حانوت « المعلم ياقوت » الحلاق ، وأنا يومئذ أجتاز مرحلة الدراسة فى كلية الطب .

وتوثقت بينى وبين صاحب الحانوت صداقة الجوار على طول الأيام ، فإذا مللت الدرس ، أو تهيأ لى وقت فراغ ، نزلت إليه أجالسه وأحاوره ، فيطرفنى بنوادره وتعقيباته على أحداث الحياة ، طلىّ الأسلوب ، فطرىّ الفكر . ومما حبب إلىّ مجلسه أنه كان لين العريكة ، وديع النفس ، يتنكب عن الشر ويجنح إلى القنوع .

أما « عنقود » صبىّ الحانوت ، فكان فى أوج فتوته ، فارع العود ، عريض المنكبين ، معجباً بنفسه ، شديد الخيلاء . . . إذا غاب معلمه عن الحانوت تراءى بالباب عابثاً بشاربه الطرير ، وهو يتعوج تارة ويرقّص حاجبيه تارة ، مبعثراً نظراته المتبجحة على من يعبرن الطريق ، ولسانه يرشقهن بالبذىء من ألفاظ التحرش والمغازلة .

ولم يكن « المعلم ياقوت» يجهل بعض أخلاق الفتى « عنقود» وطالما عزّره وثار عليه ، ولكنه كان سريع العفو عنه ، راجعاً إلى البر به ، ولا غرو ، فالفتى ربيبه ، كفله منذ الطفولة ، والطريق يكاد يلتقمه بين المشردين الذين لا أهل لهم ولا كنف !

وكنت في بعض الأحيـــان أنصح لهذا الفتى أن يلزم جانب الحياء ، وأن يكون مطيعاً لمعلمه . بيد أنه كان يستقبل نصحي بابتسامة استخفاف ، ويتمادى فيما هو فيه من غواية ، ولاحظت أنه يتحدث عن معلمه مستطيلا عليه ، متهكماً به ، كأنه لا يباليه . . . فآليت على نفسي ألا أعاود التحدث إليه في إصلاح أمره ، وشعرت نحوه باشمئزاز وزراية .

وشهدت « المعلم ياقوت » يوماً يكاد يتميز غيظاً من أفاعيل غلامه ، ويشكو من تمرده وتنمره ، فسألته :

لماذا لا يقصيه عنه ويستريح من شره ؟

فأجابني في لهجته الفطرية الساذجة :

كدت أقصيه ، لولا أن زوجتي استعطفتني عليه ، وذكرتني بأنه يعدم المأوى إذا أقصيته ، وأني عنه مسئول ، فهو بمثابة ولدي الكبير ، وله عليّ حق .

وحدق فىّ « المعلم ياقوت » وهو يكمل حديثه :

أصابت زوجتى فيما تقول . وما أطيب قلبها فيما تشير به ... لو كان هذا الغلام يستطيع الاستقلال بشأنه لتركته يعول نفسه . . . أتظن أنه على طوله وعرضه يحسن أن يقص شعر غلام ؟ وهل هو صالح لشىء ؟ إنى صابر عليه ، لعل الله يهديه . . .

وانتهى إلىّ من حديث الرجل أنه يقطن حىّ « السيدة زينب » غير بعيد من مقر عمله ، وأن له من زوجته ابنة تبلغ الخامسة تسمى « ست الكل » يشتد بها تعلقه . وكثيراً ما جلبها إلى الحانوت معه ، لكى تتسلى وتلعب على مرقبة منه . وقد شهدتها طفلة بسامة المحيا ، لطيفة الروح ، موفورة المرح ، لا تفتأ تداعب عروسها القطنية الملونة ذات الأهداب الغزار ... فإذا دنوت من الطفلة ملاطفاً أسائلها :

كيف حالك يا عروس ؟

واجهتنى بنظرة وديعة ، وهى تهمهم بالتحية والجواب . ثم تتشاغل بملاعبتها لعروسها القطنية فى حياء ، ولما حرصت على أن أوافيها فى الحين بعد الحين ببعض الحلوى ، أنست بى ، وركنت

إلىّ ، وجعلت تناقلنى حديثها الوادع الرقيق .

وآسفنى ذات يوم أن أرى « المعلم ياقوت » بادى الضعف ينتابه سعال مريب ،فأخذتنى به رأفة ، وعرضت عليه أن أتفحصه ، وأن أبذل فى سبيل صحته قصارى خبرتى الجديدة بالطب ، فتعذر علىّ وتأبىّ ، وقال فى إيمان عميق :

يا سيدى . . . على الله الاتكال .

وتكاثرت الفترات التى يتخلف فيها الرجل عن عمله ، وهو ينتحل لذلك شتى المعاذير ، ولكن جسده كان يزداد على الأيام من هزال ، ووجهه تعروه دكنة واحتقان .

ومرة أقبلت عليه أصافحه ، فأحسست أنه محموم ، فقلت له من فورى :

أنت تهمل صحتك يا « معلم ياقوت » . . . ما كان أولاك بأن تلزم فراشك اليوم .

فكسر عينيه صامتاً ، سارح الفكر ، ثم ابتسم ابتسامة محسورة يقول :

من يطعم أسرتى إن طاوعتك فلزمت الفراش ؟ أفحسبت أن « عنقوداً » قادر أن يكسب لنا بضعة دراهم ؟ وهل فى مستطاع

هذا المتسكع على طوله وعرضه أن يقص شعر غلام ؟ قلت لك الاتكال على الله يا « دكتور » !

على أنه اضطر أن يحتبس فى فراشه بعد أيام ، وعدته فى داره ، مصطحباً أحد الأطباء المتخرجين ، وزاولت معالجته ومعاونته بقدر المستطاع ، حتى خفّت عنه وطأة العلة ، وزايلته بعض أعراض الداء .

وأبطأتُ عنه حيناً ، ثم قصدت داره فى الضحوة ، فلما طرقت الباب طال انتظارى وأنا أسمع هرجاً يمازجه دبيب الخطا تغدو وتروح ، وأخيراً فتح الباب عن زوجة « المعلم ياقوت » شعثاء عليها اضطراب ، وقالت متلعثمة :

المعلم خرج .

وما لبثتْ أن أغلقت الباب ، فوجدتنى لحظات لا أريم مكانى ، وقد تملكنى فضول ، وإذا سمعى يتلقط همسات حبيسة تبينت فيها صوت الزوجة تتحدث إلى صوت ليس بالغريب علىّ . . . وسرعان ما انقطع الهمس ، فعجلت أنصرف ، متوخياً حانوت « المعلم ياقوت » فألفيت الرجل على بابه يلاطف طفلته ، وهى تهدهد عروسها القطنية ، فانبريت أسأله :

لماذا جشمت نفسك مشقة الخروج ؟ ألا تشفق على نفسك؟
ـــ أنا اليوم أحسن حالا والحمد لله .

فجسست يده أتعرف النبض والحرارة ، وقلت له :

حقاً تحسنت صحتك ، ولكن لا بد أن تحتاط ، وحذار من الإسراف على نفسك فى العمل . . . لماذا أراك مصراً على أن تترك صبيك « عنقوداً » وشأنه ؟ ألا تجعله يعينك فى عملك بعض العون ؟

فأجابنى ساخر اللهجة :

« عنقود » ! . . . وأين « عنقود » ؟ إنه يبدو حيناً ويختفى أحياناً . . . منذ ثلاثة أيام لم يقع نظرى عليه .

فعجبتُ أشد العجب من قوله ، وسمعى تعاوده تلك الهمسات التى تسربت إلىّ منذ قليل من خلف الباب ، حين كنت فى بيت « المعلم ياقوت » . وهممت أن أصارح الرجل بجلية الأمر ، ولكنى وجدتنى أطرق ، وأنا محنق أسيف .

ولبث الرجل يواصل التداوى من علته ، بإشرافى عليه ، حتى راجعه نشاطه ، وأشرقت على وجهه البشاشة والتطلق ، فأما « عنقود » فقد انتظم أمره فى خدمة معلمه خيراً مما كان من

قبل ، واستوثقت له إمرة وسلطان . بيد أنى ما كنت أراه حتى أعرض عنه ، يحدونى اشمئزاز منه ، ومقت له .

وأزف الصيف ، وحان أن أسافر لقضاء فترة العطلة ، فرأيت أن أعود « المعلم ياقوت » مودعاً ، وأطلت جلوسى إليه ، أرسم له خطة العلاج ، ومنهج التمريض ، لا آلوه نصحاً وإرشاداً. وانصرفت عنه ، تتبعنى دعواته الصالحات يجأر بها إلى الله .

وعدت فى مستأنف العام الدراسى أواصل العمل ، وقد طال انقطاعى عن العاصمة ثلاثة أشهر . فلما بلغت بيتى ألقيت نظرة على حانوت « المعلم ياقوت » فإذا هو مغلق ، فسألت بعض الجيرة فى شأنه ، فأعلمونى أن الرجل طريح فراشه منذ أسبوع ، فأزمعت أن أزوره من غدى ، ولما أشرفت فى الصباح على داره ، وافقت « ست الكل » ابنة صديقى تفترش الطوار ، على سحنتها كآبة ، وبين يديها عروسها القطنية تعبث بها فى خمول ، فما إن ناديتها حتى هبت إلىّ تجرى. وما لبثت أن احتضنت ركبتى ، وقد أخذها الشهيق ، وانخرطت فى البكاء ، فانحنيت عليها أهدئ من روعها ، وأسائلها :

ما بلك يا بنية ؟ كيف حال أبيك ؟

فرفعت إلىّ عيناً خضلتها الدموع ، وقالت فى لهجة المتعجل :

أمى ماتت . . . أمى ماتت . . .

وعاودها البكاء .

ولم أملك أن أتكلم ، ورجف قلبى رأفة بتلك الصبية فى شعورها الحزين ، فأخذت بيدها أحاول التلطف بها والتسرية عنها ، حتى وقفنا عند حانوت حلوانى فى حارة قريبة ، فاشتريت لها ما يبهج له قلب الطفل الغرير ، وقلت للصبية :

هذا كله لك ولعروسك الحلوة . . .

فأشرق وجه البنية ، وصحبتنى حتى باب البيت ، ثم أخلت يدى من يدها عائدة إلى مكانها على الطوار تفتح لفائف الحلوى وتتذوق .

وصعدت بيت « المعلم ياقوت » أدق بابه ، ولبثت فترة أدق ، وأخيراً سمعت خفق خطوات زاحفة ، تصاحبها سعلة خشنة متمزقة ، وفتح الباب عن الرجل يحيينى ويرحب بى . . . ولما دخلت معه ، تقدمنى باذلا جهده فى حمل مقعد إلىّ ، وهو يميط بجلبابه الغبار عنه ، ويقول :

تفضل يا سيدى بالجلوس ، وانتظرنى قليلا أعد لك القهوة .

فأقسمت عليه أن يريح نفسه ، وأن يعفينى من قهوته ، فجلس على كرسى وطىء بجانبى ، وأنا أتفرس فيه ، وأتفحص خفيّة أمره ، فراعنى منه تغير جسيم : لقد جف عوده ، وتشابكت تجاعيده ، وبدا وجهه كاسفاً عليه زرقة .

وانبرى الرجل يحدثنى بأخباره ، ما جل منها وما دق ، آخذاً بأطراف الأحاديث ، وأنا فى كل لحظة أتوقع أن يفضى إلىّ بما عرفته من طفلته على باب الدار ، ولكنه لم يفعل ، فلم أجد مفيضاً من أن أقول :

لقيت « ست الكل » بالباب تبكى . . .

فأظلت وجه الرجل سحابة دكناء ، وهمهم متثاقل الكلم :

نعم . . . على أمها تبكى . . .

فبادرته أقول :

البقية فى حياتك . . . عجباً . . . مبلغ علمى أنها لم تكن تشكو مرضاً . . .

فأجابنى جامد اللهجة ، وقد أشار بظهر يده إشارة زراية وإهمال :

لقد ماتت . . . وكفى !

وبدا عليه اهتياج مكبوت ، فنهض بغتة كأنه يبغى مخرجاً يتغلب به على أعصابه المستوفزة ، ولكنه ما عتم أن تهاوى على كرسيه ، فملت عليه أتبين أمره ، وأحاول إنعاشه ، فألفيته يغطى عينيه بيديه ، وقد هيمنت عليه نوبة النشيج .

فقلت له أواسيه :

الصبر يا معلم . . . إنك رجل . . . والدنيا لا تدوم لحىّ ، ولا يدوم فيها حىّ . . .

فكفكف الرجل عبراته ، وحملق فى وجهى متهدج الصوت يقول :

أترانى أبكى عليها ؟ أفحسبت أنها ماتت حقاً ؟ عليها اللعنة ولا ردها الله .

فأخذتنى البهتة وأنا أقول :

ماذا فى الأمر إذن ؟

— لقد كذبتُ على ابنتى ، أو قل إنى ضحكت منها ، فأفهمتها أن أمها ماتت ، وحقيقة الأمر أنها حية تسعى على ظهر الأرض . . .

فسألت الرجل مشدوهاً :

ولم ذلك يا معلم ؟

فنكس الرجل رأسه ، يعبث بحاشية ثوبه ، وقال مستكين الصوت ، ذليل النبرات :

لقد هربت . . . تخلت عن الرجل المريض الذى لم يعد صالحاً لها ... مع من كان هربها فيما تظن ؟... مع « عنقود »... ربيبي ، ذلك الخليع الفاسد الذى لم أستمع لنصحك حين رغبت إلىّ فى أن أطرده ، فأبقيت عليه حناناً ومرحمة !

ــ هكذا الناس أبناء خيانة وغدر . . . لا تأس على ما كان !

ــ لست بالآسى على نفسى ، وإنما أنا حزين من أجل ابنتى ، تلك التى أصبحتْ فاقدة أمها ، وعما قليل تفقد أباها أيضاً . . . فترى نفسها يتيمة الأبوين ، ولا تجد حولها من ذوى القربى من يبذل لها حنوا ورعاية . . . ما مصير هذه الصبية من بعدى ؟ إنى اليوم مريض ، وغدا راحل إلى غير عود .

فشددت على يده أقول :

بل ستحيا سعيداً مع ابنتك ، فلا تستسلم للوساوس ، ولا

يسرعن إليك القنوط ، واذكر الله . . . أنت بخير !

فهز رأسه متابعاً قوله ، وصوته بالنحيب مشوب :

لا تخدعني عن نفسي يا سيدى . . . فصحتى تتدهور ، ويومى وشيك . . . أنصت إلىّ . . . أيقظني من نومى البارحة ظمأ ، فلم أشأ أن أزعج ابنتى من رقادها لتجلب لى الماء ، واستنجدت بقوتى ، وحاولت جهدى ، حتى استطعت أن أغادر فراشى ، وما كدت أتحامل على السير حتى تهاويت ، ودارت الأرض بى ، فقر فى نفسى أنى قد استوفيت من الدنيا نصيبى المقسوم .

وطأطأ الرجل ، كابى الوجه ، مهدم الكيان ، وإذا نحن نسمع جلبة بالباب ، ونرى « ست الكل » مقبلة تتواثب ، وفى يدها بقية من الحلوى .

وتدانت الصبية من أبيها تلقمه من حلواها ، فضاء وجه الرجل ، والتفت ذراعه بخصرها فى حنو واهتياج .

تتابعت بعد ذلك أيام شغلت فيها بشأنى ، وحل يوم الجمعة ، فذكرت صاحبى ، وواعدت نفسى أن أزوره فى الأصيل .

وبينما أنا جالس أترشف من قدح القهوة ، بعد أن أصبت

فطورى ، وأمامى رزمة الصحف أتناولها وأعبر ما فيها على تعجل – إذ بى أسمع نقرات خفافاً بالباب ، فقلت :

من ؟

فأجابنى صوت هين رفيق يقول :

أنا . . . أنا . . . افتح .

فنهضت إلى الباب ، فدخلت الصغيرة ساهمة واجمة ، تدعك أصابعها فى قلق ، وعيناها تائهتان ، فأمررت يدى على شعرها ألاطفها وأقول :

أهلا « ست الكل » . . . ما بلك يا صبية ؟

فتشبثت بذراعى مهمهمة تقول :

أنا خائفة . . . أنا خائفة . . .

– مم تخافين ؟ وهل تخافين بالنهار ؟

فسمت بنظرها إلىّ متوسلة ، وجذبتنى مشيرة إلى الباب تقول :

تعال معى إلى المنزل . . . تعال معى . . .

– لماذا ؟ كيف حال أبيك ؟

– هو فى البيت نائم . . . تعال معى . . . أنا خائفة !

واشتدت فى اجتذابى إليها لأخرج معها ، فلم أجد مندوحة من مطاوعتها ، والأفكار فى رأسى تتضارب .

وفى أثناء الطريق استرسلت « ست الكل » تروى قصتها ... قالت :

فى الليل وأنا فى نومى ، علا صوت لا أعرفه ، ففزعت وانكمشت . ولما سكن الصوت جعلت أنادى أبى من تحت غطائى ، فلم يستيقظ ، وما استطعت بعد ذلك أن أنام ، فتسللت مغمضة عينى إلى فراش أبى ، ونمت بجانبه متعلقة برقبته ، وما زلت نائمة حتى استيقظت فى الصباح ، ولكن أبى ظل مستغرقاً فى منامه ، فناديته ، ثم هززته ، ولكنه أبى أن يصحو ... فخفت ، فتركت البيت ، فجئتك . . . لتمضى إلى المنزل معى ، نوقظ أبى . . .

فذهب بى الظن فى شأن الرجل كل مذهب ، ومضيت مع الصبية ، حتى دخلت على أبيها فى حجرته ، فرأيته فى فراشه شديد الامتقاع ، فجعلت أتفحصه ، وما لبثت أن نظرت إلى « ست الكل » آخذاً بيدها إلى الباب ، قائلا لها وقد أعطيتها بعض النقود :

اذهبى إلى بائع الحلوى ، فاشترى منه ما يروقك ، وانتظرينى هناك ، حتى أوقظ أباك . . .

وتواثبت على الدرج هابطة .

وبعد وقت اتخذت فيه ما يقتضيه الموقف من إجراء ، قصدت الحارة القريبة أطلب « ست الكل » عند الحلوانى ، فوجدتها فى لمة من الأطفال تزهو عليهم بما تحمل من أنواع الحلوى ، وهى تمنح بعضاً من أترابها وتعرض عن بعض . فناديتها :

تعالى يا « ست الكل » . . .

فأقبلت على ، فهششت لها ، وأمسكت بيدها أسير بها وأنا أقول :

أتحبينى يا « ست الكل » . . .

فاشرأبت تقول بملء فيها :

جداً يا أفندى جداً . . .

— كما أحبك ؟ . .

— أكثر يا أفندى .

— فلنذهب إذن إلى دارى ، ولتمكثى فيها معى . . .

— وأبى ؟

— سيرجع بعد قليل . . . لقد سافر . . .

فصاحت فى دهشة :

سافر ؟ هل استيقظ ؟

— استيقظ وسافر عل عجل ، لأمر مهم ، وإنه لعائد إليك محملا باللعب والحلوى .

— وهل يغيب ؟

— أياماً قلائل . . . ستمكثين معى . . . ألا تحبين ذلك ؟

فبدا عليها مظهر من التخاجل والاستحياء ، فبادرتها أقول :

اتفقنا . . . قبلينى إذن !

وانحنيت إليها ، فأرسلت على خدى قبلة ساذجة ، وتركتنى تسبقنى بخطوات سراع ، فتبعتها بنظراتى ، وصدرى تجيش فيه أشتاتُ المشاعر ، وما لبثتُ أن أخرجت منديلى أمسح به دمعة طافرة !

الأمل المنشود . . .

شدّ ما حزن الفتى « سويلم » حين استأثرت المنية بأبيه الشيخ « نوار » . . .

لقد فقد فيه مثلا عالياً للأبوة ، وطرازاً رفيعاً من التقوى ، كما فقد فيه عائلا عظيما ، وكافلا كريماً . . .

كان أبوه يؤم الناس فى مسجد بلدة « الدهارشة » ، ظل فى منصب الإمامة زهاء ثلاثين سنة ، مشهوداً له بنقاء السريرة ، وصدق الورع ، وحب الخير للناس ، وأخلص له الأهلون ، حتى قبضه الله إليه ، وهو يحبو إلى الثمانين .

ولم يكن للشيخ « نوار » من الذرية إلا ولده « سويلم » فقد تخطف الموت سائر أبنائه من قبله ، وعاش له أخيراً ذلك الغلام الذى وهبه الله إياه على الكبر ، فكان لعينه قرة ، يبالغ فى التعهد له ، حتى ليخشى مرّ النسيم عليه .

ولكن القدر أبى إلا أن يداعب الرجل فى فلذة كبده مداعبة ثقلت وطأتها عليه ، فقد أصيب الغلام فى فجر صباه

بمرض عنيف ، ظل ينتابه حتّى زلزل أركانه ، وهدّ كيانه . ولم يبارح جسمه إلا بعد أن أحاله حطاماً تزدريه الحياة ، فعاش «سويلم» كأنه هيكل بشرى ، لا إنسان سوىّ . . عينان غائرتان ، ووجه مأكول ، وقامة أشبه ما تكون بعود يابس يوشك أن ينقصف .

وبلغ الغلام الحلم ، فوجد الشيخ «نوار» نفسه يفكر فى مستقبل ولده ، على أى نحو يكون؟ وأية وجهة يسلك ؟ فلم ير إلا أن يعده «للأزهر» ، لكى يكون فيه شيخاً من رجاله الأعلام .

ولبث الأب يقرئ ابنه كتاب الله ، ويتولى تلقينه مبادئ العلم ، وبسائط الدين ، ويأخذه بتعاليم الشرع ، ويبث فى نفسه نزعة العقيدة وروح الإيمان ، وقد كان يغلو فى ذلك ويبالغ ، حتّى صرف الغلام عن شئون دنياه ، فلم تعد له خبرة بوسائل العيش ، ولم تبق له طاقة بالكدح فى سبيل الكسب والاغتنام .

وكذلك شب «سويلم» لا يفقه من أمور الفلاحة شيئاً ، ولا يشارك أباه فى القيام على شئون الأفدنة الأربعة التى يمتلكها من أرض الله .

وأبت معقبات المرض أن تزايل جسم الفتى « سويلم » فتمكنت فيه ، تجدّد همه ، وتحرمه ما فى الحياة من لذة ومتاع . حتى إنها جعلته لا يحظى بما حظى به أنداده شباب القرية من زواج .

وكان الفتى يمضى أيامه ، لا شغل له إلا حديث الدين ، يبشر فيه الصالحين بما يوعدون من نعيم مقيم ، ويزّهد الناس فى هذه الدنيا الحافلة بالأوصاب والآلام ، ولا يجد للبشرية فى غير الدار الآخرة سعادة ونعمى .

وتقضت تلك الليالى التى جلس فيها الفتى « سويلم » يتقبل تعازى الناس فى أبيه ، فاعتكف أياماً فى حجرته ، دائب التفكير فى هذا الطارئ المفاجئ ، هذا الموت المحتوم . . . وتناوحت فى رأسه الأفكار والخواطر ، تمثل له ما يلقاه الراحلون عن هذه الحياة من ثواب وعقاب . فاطمأنت نفسه بأن أباه قد انتقل إلى بحبوحة من السعادة والأمن ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

واضطر الفتى أن يبارح داره ليعالج من شأنه ما يستوجب رعايته ، ولكنه كان يملأ وقته بالتحدث عن أبيه ، فما يكاد

يلقى إنساناً حتى يلتمس معه أوهن المناسبات ليتطرق منها إلى تعداد مناقب الشيخ « نوار » ، وما كان له من فضل على القرية عظيم .

على أن حاجات العيش كانت تقتضى الفتى « سويلم » أن يبذل لها بعض الجهد ، فإذا ألجأته إلى ذلك الضرورة ، لم يلبث أن يضيق بأول عقبة تعترضه ، فإذا هو يلوذ بالفرار إلى مصطبة الشيخ « مصيلحى » ، يقارضه الحديث فيما كان لأبيه من مكرمات ، وفيما آثره الله به من رحمة ورضوان .

وحان الموعد الذى يجبى فيه الملاك ما لهم عند المستأجرين ، فلم يصب الفتى « سويلم » من إيجار أفدنته الأربعة إلا دنانير معدودات ، أنفق معظمها فى إقامة حلقات الذكر ، ترحماً على فقيد القرية الشيخ « نوار » .

وعلى مر الأيام مست حاجة الفتى إلى المال ، فأقبل على مستأجرى أرضه يتقاضاهم ما بقى فى ذمتهم له ، فجعلوا يعدونه ويمطلونه ، ولا يملون إخلاف مواعيدهم معه ، وما زالوا يراوغونه ويداورونه حتى خرج باليأس من المطالبة ، واستيقن أن الناس مطبوعون على ضرائب شر وأذية ، وأنهم كذبة

منافقون ، لا شرف لهم ولا دين ، فأحسّ خيبة الأمل تعمر ما بين جنبيه ، وبدت له الدنيا ظلمات بعضها فوق بعض ، وشاهت وجوه الناس فى عينه ، فلم يعد يأنس بهم أو يبش لهم ، إلا صديقه الفقيه الورع الشيخ « مصيلحى » ، فكان دائم التّردد على مصطبته ، ينعيان معاً على هذه الدنيا ما حوت من مساوئ وآثام .

ومرة وهما يتناقلان حديثهما المألوف ، فى موضوعهما المعاد ، عرض الشيخ « مصيلحى » لحادثة وقعت فى القرية منذ عهد بعيد ، وكان فيها للشيخ « نوار » كرامة لا تنساها القرية وإن تواترت السنون ، فأنصت الفتى لهذا الحديث ، مأخوذ النفس ، مسحور السمع ، حالم النظرات ، وإذا هو يغمغم قائلا :

ترى أين أنت الآن يا أبتاه ؟

فحدق فيه الشيخ « مصيلحى » وهو يخلل لحيته بأصابعه ، ثم قال له :

فى الجنة يا بنى ، مع المتقين الأبرار !

فبدا الفتى فى شغف يقول بصوت خافت حنون :

الجنة ؟ . . . الجنة ؟ . . . ناشدتك الله أن تزيدنى بها علما .

فتنحنح الشيخ غير مرة ، وانطلق شائق الأسلوب ، يفضى بما عنده من وصف الجنة ، وما فيها من هناءة ومتاع ... ولبث يطنب فى بيان ما تحتويه مما تشتهى الأنفس ، وتلذّ الأعين ، فيستمع الفتى لذلك فاغراً فاه ، تبرق عيناه ، وإذا هو ينفث من صدره تنهدة جياشة ، ولسانه يقول :

من لى بالجنة ؟ من لى بها ؟

فتبسم الشيخ يجيبه :

إنها لك بعد عمر طويل . . . أنت الطيّب ابن الطيّب !

فنكس الفتى رأسه ، وهو يقول :

أتطلب لى طول العمر فى هذه الحياة المشوبة بالشقوة والبأساء ؟ ماذا فى الدنيا من خير يرجى ، أو متعة تنال ؟

واستبد بالفتى هذا التفكير ، فكان إذا أوى إلى فراشه وملكته عينه ، تمثل له أبوه فى حلم بهيج ، متربعاً على أريكة من ذهب ، بسطت عليها الحشايا الوثيرة ، ومن حوله ما لذ وطاب من مناعم العيش ، وعلى وجهه يتلألأ نور . . .

فلا يكاد يلمح ابنه ، حتى يبتسم له ، وكأنه يومئ إليه يدعوه !

واشتد زهد الفتى فى الحياة من حوله ، فهو لا يطعم إلا ما نزر ، ولا يشرك الناس إلا فيما ينوبهم من المآسى والأرزاء . فما كانت تفوته جنازة ، ولا كان يعوقه شىء عن حضور مأتم ، وأطيب أوقاته ما يمضيه على ربوة القبور !

وكان أحياناً يجد نفسه ضائقاً بمحبسه فى البيت ، فينطلق إلى الطريق ، فرداً يستروح ، وإذا به تسوقه الخطا إلى شريط القطار ، فلا يفتأ يغدو ويروح ، وقد وطن عزمه على أمر مقرر محتوم ، يظفر منه براحة الأبد . . . ويظل الفتى على حاله ، سابح النظرات فى عباب الأفق ، حتى تصك سمعه جلجلة القطار العتى فى هجمته الخاطفة ، فيحس الأرض تحت قدميه قد زلزلت زلزالها ، وإذا هو مزعج قد استيقظ من غفوته ، وإذا هو يقفز من مكانه بعيداً عن شريط القطار ، كأنما قذفت به يد قاهرة !

وفى الحين بعد الحين ، كان يتخذ مجلسه على حافة تلك الساقية المهجورة فى أقصى القرية ، فيدلى ببصره فى

مهواها المظلم السحيق ، يتبين فى قاعها سفينة نجاته من عالم الشرور ودنيا الأوزار . ولا يكاد يميل على شفا البئر ، مسلما جسمانه ، حتى يستشعر الرعشة تصدم أوصاله ، فلا يلبث أن يرتد ، وقد أخذه الفزع من كل جانب ، فيتخذ سبيله إلى بيته كئيباً يثور على نفسه الخوارة وعزمه المهزوم !

وتثاقلت هموم الفتى على كتفه ، فإذا نظر إلى داره التى درج فيها وترعرع ، لم يجدها إلا سجناً تصفر فيه وحشة وانقباض ، وإذا مد عينيه إلى الطريق من حوله تراءت له الدنيا كأنما تنفث فى وجهه دخاناً تختنق منه الأنفاس . فأما مجلسه عند الشيخ « مصيلحى » فلم يعد يطيب له ، بل إنه أصبح يتبرم بالمسجد حين يحتشد بقصاده من طلاب الصلاة .

وتضاءل نصيب الفتى من دنيا الناس ، حتى إنه قصر خطاه على الطريق بين بيته وبين مقبرة أبيه ، فهو يقضى بجانب الرمس أطول وقته تائهاً فى بيداء خياله ، يحاول أن يقاسم روح أبيه ما تنعم به فى دار الخلود .

وذات يوم والوقت أصيل ، تسلل الفتى « سويلم » من

داره ، مشتملا بعباءته البالية ، لا تبدو منه إلا عينان تبصان فى حيرة واضطراب ، وظل الفتى يسير حتى فارق البلدة ، فواصل سيره يسأل ويستخبر ، وقد أقبل عليه الليل وتغشاه ، وهو ما برح ماضياً فى الطريق . . .

وتوخى الفتى وجهة المستنقع الكبير ، حتى أسلمته خطاه إلى خرائب ودمن ، فاخترمها ينشد ضالته ، إلى أن تراءت له شعاعة تخبو وتلوح ، فاستهدى بها حتى أبلغته إلى بيت متهدم ، فمثل أمام بابه يحدق فيه .

ولما استيقن أنه لم يضل سبيله ، وقف متردداً لحظات ، ولكنه أذكى من عزيمته واستجمع ، فدفع الباب يحث خطاه فى ممشى ضيق ، ثم ألفى نفسه بغتة فى قاعة ترق فيها الظلمة ، ولا يفصح فيها الضوء الشحيح إلا عن أشباح غامضة فى شبه حالقة ، فلم يلبث الفتى أن زكمته ريح غير مألوفة اختنقت منها أنفاسه ، فمكث هنيهة يحاول أن يميز هذه الأشباح ، وأحس بجسمه تعروه قشعريرة ، فعجب من نفسه كيف سولت له قدمه أن يطأ هذه البقعة المريبة ، وهم بأن يعود أدراجه ، هارباً من ذلك الوكر المرهوب ، ولكن صوتاً أجش النبرات ، علا يسأله :

من أنت ؟

وإذا بالفتى يرى وميض العيون يترامى عليه كأنه سهام تضرب حوله الحصار .

ورقيت إلى سمعه همهمة استياء ، زادته من خشية ورهب . . .

واستأنف الصائح يقول :

من أنت ؟

فألفى الفتى « سويلم » نفسه يتدانى ، وهو يجيب فى صوت متهدج :

أريد أن ألقى « عم خفاجة » .

فنهض إليه صاحب الصوت ، أعجف الوجه ، عليه جهامة وقطوب ، وجعل يتفرس فيه بعينين غائرتين تحت أهداب غزار ، وما هى إلا أن قال له :

فيم سؤالك عن « خفاجة » ؟

— أريد التحدث معه فى شأن خاص . . . فى مهمة خطيرة !

وأمسك الرجل بيد الفتى ، وقاده إلى حجرة داخلة ،

فيها شمعة موقدة تثير في الأرجاء ظلالا كأنها رءوس الشياطين . . . وهنالك في ركن من هذه الحجرة يتراءى شبحان يتسارّان في اهتمام ، مالبثا أي أن رفعا أعينهما يستوضحان من الطارئ . فدفع الرجل بالفتى نحوهما ، وهو يقول :

ضيف يطلب « عم خفاجة » في شأن خاص . . . في مهمة خطيرة !

وما أسرع أن خلت الحجرة ، إلا من الفتى « سويلم » وهو جالس قبالة رجل ضئيل الجسم ، صلب العود ، له عينان تتقدان كعيني النمر ، يقول :

أنا « خفاجة » . . . ماذا أتى بك يا شيخ « سويلم » ؟

فارتجف الفتى يغمغم :

وهل عرفتني ؟

فأجابه الرجل في صوت لين عطوف :

ومن ذا الذي لا يعرف الشيخ « سويلم » ؟ ومن ذا الذي لا يعرف ابن الشيخ « نوار » ؟ من دلك على مكاني ؟

فاطمأن الفتى شيئاً ، ولكن بصره جعل يزيغ في الحجرة ، ويتيه .

ثم ابتدأ يقول :

لقد كنت أبحث فى الخفاء عن شخص أركن إليه ، فى مهمة عظيمة ، فدللت عليك . . . ويعلم الله ما لقيت من عناء فى سبيل الوصول إليك .

— أهلاً بك . . . أخبرنى عن مهمتك .

فصمت الفتى برهة يهم بالكلام ولا يبين ، ونظراته تضطرب يمنة ويسرة ، فقال له « خفاجة » وهو يربت كتفه :

تكلم . . . اطمئن إلىّ . . . ما مهمتك ؟

فاندفع الفتى يقول فى عزم وحزم :

المهمة هى تخليص روح من جسد . . . ألا أستطيع أن أعول عليك ؟

فقال « خفاجة » مدهوشاً :

أتريد إزهاق روح أحد ؟

فصاح الفتى من أعماق نفسه يقول :

بل أريد تخليصها من عالم البؤس والشقاء !

— لم أفهم مرادك . . . أوضح !

ــ مسألتى واضحة . . . عشرون جنيهاً لك جزاء على تخليصك هذه الروح . . . عشرة مقدمة ، ومثلها تنالها ساعة انقضاء المهمة . . . عشرون جنيها . . . هى كل ما بقى لى ، هى كل ما أملك !

ــ عوّل علىّ . . .

ــ إنى مشترط عليك شرطاً .

ــ أى شرط هذا ؟

ــ أن تكون الضربة فى مقتل ، حتى يخر المضروب صريعاً من ساعته !

ــ سيقضى فى طرفة عين . . .

ــ عوفيت يا عم « خفاجة » ، هاك الجنيهات العشرة !

وقدّم الفتى إلى الرجل رزمة من أوراق النقد ، فأخذها الرجل فى غير مبالاة ، وقذف بها فى جيبه ، وسكت « سويلم » قليلا ، وقد اكتسب وجهه سيماء الطمأنينة والاستقرار ، وكأن عبئاً قد انزاح عن كتفيه ، ثم أخذ يهمهم :

سوف يكون غريمك فى بلدة « الدهارشة » مساء غد ، وسيمضى بعض وقته فى بيتى ، ثم يخرج بعد صلاة العشاء

بساعة كاملة ، متخذاً طريق الجرن القديم ، ثم يحيد إلى حقل النخيل . . . ناحية مهجورة أراها تصلح لإنجاز مهمتك على خير وجه . . .

ـــ لا تحمل للأمر همًّا !

ـــ ستكون مع الرجل الجنيهات العشرة المؤخرة . . . هى حقك الباقى . . .

فقال « خفاجة » مبتسما فى مداعبة :

هل لك أن تصارحنى بجليّة الأمر ؟

ـــ هذا سرّى لا أبوح به .

ـــ شأنك وما تريد .

ـــ سترى غريمك وحيداً بلا رفيق ، ملثما بعباءته السوداء ، راجلا يحث خطاه .

ـــ ما اسمه ؟

ـــ ستعرفه فيما بعد .

فصمت « خفاجة » حيناً ، ثم أقبل على محدثه متقد العنيين ، قائلا :

أما إن كانت هناك مكيدة تريد أن تحوكها لى . . .

فقاطعه الفتى يقول فى عزم وتأكيد :

حاشاى أن أفعل !

– لئن وقع بى ضرّ لتكونن فريستى ... لا تنجو ببدنك منى !

وفى الموعد المضروب ، وقد أظلت البلدة ظلمة العشية ، خرج من بيت الشيخ « سويلم » شخص وحده ، تلفه عباءته ، فتخفى وجهه ، وهو ماض فى طريق الجرن القديم إلى حقل النخيل . . .

وما إن قارب الحقل ، حتى هم بأن يحث خطاه ، فإذا هو قد اضطربت مشيته ، واختل اتزانه، ولكنه ما لبث أن اعتدل مندفعاً يوسع الخطا ، فلما توسط الحقل برز من خلفه « خفاجة » شاهراً فى يده هراوته الصلبة ، فأهوى بها على رأسه، فسقط من فوره يترنح ، وهو يغمغم :

إلى جنة الرضوان !

اقرأ

رشاد دارغوث

في بطون الليالي

في بطون الليالي

رشاد دارغوث

فى بطون الليالى

١٣٠
اقرأ
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٣٠ – أول أكتوبر ١٩٥٣



مقدمة

للدكتور طه حسين

سيدى الأستاذ العزيز

أتأذن لى بأن أشكر لك أجمل الشكر هذه الساعات الممتعة التى أنفقتها معك، قارئاً كتابيك « الحاج بحبح » و « خطيئة الشيخ » ؟ فقد وجدت فى هذه القراءة من الروعة الساذجة ما يوجد فى الكتب الممتازة حقًّا . وجدت هذا التصوير اليسير الساذج للبيئة الإسلامية فى لبنان ، فتبينت خصالا مشتركة بين هذه البيئة وبيئتنا المصرية . حتى لقد كان يخيل إلىّ أن ما أقرأ وصف هذه البيئة المصرية نفسها ، لولا فروق ضئيلة عارضة .

ولست أخفى عليك أن أخص ما يعجبنى ، فى هذين الكتابين ، هو سذاجة التصوير ويسره . فإنك تلمُّ بالأمر ذى الخطر ، يمس أخلاق الأفراد أو حياة الجماعات ، فتعرضه فى صور سهلة موجزة ، تتعمد ألا تتعمقها ولا تتمها ، لأنك تريد أن تترك لقارئك حظًّا من تعمقها وإتمامها . فتشركه فى عملك الأدبى ، وتشعره بأن موقفه منك إيجابى لا سلبى .

فهو شريكك فيما ترسم من صورة ، وشريكك فيما تعرض من رأى . وأحب الكتّاب إلىّ هم الذين يحترمون قراءهم ، فلا يلقون عليهم الأدب إلقاء ، وإنما يسايرونهم فى رياضه وجناته ، وفى صحاريه وفلاواته ، يقفون بهم هنا وهناك ، ليعجبوا معهم بمنظر يثير الإعجاب ، أو يشفقوا معهم من منظر يثير الإشفاق ؛ أو يرتاعوا من موقف يملأ القلوب روعاً .

فأنت زميل قارئك ورفيقه ، لا أستاذه ومعلمه . وهذا عندى أسمى ما ينبغى أن يطمح إليه الأديب .

وأظنك توافقنى على أنى لم أجد فى كتابيك فنك الرائع الدقيق ، وما أراد أن يعرضه من المواقف والمشاهد فحسب ، وإنما وجدت معه روحك الكريم ، وما أحب أن يخفيه من الدعة والعطف والمودة للذين يشاركونه هذه الطرق الفنية التى سلكها .

ولعلك توافقنى أيضاً على أن « خطيئة الشيخ » هو أروع الكتابين ، لأنك قد أتحت لنفسك فيه الفرصة ، فمضت على سجيتها ، وآتت من خير ما عندها ، ثمرات حلوة أحياناً ومرة أحياناً أخرى ، ولكنها شديدة الأثر ، طويلة البقاء فى القلوب على كل حال .

وأنا مع ذلك لا أعفيك من بعض الملاحظة . فقد أحسب أنك تعجلت أمر صلاح كله ، فأسرعت إلى شفائه من علة

كان يظن أنها معضلة ، وأسرعت فى حبه وزواجه وترميله ، واختطفت زواجه الثانى اختطافاً . ولو قد استأنيت فى ذلك لأظهرتنا على كنوز من نفوس الشباب ، كما أظهرتنا على كنوز من نفوس الأطفال ، والنساء ، والكهول . وأكبر الظن أنك تعجلت إتمام الكتاب ، أو أكرهت على تعجيله .

أما بعد فإنى أجدد لك الشكر ، وأهدى إليك أصدق الأمانى ، وأرجو أن تتيح ظروف الحياة لك إمتاعنا بمثل هذين الكتابين القيمين ، وأهدى إليك تحية القارئ الصديق للكاتب الصديق ، وهى عندى أكرم التحيات .

طه حسين

٨

جلود الأفاعى

أقام بجوار قصر العدل ، على بضع خطوات من أضيق ساحة فى ساحات المدينة ، وأشدها ازدحاماً بالمارة والمقاهى والمتاجر ، يراقب ويدرس ويحلل ، ثم يستنتج لنفسه الخطط والبرامج . فقد كان سليمان — وهذا اسمه حتى الآن — من المهاجرين إلى هذه البلاد ، سعياً وراء الرزق ، كما كان أسلافه يهاجرون إلى أية بقعة من شواطئ البحر المتوسط ، تتوفر لهم فيها أسباب الحياة والكسب والثروة . فأتقن اللغة العربية المحكية بلهجة البلد ، وبمختلف طبقات هذه اللهجة ، التى تعين لك فى كثير من الأحيان ، الحى الذى يسكنه المتكلم بها ، والاتجاه السياسى الذى يعمل فيه ، والمعبد الذى يتصل داخله بربه ، وغير هذا من حقائق الشخص ، وأسراره الخاصة .

ولئن كان سليمان لا يدرك أى معنى لما وراء ذلك كله ، فهو يشعر بالحاسة « السابعة » التى يدرك بها « الغريب » ما لا يدركه المواطن ، إن المجتمع فى هذه المدينة أشبه ما يكون بقبعة الفلين ، التى نلبسها فى الصيف . فهو فخم فى مظهره ، خفيف

الموازين فى حقيقته ، سريع العطب فى ما قام عليه من أسس .
وسليمان يعلل رأيه هذا بقوله :

— « إن شائعة واحدة ، مهما بلغت غرابتها ، كفيلة بزعزعة الثقة لدى الناس ، حتى بحكومتهم العاملة ، ونقدهم المتداول . وشائعة أخرى ، أشد غرابة وأبعد عن منطق الحوادث والتاريخ ، كفيلة بإعادة المياه إلى سابق مجاريها ! »

لهذا كان سليمان لا يستنكف عن الاستماع إلى كل لسان يحبّ أن يفضى إليه بحديث ، مهما بلغت شهوة الثرثرة بصاحبها ، ومهما تنوعت ألوان تلك الثرثرة . إلا أنه منذ نقل محل إقامته من المقاهى والحانات القائمة حول « باب إدريس » إلى حيث اختار « مكتبه » المتواضع فى أحد الزواريب المجاورة لقصر العدل ، بات يصنف تلك الأحاديث تصنيفاً مدرسيًّا ، على طريقة أصحاب الأعمال وكبار رجال الاقتصاد ، وعظماء الساسة المحترفين .

— « إننى أفعل كأستاذ الأدب فى كليات البلد تماماً — فهو ينسق محاضرته مبتدئاً بتاريخ حياة الأديب ، لينتهى أحياناً إلى نتاج ذلك الأديب ، وأنا أنسق محاضرات الناس ، فى أحاديثهم ، مبتدئاً بالأخبار الجارية والحوادث الرائعة ، فأسرار الأسر والعائلات المترفة ، لأنتهى دائماً إلى خطط السياسة وبرامج الإصلاح ؛ أليس هذا هو مخطط الأحاديث العامة وتصميم

كل اجتماع يعقد بين اثنين ؟ »

يقول سليمان قوله هذا لرفاقه ، ثم يقهقه كأنه يريد أن يشعر سامعيه بأنه أرفع مستوى فكريًّا من هؤلاء الناس الذين يفضون إليه بما عندهم ، وإن كانوا يمثلون مختلف طبقات الشعب ، في هذه المدينة العجيبة .

ولئن كان سليمان أشد اهتماماً بالأحاديث السياسية العليا منه بغيرها ، شأن سائر الناس ، فإن فضائح البيوت ، وأسرار القصور ، ونواحي الضعف في رجال الأعمال والسياسة ، أوقع في قلبه ، وأشد علوقاً بنفسه . وهو يبرر ذلك بقوله لمن يستخلصهم من أهل المحلة ، وزبائن المقاهي الدائمين .

— « هذا سلاح لم أخطئ في الحياة هدفاً صبوت إليه ، كلما استعملته . إن الناس الكبار كالأطفال الصغار يجب أن تعرف من أين تأخذهم . »

وسرعان ما أصبح سليمان خبيراً محلفاً لدى المحاكم . فقد تعرف إلى كثير من ذوي النفوذ ، فأوصوا به خيراً ، يوم كان القضاء عرضة للوساطات ، والقضاة كسائر الموظفين لا يتمتعون بأية حصانة . فكان اكتشاف رئيس المحكمة تلك الحاسة « السابعة » لدى سليمان بمثابة اكتشاف سليمان نفسه . لقد أدرك الرئيس ذاتية هذا الرجل وما فطر عليه ، وما بإمكانه أن يبلغ إليه

فى الحياة ، وفى هذا المجتمع . كما كان وجه سليمان الصبوح ، وقامته المديدة ، وعضلاته القوية ، فضلا عن صفرة عينيه التى تضرب إلى الزرقة ، من جملة شفعائه لدى من يتصل بهم ، من زبائن ورجالات وزبونات وسيدات ، وخاصة ، فئة معينة من هؤلاء وهؤلاء ، لا تقيم لغير المنفعة وزناً .

غير أن ما يكسبه سليمان من مخصصات قانونية تعينها له المحكمة ، كلما انتدب للفصل فى خلاف ناشب ، سواء كان هذا الخلاف بين عامل وصاحب عمل ، أو مؤجر ومستأجر ، أو تاجر ومصرف ، لا يكفى لسد حاجة واحدة من حاجات جسده العملاق ، ولا يشبع شهوة واحدة من شهوات نفسه النهمة . وهو يعلن بصراحة :

— « إننى أريد أن آكل لحم دجاج ، وأشرب ويسكى ، كغيرى من الآكلين والشاربين ! »

وقد ازداد سليمان حرصاً على هذه المتع الجسدية ، فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب العالمية الثانية ، يوم انفلت نهم الناس فى كنف اليسر الذى عمّ البلاد ، وفى ظلال الترف الذى شاع فى جميع الأوساط . فكنت لا ترى سليمان إلا فى وليمة من الولائم التى يدعى إليها ، أو خلف مائدة من الموائد التى يقيمها لنفسه ولأصحابه ، من ذوى النفوذ والجاه والمال .

* * *

فى ذلك الحين كانت دفعات الهجرة ، من القرى والأرياف إلى المدينة والحواضر ، تتوالى ، وأمواج المهاجرين والمهاجرات تتابع ، ولا سيما بعد أن تبين لكثير من أبناء البلاد أن كنوز الثروة ، التى وجدها بعضهم فى مدن أمريكا ومجاهل أفريقيا ، متوفرة كذلك فى هذه المدينة القريبة . فيقول واحد لقومه ، وهو جاد غير هازل :

— « علام تتحملون المشاق وتعانون الأخطار فى سبيل الوصول إلى العالم الجديد ، هناك ، وراء البحار ؟ فى حين أن عالماً آخر جديداً أيضاً يقوم على شاطىء البحر ، فى العاصمة السعيدة ، بين الرأس والخليج ، من ناحية ، وبين الغابة والرمال من ناحية ثانية ؟ »

والواقع أن هذا العالم الجديد « القريب » أخذ يتسع ، فى هذا الحيز المحدود ، اتساع العوالم الجديدة الأخرى ، اتساعاً مخيفاً . فقد قفز عدد سكان العاصمة من تسعة وخمسين ألفاً كما كانوا منذ ربع قرن ، إلى مئة وتسعة وخمسين ألفاً كما أصبحوا منذ خمس عشرة سنة ، وإلى خمس مئة ألف ، كما سيصبحون فى الغد القريب .

ويخطر لسليمان خاطر من هذه المبتكرات الفذة ، التى اشتهر بها رجال الأعمال المرنون ، الذين يحسنون التكييف كلما

استدعى واقع الحال منهم تكيفاً ، ولو خمس مرات فى اليوم الواحد . فيعتنق جنسية دولة أجنبية عظمى ، لم تكن مطامعها فى البلاد تقل عن مطامع أية دولة أجنبية أخرى . ثم يعلل تصرفه لأصدقائه من المواطنين « غير المزيفين » ، بقوله ، مبرراً تنازله عن جنسيته الأخيرة بهذه السرعة وهذه السهولة :

— « أنا قلبي معكم ، وبعد فالجنسية كهذا الثوب إذا بدله الإنسان ، لا يفقد شيئاً من شخصيته ولا من عواطفه ، ألم يقولوا : الثوب لا يصنع الإنسان ؟ »

فيجيبه أحد أولئك الأصدقاء الكبار :

— « ولكن لا تنس يا عزيزى سليمان بك أن « سبنسر » يقول عكس ذلك تماماً . وأنت نفسك برهان حى على صحة قوله ! »

فيضحك سليمان ضحكته الصفراء بكلتا شفتيه المسترخيتين وبإحدى عينيه الزرقاوين ، ثم يتابع حديثه الطريف ، بلهجته الظريفة المستملحة ، كأنه لم يسمع شيئاً . ولئن فقد الرجل بتخليه عن الجنسية الوطنية ، دون استشارة الشخصيات التى دعمته يوم نالها ، شطراً من ثقة هؤلاء الأصحاب ، فإنه اكتسب بنيله الجنسية الأجنبية الجديدة قوة فى « السوق » ، وثقة لدى بعض الأوساط ، لا يعادلها إلا قوة « الأجنبي » وعظمة الثقة به فى جميع البيئات ، فى ذلك الحين . بل إن سليمان نفسه قد انقلب

شخصاً آخر ، لا يرضى عن نفسه « البلدية » السابقة ، ولا عمن حوله فى هذا الوطن ، من شباب البلاد الأصيلين الذين يغادرونها إلى الخارج ، كيما يستعدوا للعمل لها ، وعلى رفع مستوى حياة الناس فيها ، فيعودون إليها بأجساد منهوكة وقلوب يائسة ، وعقول غريبة . لا يعجبهم فى أوطانهم شىء ولا يعجبون هم من يعيش فى تلك الأوطان .

غير أن سلمون — وهذا اسمه منذ الآن — لم يكن على الوجه الصحيح كهؤلاء الشبان المواطنين تماماً . فقد احتفظ ، على الرغم من تنقله فى المكان وفى الجنسيات ، بسلامة بدنه ، وقوة عضلاته ، وبشاشة وجهه . وما تبدل فيه إلا عيناه ، خلف نظارتيه الحديديتين ، فقد أصبحتا أشد عمقاً ، وأبعد غوراً حتى ليعجز الناظر إليه ، من أبناء البلد العاديين ، عن قراءة ما فيهما من سر ، أو استشفاف ما وراءهما من عواطف .

وأعجب ما تلمس جيران سلمون فى معاملته الجديدة لهم ، هو هذا الترفع عن مؤاكلتهم كما فى السابق ، فى صحن مشترك ، أو مشاربتهم فى فناجين قهوة تدار على الجمع الحاضر ، أو مسايرتهم فى مواضع الثرثرة اليومية ، وأحاديث السياسة العليا . فقد بات سلمون — أو البك كما يحلو له أن يدعى — يؤثر العزلة فى مكتبه ، كما بات يؤثر أن يستقبل زواره وزائراته على انفراد ،

خلف حجاب حاجز ، أو أن يكتب ، وكثيراً ما يكتب ، تقاريره ومذكراته بلغته الأصلية تارة ، وبلغة القوم الذين اختار جنسيتهم تارة أخرى .

ولعل ما أشيع عنه ، حينما عرف الناس اختياره الجنسية الجديدة ، والطريقة التى لجأ إليها فى سبيل الحصول على تلك الجنسية العسيرة المنال ، والوسيط الذى شفع به لدى المرجع المختص ، وكل ما يمكن أن يعرف من أسرار قضية فى مثل خطورة هذه القضية ، مضافاً إلى ما نسجه الخيال وحاكته الألسنة وتصورته العقول ، وإلى ما يبدو من مظاهر النعمة المستحدثة على هذا اللاجئ « الغريب » ، كل هذا كان من أسباب سقوط سلمون فى عيون البعض ، ومن أسباب رفعته فى عيون البعض الآخر .

* * *

وانطلقت الرصاصة الأولى فى الشرق الأوربى ، فصحا العالم من غمرة سلم مسلح ، أرادوه سلماً دائماً فى فرسايل ، فكان الشرارة التى ألهبت العالم من جديد . فإذا سلمون بك أسرع من سارع إلى التكيف ، وإدخال التعديلات الجديدة ، وفاقاً للظروف الطارئة ، على عمله ، ومحل عمله ، وخاصة على الروح التى يعمل بها ، والهدف الذى يعمل له .

وكان ذلك فى صباح الأحد فى ٣ أيلول ، يوم أعلنت بريطانيا العظمى أنها منذ الساعة تعتبر نفسها فى حالة حرب مع ألمانيا . فقد هبط الأستاذ سليم — وهذا اسمه منذ ذلك الحين — مكتبه ، ورسم فيه الخطة المثلى ، وبادر فوراً إلى تنفيذها . فما أطل صباح يوم الإثنين التالى حتى كانت الجرائد ، والجدران وكل مكان آخر يصلح للإعلان . تحمل جميعها اسم « مكتب العمل والاستخدام » شارع الخالدات ، بجوار السراى ، رقم الهاتف ٥٦ — ١٨ صندوق البريد ٩١٥ .

وما كان أشد عجب الجيران ، حينما فتحوا مخازنهم الناصلة أبوابها ، والعتيقة إعلاناتها ، والقذرة مداخلها ومخارجها ، فرأوا ، بجانب هذه الآثار البلدية المهملة ، أصباغاً تزهو على الباب المجاور ، وإعلاناً يرقص فوق مدخل المكتب القديم ، وخادماً ينظف المدخل المرتب . وخلف هذه المظاهر كلها ، حقيقة جديدة لذاك الكائن المتجدد ، كما تتجدد قشور الأشجار وجلود الأفاعى .

وتوالت على الغلام الأسئلة من أولئك الجيران الأعزاء :

— « ماذا تعمل هنا ، ومتى جئت ، وما اسمك ، وكم أجرتك ، ولماذا سمى المكتب « مكتب العمل والاستخدام ؟ » وهل من أعمال جديدة بعد الكساد ، وأزمة البطالة التى تعانى مع

العالم مضضها منذ عشر سنوات ؟ هل ستفرجونها أنتم بمكتبكم هذا الكسيح ؟ »

وكأن الأستاذ سليم ، شأن مارد الأساطير لدى الحاجة إليه أو شأن الذئب عند ذكره ، قد حملته الأعجوبة إلى المكان ، قبل موعد قدومه . فاستمع إلى ختام الأسئلة التى حاول الجيران أن يستنبشوا بها أسراره ، من هذا الولد الصغير — على طريقتهم التقليدية فى المثل القديم : « خذ أسرارهم من صغارهم » . أو أن يثيروا فى نفس هذا الغلام — على الأقل — بعض الشبهات ، فيفسدوا على جارهم صاحب « مكتب الاستخدام » ، عمله العبقرى ، على طريقة السياسة المحلية ، فى زرع « الكشاتبين » ووضع القضبان فى العجلات . فما كان من الأستاذ سليم إلا أن ابتسم لهؤلاء الأصدقاء اللدودين أجمل ابتسامة لديه ، وأمسك بكتف أقربهم إليه وقال لهم بصوت ناعم لطيف ، كصوت بعض الموسرين المخنثين والوصوليين الانتهازيين :

— « صباح الخير يا إخوانى ، أهلا وسهلا ، أنا كنت موعوداً بهذه الزيارة وقد حققتم لى فوق ما وعدت به نفسى . هذا المكتب مكتبكم ، فإذا كان عند أحدكم امرأة أو فتاة أو شاب أو رجل أو جماعة يريد أن يشغلهم ، فأنا مستعد أن أجد له أو لها العمل المناسب ، والمكان الملائم ، والأجرة الكافية ! ».

لقد كانت المفاجأة أشد وقعاً على هؤلاء الأصحاب من وقوف الطير على رؤوس أصحابها ، فى المثل السائر . فجمدوا وسمروا فى أماكنهم ، كما سمرت ألسنتهم فى حلوقهم ، فلم يجيبوا بحرف . وإن كان الذى أمسك سليم بكتفه قد تراءى له أخوه ، منذ تلك اللحظة ، وكأنه يجىء إليه فى صباح الغد ، فيحمله إلى « مكتب العمل والاستخدام » فيجد له الجار سليم عملا ، ويتخلص هو من الإنفاق عليه وعلى أسرته الوفيرة العدد ، فيوفر فى السنة ثمن قطعة من الأرض ، يبنى عليها بيتاً فى السنة التالية .

وكان أشد الجماعة حيرة الغلام نفسه ، لا لأنه كلم الجيران خلافاً لما أوصاه به « المعلم سليم » ، ولا لأنه لم ينظف داخل المكتب بعد كنسه بخرقة مبلولة ليزيل الغبار وآثار الذباب المتراكمة عن صورة « المعلم » على الأقل ، بل لأنه لم يشاهد أخته تجىء مع المعلم سليم ، كما وعدته مساء اليوم السابق ، وكما أكد له المعلم ذلك ، صباح هذا اليوم . ومع ذلك فقد كان الغلام أول المتكلمين ، بعد الدرس الذى ألقاه سليم على جيرانه ، كما تلقى الحجارة على رجال الشرطة فى المظاهرات الصاخبة ، فقال للرجل الذى صار معلمه ، منذ البارحة عند الظهر :

— « أين أختى ليا يا أستاذ ؟ »

فكان هذا السؤال ، على مسمع من الجيران الذين كانوا قد بدأوا يستعدون للانسحاب دون انتظام ولا جرأة ، أشبه بالصفعة على وجه السكران ، تؤلمه ولكنها تعيد إليه الصحو ، وتبعث عنده الشعور بالكرامة . فالتفت أبو خليل ، أكبر الجيران قدراً لأنه أكثرهم مالا ، إلى الأستاذ وقال له متعجباً :

– « لميا ؟ أنت تستقبل النسوان خارج مكتبك أيضاً ؟ »

فارتبك الرجل المسئول ارتباكاً عارضاً لم يدم أكثر من لحظة الاستعداد لتمويه جديد ، وأجاب ، والبسمة المصطنعة لا تفارق شفتيه الغليظتين :

– « فى المكتب وخارج المكتب . . . على حد سواء ، فى سبيل العمل والاستخدام ، بالطبع ! »

* * *

لم يكن ما نشره هؤلاء الجيران بألسنتهم أسوأ نتائج مما نشره الأستاذ سليم بوسائل الدعاية الأخرى ، سواء كان ذلك عن مكتبه أو عن الغرض من افتتاحه هذا المكتب ، الأول من نوعه فى هذا البلد . فقد كانت « السمسرة » لتأجير البيوت ، ولاستخدام البشر ، مقتصرة على شخصين أو ثلاثة لا مكتب لهم ولا مقر ، إلا فى بعض المقاهى الرخيصة ، أو لدى باعة التبغ والتنباك ، كما يفعل أكثر مخاتير البلدة . فجاءت الدعاوة التى

تبرع بها الجيران، والدعاوة الأخرى التى قام بها سليم لنفسه ولعمله تملآن المدينة بالأخبار المتناقضة ، عن نوع هذا العمل ، وما وراء النيات ، وعن المكتب وما احتواه من أثاث ورياش ووسائل إغراء . وعن صاحبه . وعما استجمعه فى شخصه من عواطف ونزعات ، وشخصيات ، وعن ماضيه وما نسج حوله من أساطير وشبهات .

ثم اشتدت أزمة البطالة فى البلاد . حتى صار العامل يرضى بربع ليرة أجرة عمله فى يومه ، وباتت الخادمة تكتفى بثلاث ليرات أجرة كدحها طوال شهرها . فلم يفت الأستاذ سليم أن يستفيد من هذا الوضع الشاذ . فبينما كانت الدول المتحاربة تبحث فى أوربا عن الرجال والنساء لتجنيدهم فى الحرب الكلية التى اشتبكت بها ، كان الرجل هنا لا يجد ما يقتل به الفراغ غير دفء الوظيفة . كما لا تجد المرأة، فى كل مدينة وقرية ، من حولها إلا فراغاً متصلا . وسليم يحسن بعض اللغات الأجنبية ، تعلمها فى مختلف الأوطان التى ارتادها قبل أن استقر فى هذه البلاد . وهو على صلة بكثير من الجهات التى تبحث عن الرجال المرنين الأشداء ، كما تبحث عن النساء المرنات الجميلات . وما عليه أن يقول الجيران عنه ما قالوه فيه منذ بدأ عمله هذا ، وقبل أن تشيع فى الأحياء المختلفة أخبار علاقاته

بهذه الخادمة وبتلك ، أو قصص فضائحه وأنباء احتيالاته .
فلقد تعودت أذناه سماع هذه الأنغام الرتيبة ، وبرزت فى وجهه علامات الجرأة والصفاقة اللتين فطر عليهما ، ثم مكنتهما فى نفسه غربته الطويلة . ثم هو لا يهمه من هؤلاء الناس أقوالهم التى لا تزيد ولا تنقص من موارد رزقه . فيقول لنفسه :

— « وما قيمة ثرثرة الأفواه إذا لم تنتج عملا . هؤلاء الناس يملأون الآذان والأجواء بما يقولونه فى كل حكومة تقوم عندهم ، منذ أيامها الأولى . ومع ذلك تعيش تلك الحكومة وتعمر الوقت المعقول لأعمار الحكومات ، فى هذه البلاد ، وغير المعقول أحياناً . ثم تنسحب بعد أن تنال مرة أخيرة ثقة المجلس بأكثرية ساحقة ، إن لم يكن بالإجماع. فما قيمة هذه الثرثرة ، وما وزن هؤلاء الناس ؟ »

ثم يقهقه المعلم سليم قهقهة مرققة ، خشية الجدران وآذانها ، وحذر هؤلاء الذين لم تبرح الكرامة عندهم فى زنة الروح ، وإن كانوا قليلين ، يجودون بها كى تسلم كرامتهم . ويضحون فى سبيلها بكل عزيز وغال ونفيس . ولئن كان عامة الناس فى مثل هذا المستوى « العصبى » إلا أنهم فى غالبيتهم قد فقدوا « حدة » الشعور بما يؤذى تلك الكرامة ، بعد قرون من استذلال واستعباد ، فباتوا وهم أحرص على أن يقتل أحدهم « صاحبه » من أجل « القرش » منهم على الوقوف فى وجه « عدوهم » المشترك

فى سبيل الكرامة القومية !

وتمضى الأيام والشهور . والحرب فى الغرب قائمة على الدول قاعدة على الفظائع ، تحصد العمران والحضارة كما تحصد البشر والحيوان والنبات . بينا ظل الشرق على وجه عام يرتع فى بحبوحة من الهدوء والرخاء ، حتى ليبكى الناس فيه موتاهم بكاء حاراً . كما ظل الأستاذ سليم يستقبل من يتوافد على مكتبه من طلاب عمل وطالبات استخدام ، بكل ترحاب وتهذيب وعناية . فيسهل للرجال الانخراط للخدمة فى الجيوش الحليفة ، أو التطوع للحرب على جميع الميادين طوال أيام النزاع . وييسر للنساء وللفتيات سبيل الاستخدام ، فى البيوت أو فى المحلات التجارية وسواها من المؤسسات . وقد كان يجد فى كل ذلك لذة لا يفسدها عليه ما يسمعه عن نفسه من مختلف الشائعات ، ولا يمحو أثرها ما يلقاه فى بعض اللحظات من تقريع الوجدان .

ولكن هذه الأيام العصيبة نفسها كانت أسرع الأيام فى حياة سليم إلى الزوال . فهو ما يكاد يستقبل عاماً حتى يودعه ، كأن سنى الحرب ساعات لهو وعبث . وما يكاد ينهى علاقته بأحدى « فنانات » الحرب حتى يبدأ علاقة جديدة . والأيام تمرُّ عجلى محمومة ، والشباب يخبو كذلك ، ولكن على مهل ، كما تخبو النار فى موقد تكاثف رماده حتى سد عليها منافذ الهواء .

وفى ذات يوم ، من شهر آب فى السنة ١٩٤٥ ، وكانت الحرب قد انتهت فى أوربا منذ مطلع أيار ، وباتت على وشك الانتهاء فى الشرق الأقصى ، دُقّ جرس الهاتف فى مكتب الأستاذ سليم . فتناول السماعة ملهوفاً ، كما لم يفعل منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل تجنسه الأخير . وإذا به يسمع خليطاً من الأصوات الخافتة ، والهمسات المتكررة ، يعلوها جميعاً صوت قوى النبرات صحيح التعبير واضح الأداء ، يقول له :

— « يا ابنى ، أنت المعلم سليم ؛ هنا دار الولادة . . . تعال استلم بنتك سوسو ، لقد دعوناها مؤقتاً بهذا الاسم ، امرأتك . . . أعطتك عمرها والمولودة بانتظارك ، منذ الليلة البارحة ! »

حقّاً لقد كانت الصدمة أشد مما توقعه سليم ، وكانت المصيبة أكبر من أن يتجاهلها رجل فى مثل لا مبالاته ووقاحته . فلما أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها من ظهر الآلة ، كانت مفاصله جميعها محطمة تحطيما عضويّاً . حتى عيناه الزرقاوان فى صفرة كصفرة الهشيم ، جمدتا ، وتعلقتا بأسارير ذلك الوجه الذى عادت معالمه إلى وعيه ، بإشراقة مفاجئة ، والذى لن ينساه بعد اليوم . وجه تلك الفتاة التى توسلت إليه بكتاب أن يجد لها عملا شريفاً ، فساومها على شرفها ، وخطّ لها عهداً بالزواج . ولكنه

لم يخطر له ببال أن خيانته ذلك العهد ، فى تلك المرة ، كانت كافية للقضاء على هذه الفتاة ، بعد أن تخلف له وحده ثمرة فجوره .

ولقد ظل الناس ، فى مناطق المدينة الداخلية وما جاورها ، يشهدون برهة من الزمن فى كل صباح ، رجلا عملاقاً « مهدماً » يمر بهم ، وهو يجر بإحدى يديه طفلة يسيل أنفها ، ويمسح بالثانية عينيه اللتين تسيلان كذلك . ولكن واحداً منهم لم يجد من نفسه فى يوم من الأيام باعثاً على اللحاق بهذا العملاق إلى حيث يقيم طوال يومه ، ولا أحس أحدهم رغبة فى استطلاع أمره ، فى أمسياته ولياليه . فقد مات كثير من الأشخاص الذين عرفوه ، ورافقوا « تجولاته » ، طيلة الحرب المنصرمة . وأصبح بعضهم ، بأرباح الحرب ، من الطبقة الأرستقراطية التى لا تتدنى إلى مستوى الناس وما يعرض لهم فى الحياة . وبات بعضهم الآخر فى أعقاب الحرب من عداد الوزراء السابقين أو الزعماء الذين لم يعودوا بحاجة إلى الناس . وما الفائدة من استطلاع أمر رجل أجنبي مشبوه ، من هؤلاء الذين تعج بهم البلاد ، حتى ليبلغ عددهم خمس سكان العاصمة ، التى تؤوى بدورها نصف سكان البلاد ؟ ثم ما الفائدة من مراقبة هذا الرجل الضعيف ، الفقير ، وغيره آلاف من التجار الأقوياء الأشداء يثرون على

٢٥

حساب هذا المجتمع ، فى حين يفنى بالحرمان فلاحه الجاهل ، ويهلك بالتقتير عامله الكادح ؟

* * *

ثم هذا الرجل غريب الأطوار . وقد رأى الناس منه ، ومن أمثاله ، من الغرابات ما زهدهم بكل غرابة ، شأن المتخم يعزف عن كل طعام ولو كان شهياً . ولطالما ادعى الأمريكان بأن بلادهم هى موطن الغرائب ، وبأن سكانها هم وحدهم مجترحو العجائب . حتى كانت الحرب العالمية الأولى ، وكان اتصال فريق منهم بأقطار مختلفة من العالم القديم ، وحتى كانت الحرب العالمية الثانية ، وكان أن توافد فريق آخر منهم على أجزاء أخرى من العالم القديم — عندئذ ثبت لهؤلاء الناس الذين يعتزون بناطحات السحاب عندهم . وبالدولار فى بلاد الناس الأخرى ، أن فى سائر أنحاء العالم « غرائب » أغرب مما عندهم « وعجائب » أعجب مما عهدوه فى مجتمعهم .

وكان « الخواجة » سلمون ، وهذا اسمه من جديد ، واحداً من تلك المكتشفات . فقد اهتدى إليه أحد الجنود الأميركيين ، فى عشية أحد من آحاد الربيع . وكان الزهر والعطر والجمال والفن على موعد ، فى إحدى الحدائق التابعة لبعض المقاهى ، بجوار « حى اليهود » . وكان الجندى — هارى — يبحث عن

صيد ، فى زوايا ذلك الحى ، وعند منعطفات الأزقة المتفرعة منه باتجاه الفنادق الكبرى عند شاطئ البحر ، وباتجاه « بيوت المواعيد الخاصة » ، بجوار دوائر الأمن العام . ساعة التقى فتاة لا يزيد عمرها عن عمر البدر ، تسارع إليه وتسأله بلهفة دون حياء مصطنع :

— « أنت تبحث عن مكتب الاستخدام الجديد ؟ »

ثم تبسم عن غير أسنان اللؤلؤ ، فيرى هارى فى التنافر بين حمرة الشفتين الناصلة ، وصفرة الأسنان الفاقعة ، وسط الوجه البيضوى الناعم ، والأنف الحنى الأقنى ، والشعر الخروبى الأجعد ، صورة ما ينشده من جمال غريب ، ومتعة رخيصة . فيقبل « هارى » بكل قوة على الفتاة يصافحها ، ويعبق وجهه بحمرة كلون الشفق ، عند أطراف الغيوم المتجمعة بين يدى المغيب ، ثم يتأبط ذراعها فتقوده (ساره) إلى حيث يريد .

وفى صباح اليوم التالى كان هارى يقص على رفاقه ، فى المخيم ، القائم وسط غابة الزيتون ، على مقربة من العاصمة ، حكاية الخواجة سلمون ، ذلك الرجل الذى لم يرَ فى حياته أغرب منه أطواراً ولم يسمع ، على وفرة سياحاته ، بأعجب من قصصه وحكاياته — سواء كان فى « مكتب الاستخدام القديم ، أو فى مكتب الاستخدام الجديد » باستثناء من رآهم — هارى نفسه — فى تل أبيب .

فيقول أحد الرفاق ، وقد انتهى من كتابة هذا « الحديث الخطير » الذى اختزله فى مذكرته ، وهو ينفخ بين شفتيه علكة لا ينفك عن مضغها .

— « شكراً يا عزيزى هارى الصغير ، سأبعث بحديثك الممتع إلى . . . « اليونايتد برس » . . . وأرجو أن يقرأ هذا الحبر الرائع ، « سميلك » الكبير ، فيرى أيهم أحق بالترحيل هذا « الرجل » ومئات الألوف أمثاله عن فلسطين المقدسة ، أم أولئك المئة ألف الآخرون القابعون فى أوربا غير « الطاهرة ! »

فيضحك هارى ، ويضحك سائر الرفاق ، إلا واحداً من المتطوعة ، فيليب المزرعانى الذى انضم إلى فرقة الحلفاء الديموقراطية طلباً للرزق ، كما تطوع من قبل فى الفرقة الفاشستية . فقد هب واقفاً ، يصرخ غضوباً متألماً :

— « لا لا أيها السادة . الحياة لا تطاق إذا خلت البلاد من هؤلاء . . . أتريدون لنا أن نظل « بعدهم » على هذه الحصيرة حول كأس من العرق ، وبدرة من فول العبيد ، لا طويلة ولا قصيرة ؟ »

وكانت الكلمات كقصف الرعد المفاجئ فى ربيع سواحلنا الدافئة ، يخرس العصافير المغردة ، ويرعب الزهرات المتفتحة ، ويخيف النملات الكادحة . ولكنها جاءت كذلك ، فى نفوس هؤلاء

الجنود ، الذين تعودوا أن لا يحترموا غير القوة ، وأن لا يقدروا غير الكرامة ، فى الأفراد وفى الشعوب . كزوبعة فى فنجان ، أو عطسة فى عاصفة ، لم يعيروها فوق ما تستحق من اهتمام ، ولا أكثر مما يتحمل قائلها من تبعة . وقد انفضّ الجمع من حول هارى وفيليب ، إلا « المراسل الحربى » . فقد ظل واقفاً يحدق فى وجه هذا الإنسان ، الذى يتحمس لكل ما ليس له صلة بوطنه ، ولا رابطة بقضية قومه ، وكأنه يدرس أحد الآثار من مخلفات ما قبل التاريخ ، فى المتحف العام . ثم جمع علكته من أطراف فمه ، وكورها على رأس لسانه ليقذف بها صفعة مجنحة فى وجه . . . هذا المتطوع المفجوع بأسياده المستعمرين ، قبل جلائهمَ الأخير .

ولولا أن هارى كان قد أسرع إلى الراديو ، فالتقط صدفة محطة إذاعة تنشر فى الصباح الباكر أخبار الشرق الأوسط ، وسائر العالم ، باللغة العربية ، فلفت بذلك اهتمام فيليب الذى يفهم وحده هذه اللغة ، لكانت المهزلة قد طالت أكثر من اللحظات التى استمرت فيها ، على الرغم من أن فيليب قد عود هؤلاء « الفرنج » كما عود قبلهم سواهم ممن تطوع فى جيوشهم ، المقيمة منها فى البلاد والعابرة ، على أن يصفح عن إساءاتهم إليه وإلى كرامته ، بالقدر الذى يحقد فيه على مواطنيه أبسط إساءة

تصيبه منهم ، وعلى وطنه ، كونه قطعة من هذا الشرق . وقد كان المراسل الحربى ، تيودور ، ينتظر كل شيء ، رداً على ما قذف به وجه فيليب ، إلا قوله له وهو يرقص طرباً :

— « اسمع يا تيودور ، اسمع ما تنقله لندن عن رويتر وتاس لقد سبقوك إلى نشر الخبر الخطير ! يا للعظمة فيكم أنتم أيها ... الفرنج ! اسمع « أبرق مراسل رويتر فى بقعة ما من الشرق الأوسط يقول : عثر الأمن العام عند منتصف هذا الليل بالتوقيت المحلى — أى فى الساعة الثانية والعشرين بتوقيت غرينوتيش — على عصابة تهريب صهيونية ، اتخذت مكتب المدعو سلمون مركزاً لها . وقد وجدت لديه خمسون فتاة قاصرة كن قد أعددن برسم التصدير إلى فلسطين ! .

وأذاع راديو موسكو نقلا عن مراسل تاس أن مجلس الوزراء قد اجتمع على الفور واتخذ مقررات خطيرة . ولكن صاحب مكتب الاستخدام المدعو سلمون المجريطى لم يبرح متخفياً ، ويقال إنه محمى إحدى الشخصيات الإقطاعية . وعلى كل حال فالأوساط الوطنية واثقة من أن « الاستقلال » لن يصيبه مكروه من جراء هذا الحادث الخطير . »

لم يصل فيليب إلى هذا الحد من ترجمة ما قيل ، حتى قطب ما بين عينيه . ثم غضب غضبته التقليدية ، وراح يقذف

الأرض والسماء بحمم ألفاظه المنتقاة ، بينما تابع هارى بحثه عن محطات العالم ، يستمع إلى أخبارها الباكرة ، وتابع تيودور تحرير رسائله الحربية المعجلة على صفحات مذكرته التى لا تنفد . فيكتب بالاختزال فى الصفحة ٢٢٥ ، عند السطر السادس والعشرين :

— « أمريكا بلاد العجائب — نو »

— « الشرق فى مكتب الاستخدام — يس »

— « هارى عدو العرب — نو »

— « فيليب الصهيونى وسلمون المجريطى — يس »

ثم طوى المراسل الحربى أوراقه ، لينشر فى فمه علكة جديدة ، راح يمضغها بانتظام عسكرى ، وفن ديموقراطى .

١٩ حزيران ١٩٤٦

نهاية طاغية

فى البلاد التى تبلغ قمة الحضارة ، تنصرف همة الناس إلى العناية بالحيوان ، لأنهم لا يجدون إنساناً محروماً يعنون به . وهكذا عمد فريق من المترفين ، فى مدينة سهلباد ، إلى تشجيع نسل ... الحمير . فأقاموا لها نادياً ليس لبنى الإنسان مثله ، فى تلك البلاد التى عاصرت قارة « أطلنتيد » ولكنها لم يخسف بها معها . فظلت سهلباد على ساحل البحر عروساً تباهى بأمجادها روما القديمة ، وتضاهى بموقعها الجميل أحلى مدن العالم الجديد .

فى هذه المدينة بالذات نشأ « حمار زاد » . بعد أن عاش ثمانية عشر شهراً فى قبرص ، حيث ولد فى أسرة عريقة كانت من بقايا الغجر الشرقيين الذين اشتهروا بالذكاء ، حتى لينطق صبيهم وهو فى المهد ، وتتفهم حميرهم ما يجول بخاطر الناس .

و « حمار زاد » هو أحد تلك الحمير الأصيلة . جاء جده العاشر من قلب الجزيرة ، وراح ذلك الفحل ينسل حماراً فحلا مثله حتى ولد « حمار زاد » من أب غجرى وأم « سهلبادية » . وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثانى ، فى

أواخر القرن المنصرم . وفى تلك السنة نفسها أنهى حبيب دراسته الثانوية ، وكان شاباً ، مثله الأعلى أن يصبح موظفاً . شأنه فى ذلك شأن أكثر الشبان المتعلمين ، فى سهلباد . الشهادة عندهم سلم للوصول إلى وظيفة ، أو مطية إلى مهنة حرة . وفى كلا الحالين ، هم يفضلون على العمل المنتج ، أن يجلسوا وراء المكاتب ، يعددون الأيام ، ويستقبلون الزبائن ، بروحية التجار والبياعين . وليس فى ذلك أى عجب ، فسهلباد مدينة تقع على طريق القوافل البرية التى كانت تجوب هذه البقعة من العالم . وهى مرفأ كبير يختلط فيه الناس وتتلاقى الأجناس ، كما تتلاقح العقائد وتمتزج الثقافات . وكان حبيب صبياً وحيداً ، لمهاجر فقير وفد إلى سهلباد ، من إحدى الجزر المتوسطية ، فلقى لدى الحاكم المستعمر كل ترحاب ، إذ وجد الحاكم فيه خير مساعد على قضاء شهواته ، ثم تنفيذ أغراضه ورغباته ، فى سكان هذه المدينة ، الذين اعتادوا الرضوخ لكل فاتح ، حفاظاً على ازدهار تجارتها ، وضناً بدماء أبنائهم .

وقد عين الحاكم هذا المهاجر المطواع وكيلا عاماً ، فعرف بهذا اللقب . ثم استحصل له من السلطان على رتبة توازى رتبة باشا فى بعض البلدان . وكان ذلك مكافأة من السيد المستعمر إلى الخادم المتفانى . فمن يخدم الحاكم فى سهلباد كمن يخدم

الدولة . فالدولة هى السلطان ، ومن يوليه الأحكام ، ولا مفهوم لها غير ذلك فى الأذهان .

* * *

فى كنف هذا الأب نشأ حبيب ، بعد أن ماتت أمه بالسكتة القلبية ، وهو رضيع . فقيل إنها كانت ضحية الصدمات العاطفية التى أصابتها من جراء سلوك الزوج ، على الرغم مما كان يوفره لها من رفاهية ويسر ، ونفوذ فى المجتمع السهلبادى الذى يقيس كل شىء بمعيار الذهب . ولا يقيم للذكاء والفضيلة والكفايات الشخصية أى وزن .

وقد احتضنت الأم ولدها الوحيد يوماً وقالت له :

— «لقد ورثتك جميع خصائصى الجسدية : من بياض البشرة إلى شقرة الشعر . ولكنك لم ترث ما فى نفسى ، حتى ولا لون عينى ، نافذتى تلك النفس المطلتين على الوجود ! » .

وهكذا كان لزاماً على حبيب أن يرث عن أبيه كثيراً من الخصائص ، دون الأموال التى ذهبت مع الريح كما أتت : من صفرة العينين ، وقصر القامة ، إلى خبث الطباع ، وخساسة النفس ، إلى قدرة على الدس والشغب بلغت حد الإعجاز . لذلك عرف حبيب فيما بعد باسم حبيب الدساس . وربما أضاف الناس إلى اسم حبيب أوصاف أبيه ، فدعوه بألقابه جميعها . . .

تخليداً لذكرى الأب فى الابن ، وتكريماً لنبوغ الابن فى ما ورثه عن الوالد !

* * *

هذه صورة سريعة الخطوط لحبيب السهلبادى ، مستمدة من مذكرات « حمار زاد » ، ذلك الحمار الذى انتقل إلى ملكية حبيب ، فى السنة الماضية .

أما كيف ، ومن أين لهذا المستخدم الفقير أن يصبح مالكاً للحمير القبرصية والجياد العربية والأراضى الزراعية والعقارات المبنية ، فإليكم بيان ذلك ، نقلا عن تلك المذكرات .

« لقد صار حبيب السهلبادى مستخدماً لدى الشركة الكبرى التى تألفت أبان الحرب العالمية الثانية . وكانت شركة محدودة مساهمة ، اقتصرت على بعض الأفراد الذين يقيمون فى حى الأغنياء من مدينة سهلباد . وهو حى المصارف والشركات المالية ، يقع إلى جنوب النهر المقدس الذى يخترق المدينة ، ويجف فى الصيف كسائر أنهارها .

وفى هذا الحى انطلق حبيب ، فوجد عند جميع الكبراء والعظماء والزعماء المترفين الترحاب الذى وجده أبوه لدى الحاكم المستعمر ، فسار الولد على خطة أبيه ، وزاد عليها فنوناً جديدة ، أهلّته لأن يصير رئيساً لجميع مستخدمى الشركة ، ومن بعد « ظلا » لرئيس

الشركة ، لا يفارقه إلا لكى ينام .

بل كثيراً ما ناما معاً ، فى مكان واحد ، حينما كانت الظروف الخاصة تضطرهما إلى مغادرة سهلباد ، فى رحلة أو مغامرة .

ويقول حبيب لرئيس الشركة الذى هجر زوجته بسبب صحبته إياه :

– « هل أدلك على خطة تصبح بعدها رئيساً للشركة مدى الحياة ؟ يجب أن تعمل على إفلاس سائر الشركات ومحوها كى تبقى شركتنا وحدها . . . هى المالكة سعيداً فى أسواق سهلباد ! »

فيقول رئيس الشركة مستدركاً :

– « ولكن . . . لا تبقى أسواق . . . إذا أفلست تلك الشركات جميعها ، وبقينا وحدنا . . . وهل يبقى « عالم » نعامله إذا ضربنا بالقنبلة الذرية مثلا جميع البلدان ؟ إننى لا أدرى كيف يعيش الإنسان أو تزدهر دولة إذ استأثرا بالخيرات وحدهما ؟ »

فيرد حبيب متخابثاً :

– « بالطبع . . . لا بد من استثناء الشركات التى لا نخشى مزاحمتها . . . والتى ترضخ لشركتنا صاغرة ! »

ويقتنع رئيس الشركة بوجهة نظر « حبيب السهلبادى » بعد جدل قصير ، فيعلن الحرب على جميع المؤسسات والشركات ...

والأشخاص الذين يستشم منهم القدرة على المزاحمة أو الميل للتمرد على سلطانه . ولا يوفر لمن حملته تلك غير المستضعفين ، ذوى الشخصيات المائعة . . . من أشخاص معنويين وماديين . حتى يتم له النصر ، فيعلن حبيب الدساس أنه صار رئيساً مدى الحياة للشركة الوحيدة فى سهلباد . شركة الاستثمار والاستغلال المساهمة المحدودة .

فى هذه الأثناء تكاثرت على حبيب الأموال ، كما تكاثرت من قبل على أبيه . فهو لا يعفى شخصاً ، دخل على رئيس الشركة أو خرج من عنده ، من الرسم الذى فرضه لمنفعته ، كما يفرض الطغاة الضرائب الباهظة على الشعوب المستكينة . وكانت نسبة ذلك الرسم بين خمسة بالمئة وعشرة بالمئة ، عن كل مبلغ يستحق لرئيس الشركة . . . فضلا عن العائدات « غير المنظورة » ، من رسوم التسجيل التى كان يقبضها حبيب ، ولا يدفعها لصندوق الشركة ، ورسوم التمغة التى كان يتقاضاها أضعافاً مضاعفة ، وبقايا أجور العمال ، وأكلاف الحفلات والرحلات ، وأثمان المطبوعات والقرطاسية وسواها من اللوازم المكتبية .

وفى يوم كان رفاقى ، وهم خيل الاسطبل المجاور ، يستقبلون فرساً اشتراها صاحب ذلك الاسطبل من اليونان ،

فسمعت خلفى ضجة مصطنعة ، تميزت خلالها قهقهة حبيب السهلبادى ، تلك القهقهة الشبيهة بصوت الحديد يمزق الحديد. فارتعشت وخيل إلى أن هذا الإنسان ما جاء إلا نذير شؤم . وسرعان ما تأكد لى أن ظنى كان فى محله . فقد سمعته يقول لمعلمى الأول :

— « هذا الحمار القبرصى يعجبنى فكم عمره الآن ؟ »

ولما اطمأن حبيب إلى أننى دون الثالثة من عمرى ، واستوثق من سلامة نسبى العريق ، قهقه بصوته المعتاد وأخرج من جيبه دفتر حوالات ، وقع واحدة منها ، بمبلغ لا أذكره بالضبط ، ولكنه كان الثمن الذى دفعه للحصول على .

وما كان أشد عجبى حينما رأيت أن حبيب السهلبادى يملك خمسة جياد عربية ، وسبعة حمير قبرصية ، سبقتنى إلى الإقامة فى اسطبله ، منذ أشهر معدودة .

وهكذا صار حبيب السهلبادى من كبار الأغنياء فى البلاد ، وزاد بذلك واحداً عدد الذين يؤلفون شركة الاستثمار والاستغلال المساهمة المحدودة .

ولكننى لاحظت ، فى إحدى حفلات الجيمكانا ، أن رئيس الشركة قد فارقه تفاؤله ، وامحت من وجهه معالم البشر الذى كان يزينه . ثم سمعته يقول لزوجته التى استرضاها منذ أيام ،

إذ قدم إليها عقداً من الألماس ومعطفاً من الفرو ، لا يقدران بثمن :

— « يا عزيزتى ، بت أخشى على هذه الشركة أن تزول ! »

فتسأل المرأة بلهفة وجزع :

— « ماذا تقول ؟ هل يعنى ذلك أنك تخشى الإفلاس يا عزيزى ؟ »

فيضحك رئيس الشركة ضحكته التى اشتهر بها ، فى سهلباد وخارج حدود البلاد ، بلقب « النسر الأصفر » لما تنم عنه تلك الضحكة من سخرية بالغة ، وقال :

— « الإفلاس ؟ وهل يخشى الإفلاس من يملك جميع موارد البلاد ، ويسيطر حتى على أفكار العباد ؟ لا لا ! يا عزيزتى ؟ وإنما أخشى على الشركة من هذا . . . الدساس ! أنه كالبومة عنوان شؤم !

* * *

ولم يمض إلا أيام حتى صح حدس رئيس الشركة ، ووقع المحذور . وصادف أن عدد أعضاء شركة الاستثمار والاستغلال قد بلغوا فى ذلك اليوم ألفى رجل وامرأة ، موزعين على مئتى عيلة ، يجمع بينها رحم أو نسب ، من قريب أو بعيد . فاعتقد رئيس الشركة أنه قد حق عليها القول وحان أجلها . إذ

٣٩

كان معلوماً لدى أهل سهلباد فى أساطيرها المتوارثة ، منذ أقدم العصور ، أنها « تؤلف ولا تؤلفان » .

تلك حكمة يرددها الناس ، ويفسرها قوم بأنها تعنى أن عمر الدنيا لن يتجاوز حدود الألفين من السنين . ولكن رئيس الشركة المتطير كان يرى أن مدلول تلك الحكمة لا يتجاوز نطاق شركته . . . فأعضاء الشركة فى رأيه قد يبلغون الألف أو يزيدون حتى حدود الألفين ، ولكنهم لا يبلغون هذا الرقم النهائى . فلما أخبره رئيس المحاسبات بأن عدد المساهمين قد صار ألفين بالضبط ، تشاءم رئيس الشركة ، وانقبضت نفسه . وسرعان ما بدا له أن تشاؤمه كان فى محله . فقد انهارت الشركة الكبرى على الرؤوس فجأة ، كما ينهار بيت من رمل أو ثروة جمعت من حرام . وكانت نهاية الطاغية .

١٩٥١/١٠/١٦

٤٠

رسالة خطيرة

أتيح لزيزى ما لم يتح لسواه من الطيور . فقد اصطاده آخر وريث لعرش الجبل الأسود ، فى إحدى غابات النمسا البديعة ، وقادته الظروف إلى هذه البلاد ، حيث قضى نحبه ، فكان بذلك اسعد أبناء جنسه ، إذ ولد فى اروع بيئة ، ومات فوق أجمل أرض .

وقد حدثتنى بأمره صديقة له ، حفظت ذكراه وذكرياته ، وكنت قد عرفتها قبل الحرب العالمية الثانية مربية لابن الوزير ، لا تكل عن التحدث عن وطنها ، وعن مقارنة ما عهدته فى ذلك الوطن البعيد ، بما تشاهده فى بلادنا هذه التى لم يخلق الله مثلها فى البلاد .

قالت متيلدا ، وهى واقفة إلى جانب جثة « زيزى » المسجاة ، والدمع فى عينيها العسليتين يترقرق كالدم تحت بشرتها الشفافة :

— « فى مسقط رأسى ولد زيزى . . . هناك فوق السفوح الخضراء . ولم يكن يخطر ببالى أن ألقاه هنا ، تحت سماء هذه البلاد الجميلة ، بعد أن أفنيت أجمل سنى عمرى فى تربية

أولادكم، وكدت أنسى ، فى هذا الوطن الثانى ، أهلى ووطنى .
ولكن شاءت الأقدار أن لا أحرم من كل ما له صلة بذلك
الوطن الأول الذى رأيت فيه النور ، منذ أربعين سنة ، وعرفت
الحب ! »

هنا تبسمت برغمى وبرغم الموقف الفاجع ، حينما كشفت
متيلدا لى عن سر عمرها . وقلت :

ــ « منذ كم سنة أنت فى لبنان ؟ »

فأجابت متيلدا ، وهى تسوى شعرها بيد خلت من التجاعيد :

« منذ عشر سنوات ، ولكنى غادرت وطنى قبل ذلك بعشر
سنوات ، إلى البرازيل ، حيث عشت فى خدمة « نبى » القرن
العشرين الدكتور شنايدر الذى عالجنى ، بطريقته النباتية ،
وشفانى من الأمراض العصبية التى كانت تنتابنى ! »

وتوقفت متيلدا عند هذه الذكرى، لحظة ، ثم أشارت إلى
جثة الطائر المسكين ، وقالت :

ــ « حينما سافرت رئيسة الجمعيات المتحدة ، منذ أربعة
أشهر ، إلى الجبل الأسود، رأت أن تفاجأنى بهدية نادرة . .
ورخيصة بالطبع ، فاختارت لى هذا العصفور الجميل . ولا
أكتمك إننى سررت بهذه الهدية ، أضعاف ما تتصور ، لأننى
وجدت فيها قطعة من وطنى ، وبعضاً من أهلى .

وخيل إلىّ أن متيلدا مسحت بمحرمتها ، الصغيرة الحمراء ، دمعة تسللت من بين أهدابها الكثيفة الطويلة. ثم قالت، وهى تشير إلى زيزى بأصبعها الدقيقة :

— «انظر إلى جسده الرقيق، وريشه الفستقى ، فى صفرة الشفق عند المغيب ، إنه اللون الذى كان يستهوينى فى صباى ، فى بلادى . فكنت أتمنى أن يكون لى منه مئة ثوب وثوب ، أرتديها ، كل ساعة ثوباً ، وأنسجم مع الألوان المحيطة بى ، كى أفنى فى الطبيعة ، كما تفنى الفراشة فى الأزهار ! »

قالت متيلدا هذا ، ثم مسحت طرفى عينيها بمحرمتها ، وتابعت حديثها :

— « فى بلادى تألف الطيور الإنسان، فتتساقط على شرفات المنازل ، وتشاركنا طعامنا وشرابنا ، بل كثيراً ما كنت أمد لسانى لأحدها بقطعة من الطعام ، فيقبل الطائر علىّ ويتناول تلك القطعة من بين شفتى . . . فلما جاءنى زيزى شعرت بأن نفسه لم تبرح يغمرها ذلك الاطمئنان ، على الرغم من القفص الرهيب ، الذى زعزع إيمانه بنبل مقاصد الإنسان .

وقد أحطت زيزى بكل أسباب العناية ، ولكن الأيام كانت تفقده تدريجياً ذلك الهدوء النفسى ، فيستبدل باطمئنانه حذراً، وبطيبة قلبه خبثاً ومكراً . وسرعان ما أصبح كطيور

بلادكم ، يرتجف ذعراً إذا تراءى له شبح رجل ، أو خيال امرأة .

وقد خيل إلى أنه قال لى ذات يوم بعينيه السوداوين الذكيتين ، ومنقاره اللبنى اللطيف :

— « أما سمعت هذه الطلقات الداوية ، تتجاوب من حين إلى حين ، حتى بين دور السكن ، وفى حدائق المنازل الخاصة؟ لقد رأيت عدداً من إخوانى الطيور يسقطون بنيران ابن الجيران؟ وعدداً آخر يقتلهم الرعب من « رصاص » « الأفراح » ؟

وتلتفت متيلدا إلىّ وشعرها الأسود الفاحم يداعب كتفيها الدقيقتين ، ككتفى فتاة فى الثامنة عشرة ، وتقول :

— « لا تنسَ أن زيزى قد شهد الحرب العالمية الثانية فى أوربا ، ولكن الحرب هى الحرب ، فلا مجال للقول بأنه ألف دوى الرصاص فلا ينبغى له أن يجزع لسماعه ، فى أوقات السلم ! »

* * *

فى اليوم التالى رافقت متيلدا ، فى نزهتها اليومية ، من بحمدون إلى صوفر ، حيث كنت أصطاف ، وأستعد للدورة الأولمبية القادمة . وهناك انتحينا مكاناً فى فندق اشتهر بحديقته الجميلة وموسيقاه العذبة ، فما ألهت الأنغام المتجددة ، ولا وقع أقدام الراقصين والراقصات ، رفيقتى المحدثة الممتازة ، عن استعادة

ذكريات زيزى ، وسرد مشاهداته ، فقالت :

— « هل حدثتك عن زيزى ، فى أثناء رحلته الطويلة ؟ »

ولما أجبتها سلباً ، وأنا أجرع آخر ما فى كوبى من شراب الرمان ، استطردت متيلدا تقول :

— « أشنع ما رآه زيزى هو صراع الديوك . . . هذا العمل الوحشى الذى يطرب لمرآه بعض الناس المتمدنين : ثم صيد الحمام : ذاك القتل المنظم للطيور الوديعة ، بسبيل التسلية ! ! لو بقى الحال على ما عهده الإنسان الأول ، من صيد الطيور الوحشية فى الغابات ، لهان المصاب . أما أن نجمع الحمائم الأليفة فى قلب المدينة ، لنطلقها جماعات وأفراداً ، فتكون هدفاً لرصاص اللاعبين ، فجريمة فى نظرى ، لا تقل بشاعة عن غيرها من جرائم القتل بالجملة ! »

وكانت الموسيقى تزداد عنفاً ، فيرتفع صوت متيلدا باستمرار حتى خيل إلىّ أنها صارت تصرخ صراخاً . فقلت لها ، وقد لاحظت أنها تكثر الالتفات نحو صديق جلس وحيداً بالقرب منا :

— « على ماذا تتآمران أيها الصديقان ؟ »

فأضحك متيلدا هذا السجع ، وكانت من الأجانب النادرين الذين يعجبهم فى لغتنا هذه الميزة الموسيقية التى يبالغ

البعض فى استغلالها . ثم قالت وهى تغمز بعينها التى إلى جهتى :

— «نتآمر عليك يا رضوان، ونضرب موعداً فى جبل لبنان !»

فضحكنا جميعاً ، وضاعت قهقهتنا المشتركة وسط عاصفة من التصفيق ، أثارها الجمهور استحساناً لموسيقى العازفين . وخاصة هذه « البيانيست » التى يخيل إليك أن أصابعها الدقيقة آلات عاجية تحركها الطاقة الذرية .

* * *

انقطعت بعد ذلك اليوم أياما عن الاجتماع بمتيلدا، لا كرهاً بلقياها ، وهى من أحبّ معارفى إلى ، بل لأننى صرت أخشى أن تتطور علاقتى بهذه الفتاة ، وإن كنت من المؤمنين بأن « الصداقة » ممكنة بين كائنين مثلنا .

بل إن الصداقة بالذات ، إذا نشأت بين رجل وامرأة ، كانت أمتن منها بين رجلين ، وهى بالتالى أعمق وأصدق من الحب ، لأنها تولد لتخلد ، بينما لا يولد حب إلا ليموت .

وقد عشت ما عشت لا أستسيغ أن أزاحم الآخرين ، لأننى لا أغبط ولا أحسد .

ومتيلدا التى بلغت هذه السن ، تحت سماء الشرق الدافئة ، لا يمكن أن تبقى خالية القلب . وهى من النساء اللواتى يغريك بهن شىء غير جمال الجسم ، وغير جمال الروح ، شىء لا

تستطيع إذا حدثتها ، إلا أن يخرجك عن وقارك . فتميل إلى المرح ، وتشعر بقلبك ينفتح ، وبلسانك ينطلق ، وببشرتك تزهو ، بل تشعر كأنك قد عدت إلى الزمن الذى ينفقه أكثر الناس عابثين ، دون وعى ، ثم يقفون ، حين يصحون فوق قمة العمر ، للبكاء عليه ، رجاء أن يعود ، فلا يعود !

غير أننى وجدتنى ، بعد خمسة أيام ، أكلم متيلدا بالهاتف وأضرب لها موعداً ، فتوافينى إلى غابة صغيرة هى الحد الفاصل بين أراضى بحمدون ورويسات صوفر ، وكانت الشمس فى كبد السماء تصب أشعتها عمودية تكاد تحرق الرؤوس الحاسرة .

ولما وصلت متيلدا ، كانت تستر شعرها الأسود بخمار فستقى ، وتحمل فى يدها جزداناً أخضر بلون حذائها ، وثوبها الفضفاض فقلت لها :

— « أحسنت بارتداء هذا الثوب ، لأنه منسجم مع لون عينيك ، ومع هذه البيئة الفاتنة ! »

فابتسمت متيلدا وهى تشدّ على يدى شاكرة ، وقالت :

— « دعنا من الأطراء . . . ألهذا دعوتنى ؟ »

فأجبتها :

— « بالطبع لا ؛ ولكن لابدّ من اطراء النساء الجميلات . »

ثم بعد فترة تابعت كلامى جاداً .

— « اسمعی یا عزیزتی کلماتی الآتیة ، وجاوبینی علیها بصراحة وإخلاص .

حینئذ اعتدلت متیلدا ، فی جلستها فوق الصخرة المطلة علی الوادی الرائع ، المجاور ، وقالت :

— « کلی آذان ؟ فهات ما عندك !

— « یقال إن رئیسة الجمعیات المتحدة . . . هی رئیسة لجماعة أخری أیضاً ، تعیث فی البلاد فساداً منذ زمن ! »

وسألت متیلدا جادة هی أیضاً :

— « ومعنی ذلك أنها رئیسة عصابة . . . للتجسس !

فقلت :

— « أنت قلت ! وعلی کل حال ، علمت أن زیزی وغیره من الطیور التی تجلبها معها . . . إنما هی رسل تحملها المعلومات الکافیة . . . . »

حینئذ انتفضت متیلدا ، وقالت بحدة :

— « أبداً ، هذا غیر صحیح ؛ بدلیل أن زیزی المسکین . . . قد مات خوفاً ورعباً ! »

وقلت بدوری بالحدة نفسها :

— « وهل أنت واثقة من أن الجثة التی وقفنا بجوارها ... کانت جثة الطائر نفسه الذی جلبته لك « حضرتها » من ألمانیا النازیة ؟ »

فبهتت متيلدا ، وأخذت تتحسس جبينها بيدها المرتجفة ثم قالت :

— «وهل عندك شك فى ذلك ! »

— «فقلت عندى ألف شك وشك ! فقد عثرت مصلحة مقاومة الجاسوسية ، أول أمس ، على الطائر الذى حدثتنى عنه وهو يحمل رسالة خطيرة ، لم يحللوا حتى الآن جميع رموزها ! »

وما وصلت إلى هذا الحد ، حتى قامت متيلدا من مجلسها بادية الاضطراب ، ثم أخذت تجمع أشياءها بعصبية ظاهرة ، وودعتنى وهى تقول :

— «كن واثقاً أننى أبعد الناس عن الروح التى تحمل بعض البشر على التجسس . . . وما جئت إلى بلادكم إلا لتأدية رسالة إنسانية ! »

وقد ودعت متيلدا ، وفى نفسى شعور غامض بأن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون من صنف رئيسة الجمعيات المتحدة ، كما يتهمها المكتب الثانى ، ما دامت تعتمل فى نفسها تلك العواطف الإنسانية . فالحب الذى تكنه للحيوان ، والحب الذى توحيه للإنسان ، عاصمان يحولان ، فى اعتقادى ، بين هذا الكائن الجميل وبين الخساسة .

وكان وداعاً لم يعقبه لقاء . ولكننى علمت فيما بعد أن متيلدا فضلت أن تترك البلاد . . . كى تصون كرامتها وكرامة البيت الذى عاشت فى كنفه ، تلك السنين الطوال !

٥ نيسان (أبريل) سنة ١٩٥٢

نصيحة بلا ثمن

«كان النظام الاجتماعي القديم يقضي بأن يرث الابن صناعة أبيه . فابن النجار نجار ، ولو كان ميالا إلى التجارة . وابن الطبيب طبيب ، وإن كان بفطرته حداداً موهوباً . غير أن الحربين العالميتين بدلتا كثيراً من هذه الاوضاع ، في بلادنا . وجاء الانتداب فجعل من مجتمعنا خليطاً ، لا تدري معه أهو مجتمع ديموقراطي أم مجتمع إقطاعي .

وفي كل ناحية تجد على ذلك دليلا .

ففي حقل العمل نرى الشبان ما برحوا — كما كانوا في عهود الاستعمار السابقة — منجذبين بقوة إلى الوظيفة أو الاستخدام . فلا ندري أذلك هو أثر الكسل الذي يستسيغه أكثر الناس في الشرق ، أم روح التواكل التي تقضي على نشاط الاجيال المتعاقبة . »

بهذه الكلمات استهل داود الامواجي حديثه ، في حفلة دعت إليها «ندوة الكلام» — هذه المؤسسة التي أنشئت حديثاً لتشغيل أبناء المهاجرين كيلا يلحقوا بآبائهم ، بعد أن تفاقمت

الهجرة وباتت خطراً يهدد كيان البلاد . وقد كان الموضوع الذى تناوله المحاضر طريفاً وملائماً ، فاستطاع ، وهو دكتور فى علم البيولوجيا ، أن يستأثر بانتباه المستمعين ، على الرغم من أن وجهه لا يوحى بالاطمئنان ، ولا تستمرئ الآذان صوته الرتيب وأسلوبه المتكلف .

* * *

حينما انتهى داود الامواجى من القاء محاضرته الطويلة ، التقيت به ، عند مخرج القاعة ، وهنأته – كما تقضى بذلك التقاليد – وقلت له :

– « الحقيقة أنك يا أستاذ داود من أكفأ الرجال لشغل أحد المناصب الاجتماعية ! . . فلماذا لا تطلب ذلك . . . ؟ »

وكان لكلماتى هذه – التى القيتها لأعلم مبلغ إيمانه بما قال وردد – وقع السحر فى نفس الامواجى . وما هى إلا لحظات شمخ فيها بأنفه ليشعرنى أنه مقدر نفسه فوق ما يقدره رجل مثلى من عبيدالله المتواضعين ، حتى عاد إليه شعوره بالواقع . فانحنى على أذنى – فهو أطول منى ببوصتين وربع البوصة – يردد كلمات الشكر ويتمتم :

– « أنا مستعد فى كل وقت . . لكل خدمة . . وإننى ممتن لك طول الحياة . . . إذا أمكن أن يكون معاشى . . »

فطمأنت المحاضر الفيلسوف إلى أن نواياى نحوه حسنة جداً . وما عليه إلا أن يقدم طلباً إلى الشركة المختصة ، كى يحصل على المراد ، ولا سيما أن تلك الشركة كانت تجمع مستخدميها وموظفيها ، من هنا وهناك ، وتمنحهم الرواتب الضخمة ، على اعتبار أن الأعمال التى يدعون للقيام بها أعمال موقتة ، لا تستلزم معرفة ولا ضمانة أخلاقية .

* * *

مضت سنوات ثلاث ، انقطعت فيها عن حضور المحاضرات ، التى صارت وسيلة من وسائل المتاجرة بالعلماء والأدباء . وإذا بصاحبنا الأمواجى ، وقد أصبح من كبار ... المستخدمين فى إحدى شركات النفط التى تكاثرت فى البلاد — يفاجئنى يوماً بزيارته . فأرحب به ويبادرنى بهذا السؤال ، بعد التحيات والإعراب عن الاشواق :

— « دخلك ما هى درجتك أنت الآن ، وكم يبلغ راتبك؟ »

وابادر بدورى إلى تقديم سيجارة إلى حضرته ، مصحوبة ببسمة ، حاولت أن لا تنم عن شىء مما اعترانى من سخط ، لدى سماع سؤاله الذى لا يدل على شىء من الذوق والكياسة . فيعتذر « مدير المراسم الخارجية لدى الشركة الهمايونية للنفط العالمى » — وهذا هو لقبه الجديد كما أعلنه للحاجب . . — عن تدخين

لفافتي اللبنانية . . . لأنه تعود على السجاير الأمريكانية ، من نوع لا أذكره ، لأنه ليس من الأنواع الشائعة .

ثم يتابع الأمواجي إلقاء أسئلته ، وهو يخرج من علبة ذهبية إحدى تلك السجاير ، ذات العقب الفليني ، على النحو التالي :

— « متى ترقيت آخر مرة ؟ . . أعني كم يبلغ الآن راتبك في الاساس ؟ . . وكم هو عدد أولادك ؟ . . ومتى دخلت الوظيفة في هذه المؤسسة ؟ اعني ما هو عمرك الآن ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ . . . »

سلسلة من أسئلة آخذ بعضها برقاب بعض .

ولم يكن داود الأمواجي من الأشخاص الذين يسهل صرفهم عن الفكرة التي تخطر لهم . وما كان بامكان إنسان مهذب أن يتجاهل أسئلة يلقيها عليه « مدير المراسم . . . » وعيناه مغروزتان في عينيّ ، كأنه يقرأ في أعماق نفسي الأسرار التي بخلت بها شفتاي . وعدت أحاول الاعتذار ببسمة كانت تضيق وتتضاءل حتى صارت مشروع ابتسامة . . . تنطق بالاشمئزاز أكثر مما تنم عن الرضا . ولكن الأمواجي لم ييأس ، فأستأنف حديثه وهو يتقبل مني فنجان القهوة ، كما انني لم أيأس من صرفه عن الخوض في هذا الحديث ، باللطف واللين ، قبل أن ألجأ إلى

أسلوب آخر .

وأخيراً امتلأ الكأس وفاض . . بعد سؤال ألقاه الأمواجى لم يكن ليخطر لى ببال ، إذ قال :

« لو تزوجت يا صديقى واحدة من زميلاتك فى الشركة . . ألم يكن ذلك أوفق ، إذ كنت تضم راتبها إلى راتبك ؟ »

* * *

تحملت بصبر نتائج هذه الزيارة السيئة فى الأعصاب والقلب والروح . ولن أبوح لأحد بسر الوسيلة التى لجأت اليها للتخلص بسلام من داود الأمواجى فى ذلك اليوم . فإننى أؤثر أن أترك له هو أن يعلن عن ذلك ، إذا كان قد أدركه ، وإلا فالسر بيننا يبقى سراً . . . ولكننى لا أجد بأساً من القول أن الأمواجى لم يقم اكثر من نصف دقيقة بعد إلقائه سؤاله الأخير .

وتعددت لقاآتى بعد ذلك بالأمواجى ، فى الطريق تارة وفى السيارات العامة طوراً . ولكننى لا أذكر أنه تطرق فى أحاديثه إلى موضوع غير موضوع الرواتب ، والترقيات ، وسنى الخدمة فهو لا يعيش إلا ليقبض راتبه ويسعى فى سبيل الترقيات ، مهما كلفه ذلك من تضحيات .

وفى المرة الأخيرة التى لقيت الأمواجى فيها . بادرنى بسؤاله التالى :

— « لو عرضت عليك الشركة أن تمثلها فى . . . الفيلبين ، أكنت تغادر لبنان الجميل لتعيش فى تلك البلاد النائية ؟ »

أدركت فوراً أن الأمواجى يسألنى عن أمر يهمه شخصياً . وعلى الرغم من حسن طويتى ، تعمدت للمرة الأولى أن أشير على إنسان بما لا أرتضيه لنفسى ، وقلت مبرراً هذا السلوك أمام وجدانى :

—« على الأقل . . يتعلم فى الغربة بعض قواعد الذوق ، وتسمو أهدافه فى الحياة ! »

وقد سافر داود الأمواجى إلى الفيلبين ، وودعه فى مطار بيروت الدولى ، عدد من زملائه موظفى « شركة النفط » ، وزوجته التى وعدها باستقدامها فور استقراره هناك ، وأخت زوجته الجميلة الفاتنة ، التى لاكت بعض الألسن الخبيثة ، سمعتها منذ عهد غير بعيد . ولا أدرى ما الذى حملنى على الاشتراك فى هذا الوداع ، أهو الرغبة فى بلوغ مرتبه اليقين ، أم لذة الإعلان التى عناها الشاعر إذ قال — « ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر . . » أم عاطفة أخرى لم أتبينها حتى هذه الساعة .

ولكننى أعرف من نفسى نزعتها إلى عدم الشماتة : بل أعرف على العكس أننى أسرع الناس إلى مؤاساة خصمى إذا أصيب . فالتسامح شيمة يوحى به لجميع المواطنين تاريخ لبنان.

* * *

ولما اندلعت نار الحرب فى كوريا ، قرأت فى إحدى الصحف اليابانية خبراً سرنى بمقدار ما غمنى إعلان تلك الحرب. فقد أوردت الصحيفة اسم داود الأمواجى ، على أنه التاجر الوحيد الذى استطاع أن يغادر مدينة ساؤول ، فى الوقت المناسب ، حاملا معه زوجته وأختها ، وبضاعة قدرت بنصف مليون دولار ، فضلا عن الأموال النقدية والسندات المالية — دون أن تذكر الصحيفة مصدر هذه الثروة الضخمة ، أو تشير إلى أساليب جمعها — لأن المال فى جميع البلاد لا رائحة له .

سرنى هذا النبأ مرتين — مرة لأننى اتصلت ولو على صفحات جريدة « بصديق » الأمواجى ، فلم يسألنى عن راتبى وسائر شؤونى الخاصة . ومرة ثانية لأن هذا « الصديق » أصاب ما أصابه من نجاح بفضل . . . نصيحة أسديتها إليه . وكان جل قصدى منها . . . أن أخفف عن بلادى شيئاً من روح الكسل والاتكال ، وبعضاً من هذا العلم الأجوف ، الذى تحشى به

الأدمغة ، وتتكاثر به الشهادات ، صحيحة ومزورة ، فلا تهضمه العقول ولا يتحول إلى جزء من كيان الإنسان ، يدفعه إلى العمل المنتج .

وكانت نصيحة ، فيما خصني ، بلا ثمن ! غير أنني أرى مبلغ الربح الذى تجنيه بلادى من « تصدير » أمثال هذا الإنسان ، والاحتفاظ بالفلاح النشيط ، والعامل المفيد .

١٩٥٠

قضية رابحة !

منذ نشأ نادر صابر ، أعتقد أن هذا الكائن اللطيف الذى يألفه الناس ، لطول ما عاشرهم وعاشروه ، هو ألد أعداء الإنسان . وقد مكنت هذه العقيدة فى نفسه مقررات منظمة الصحة التى أنشئت بعد الحرب العالمية الثانية وجاهرت بهذه الحقيقة ، دون مواربة أو تلاعب بالكلمات ، شأن السياسيين المحترفين .

ولم يكن يخطر ببال نادر صابر أن ما أعتقده كان مخالفاً لبعض ما يؤمن به الناس من خرافات وأساطير . فقد نصح له شيخ الحى ، وهو رجل جليل يحترمه عموم الخلق ، قائلا وهو يقطع الكلمات :

– «يا ابنى مالك وما لهذه الكائنات . . . اتركها تسبح لله ! »

ويجيب نادر صابر بسذاجة :

– « ولكنها كائنات مؤذية . . . إنها تنقل إلينا أكثر الأمراض ! »

ويقول الشيخ محنقاً :

– « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ؛ فدع عنك هذه

الوساوس واستغفر الله ! »

ويحاول نادر صابر أن يتظاهر بالإقتناع ، ويكف عن محاربة تلك الحشرات التى تسبح لله ، بالفتك بأفضل مخلوقاته . ولكن نفسه الأمارة . . . بالخير تعود فتسول له محاربتها والقضاء عليها ، أينما وجدت . فيحمل نادر صابر مديدته ، ويدور فى البيت ، ثم يدور ، وهو يصطاد تلك الحشرات القذرة : فوق المائدة والسرير ، وعلى الجدران ، أو على زجاج النوافذ والأبواب ، وفوق الأرض أو حول قناديل الغرف وثريا الدار .

وتنبرى لنادر صابر أم مبروك الخادم العجوز التى انتقلت معه ، من بيت أبيه ، فى جهاز العرس وتقول :

— « ما هذا يا ولدى ! حرام عليك ! ألا تعلم أن « ستنا » عائشة هى التى تمنت وجود هذه الكائنات ، فخلقها الله كى تتسلى بها ؟ »

ويقهقه نادر صابر حتى يكاد يبح صوته . ثم يقول :

— « يا أم مبروك ، أين عقلك وكيف تقولين هذا القول دون تفكير ؟ وهل خلقت الأفاعى مثلا لتسلية « فقراء الهند » ، أو تيسيراً لمهمة « الحواة » فى مصر ؟ »

وتتبرم أم مبروك دون أن تستطيع جواباً ، وهى تجمع بمكنستها ضحايا نادر صابر ، الذى لا يكل ، ولا يمل من

محاربة تلك الكائنات ، والقضاء على جموعها التى تتكاثر فى المدينة ، وفى القرية على حد سواء ، ويقول لأم مبروك :

— « انظرى إنها تسابقنا إلى طعامنا وشرابنا ، وتسبق الضوء إلى الحركة والأذى ، وتبز كافة الأحياء فى وفرة النسل !

ثم يقول ، بعد صمت قصير ، استدعاه توثبه للصيد :

— « لك يا أم مبروك جائزة . . . خمسة قروش عن كل مئة تقتلينها من هذه الحشرات المضرة ! »

وتبرق عينا أم مبروك فرحاً . فنى إمكانها أن تكسب بعد اليوم أجرة إضافية لا تقل فى الأسبوع الواحد عن ثلاث مئة قرش. أما إذا انصرفت إلى محاربة الذباب ، فى أوقات فراغها كلها ، فانها ستكسب ضعفى أجرتها الشهرية . وتسرع العجوز إلى المطبخ ، فتجرب قدرتها على مكافحة هذا العدو الخطير ، فتقتل دفعة واحده عشر ذبابات ، كن يغنين أنشودة المرض ، فوق قمامة الأقذار المكشوفة .

ويتبع نادر صابر أم مبروك ليرى ما تصنع ، وهى التى تعودت أن لا تفارق المكان الذى يكون معلمها فيه ، كأنها الحماة الغيورة ، لا تدع لابنها وزوجته فرصة ينفردان فيها . فيرى نادر صابر مشهداً مؤثراً : لقد ابتكرت أم مبروك وسيلة جديدة لاصطياد تلك الحشرات المؤذية : إنها تنثر نقطاً من الدبس ،

فوق سطح « المجلى » ، وتبتعد قليلا حتى تخدع الذبابات . وما هى إلا لحظات حتى تتهاوى جموعهن على تلك الأقراص الد خيرة من الحلوى. فتقبل أم مبروك بمصيدتها ، وتهوى على تلك الجماعات النهمة ، فتقتلها ، وهى غارقة فى النعيم .

ويصفق نادر صابر فرحاً واستبشاراً ، ثم يصرخ داعياً أهل البيت أجمعين :

— « تعالوا ! تعالوا ! لقد انتصرت قضيتنا ! أنها منذ الآن قضية رابحة ! »

وتقبل زوجة نادر صابر ، وابنه الكبير ، وابنته الصغيرة ، ليروا ما الخبر : فيشاهدون أم مبروك وهى تفتك بتلك الذبابات فتكاً ذريعاً ، ثم تجمع ضحاياها بالمكنسة والمجرود ، والدمعة فى عينيها ، والبسمة على شفتيها . ثم تتوقف لتحسب فتجمع وتضرب ، وتقول بلهجة الظافر مخاطبة نادر صابر الذى لا يصدق عينيه :

— « هات ! لقد استحق لى عندك عشرون قرشاً ! »

* * *

ولم يكن نادر صابر أشد سروراً من سائر أفراد الأسرة ، ولكن سروره كان من نوع آخر . فقد فاز بعد طول الصبر والنضال ، بإقناع هذه العجوز ، بوجهة نظره . فكان فوزه

مزدوجاً : فوزاً على ما تحجر فى دماغها من خرافات ، وفوزاً آخر بحملها على العمل بما تعلم . فإن أكثر الناس يجعلون بين العلم والعمل حاجزاً لا يتخطونه أبداً . فيذهب علمهم مع الريح. وتقبل أم مبروك وهى تبسم بسمتها العريضة التى تستقبل بها الأعياد والأحباب ، وتقول :

ـ « ما قولك يا نادر لو اتفقنا مع الجيران . . . فهذا نبع لا ينضب يا ابنى . نقتل مئة فيجىء ألف ؟ »

فتعجب الفكرة نادر صابر والجميع ، فيقررون أن يتصلوا بالجيران ، ليقنعوهم بالانضمام إليهم ، فى محاربة الذباب ، والقضاء عليه .

ويقول ابن نادر صابر المتحمس لهذه المهمة كأبيه :

ـ « وماذا نسمى جمعيتنا ؟ »

فتجيب أم مبروك على الفور :

ـ « عصبة الأصحاب لمكافحة الذباب !

ويصفق الحضور إعجاباً باللقب المرتجل ، وبسرعة البداهة لدى أم مبروك ، وهم لا يدرون أكان ذلك منها بدافع الربح المأمول ، أم بباعث الإيمان المخزون .

وكان فصل الربيع يقترب ، فيلملم الشتاء أثوابه ، لينكفىء عن سواحلنا . وتدب الحياة مع الدفء فى بيوض الحشرات

الكامنة ، وفى أجسادها الخدرة . فيرى نادر صابر أن هذا الوقت هو خير الأوقات للقضاء على تلك البيوض قبل أن تنفقس ، وللتخلص من تلك الحشرات قبل أن تهب من رقادها الطويل .

فيجد فى أم مبروك ، وفى سائر عجائز الحى ، وأولاده وجميع أولاد الجيران ، مساعدين مخلصين ، وأعضاء عاملين .

وقد خشى نادر صابر ، فى حين من الزمن ، أن يقع الصدام بين هذين الجيلين من مواطنيه ، أو أن ينفد الاعتماد الذى خصصه من موازنته لهذا الغرض ، قبل إنجاز المهمة الخطيرة التى أخذتها « العصبة » على عاتقها. فكان يعزيه عن جهوده المضنية وعن تلك الخسارة ، ما كان يصيبه كل يوم من ترضية معنوية . فهو يرى أن من جمعهم حوله ، للعمل على صعيد واحد ، فى سبيل هدف واحد ، لم يختلفوا قط على أمر ، ولا يمكن أن يختلفوا أبداً . فهم جميعهم ، من الجدة إلى الحفيد ، ومن الأب إلى الابن ، إنما يعملون مؤمنين ، ويسعون إلى هدفهم متجردين. فيجد كل منهم فى مكافحة هذه الحشرات المضرة اللذة نفسها التى يجدها نادر صابر ، وهو يعمل بروحية الساعى إلى الخير والعامل فى سبيل النفع العام .

* * *

أشرقت شمس الربيع على حى « عصبة الأصحاب لمكافحة

الذباب » ، فى هذه السنة ، فلم تشاهد حشرة أو أثراً لتلك الكائنات القذرة . فكان سكان الأحياء الأخرى ، كلما انتقلوا إلى ذلك الحى ، يشعرون شعوراً شبيهاً بما يجده المرء كلما انتقل من جو خانق إلى مناخ يتنفس فيه الصعداء ، بحرية ولذة . فيتساءلون عن السر فى ذلك ، وعما أكسب حى « الأصحاب » تلك الخفة فى الهواء ، وذلك الطيب فى الأجواء ، وهذا النور الذى يتلألأ على وجوه سكانه ، والصحة التى يزهو بها أولادهم . حتى انتفت من بينهم الأمراض وتوفرت لديهم الأموال ، واختفى من بينهم تجار الأدوية ، وسماسرة الموت ، ووكلاء عزرائيل .

ويبدأ فى تلك الأحياء همس ، لم يطل الأمر به حتى صرح وبان ، فأصبح حديث المجتمعات والمقاهى والأندية . فقال بعض الناس : « إن حى الأصحاب » حى مقدس ، لأنه مسقط رأس « الرجل الصالح » الذى ملأت أخبار معجزاته الصحف وانتشرت فى الآفاق .

وقال قوم آخرون :

— « إن حى الأصحاب . . . حى محظوظ لأنه الحى الذى يقيم فيه الحاكم . . . لذلك تحصر البلدية جهودها فى السهر على تحسين حاله . »

وتسمع أم مبروك تلك الأقوال والمزاعم ، فتبتسم ، وهى

تغمز بعينيها اللتين اكتسبتا ، منذ عهد قريب ، لمعان المعرفة ، وتنبه الوعى . ثم تقول :

— « هذا الحى . . . حى كسائر الأحياء فى المدينة . . . لا هو مقدس ولا هو محظوظ ؛ وإنما هو حى نظيف ! »

ولما سمعت أم سليم ، وهى أقرب الجارات فى الحى المقابل ، هذا الكلام ، اعتبرت ذلك تحدياً من أم مبروك موجهاً إلى شخصها ، وإلى سائر سكان الحى الذى هى منه . فدعت أم سليم أهلها وجيرانها وأصحابها إلى اجتماع كبير ، عقدوه فى منزلها واتخذوا فيه مقررات خطيرة ، أبقوها طى الكتمان ، على مثال مقررات المؤتمرات التى كان يعقدها بعض الملوك والرؤساء . غير أن هذه المقررات لم تبق سرية ، إذ تلمس سكان الحى بعد قليل آثارها الخيرة . فقد كانت المقررات تهدف إلى القضاء على جميع البؤر والآبار والمستنقعات التى تعيش فيها الحشرات ، وتتكاثر . ثم فى تقديم كل ساكن من السكان يلقى أقذاراً فى الشارع أو يقضى فيه حاجة من حاجاته الطبيعية . . . إلى محكمة خاصة . . . ألفوها فكانت كمحكمة قراقوش . . . إلا أنها استطاعت أن تقضى على تلك العادات السيئة المخجلة ، وهذا الاستهتار المعيب . فعادت الشوارع وزوايا الجدران ، كسائر الأشياء الطبيعية عندنا ، جميلة جذابة ، تعبق بريح الأرض

الطهور ، ويفوح منها عطرها الزكى . .

* * *

ومضى عام وبعض عام ، فإذا جميع أحياء المدينة تنتظم من حيث تدرى ولا تدرى فى « عصبة الأصحاب لمكافحة الذباب » .
وتشرق شمس آذار ذات يوم ، فى تلك السنة ، لترى عجباً وتسمع عجباً : لقد تحررت المدينة كلها من ربقة الشرور والأمراض ، وأقفلت السجون والصيدليات أبوابها ، وتحول الأطباء عن وصف العلاجات إلى السهر على نمو الأطفال ، وعلى تخفيف آلام الشيخوخة ، والعناية بالأمهات الحوامل والمرضعات . ولا سيما بعد أن صارت المدينة بأسرها تعج بالأطفال الأصحاء ، وبالشيوخ غير العاجزين .

وانتشرت الحدائق العامة هنا وهناك ، كما شيدت المكتبات العمومية ، وأقيمت فى الساحات الفسيحة الأنصاب والتماثيل . فهذا نصب لتكريم الأمهات ، وذاك تمثال لتقدير الآباء . وكان أعظمها وأروعها أثر تذكارى . أقيم اعترافاً بفضل مخترع « البلسم الذرى » ، وهو آخر ما توصل إليه العقل البشرى ، منذ اخترع الحرف . فقد جاء هذا « البلسم » دواء شافياً لما تحدثه القنابل الذرية ، لأنه يعيد الذرة ، إلى ما كانت عليه قبل تفكيكها ، فترجع الأشياء التى تأثرت بالانفجار إلى سابق تكوينها .

وكان مخترع البلسم الذرى أحد أعضاء « عصبة الأصحاب » . لذلك نقشوا ، حينما بنوا ذلك النصب لتكريمه ، صورة شاب يحمل بيده مصيدة ، ومن حوله صبية وعجوز وغلام وفتاة ، تكريماً للجنسين وللجيلين معاً ، ودعوة إلى تضامنهم وتعاونهم دائماً وأبداً.

ولئن لم ينقشوا فى الحجر أسماء هؤلاء الأبطال المجهولين ، فقد شاعت فى المدينة أسماؤهم ، وصارت لطول ما رددها الناس كأنها صلوات المؤمنين ، أو أمانى المتعبدين . . . تخرج من بين الشفاه أنغاماً لا أسماء ، ولهاثاً لا كلمات .

وقد جاء فى بعض تواريخ المعاصرين أنه كان على كل طفل ، قبل أن يدخل المدرسة ، أن يمر أمام ذلك الأثر التذكارى ، فيحنى رأسه إجلالاً ، ويتزود من نفسية صاحبه ببعض ما يعينه فى الكفاح وفى السعى إلى النجاح ، حتى تكون حياة كل إنسان ، فى هذه المدينة الخالدة ، قضية رابحة .

١٩٥٣/٢/٢٦

يوم انكشف الغطاء

لم تعرف لها أماً ولا أباً . ولكنها تذكر أن أخاها الوحيد ، الذى سبي معها ، قد قتل بين ذراعيها ، وهى تولول رعباً ، حتى تمزقت حنجرتها ، كما تمزق جسده الرخص تحت وابل من سهام الغزاة .

وتنظر « دادا » بعينيها الجاحظتين ، فى حمرة مخيفة ، وهى مغيظة محنقة ، ثم تكشف عن صدرها الضامر فتقرعه بيديها ، وهى تقول بحرقة وألم :

— « يا رب يا عزيز . . . عبيدك الإنجليز ! »

* * *

كان ذلك فى إبان الحرب العالمية الأولى . وكانت « الدولة » تعلن انتصاراتها على الحلفاء بصورة تثير الريب فى نفوس العقلاء . وسرعان ما تجسد ذاك الشك فى كلمات أطلقتها بعض الأفواه الجريئة ، فتسربت من فم إلى أذن ، وشاع فى الناس ، وأوساط الموظفين خاصة — أن كل انتصار معلن يوازى هزيمة محققة .

وكنا أطفالا لا همّ لنا إلا إزعاج من فى المنزل . وكانت

« دادا » قد انتقلت إلى بيتنا فى « جهاز » امرأة عمى . فكان يطيب لنا أن نهزأ من لهجة هذه الزنجية ، ومن سحنتها السوداء ، ومن جلستها الغريبة ، خلف نارجيلتها ، التى تكاد تساويها طولا وضخامة . فإذا بلغ منها الغضب مبلغ العزم على صفع الذى يتحرش بها ، اضطربت وهى تكبت شعورها الثائر ، كأنها الماء خضخضته فتعكر ، وتغيرت معالم وجهها البنى الدقيق ، واصطبغت عيناها الصغيرتان بحمرة تزيد فى شعورك بقبحهما . ثم ناجت الله ، وهى تضرب بقبضتها على صدرها ، فيمتلئ فمها بزبد تقذفه رشاشاً أبيض ، وهى تردد :

— « يا رب يا عزيز . . . عبيدك الإنجليز ! »

حينئذ كنا نتفرق عنها ، والرعب ملء قلوبنا . فقد أكد لنا صبيان الجيران أن الدادا تأكل الأطفال . . .

* * *

مضت سنة وبعض السنة ، والحرب قائمة بيننا وبين « الدادا » على أشد ما يكون الخصام ، بين صبية لا يغادرون المنزل ، إلى مدرسة أو حديقة عامة ، وبين مخلوقة شاذة فى مظهرها وحديثها ، تجلس أكثر يومها خلف النارجيلة ، لتمج دخانها تارة ، وتغفو تارة أخرى . فيعلو لها فى الحالتين زعيق كصفارة الإنذار ، وغطيط كرغاء الجمال .

والحرب في ساحاتها تحتدم ، ويقترب الحلفاء من حدود لبنان ، ويشتد الضيق وتنتشر المجاعة والأمراض والأوبئة . ودادا كعود السنديان تزداد على مر الأيام صلابة وقسوة ، ولا تفتأ تدعو للإنجليز أو عليهم ، كلما استغضبت أو أغاظها حادث لا يغيظ سواها . لا يهمها من حوادث الأيام إلا أن تملأ بطنها على ما يرام ، وأن تدخن نارجيلتها بسلام ، بعد أن تنهى عملها اليومى ، الذى كان من أبسط الأعمال . فقد كانت تشكو ألماً فى مفاصلها ، يزداد كلما باشرت عملا يدوياً ، وامرأة عمى عروس ، يقضى العرف بمداراتها ومداراة حاشيتها فى بادئ الأمر .

وفى يوم سمعنا أمى ، ربة المنزل ، تشدد على وجوب اشتراك الجميع فى خدمة البيت .

وكان أفراد العيلة قد بلغوا الثلاثين ، بين طفل وامرأة ورجل ، من أبناء وبنات ، وعمات وخالات وخدم وضيوف . الأمر الذى أغضب « العروس » وأثار كوامن حسدها . فنشبت فى المنزل مشاحنات أدت إلى قسمته إلى أحزاب متنازعة . ولئن ظل الخدم محتفظين بحيادهم ، فإن واحداً منهم لم يكن يرى رأى زملائه فى السكوت عن « دلال » دادا ، التى لا تؤدى خدمة تذكر هم ، وهى العبدة المشتراة بدرا معدودة . . . ويقول

هذا الخادم لرفاقه ينفخ فى نفوسهم روح الثورة :

— « أنا . . . ابن الشراربى ، ابن العز والجاه ، لا أقصر فى تأدية واجباتى كخادم ، بعد أن كنت سيداً فى قومى ؛ فلماذا لا توزع الأعمال بالتساوى ؟ »

فتجيبه لميا المربية بحماسة وغنج :

— « وأنا بنت الذوات . . . اضطررت للاستخدام بعد أن فقدت أهلى جميعهم ، وأن بقيت والحمد لله امرأة شريفة . . . ! »

وكنا ، نحن الصغار ، جنود تلك الأحزاب. نتخاصم من أجل كلمة أو نظرة ، ونتضارب بسبب ودون سبب ، حتى باتت الحياة فى المنزل لا تطاق . وتحتم على والدى أن يتدخل فى الأمر ، بعد أن صارت مشاكلنا تتعب رأسه ، أضعاف ما تتعبه مشاغله خارج المنزل . فرسم خطة دعا الجميع إلى تنفيذها بحذافيرها ، تحت طائلة العقاب . وكان نصيبى أنا وإخوتى أن نقضى نهارنا وليلنا برعاية دادا .

* * *

ولن أنسى ما حييت الليلة التى قضيتها ، يوم نامت دادا معنا فى الغرفة ، أول مرة . فهذا الصرير الذى تخرجه أسنانها ، وذاك الغطيط الذى تصوغه حنجرتها ، يؤلفان حول وجهها المرعب هالة من الذعر . أقضت مضجعى ، بعد أن أغفى

إخوتى ، وسكن الليل وهدأ الكون .

وعبثاً رحت أتستر باللحاف ، وأتجمع على نفسى ، مشدداً من عزمى ، ومبعداً عزيفها عن أذنى . فلا الغطاء ، على صفاقته ، كان يحول دون هذا النغم المطرد فى لحنه ، المتفاقم بما يبعثه فى نفسى من خوف وذعر ، ولا إرادتى ، فى استبعاد ذلك كله ، كانت تحول بينى وبين الاضطراب والسهاد .

وهذه الأشباح المتراقصة فى وجوهها الشيطانية ، وأجسادها الأسطورية ، وسحنها الوحشية ، وأزيائها الشاذة ، علام تتبعنى إلى الفضاء الضيق الذى حاصرت فيه ؟

ويبلغ الذعر منى حداً صرخت معه صرخة ملأت الفضاء ، وحسبت المنزل كله قد استيقظ على وقعها الداوى . وإذا بدادا تهب من رقادها الثقيل . فتقبل علىّ بشعرها الأجعد المشعث ، وعينيها الحمراوين الحدرتين ، ووجهها الموميائى المتنفخ . فأحسبنى مأكولا هذه المرة لا محالة !

ووجدتنى أنتصب فى سريرى كالديك يستروح ابن آوى من قريب . فأمعن فى الصراخ والولولة ، وأنا أردد كالمجنون :

— « ابعدى عنى . . ابعدى عنى ! ماما ! ماما ! »

ودادا تتقدم بخطاها الوئيدة ، غير عابئة بذعرى ، ولا محاولة تلطيف ما بى بكلمة محببة ، أو صوت مأنوس . حتى تصير على

مرمى قفزة واحدة من سريرى . ولولا أنى رأيت بصيص نور يقترب من حجرتنا ، مخترقاً ظلام الليل وظلمة روحى ، ولولا أن باب الحجرة قد انشق فدخلها مع الريح طرف من ثوب أمى الناصع البياض ، وعبق من رائحة الأمومة المنعشة ، لكنت قفزت على دادا ، وأنشبت فى عنقها أصابعى التى شعرت أنها تحولت فى تلك اللحظات إلى مخالب أصلب من مخالب النسور .

* * *

تلك ليلة لن أنساها ما حييت . فقد تركت فى جسدى ضعفاً أنهكه طيلة أسابيع ، وفى نفسى أثراً لا يمحى أبد الدهر . ولكن دادا باتت بعدها صديقتى المقربة ورفيقتى المحببة .

شاهدتها فى اليوم التالى تبكى عند سريرى ، وأنا فى بحران حمى ؛ قال الطبيب إنها حمى المصارين ، وعرفت هى أنها نار الذعر ولهيب الخوف . فقد ذاقت فى حياتها الحميات ألواناً وأشكالا ، وكان الذعر أشدها فتكاً ، وأضناها ألماً . فراحت تؤنسنى بقصص وأحاديث تسردها بلهجتها الخاصة ، وكلماتها المشوهة ، كما يشوه الأطفال كلماتهم ، فأضحك حتى أقهقه . وإخوتى من حولى يؤنسهم سرورى ، فيستأنسون بهذه المخلوقة التى حسبوها غولا ، من خلال أحاديث الناس ، فإذا بها لا تختلف عن الناس فى شىء ، وإذا هى أقرب إلى نفوسنا من سائر الخدم ،

على الرغم من سوادها وقبيح مظهرها .

وانقضت الأيام ، فإذا بدادا تصبح زعيمة هذا الجيش من الأطفال ، يتزاحمون على التحبب إليها . فهذا يشترى لها قطعة من راحة الحلقوم ، وذاك يسارع إلى جلب (بصة) لنارجيلتها ، وتلك (تعبئ) لها رأساً جديداً من التنباك قبل أن يحترق (النفس) القديم ، وذلك يتنازل لها عن رغيف من حصته فى الخبز المقنن .

وإذا بهذا العالم الصغير ، الذى كان جحيما فى تنازع سكانه وانقسامهم أحزاباً تناصره، ينقلب إلى جنة ، يرضى كل من فيها عن نفسه وعن الآخرين ، ويبادر إلى مشاركتهم آلامهم وأفراحهم ، فى فيض من الحب والأيثار .

وإذا بدادا لا تردد أبداً جملتها المشهورة ، وإذا بها تستجمع صحتها رويداً رويداً ، فينتفخ خداها ويكتسى صدرها ويداها ، وتعتدل قامتها وتزول أوجاع مفاصلها ، فتنصرف إلى العمل مختارة برغبة واندفاع .

* * *

دخلت على دادا المطبخ يوماً ، فإذا بها تعمل وهى تغنى فرحة طروباً . فعاودتنى نزغة الشيطان الصبيانى ، الذى يحسه كل منا عائشاً بين جوانحه ، فمددت يدى أحاول نزع منديلها عن

رأسها . وإذا بها تغضب ، وتبدأ دعوتها . . .

— « يا رب يا عزيز . . . ! »

ثم تلفتت إليّ ، فتكتفى بأن تبتسم لى ، كما لم أرها تفعل منذ دخلت منزلنا . بل خيل إليّ أن أسنانها قد نبتت من جديد فى كنف تلك البسمة الناعمة ، وأن وجهها المتجهم العتيق قد انقلب وجهاً ناعماً رخصاً ، امحت من معالمه تجاعيد الهموم وآثار السنين . وقلت لها ، وأنا أضحك بدورى قافزاً كالعصفور :

— « لماذا يا دادا تذكرين الإنجليز . . . وهم أعداء الدولة؟

فنظرت دادا إليّ ، وفى عينيها دمعة صعدت إليهما فجأة ، وفى بصرها أشباح غامت وراءها تلك الابتسامة العذبة . ثم قالت وهى تمسح مآقيها بطرف منديلها المنزاح :

— « هل تعرف قصة الرقيق الأسود والنخاسين ؟ . . . كنت طفلة فى بيت أمى وأبى . . . وجاء النخاسون يغزون قريتنا المتواضعة . . . فقتلوا أهلى . . . وبقيت وحدى . ثم قادونى ، والسياط تلعب بجسدى وأجساد الآخرين من العبيد الى مصر ، ومنها إلى هذه البلاد ، حيث باعونى إلى جد امرأة عمك . . . »

كانت دادا تقص عليّ حكايتها المحزنة ، محاولة ببسمة مصطنعة أن تخفف من تأثير الفاجعة فى نفس الولد الحساس

الذى كنته . ولكنها لم تستطع أن تنهنه الدمع الغزير الذى راح يسيل باستمرار على خديها البارزين ، يلفهما بوشاح من حنو وحنان ، فيشعان رثاء وألماً وتفجعاً .

— « . . . وبعد ذلك . . . قالوا إن الإنجليز أصدروا قانوناً يحرم تجارة الرقيق ، وبيع العبيد . . . فرحت أدعو لهم . . . فأدعو على الطغاة السفاكين ، والقتلة الجلادين . . . من كل أمة ودين ! »

ثم رفعت دادا بصرها نحو السماء ، وراحت تتمتم بكلمات لم أتبينها ، ولكنى شعرت أن هذه الضحية الضعيفة . . . أقرب إلى تلك السماء من كل قوى غشوم .

ولما أسدلت المسكينة غطاءها على رأسها المشعث ، وهى تتابع عملها ، شعرت بأنه انكشف عنى غطاء آخر . . . من الأغطية التى تحجب عن عيون الناس حقائق الحياة الإنسانية ، وعن عيون المستعمرين أمانى الشعوب المتحررة .

١٩٤٣

رجل بلا قلب !

كان يشهد بنفسه إعدام المجرمين الذين يحكم عليهم بالموت ، لأن القانون يفرض ذلك على رئيس الهيئة التى تحكم بالإعدام . فنى ذلك ضمانة للعدل تذكى لدى الحاكم شعوره بالتبعة الوجدانية . ولكنه لم يكن يهتم لمشهد هذا الإنسان الخاطئ المعلق على أرجوحة العقاب ، بقدر اهتمامه لما ستكتبه الصحف فى اليوم التالى ، وبعناوين بارزة ، يتوجها اسمه : «فريد بك . . . رئيس المحكمة العليا ينفذ بنفسه حكم الإعدام ! »

فقد عاش فريد بك ما عاش ينظر إلى الناس كلهم بعين الريبة ، ويحكم على من يعرفه منهم حكماً مبرماً لا سبيل إلى استئنافه أو تعديله مع الأيام ! »

أما الذين لا يعرفهم من الناس ، فهو يشك فى مقدرتهم على تبرئة أنفسهم إذا حاكمهم يوماً ، ولذا فهو يأخذهم بهذه الجريمة نفسها ، ويحكم عليهم سلفاً حكماً لا سبيل إلى إعادة النظر فيه .

فلما احيل فريد بك على المعاش ، بعد الحركة التطهيرية

الأخيرة ، انصرف إلى الاشتغال بالسياسة ، يعالجها بهذه الروح ، فى بلد يعبش أهله على تلك السياسة ، كما يعيشون على الهواء العليل والماء السلسبيل .

إلا أن « الشركة الاقتصادية الكبرى » التى تألفت عقيب الحرب ، لم تشأ أن تحرم البلاد من خبرة فريد بك ، فى الشؤون القانونية ، ولا أن تهمل استغلال اسمه فى الإعلان عن نشاطها ، فاختارته مستشاراً لها ، وكلفته إدارة فرع الطيران .

وكانت الأعمال الجارية لتشييد المطار الكبير ، بين شاطئ البحر وسفح الجبل ، قائمة على قدم وساق . فوجد فريد بك فى التحكم بمئات الموظفين الفنيين ، وآلاف العمال اليدويين ، منفذاً يخفف عنه ما أصابه ، بعد انزوائه ، من كبت الغرائز ، ومسرحاً لنشاطه الذى كاد يبلغ أوج النضج فى سنته الخامسة والأربعين .

وقد جلس فريد بك ذات يوم خلف مكتبه ، فى دار الطيران — قرب الساحة التى شهدت مصرع المئات ممن حكم عليهم بالموت ، فخيل اليه أن أصواتاً تتعالى من تلك الساحة وتناديه .

فهبّ إلى النافذة ، وأطل بنصف جسده العملاق على الشارع الفاصل بينها وبين ساحة الإعدام . فإذا ببصر فريد

بك يقع على مشهد يذهله عن تلك الاصوات ، ويبعث إلى وجهه الأصفر دفقة غزيرة من الدم ، تتشنج بعدها أطرافه : هذه هي أخته دنيا ، تسير على رصيف الشارع ، متأبطة ذراع سمير العقيبي ، الفتى الخليع ؛ ويتمتم فريد بك كأنه يشاور زميله في المحكمة ، قبل اتخاذ القرار الأخير ، وهو يتلفت ذات اليمين وذات اليسار :

— « مجرم ! مجرم ! أليس كذلك ؟ »

ولكنه يستدرك على نفسه بقوله :

— « وهي . . . هي دنيا . . . مثال التقى ومظهر العفاف ، أتصاحب هذا الذي . . . »

ويعضّ فريد بك على شفتيه حتى ليدميهما . ولكن صمته لا يحول دون رؤيته ذلك المشهد ، الذي برز في مخيلته من وراء ركام مشاهد مماثلة ، كانت جميعها غارقة في ظلمات اللاوعي ، وراء حدود الوجدان . مشهده هو ، يوم نشرت الصحف خبره التالي — « الأستاذ فريد . . . القاضي في محكمة الجنح تقبض عليه الشرطة في أحد البيوت المشبوهة عند نهر أدونيس ! »

هذا العنوان الذي نشرت الصحف تحته — خبر الجريمة ، كان وحده قصة لا ينساها فريد بك مدى الحياة .

أما التفاصيل فقد ذكرتها صحف البلد خلافاً للواقع ،

على عادتها فى نشر الأخبار . ولكنه هو يذكر الآن الحقيقة كما لو كانت ماثلة أمامه .

فقد جرد الفتيات الثلاث اللواتى كن معه من ثيابهن . . . من جميع ثيابهن . . . خلافاً لما « نشرته » الجرائد المغرضة .
ثم يقول فريد بك ، وكأنه يلقى السؤال على سمير العقيبى :
— « ويحك أجئت تنتقم لأخواتك الثلاث من أختى ! »

* * *

وتسير أعمال المطار الكبير فى حدود التصاميم التى وضعت فى مؤتمر الطيران العالمى فى مونزيال بكندا — ولكن حياة فريد بك لا تسير فى حدودها الطبيعية . فهذه امرأته ، وقد ظلت حتى أمس القريب تناصبه الخصومة ، تأثراً بشذوذه فى معاملتها : ما بالها تظهر له العطف وتتظاهر بالإطاعة العمياء ؟ إن هذا التطور فى سيرتها يحمل إلى قلب الزوج ، وقد جاوز الأربعين ، عاطفة لا عهد له بها من قبل . فقد اعتاذ فريد بك منذ تزوج أن يعامل سلمى — زوجته على اعتبار أنها الخادمة الأولى فى المنزل — لها بالطبع حرمتها كسيدة ، تنجب الأولاد ، ولكنها لا تستطيع أن تتمتع فى بيته بأكثر من الحقوق التى يمنحها هو لمن يعيش معه .

جاءت سلمى يوم سفره الأخير إلى القاهرة تودعه فى المطار ،

فى عداد مودعيه من موظفى الطيران وعماله . فشاهد على وجهها أثراً من آثار المرح . فلما عاد من مصر بعد أسبوعين . كانت سلمى تستقبله بوجهها المشرق ، وعينيها الذكيتين . وجسدها اللاهب الأهيف ، ولكنه تعمد أن يتجاهل وجودها . حتى انتهى من مصافحة آخر مخبرى الصحف ، وإذا بصوت حنون يرتفع ، تضطرب معه مخارج الحروف كأنه مشروع بكاء :

— « فريد بك شخشبون ؛ الحمد لله على السلامة ! »

ولكن « البك » الذى حكم على زوجته ، قبل السفر ، لم يشأ أن يقبل استئناف هذا الحكم ؛ فاكتفى بمبادلتها القبلة التقليدية دون عاطفة يستشعرها معاونوه، كلما شاهدوا هذه المرأة الفاتنة فى مكتبه ، أو راقصوها فى الحفلات الساهرة .

وفى السيارة التى حملت الزوجين إلى المنزل ، ترقبت سلمى أن يحدثها فريد بعد طول الغياب ، ولو بلهجته الصداعة التى تعودتها منه ، ولكنه آثر الصمت ، فأخذت هى تحدث نفسها :

— « لقد صدق السائق سليم حينما قال لى — « فى القاهرة تضيعين البقية الباقية لك من زوجك ! »

وأخذ فريد بدوزه يحدث نفسه :

— « مرحها يوم سفرى ، وتقطيبها يوم عودتى ، دليلان كافيان ! »

سلمى — « هناك فى القاهرة ، النساء الروميات والفنانات الإيطاليات !

فريد — « هنا الرقص والتنس والسينما !

سلمى — « ليتنى أصررت على الذهاب معه كما نصح إلى سليم !

فريد — « ليت لى ولداً فيكفينى هذه المشكلات ! »

وكما تستدعى الكلمة ، فى واقع الحديث ، معنى جديداً — كذلك تستدعى الكلمة فى عالم الخيال حادثة جديدة . فقد تذكر فريد بكلمته الأخيرة عدداً من المشكلات أثارها فى القاهرة ، بين أعضاء الشركات التى شخص إلى العاصمة المصرية، كي يفاوضها باسم شركته . فكان أن انتهى الأمر إلى خلق جو من الريبة والاشمئزاز ، سرعان ما انقلب إلى ثورة ، على روح الاتهام التى يعالج بها فريد بلك العلاقات القائمة بين الشركة التى يمثلها وشركات الطيران الأخرى .

وكذلك تذكر فريد بلك المشكلات التى أثارها هو نفسه فى دمشق ، يوم ذهب الى العاصمة السورية ليفاوض شركة « الطيران السورية العراقية عبر الصحراء » ، بسبيل ربط الخطوط الجوية بين البلاد العربية ، أسوة بشركات الطيران البريطانية .

فانتهت مفاوضاته هنا وهناك إلى قطيعة استحكمت بين هذه الشركات ، غذاها روح الريبة والاتهام ، وأحكمها عنف هذا الرجل فى العرض ، وصلفه فى الطلب ، وشدته فى التنفيذ !

وكانت السيارة قد وصلت الى منزل فريد بك ، فترجلت منها امرأته ، دون أن تنتظره ، لأن فريداً لم يعودها هذه اللياقات ، واستدارت غضوبة لتصعد الدرج بنزق ظاهر . فى هذه اللحظة أقبلت أخت فريد ، تجر ولدها الصغير فى عربة ، وبادرت أخاها بالسؤال ، فانتبه الرجل من ذهوله الطويل :

— « قل لى يا فريد ؛ الحمد لله على السلامة أولا !

ثم هل شاهدت صهرك حبيب فى القاهرة ؟

— « بالطبع ! بالطبع ! وسيعود حبيب فى الأسبوع المقبل ! »

لفظ فريد هذه الكلمات ، وهو يصافح أخته ، ويمد رأسه ليقبلها فى جبينها ، ساعة شعر بطيف انقباض ران على ذلك الوجه الأشقر دون عذوبة ، وبخيال خيبة عرت ناظريها الزرقاوين فى غير فتنة . فثبت لفريد بهذا البرهان « الساطع » أن هذه المرأة ، كزوجته ، ليست إلا واحدة من النساء اللواتى حكم عليهن سلفاً ، منذ عهد آدم ، فتعاقبت الأيام والحوادث لتجىء له بالبرهان تلو البرهان على صدق حدسه وسابق حكمه .

* * *

فى هذه الغمرات من الشك فى كل شىء ، والارتياب من كل حادث ، واتهام كل إنسان ، كان فريد بك يقضى سحابة أيامه ، عاملا منذ مشرق الشمس حتى منتصف الليل . وكثيراً ما كان يواصل عمله ، طيلة هذه الساعات دون انقطاع أو راحة . فيكتفى من الطعام بسندويش يستحضره إلى مكتبه ، وبعدد من فناجين القهوة، وبكمية من الأسبرين يزدردها ، ويضيف إليها أنبوباً من دواء آخر، يعالج به داء معوياً مزمناً، أصابه كما يصيب أكثر الناس فى الشرق الأوسط .

ولم يكن فريد بك ليجد ، فى أثناء ذلك ، مجالا يتنفس فيه الصعداء أو يروّح عن أعصابه المرهقة ، سوى تلك اللحظات التى تدخل عليه فيها الآنسة إيڤا ستر ومبولى ، سكرتيرته الخاصة. فقد كانت فى جسدها المديد الفتى ، وعينيها الخضراوين الواسعتين ، وشعرها الأشقر الجعدى ، صورة جديدة لڤينوس كما تصورها اليونان ، فى أثواب عصرية . وهى فوق ذلك من أصل يونانى يؤمن فريد بك بأنه هو نفسه أصل أسرته التى هاجرت إلى هذه البلاد . ولم يكن على الرغم من استقباله إيڤا ، كلما دخلت عليه ، بأعذب ابتسامة يستطيع إخراجها للناس ، ليتمكن من تعود الابتسام فى وجوه معاونيه الآخرين . ولا فى وجه زوجته . فيقول الخبثاء من هؤلاء المعاونين لامرأته ، فيزيدونها

حنقاً عليه وبغضاً له :

— « إن إيفا هى (الطعم) الذى نقدمه إلى زوجك ، قبل أية مقابلة ! ثم ندخل عليهما فنجد « البلك » . . . قد « لان » كثيراً . . . وعندئذ ينتهى كل شىء على ما يرام ! »

وتصل إلى أذنى سلمى أخبار سوء كثيرة غير هذا الخبر : فهذا يحدث الزوجة الحسناء حديث نهر أدونيس ، والفضيحة التى نشرتها الصحف فى حينها ، على أنها حادث جديد . وذاك يخبرها بأن « البلك » لا يستنكف عن الاحتفاظ ببعض الملاعق الفضية فى جيبه ، كلما دعى الى وليمة من الولائم التى يفضلها على كل حفلة سواها ! ويأتى ثالث فيحدث سلمى بأن زوجها كان فى إحدى الليالى ، فى الغرفة « الخاصة » التى استأجرها قرب ملعب التنس ، ففاجأه صديق « الفتاة » التى يصاحبها ، وأطلق عليه النار ، فأخطأه ! وأنه كثيراً ما يداعب الخادمات مداعبة لا تبيحها الآداب العامة .

هذه الأخبار ، وما تلقاه سلمى من سوء معاملة هذا الزوج ، منذ ارتضته رفيقاً فى الحياة ، لاسيداً يضطهدها ولامستبداً يتحكم فيها ، كانت تزيد فى نكد الحياة المنزلية ، وتعكر صفو البيت الهادىء ، على الرغم من خلوه من الأولاد . بل إن هذا الحرمان كان أسوأ ما يعصف بقلب هذه المرأة الكاملة الأنوثة ، الرائعة

الجمال ، الذكية القلب ، والنبيلة الأخلاق .

* * *

وتنقضى أربع سنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية . فيجد فريد بلك نفسه متربعاً على قمة المجد الذى حلم به . منذ كان موظفاً منسياً حتى صار رئيساً أعلى لاتحاد شركات الطيران ، يملك الأطيان فى مصر ، والسيارات فى فلسطين ، ويستملك العقارات فى جبل لبنان. ولكن فريد بلك لم يستطع أن يمتلك قلب زوجته ، ولا عواطف معاونيه ، ولا عطف الناس . كما أنه لم يتمكن من أن ينجب ولداً يرث هذه الثروة أو ينسى الناس ماضى أبيه الغشوم .

فقد ظل فى خصام مع الناس يتهمهم ويحاكمهم . حتى القضاة ، لم يكن له بينهم صديق . لأنه لا يؤمن بالعدل الذى نصبوه مكتوباً فوق رؤوسهم ، على أنه أساس الملك ! وهو لا ثقة له برجال الفكر لأنه يخاف من الحرية التى يدينون بها ، وهو يكره معاونيه لأنهم يزاحمونه حتى على اعجاب امرأته .

فهذه الرحابة الأبوية التى تملأ صدور الرجال الكبار لا تجد إلى صدره منفذاً : إنه يتبرم حتى بزواره من الزبائن وأصحاب المصالح ، فيبلغ به الغيظ منهم حداً يقيمه ويقعده ، وهو ينتفض كالديك المذبوح .

* * *

فى يوم ، اشتد المرض على فريد بك ، فعاف الطعام ، واكتفى بالقهوة والأسبيرين والدواء الآخر ، وراح يتناول هذه السموم دفعة واحدة ، فى الساعتين مرة . فلم ينقض نصف النهار حتى أحس الرجل باعضائه تتراخى ، وبكبده يتشنج كأنه أصيب ببرد مفاجىء . ثم غامت الدنيا فى ناظريه ، وتلألأ العرق على جبهته الناصلة . وإذا بالباب يفتح ، فتدخل منه إيفا ، فتانة القسمات ، يعبق العطر من حولها كهالة من طيب .

وما راع الفتاة إلا جسد فريد العملاق ، يقوم من مكانه ثم يقع منكباً على وجهه ، فوق سطح المكتب البلورى الفسيح . فتراكض إيفا مذعورة ، وتأخذ بين ذراعيها رأس فريد بك وهى تضغط على زر الجرس ضغطاً عصبياً متواصلا . وإذا بالباب يفتح من جديد ، وإذا بسلمى تطل برأسها الصغير الحلو ، يتبعها الحاجب الوحيد الذى ظل فى المكتب حتى تلك الساعة المتأخرة من استراحة الظهيرة . فما تقع عينا الزوجة ، التى جاوزت الثلاثين ، على وجه السكرتيرة التى لم تبرح دون العشرين ، وهى تحتضن رأس زوجها بحنان ، حتى تنفجر المرأة بضحكة صفراء مرعبة . ثم تعود أدراجها لتهبط السلم التى صعدتها منذ لحظات قلقة لتأخر زوجها ، وهى أهدأ ما تكون المرأة ، تعيش فى شك من أمانة هذا الزوج حتى تقع على أسباب اليقين .

وفى الدرج تسمع سلمى جلبة تتبعها، وأصوات ألم مكبوت خلال ذلك؛ فتلتفت وإذا فريدبك نفسه ، يهبط السلم عجلا، ويمسك كل من الحاجب والسكرتيرة باحدى كتفيه، فيجرر ساقيه بعجز ظاهر ، وهو يجفف عن جبينه القطرات الأخيرة من عرقه البارد.

حينئذ شعرت سلمى بأن هذا «الحاكم» المستبد قد تضاءل وضعف حتى رجع إنساناً رحيما ، كهؤلاء الذين تعرفهم من الناس ، فتحبوهم من انسانيتها حناناً يتصل من القلب إلى القلب. فمدت المرأة يدها الصغيرة الدقيقة الأنامل ، المخضبة الأظافر ، وأخذت بها يد فريد، وهى تقول له برحمة ظاهرة وعتب لطيف:

— «لماذا تعامل نفسك وغيرك بهذه الشدة يا فريد ؟»

فترقرق فى عينى الرجل دمعتان كانتا أثمن ما خرج منه ، منذ عرك الحياة، وهو يقول لزوجته ، بعد أن اختليا فى السيارة:

— «عفوك يا سلمى! لا تحكى علىّ بقسوة كما حكمت عليك ... وعلى الناس !»

فتنظر المرأة إلى هذا الرجل ، يخلقه الضعف خلقاً جديداً ، بحنو خالص ، يطفو على مقلتيها السوداوين العميقتين ، ثم تتمتم، وهى تتحول ببصرها عن وجه زوجها الشاحب الى الساحة العامة المجاورة ، ساحة الإعدام:

ـ « لقد عفوت عنك ؛ وأسأل الله أن يعفو عنك هو أيضاً ! »

وضاعت سيارة فريد بك وسط جماهير من الناس والسيارات ، تألبوا فى ذاك اليوم قرب ساحة الإعدام ، ليتفرجوا على جثة آخر مجرم نفذ فيه القضاء حكم الموت .

١٩٤٨

تجارة خاسرة

أنهى الدكتور سعيد سياحته الى أوربا ، وكان قد نجح فى الامتحانات الجامعية للحصول على درجة دكتور فى الطب، منذ ثلاثة أشهر . فجاءت رحلته هذه تتمة لدراسته ، وفترة راحة ، استجم فيها ، من عناء تلك الدراسة الطويلة .

وما كان الدكتور سعيد ليهتم بطول الدراسة لو كان التعليم الجامعى ميسوراً . ولكن اضطراره الى بيع آخر « حصة » من الأرث الذى انتقل اليه ، من أمه وأبيه ، فى سبيل الحصول على تلك الشهادة، حمل الدكتور على التأفف، ولاسيما أن الجامعتين عندنا تستوفيان أجوراً باهظة ، لا طاقة للفقير وللمتوسط بتحملها .

وكان أول عمل قام به الدكتور سعيد ، فى عيادته الجديدة، هو إحصاء الأموال التى أنفقها للحصول على هذا اللقب ، الذى طالما داعب خياله ، وتراءى له فى مسقط رأسه ، كأنه عصا جنية ، تحول أثواب « سندريلا » البالية إلى روائع من فنون الخياطة والزركشة والتطريز .

وبدأ الدكتور يسجل فى دفتره ، وهو يتمتم :

— « إذا لم نحسب مدة الدراسة الابتدائية ، لأننى قضيتها فى مدارس الحكومة المجانية ، وجب أن نحسب ما أنفقته على المعيشة ، فى المدينة ، طوال تلك السنوات . . . وليكن ذلك بمعدل خمسين ليرة فى الشهر ، أو ستمئة ليرة فى السنة الواحدة . أى ما يعادل ثلاثة آلاف ليرة فى خمس سنوات ! »

ويكتب الدكتور هذا الرقم إلى جانب ، فى الهامش الأيسر على طريقة التجار .

ثم يتابع حسابه وتمتماته :

— « أما الدراسة الثانوية . . . فقد كانت أغلى سعراً ، وأوفر تكاليف ! لننظر ؛ متى بدأتها ؟ فى السنة الأولى كانت الأجرة فى المدرسة الداخلية ، ألف ليرة . . . ثم تضاعفت فى السنوات الثلاث التى تلت . وأخيراً صارت النفقة السنوية أربعة أضعاف ما كانت عليه فى السنة الأولى ! »

وإذن فان المبالغ التى دفعتها للمدرسة الثانوية كانت ثلاثة وعشرين ألف ليرة !

ويتوقف « الحكيم » فترة طويلة ، أمام هذا الرقم ، ويتخيل ما كان بامكانه أن يشترى به ، فى قريته ، من عقارات مبنية ، أو أراض صالحة للزراعة . . . ثم يتابع إحصاء النفقات بالدقة

نفسها التى اشتهر بها ، وهو يقول :

— « والآن لنحسب تكاليف الدراسة الجامعية. سبع سنوات كل منها أكثر تكاليف من التى سبقتها ! »

ويحار الدكتور سعيد فى أى معدل يعتمد لحساب هذه النفقات . أمعدل ما كان ينفقه هو ، دون إسراف ، أم ما كان ينفقه بعض رفاقه ، من أبناء الذوات ، أم ابن ذلك الموظف... المكلف شؤون المحاسبة فى إحدى الشركات ، الذى ينفق مئات الليرات فى سهرة واحدة . وكأنه ينفق قروشاً معدودة .

أخيراً وجد الدكتور سعيد حلا وسطاً فارتفعت نفقات الدراسة الجامعية إلى واحد وثلاثين ألفاً وخمس مئة ليرة .

* * *

وقف الدكتور سعيد مشدوهاً أمام هذه الأرقام وتمتم :

— « أربعة وخمسون ألف وخمس مئة ليرة ! ! إنه مبلغ كبير لا يستطيع عامل ، مهما جدّ ، ولا موظف مهما اقتصد ، فى طول حياته المنتجة وعرضها ، أن يجمع مثله ! ! بل لا يستطيع تاجر أن يجمع نصف هذا المبلغ ، إذا . . . كان تاجراً شريفاً . »

ثم يتصور الدكتور سعيد مقدار هذا المبلغ إذا تحول إلى

قروش ، ووزن هذه الملايين من القروش إذا كانت معدنية .
فيكاد يصاب بالذهول ، لما كان من إسرافه على نفسه . . .
ولكنه ، مع ذلك ، يحمد الله على ما هيأه له من أسباب التعلم ،
في بلد كثر فيه حملة الشهادات كثرة مخيفة . ويحمد الله كذلك
على أنه سبق ابن جيرانه ، الذى اكتفى باجازة الحقوق ، بينما
هو تجاوز هذه المرحلة إلى الدكتوراه .

وينبعث صوت من داخل سعيد ، شبيه بصوته هو ، لو ارتفع علنياً ، يقول :

— «بقى أن نعمل الآن على استعادة هذا المبلغ من المال ، أضعافاً مضاعفة ! ! !

وينتفض الحكيم انتفاضة ظاهرة ، ثم يتلفت حوله كمن يطمئن إلى أن واحداً غيره لم يسمع هذا الصوت . ولما اطمأن إلى وحدته ، وانه ليس فى العيادة معه غير شهاداته التى علقها ، ضمن إطارات مذهبة ، وقف الدكتور سعيد مختالا فخوراً ، وهو يفرك يديه ، ويقول :

— « مهنتى مهنة إنسانية : ولن يكون للمادة سلطان علىّ ؛ ألم أقسم اليمين على ذلك ؟ »

وتسرى فى جسده قشعريرة الإيمان والحنان . ثم يرى جمهور الحضور ، وقد صفقوا حينما تناول الشهادة من يد مدير الجامعة ،

فيكاد يطير فرحاً ، لولا ما يفرضه الوقار على شاب مثله أعدّ ليكون « حكيما » فى نفسه ، وحكيما فى مداواته أجساد الناس ، وأرواحهم ، على حد سواء . ويعود الصوت ، الذى سمعه الدكتور منذ لحظات ، إلى القول باصرار وعناد :

— « ولكن ! هذه الألوف من الليرات التى أنفقتها ، لا يجب أن تذهب سدى ؛ وقد نسيت يا عزيزى نفقات هذه العيادة : من بدل تأجيرى ، إلى ثمن معدات ، إلى أجور ممرضات وخادمات . . . لا ، إنك تبالغ فى التمسك بانسانيتك ! »

ويغالب الدكتور نفسه ، بكبح جماح هذا الصوت ، الذى يكاد يسمعه كأنه صوت متحدث فى الهاتف . ولكن ذلك الصوت يتمرد عليه ، ويتعالى أقوى فأقوى ، وأشد إصراراً . فيسمعه الطبيب يردد :

— « دعك من اليمين ، وما أخذت به نفسك. أنت فى بلاد تجارية . . . ولك بزملائك أسوة حسنة ! »

* * *

ويخيل إلى الدكتور أن ذلك الصوت منطق فى ما يعرضه عليه ، ولا سيما حينما يرى أن رسم الزيارة الذى يفرضه زملاؤه الكبار ، على المرضى ، يساوى مكسب عامل فى أسبوع .

ثم هم لا يتورعون عن استيفاء أجور العمليات الجراحية ، سلفاً من المرضى ، قبل السماح لهم باجتياز عتبة المستشفى ، ولو كانوا فى حالة الخطر الشديد . ولكن الدكتور سعيد لم يبرح يقيم للعواطف الإنسانية وزناً ، فى علاقاته مع الناس .

فهو من فئة قليلة ، من حملة الشهادات ، الذين لا يهجرون الكتاب ، بعد حصولهم على تلك الأوراق المزركشة . وصحبته للكتاب الرفيق الأمثل ، صحبة مخلصة ، يفضلها الدكتور سعيد على ما ينصرف إليه زملاؤه وغيرهم من المثقفين ، من هوايات رخيصة . فضلا عن إهمالهم شأن المرضى إهمالا فاضحاً ، بحيث لا يسجل أحدهم نتائج فحصه ، ولا ما رتب للمريض من علاجات . فاذا راجع المريض طبيبه ، مرة ثانية ، عمد إلى سؤال المريض عما وصف له فى المرة السابقة ، كى يرتب له العلاج الجديد .

لذلك عمد الدكتور سعيد إلى اتخاذ سجل يثبت فيه ما يراه فى كل مريض ، بعد فحصه ، وما يشخصه من أمر مرضه ، وما يصفه له من علاجات ، فكان ذلك مدعاة لاطمئنان المتطببين إليه ، وشيوع صيته فى الأوساط ، التى بلغ بها الحذر من بعض الأطباء . . . حد الكفر بالطب نفسه ، والترحم على « حكيم من زمان » ، يوم كان « المزيّن » يؤدى ، بمفرده ،

وظائف الطبيب وطبيب الأسنان ، والجراح ، والختان فى وقت واحد .

وفى الواقع كان أكثر الأطباء يكتفون بما تلقنوه على مقاعد الدرس ، من ملخصات المحاضرات ، أو مطولات الكتب . وكان الدكتور سعيد يؤمن مع الفيلسوف « الفريد هويتهيد » بأن « الأرض لم تحمل قوماً أقل نفعاً من جماعة ، اقتُصرت ثقافتهم على ما لقنوه من علم . » فيحاول سعيد أن يستزيد من معلوماته ، ويركزها ، بتطبيق تلك المعلومات على الحياة ، وباستنباط الجديد ، مما يقود إليه البحث والاستقراء العلميان ، أسوة بالمثقفين ، فى الأمم المتطورة ، وبالأسلاف الذين لم يقصروا فى خدمة المدنية والحضارة .

* * *

وتنتهى السنة الأولى ، لتتبعها سنوات ، والدكتور سعيد مثابر على عمله . . . ولكن دون تلذذ به ، أوحب لهؤلاء المرضى الذين كانوا يروون له ما لقوه من زملائه من استغلال ، وما وجدوهم عليه من طمع فى جمع الأموال ، بمثل روحية البياعين المتجولين ، وبعض التجار المحتكرين . فيتأثر الدكتور سعيد بما يسمع ، وتتحرك فى نفسه النزعة الإنسانية الخيرة . ولكن وفرة

مطاليب الحياة واتساع علاقاته، وما يتطلبه ذلك من النفقات، جميع هذا كان يحمله على . . . الأخذ رويداً رويداً بالمبادئ ذاتها التي وجد عليها زملاءه .

ثم يقول لنفسه :

— « أأنا وحدى قادر على إصلاح هذه البيئة . كل الناس فيها تجار ، فكيف أكون وحدى عالماً أو إنساناً خيراً ؟ أريد أن أعيش وعلىّ أن أقبل الأشياء والأشخاص على علاتهم ! »

وتسود فى نفس الدكتور سعيد فلسفة الواقعية التى عمت ، وصارت ، حتى لدى الخاصة من المثقفين ، فلسفة الحياة .

* * *

وحينما تدفقت على الأسواق ، بعد الحرب العالمية الثانية ، أنواع الأدوية الشافية التى اكتشفها أطباء من هنا وطبيبات من هناك ، سأل أحد المرضى الدكتور سعيد ، وكان طفلا فى الثامنة من عمره :

— « لماذا يكتشف الأطباء فى بلاد الناس أدوية شافية . . . ولم يجد لى الأطباء منذ سنتين ، دواء لمرضى هذا ؟ »

فيضطرب الحكيم « الكبير » أمام هذا الطفل « الصغير » وتحمرّ وجنتاه كما لم يحدث له منذ زمن بعيد . ثم ينظر الى أمّ

الطفل وأبيه الحاضرين ، نظرة أودعها كل ما فى نفسه من معانى الخير ، ويقول للطفل الصابر المسكين :

— « يا عزيزى ! هناك يؤمن الناس بالعلم ، إيماناً صادقاً ، مثل إيمانك أنت بحب أمك وأبيك . . . أما هنا فاننا نؤمن بكل شىء ، ولكن . . . أضعف الإيمان ! ! ونتاجر بكل شىء ولكن تجارة غير رابحة ! ! »

١٩٥٠

برأته المحكمة

إن كل شبه بين أشخاص هذه التمثيلية
الخيالية والأشخاص الحقيقيين هو من قبيل
التصادف المحض .

فى مكتب المحامى الأستاذ فكرى ، غرفة بسيطة الأثاث ولكنها أنيقة ، يقوم مكتبان متقابلان ، بينهما هاتف . يدخل السيد خليل زميل الأستاذ فكرى ، فيحيي ، ساعة يدق جرس الهاتف .

خليل : مساء الخير أستاذ فكرى !

فكرى : مساء الخير خليل . . . . آلو . . . آلو (إلى خليل) كيف أنت بعد الظهر؟ (ثم للهاتف) آلو يا آنسة لا تقاطعينا ، من يتكلم ؟ آه الجهنمى بك ؟ أهلاً وسهلا بجهنم إذا كنت أنت منها ! (بتهكم مصطنع) يا سيدى البلاد كلها بانتظار كلمتك فى الموضوع ، الرئاسة جاهزة متى شئت يا . . سعادة الجهنمى ، نحن على العهد باقون وحياة رأسك يا صاحب السعادة ، مع السلامة . . . مع السلامة ؛ مع السلامة

أهلا وسهلا ! (فكرى يضع الساعة فى مكانها ، ويلتفت إلى خليل مقهقهاً ، ثم يقف ويمد له يده مصافحاً) .

فكرى : هذا غرام بك الجهنمى ، المرشح الدائم لرئاسة البلدية . . . إنه قادم إلى المكتب . . . سنقضى معه ساعة لذيذة !

خليل : (بجد) إنه حقاً من الشخصيات الجديرة بالدرس !

فكرى : هل تعرفه ؟

خليل : ومن لا يعرف الجهنمى فى طول البلاد وعرضها ؟

فكرى : (مقاطعاً وهو يضحك) إنه معروف بفروته الدافئة التى يلبسها فى حر الصيف ! !

خليل : (متابعاً) يا خسارة ، إنه رجل خارق الذكاء ، واسع الإطلاع ، موزون ما دام لا يحدثك عن نفسه ، وعن المراكز التى تليق بذاته العلية . . . . فإذا وصل إلى هذه الناحية ، أضاع صوابه ! مسكين . . . إنه مريض . . . مريض !

فكرى : مريض ، صحيح ، هذه هى الصفة التى تنطبق عليه. ومرضه عضال لا شفاء منه لأنه مرض الفردية النامية نمواً خارقاً !

خليل : إذا كان هذا مرضه فهو واحد من الناس عندنا ! !
كل فرد فينا ضحية هذه الفردية النامية نمواً يجاوز
الحد المعقول . . . .

فكرى : ولكن الجهنمى فى مرضه المزمن يفوق سائر المرضى
فى الكمّ وإن ماثلهم فى الكيف ، إنه فى فرديته
قد بلغ أعلى قمة العُجب والغرور !

خليل : إنه فى الأصل من بيئة جد متواضعة . . . فلزمته
مركبات النقص . . .

فكرى : قل بيئة جاهلة والسلام ! فالجهل فى بلادنا أساس
كل علة ، إنه أساس الفقر وأساس المرض وسبب
الجرائم وسائر البليات !

خليل : ولكن . . . يبدو لى أن هذه الفردية هى ضمانة عندنا
أيضاً . . . ضد المبادئ الخطرة ! (يدق جرس
الهاتف من جديد) .

فكرى : آلو ، آلو ، نعم ، من يتكلم ؟ آه . . . هذا
أنت يا موسى ؟ كيف حالك بعد سهرة الليلة
البارحة ؟ هل عدت فربحت بالبوكر بعض ماخسرته
فى البريدج ؟ ثم يستمع فكرى فتظهر على وجهه
أمارات الاهتمام ، وهو يغمغم . . . ثم يقول :

فكرى : أنا لا أعتقد . . . هذه المؤامرة ليست جدية . . . لا يمكن أن يستولى إنسان على دولة إذا هاجم مقر البلدية فى قرية ! على كل أنا أنتظرك فى مقهى البريد . . . بعد الظهر كما تقول . . . (يعيد فكرى السماعة إلى موضعها — ساعة يدخل غلام المقهى سعيد ، يحمل صينية عليها فنجانان من القهوة ، فيقطع على فكرى حبل اضطرابه الظاهر) .

خليل : (إلى سعيد) — قدم إلى الأستاذ فكرى قهوته ، وهات لى فنجانى . . . (ثم إلى فكرى) هذه المرة القهوة على حسابى إذا شئت . (ثم بعد صمت ناله بالعدوى) حقاً إن الحالة مخيفة . . . مزعجة وقد انفلتت فردية الناس وأثرتهم من القيود ، ولكننى واثق كما قلت إن فرديتنا . . . دواء واق . . . إنها تقينا شر الانزلاق فى مهاوى المبادىء المتطرفة — الرجعية منها والتقدمية كما يقولون . . . إنها رباط يشدنا إلى الله . . . فنتجنب الجرائم . . . الاجتماعية والإجماعية !

سعيد : (متعجباً وموجهاً كلامه إلى خليل) — وأنت عرفت

أيضاً ؟

خليل : (مستفهماً) ماذا تعنى يا سعيد ؟

سعيد : امرأتى التى ماتت أمس .

فكرى : ماذا تقول ؟ امرأتك ماتت أمس ؟

سعيد : (باستخفاف) أما سمعت بالقصة يا أستاذ حتى الآن ؟

خليل : لا أبداً ، مسكينة ماذا أصابها ؟

فكرى : حقاً مسكينة ، إنها عروس صبية !

سعيد : مسكينة ؟ تقص رأسها السكينة ! !

فكرى : ماذا تقول يا سعيد ؟

سعيد : كانت واحدة خائنة . . . تخلصنا منها . . . ومن عارها !

فكرى وخليل : سعيد . . . أتدرى معنى ما تقول ؟

سعيد : وحياة شرفكم ذبحناها مثل الكلبة وانتهى الأمر ! !

(يسود المكان صمت ثقيل . . . لا تقطعه سوى موسيقى مرعبة تأتى من بعيد . . . ثم صوت جرس الهاتف يرن بعنف غير اعتيادى فيزيد فى توتر الأعصاب) .

فكرى : (إلى خليل وبضعف ظاهر كأنه ينتزع الكلمات

من فمه انتزاعاً) أستاذ خليل . . . إنه لك هذه المرة

خليل : (يقوم متثاقلا إلى الهاتف) آلو ، نعم ، من ؟ لم أفهم ؟ آه، صحيح، لا بد أنني سأسمع هذه القصة بالتفصيل . شهوة الناس للكلام تفوق شهوتهم للطعام، ولكن أرجوك لا تخبر بها زوجتك لسبب بسيط هو أنني لا أريد أن تسمعها زوجتي ! (ثم بعد صمت) أنت أعرف بامرأتك وثرثرتها ، وزوجتي على وشك الوضع ، وأنا لا أؤمن بالرعب كوسيلة من وسائل التربية أو سبيل من سبل الحب ! (ثم بعد توقف) اسمع سأراك فى النادى بعد الظهر ونحل هذه المشكلة أيضاً . . . إلى اللقاء فى النادى الساعة السادسة كما تقول ، إلى اللقاء يا عزيزتى ! !

خليل : (إلى فكرى الذى لم يبرح سادراً) هذا صديقنا سليم ، أراد أن يقص على تفاصيل ما سمعناه من سعيد ؛ (ثم إلى سعيد) قل لى بربك هل أنت تمزح يا سعيد ؟ أدجاجة هى المرأة أم بطة . . . أنا لاأصدق، أنت الشاب اللطيف . . . تذبح امرأتك ؟

سعيد : (متحمساً) وحياة رأسك يا (بك) على المسك ،

لو كانت دجاجة لما ذبحتها، لأن قلبي يحن حتى على هذه الطيور . . . ولكنها خائنة غدارة . . . فكفانا الله شرها وعارها ! !

فكرى : (وكأنه يستيقظ من حلم مزعج) وهل تأيدت خيانتها لديك ؟

سعيد : معلوم ، فاجأناها فى ميدان السباق مع عشيقها . . . (ثم مختنقاً بكلماته) آخ لو بقى فى مكانه لمزقت أحشاءه هو أولا . . .

خليل : هل تعرفه ؟ ما اسمه ؟

سعيد : (يتنهد من أعماق صدره) هل أعرفه ؟ إننى لا أعرف سواه ، ولن أعرف سواه ، ولكن « ظهره » قوى . . إنه قوى قوة تقصم الظهور ! !

فكرى : يعنى ينتسب إلى الملك ؟

سعيد : يا ليت .

خليل : إلى رئيس الوزارة إذن ؟

سعيد : يا ليت .

فكرى : إلى وزير التموين بالطبع ؟

سعيد : يا ليت .

خليل : إلى أحد الزعماء « القبضايات » ! !

سعيد : يا ليت .

فكرى : إلى مؤسسة إصدار الأوراق النقدية إذن ؟

سعيد : يا ليت

خليل : إلى شركة البترول من كل بد ! !

سعيد : يا ليت .

فكرى : إلى « السريانى » المليونير الجديد إذن ! !

سعيد : يا ليت .

فكرى وخليل : يا شيخ من يحميه إذن ؟

سعيد : (بعد تنهد عميق) أنه (زلمة) الباشا .

فكرى : ومن هو الباشا ؟

سعيد : الباشا ؟ أما تعرف الباشا ؟ إنه نصف البلاد !

خليل : والنصف الثانى ؟

سعيد : « زلمته » !

فكرى : زلمة الباشا ، الباشا وزلمته ، ما هذا الكلام المعمى ؟
هل أنت شاعر رمزى يا سعيد ؟

سعيد : والله رمزى بك رجل طيب ، أما الباشا . . . يارب
تجيرنا ! ! !

فكرى وخليل : (يقهقهان ، ثم يعودان فوراً إلى سابق رصانتهما
ويسأل خليل .

خليل : وغريمك أين هو الآن ؟

سعيد : فى قصر الباشا !

فكرى : ألم تقبض عليه الشرطة ؟

سعيد : لم تقبض عليه ولن تقبض عليه لأنه فى حماية الباشا !

خليل : هل أقمت الدعوى على هذا الرجل لأنه أغرى زوجتك ؟

سعيد : ما الفائدة من الدعاوى ؟ أخذنا من المرأة نصف حقنا بأيدينا ، وسنأخذ النصف الثانى من الرجل ، متى حان الوقت ! !

فكرى : ولكن . . . أليس لامرأتك أهل يطالبون بدمها ؟

سعيد : أخوها شريكى فى (العملية) . . . وأمها عرفت التفاصيل من أخيها فقالت له — لو خبرتنى لذبحتها قبلك . . . تسلم يداك يا بطل ! !

خليل : أم وتقول هذا القول لمن قتل ابنتها ؟

سعيد : معلوم ، الخائنة عندنا تخرج من دينها ، ومتى خرج الإنسان من دينه حل سفك دمه ! !

فكرى : ولكن القانون . . .

سعيد : (مقاطعاً) أى قانون يا أستاذ ، السيف أصدق أنباء من الكتب ! !

فكرى : معك حق ، فى ساحات الحرب لا فى أكناف البيوت !

سعيد : العرض أثمن شىء ، ومن ينتهكه نغسل عاره بدمه وينتهى كل شىء !!

(يقول سعيد هذا ثم يضرب يداً بيد كمن يشير إلى أن الأمر انتهى دون حاجة إلى تفلسف فى الموضوع ، ثم يخرج الشاب حاملا صينيته وفناجين القهوة ، فتسمع موسيقى موقعة على تراقص الفناجين والكؤوس ووقع الأقدام ، تنتهى إلى بعث الحزن العميق ، فى النفوس) .

المشهد الثانى

فكرى : (إلى خليل بعد فترة هدوء يسمع فى أثنائها تتمة اللحن الموسيقى الحزين) أرأيت إلى طبيعة هذا الصنف من الناس ، كم فيها من شهامة ومروءة ، ولكنها مع الأسف لم توجه التوجيه الصحيح ؟

خليل : قل إنها لم توجه أبداً ، إنهم يستبيحون قتل الخاطئة ولكنهم لا يعملون على تجنيبها الخطيئة ، ويستبيحون الإجرام الفردى ويستنكفون عن الجهاد الإجماعى

في سبيل عقيدة أو هدف قومي .

فكرى : تصور أن سعيداً هذا وأمثاله قادرون على اقتراف الجرائم، ببرودة دم وهدوء أعصاب، فيسبيل ستر جناية خلقية اطلعوا عليها صدفة ، ولكنهم لا يفكرون أبداً ، ولو فكرت لهم لا يؤمنون أبداً ، في أن العمل على صيانة الأخلاق يتطلب تضحية مستمرة من كل مواطن ، تضحية معنوية وتضحية مادية ، بسبيل إنشاء المؤسسات الاجتماعية التي تصان بها الأخلاق ، وتصان فيها الكرامة البشرية ، وتصان كذلك الشخصية الإنسانية .

خليل : حقاً أن هذه المؤسسات الاجتماعية تعوزنا في البلاد العربية كلها !

فكرى : لو نظمنا أمر الصدقات والإحسان الفردي، على نحو ملائم للظروف العصرية، لتمكنت الجمعيات من القيام بهذه الأعمال الاجتماعية النافعة كما يفعل الناس في بلاد الناس ، في إنكلترا وأمريكا مثلا !

خليل : مصداقاً لكلامك، عاد أمس أحد مواطنينا المغتربين بعد غياب خمسين سنة . فأخبرني ، أن أحد أغنياء المنطقة التي يعيش فيها في أمريكا ، قد خصص

عشرة بالمئة من وارداته الصافية لمعونة المؤسسات الاجتماعية . وفضلا عن ذلك فقد تبين لورثته، بعد وفاته، أنه كان يقدم فى كل شهر إسعافاً خاصاً إلى ٣٢٠ عيلة من الأسر المستورة . هذه الأسر التى ربطته إلى أربابها صلات قديمة كالرفاقة والزمالة أو الجوار، وعلم أنهم باتوا فى حالة مادية صعبة .

فكرى : هذا هو الإحسان بمعناه الإنسانى الصحيح !

خليل : وقد حدثنى أحد العائدين من إنكلترا حديث صديق له هناك، هو صاحب مزرعة يملك فيها بقرة أو أكثر، فيخصص بأحد المستشفيات العامة ما يفيض عن حاجته وحاجة أسرته من اللبن ، يقدمه إلى المرضى والمستشفين الذين لا يعرف عنهم إلا أنهم بريطانيون دون أى مقابل ، مساهمة منه فى المجهود الاجتماعى العام .

فكرى : حقاً إن بين البشر روابط إنسانية لا يمكن أن يتجاهلوها . فليت الموسرين فى بلادنا يتوجهون هذه الوجهة الخيرة ، إنهم حينئذ يقومون بواجبهم الإنسانى وبواجبهم الوطنى وبواجبهم نحو أنفسهم يا أخى ! إنهم يدفعون بذلك ، عن أنفسهم وعن

أولادهم وحفدتهم ، كثيراً من الشرور والأمراض والمفاسد !

فكرى : كم يؤلم منظر هذا الطفل المتشرد فى الشوارع والأزقة ، عارى البدن إلا من بقية ثوب مهلهل ، حافى القدمين مشعث الشعر ، قذر الوجه !

خليل : بل إن هذا المنظر مما ينفرنى من المجتمع الذى يطيق مثل هذا المنظر الذى يفتت الأكباد !

فكرى : وكم يسىء إلى سمعة البلاد انتشار الشحاذين والمتسولين فى كل شارع وعلى أبواب كل معبد ؟

خليل : والمشوهين ، والعجزة ، والمرضى ، هل يجوز لبلد راق أن يتركهم دون مأوى يعنى بهم ، أو مستشفى يجدون فيه أسباب الشفاء والراحة والصحة .

فكرى : إنك تتحسس يا خليل ما أتحسسه فكأننا نفكر بعقل واحد ، ونشعر بقلب واحد !

خليل : هذا نتيجة طبيعية للتربية التى نلنا بالاشتراك قسطاً منها ، وللمدرسة الواحدة التى وحدت فينا الشعور ووجهة النظر إلى الأمور !!

فكرى : إننى أتمنى أن نتعاون فى هذه الناحية كما نتعاون فى العمل اليومى ، وكما تعاونا فى المدرسة .

خليل : هذا غاية ما أتمنى !

فكرى : فما قولك فى تأليف جمعية منا نحن الاثنين ؟

خليل : هذه فكرة حسنة .

فكرى : تكون أنت الرئيس وأنا . . . الأعضاء .

خليل : حسن جداً ولكن . . . يبقى أن نبحث عن أمين سر عام، وأمين صندوق وكاتب ، ثم عن . . . . مشتركين !

فكرى : وهذا هو الأهم ، وفى يقينى أن كل ثرى من اثريائنا قادر على إنشاء مؤسسة اجتماعية بمفرده ، لو وفر لهذه الغاية ما ينفقه على الكماليات وأسباب الظهور !

المشهد الثالث

يدخل فى هذا الوقت الجهنمى وكأنه
أعصار هب فجأة فى الغرفة

الجهنمى : أما تزالون قاعدين هنا والبلد قائمة قاعدة للانتخابات البلدية ؟

فكرى : أهلا وسهلا بسعادة الجهنمى بك ، أهلا وسهلا بالرئيس المنتظر ؟

الجهنمى : يا أخى أنت تشك دائماً ، وفى كل شيء ، ما معنى

هذه « المنتظر » ؟ لم يبق إلا أن أقبل حتى يصدر المرسوم ، فأنا رئيس البلدية شئت أم أبيت !

خليل : ولماذا يأبى الأستاذ فكرى أن تكون رئيساً ؟ إنه يترقب هذا اليوم بفارغ الصبر ، أليس هو الذى سيكون الأمين العام لديوانك العالى ؟

الجهنمى : أنت سياسى كبير يا خليل ، أنك تستنبش ما أنوى إجراءه من تنظيمات فى دوائر البلدية ! ! طيب أنت مخير فى المنصب الذى يوافقك عندى ، اختر لنفسك ما يحلو !

فكرى : يا مولانا أنسيت أننى لم أزل هنا ؟ أنك وعدتنى أنا أيضاً بأن أختار المنصب الذى أشاء ، ألا تخشى أن يتعارض اختيارى مع اختيار صاحبى خليل فتفسد ما بيننا من ود قديم ؟

الجهنمى : لا لا ، اسمع ، أنتما منى بمنزلة عينى هاتين ، هذه عينى وهذه عينى ؛ لكن لا بد من أن أقول كلمة فيكما ، ولعلها لا تغضب فكرى !

فكرى : قل قل يا صاحب السعادة إننى مستعد لتنفيذ أوامرك دائماً وأبداً .

الجهنمى : فكرى رجل يصلح للسياسة ، لأنه صريح يقول الحق

ولو كان على نفسه . أما خليل فيصلح للإدارة لأنه . . . كذاب من الطبقة الأولى !

(الجهنمى يقهقه لنكتته ، وخليل وفكرى يجاريانه بتكلف) .

خليل : أنت تريد أن تقول العكس تماماً ، الإدارة صراحة فى العمل والاتجاه ، والسياسة كذب فى العمل والتوجيه !

الجهنمى : (إلى خليل) إنى لو كنت على رأس الحكومة لما تأخرت باصدار مرسوم بتعيينك مديراً عاماً للقضايا الزراعية فى البلدية ، وبتعيين فكرى مديراً للصحة العامة والإسعاف الاجتماعى فى المجلس البلدى .

فكرى : لماذا ؟ الأن خليل شاعر، وأنا مهندس لا اختصاص عندنا لهذه المناصب ؟

الجهنمى : الاختصاص لا فائدة منه فى الإدارة البلدية ! !

خليل : (هازئاً) بالطبع ، ولا فى السياسة الدولية !

فكرى : لأن المعرفة مصيبة فى بيئة جاهلة !

(يضحك الجميع . . . ويستأنف الجهنمى حديثه) .

الجهنمى : بقى أن نكلف رئيس البلدية بأن يستقيل فوراً !

خليل : الأفضل فى رأيى أن تستولى على الرئاسة بالقوة . . . قبل الانتخابات ، ثم تقيله بقرار تصدره أنت !

فكرى : هذا هو الحل المعقول ، لأنه لن يستقيل من تلقاء نفسه !

الجهنمى : لماذا يكابر هذا الرجل فيأبى إلا أن يقال من منصبه؟

فكرى : لأنه كسائر المترئسين يجد فى الكرسى مقعداً طرياً دافئاً !

(تدخل الكاتبة على الآلة وهى فتاة فى نحو العشرين من عمرها ، لطيفة أنيقة ، عذبة) .

خليل : وهذه نورا . . . أنها أعلم منا بموعد استقالة الرئيس !

نورا : (ضاحكة بصوت أعلى) من تعنى يا لولو؟

الجهنمى : رئيس البلدية !

نورا : أنت مجنون ؟

الجهنمى : نعم يا سيدتى ، أنا مجنون بك !

(يضحك الجميع)

فكرى : نورا آنسة وليست سيدة !

الجهنمى : لقد زدتنى جنوناً بهذا الاستدراك !

خليل : تعنى أنك اعتزمت توديع العزوبة ؟

الجهنمى : أنت خبيث ذكى تستقرئ أفكارى دائماً !

فكرى : يا سعادة الرئيس المنتظر ، لا بد لك من الزواج قبل الرئاسة (ثم إلى نورا) ومن امرأة جميلة ، إن البر وتوكول يقضى بذلك !

خليل : بالطبع ، بالطبع ، وكيف تصبح رئيساً إذا لم تكن لك امرأة جميلة ؟

الجهنمى : إننى أفضل القبيحة لنفسى .

فكرى : (متصنعاً الانفعال) ماذا تقول ؟ قبيحة ؟ وهل هناك امرأة قبيحة ؟ أنت مجنون ؟

خليل : (باللهجة نفسها) لو كنتَ غير الرئيس الجهنمى لأخرجتك حالا من هذه الغرفة ، أنت تهين النساء !

الجهنمى : (معتذراً وكأنه يخاطب نورا مستشفعاً بها) أستغفر الله أنا أحترم المرأة ، فقد تزوجت مرة . . .

فكرى : إذن أنت مطلق ؟

خليل : بل أرمل !

فكرى : يا مسكين ، يامسكين ، أهى التى ماتت تخلصاً منك أم أنت الذى أمتها تخلصاً منها ؟

خليل : هل ذبحتها كما ذبح سعيد امرأته ؟

الجهنمى : ماذا تقول يا شيخ ؟ من هو سعيد ؟

فكرى : أنه زوج المرأة التى ذبحت أمس !

خليل : ذبحها زوجها وأخوها !

فكرى : ولا تنس من فضلك أن تقول بمعرفة أمها !

خليل : لأن عشيقها أغواها على حد قوله !.

الجهنمى: ماذا تقولان ؟ أنا لا أفهم لقد أصبحتنا كرجال السياسة الدولية ، يقولون ما لا يدركه الناس ، فيحترمهم الناس لأنهم لا يدركون ما يقولون !

خليل : أحسنت يا سعادة الرئيس الخطير ، السياسة ضرب من الدجل . . . الدجل الرمزى أو ألعاب الحواة .

فكرى : بل أنه لون من الفلسفة الصوفية أو البيان الساحر !

نورا : (التى كانت مشغولة بإصلاح زينتها) بل هى ضرب من « الماكياج » . . . فى كل ساعة وجه جديد ولون جديد !

الجهنمى: (إلى نورا) وأنت صرت فيلسوفة حكيمة يا . . . مدموزيل ؟

فكرى : بل صارت خطراً على رجال الحكم !

خليل : أنا أعتقد أن المرأة أصلح من الرجال لمعالجة . . . السياسة المحلية !

الجهنمى: والسياسة الدولية . . . ألم تكن زنوبيا وكليوبطرة . . .

فكرى وخليل ونورا معاً : دعنا من المومياآت !

خليل : نحن أولاد اليوم !

فكرى : النساء اليوم هن الحاكمات فعلا ، وهن الزعيمات عملا ، وهن النائبات قولا !

خليل : ومتى كانت النساء غير ما هن عليه اليوم؟ نحن الرجال نعيش دائماً عبيداً لهن ، منذ نولد حتى نموت ! !

نورا : عبيد ، المرأة لا تحب الرجل العبد . . .

الجهنمى: صدقت ، إنها تحب الرجل السيد . . . لأنها ضعيفة !

نورا : (بتهكم) ومن قال لك أنها ضعيفة يا سعادة الرئيس؟ جرب يا مسكين . . . جرب فمن ذاق عرف !

الجهنمى : (يكاد يذوب رقة) أنا عبدك بين يديك . . وحياة رأسك وعينيك !

خليل : الله الله ، سعادة الرئيس ينظم الأشعار . . . . يا أستاذ ، الأدب محظور على رجال السياسة !

فكرى : والأدباء مخلوقات غير مرغوب فيها فى الدواوين البلدية.

خليل : لأن الأدباء لا يحترمون أنفسهم ولا يتضامنون .

نورا : (بدهاء) بل لأن قلة الأدب هى الأصل وسواها هى الفروع !

الجهنمى : يسلم هذا الفم الذى ينطق بالدرر ، ما اسمك الكريم يا آنسة ؟

فكرى : (للجهنمى) عفوا أنا لم أعرفك إليها ؟

نورا : لا حاجة بنا إلى وساطتك يا أستاذ فكرى ، سعادة الرئيس معروف مشهور . . .

الجهنمى : (منتفخاً) تشرفنا يا آنسة ، (وإلى خليل هامساً) ما اسمها الصغير يا خليل بك ؟

خليل : (معلناً بصوت مسموع) حورية يا سيدى ، حو رية !

الجهنمى : من الحور العين ؟

خليل وفكرى : والولدان المخلدين !

الجهنمى : (هامساً) تبارك الله ، تبارك الخلاق العظيم . . .

نورا : ماذا تقول ؟

الجهنمى : إنى أذكر الله الخلاق القدير !

نورا : ظننتك تتغنى بالأشعار الغرامية . . . مثل جارنا بائع السوس !

الجهنمى : الشعر فى عينى يا آنستى ألا تحسين . . . ألا تشعرين . . . ألا تنظرين . . . ؟

نورا : (بضحكة مغرية) لم أفهم !

فكرى : يقول الأستاذ غرام السعادة . . . عفواً سعادة الأستاذ غرام إن لسانه تعطل عن الكلام . . .

خليل : (ينشد مقاطعاً) وتعطلت لغة الكلام . . . رحمك الله يا شوقى ، كم محام يعيش على فتات موائدك أيضاً !

فكرى : (متابعاً وهو ينشد) . . . فخاطبت عينيه فى لغة الهوى عيناك !

نورا : استح يا فكرى ، استح ، أنت رجل متزوج !

فكرى : ولذلك أنا لا أستحى !

خليل : لا حياء فى الدين !

الجهنمى : (وكأنه مأخوذ) تبارك الدين ! تبارك الله !

نورا : ألم تنته القصيدة يا سعادة الرئيس الشاعر ؟

الجهنمى : أنت قصيدة حية !

فكرى : (مقلداً صوت الجهنمى الولهان) ومعلقة ميتة !

خليل : (متابعاً) وأنشودة حالمة !

فكرى : وأغنية ناعمة !

نورا : يا ضيعة الأمل فيك يا فكرى ، يظل خليل أرفع ذوقاً منك مع أنه (فلاح) كما تقول ، أنا معلقة ميتة ؟ أنت (معلق) وستموت .

خليل : من الفلاح ، أنا ؟ أنت فلاحة وهو فلاح !

فكرى : مع الفخر والشرف يا عزيزى ، الفلاح هو أساس المجتمع البشرى ، هل تنكر ؟ ولكن على شرط بالطبع ، أن نرفع مستواه الاجتماعى بالعلم ، ونوفر له أسباب العيش الصحى !

الجهنمى : (يتابع صلاته سادراً) تبارك الفلاح. . . تبارك الله!

نورا : (إلى الجهنمى) أما انتهيت من قصيدتك بعد ؟

خليل : لقد انتهى . . . وبدأ بالهذيان ! ألم يقل فولتير يبدأ الحب من العينين وينتهى . . . بالهذيان ؟

فكرى : ما أقدرك على رواية الأكاذيب ولا مؤاخذة يا أستاذ خليل ، لو أن القانون يطال الكذابين لكنت فى السجن منذ زمن بعيد ! !

نورا : أليس محامياً مثلك ، ومن كبار رجال السياسة ، كما قال سعادة الرئيس !

خليل : من أحب قوماً حشر معهم .

نورا : (إلى خليل) هل بدأت تشعر أنت أيضاً يا لولو ؟

خليل : أنا لا أنفك عن الشعور ولا سيما إذا كنت بقربى... (ثم جاداً) لقد طالت هذه المهزلة . . . ونسينا أننا هنا لندرس قضايا الناس ، لا لنقضى الوقت فى

الهزل الرخيص !

فكرى : ولماذا الدرس يا عزيزى ؟ ولا تنس أن المزاح منبه للفكر . . .

نورا : وباعث للشاهية !

الجهنمى : هل جعت يا روحى ، بإمكانى أن أدعوك إلى . . . كأس من الشاى فى النادى الأفلاطونى !

نورا : مع الشكر . . . إذا سمح الأستاذ فكرى لى بالانصراف فى هذه الساعة .

فكرى : لقد قاربت الساعة السادسة . . . بإمكانك أن تنصرفى يا آنسة . . . ولكن لا تنسى أن غدك مملوء بالأعمال المعجلة ! !

نورا : بالطبع يا أستاذ ، ولكن ليس لدى سوى دفاعك عن قتلة . . . النجار الذى ستلقيه فى الشهر المقبل ، ولائحة الدعوى الحقوقية التى يجب تقديمها فى ختام السنة .

الجهنمى : ولم العجلة إذن يا فكرى بك ؟ دعها تسترح ودعنا نستروح الجنة ! (وينصرف مع نورا)

فكرى : مع السلامة يا رئيس السعادة . . . سعادة الرئيس . . . ولكن خذ بالك من نورا . . .

الجهنمى: (متحيراً) نورا . . . حورية ، (ثم إلى نورا عند الباب) أنت نور العيون أم حورية الجنات ؟

(تنسحب نورا بغنج ودلال دون أن تجيب بسوى ابتسامة ناعمة ، والموسيقى تعزف لحناً راقصاً على وقع الأقدام التى تبتعد وفكرى يتمتم (مردداً بإيقاع موسيقى)

دعوى . . . الحقوق . . . حقوق . . . الدعوى .

واسطة ورشوة . . . هات الفلوس وخذ الدنيا . . .

خليل : (يقول بعده موقعاً أيضاً) بلا محاماة . . . بلا مرافعات . . . صارت وشوشات فى آذان القضاة ! !

(والموسيقى تعزف اللحن نفسه بوضوح ينتهى بصخب وضجيج) .

المشهد الرابع

فى المحكمة : سعيد فى قفص الاتهام . . .

الأستاذ فكرى محامى الدفاع ، الأستاذ خليل محامى الادعاء .

الحاجب يعلن : المحكمة ...

الرئيس : (يدق الجرس ويأمر جازماً) نرجو من الحضور الصمت التام ، (ثم إلى سعيد) أيها المتهم قف وقل لنا الحقيقة ، كيف قتلت زوجتك ؟

سعيد : أنا لم أقتلها يا سيدى الرئيس ، لقد وجدتها مذبوحة فى فراشها . . . فأخبرت أخاها وأمها حسب التقاليد هذا كل ما أعلمه ! !

فكرى : أطلب إلى المحكمة الموقرة تكراراً جلب أخى القتيلة وأمها للاستماع إلى شهادتهما . . .

الرئيس : (بعد استشارة العضوين) المحكمة تصر على رفض الطلب !

سعيد : (علناً) وأنا مع المحكمة أرفض هذا الطلب ، (ثم إلى محاميه سراً) اتركنا يا أستاذ أخوها صار (زلمة) الوزير اليوم . . . وأمها تخدم فى بيت الباشا !

(ضحك فى الجمهور وهمس ، يضطر الرئيس إلى ترديد كلمته المعتادة)

الرئيس : أطلب إلى الجمهور الصمت التام وإلا أمرت بإخلاء القاعة (فيسود السكون)

فكرى : الدفاع يصر على تسجيل هذا الطلب فى محضر الدعوى ، وإن خالف بذلك رأى المحكمة .

الرئيس : (متابعاً . . .) فهل لدى الدفاع ما يدلى به فى الموضوع غير ذلك ؟

فكرى : يحتفظ الدفاع بحقه فى المرافعة بعد الاستماع إلى أقوال الادعاء الشخصى .

الرئيس : كانت الجلسة السابقة مخصصة للاستماع إلى الادعاء ومع ذلك هل لك ما تزيده يا أستاذ خليل ؟

خليل : لقد بينت للمحكمة الموقرة ظروف الجريمة ، وطلبت إعدام القاتل ، وإننى أصر على هذا الطلب ، وإن كنت أعلم تمام العلم أن زوج المغدورة برىء مما نسب إليه .

سعيد : (مقاطعاً) يعيش رجل المحاماة النزيه !

خليل : (متابعاً) . . . لأنه لا يعقل أن يقتل الزوج زوجته وهو فتى شهم كسعيد . . . وهى فتاة جميلة . . . كالمرحومة !

فكرى : (هامساً) أ أنت هنا لتتغزل أم لترافع ؟

خليل : (متابعاً) . . .فالغزل . . . عفواً فالقضية أصبحت واضحة تمام الوضوح– امرأة قتلت فى رابعة النهار فى فراشها ، ثم ذبحت من الوريد إلى الوريد . . . والقاتل مجهول محل الإقامة ، منذ أخذت الشرطة

تبحث عنه ، بعد أن قبضت على جثة القتيلة . . .
أما الزوج فلاعلاقة له بالموضوع ، لأنه كان فى أثناء اقتراف هذه الجريمة النكراء يعمل فى مقهى البناية — وهى البناء الذى تقيم فيه دائرة الأمن العام . فليس من المعقول والحالة هذه أن يكون الزوج بجوار الأمن العام، ثم يعتدى فى زوجته على الأمن العام! نحن لا ندين بازدواج الشخصية فى هذه البلاد الديمقراطية!

سعيد : (مقاطعاً) يسلم هذا الفم يا أستاذ خليل !

الرئيس : أطلب إلى المتهم أن لا يقاطع وكيل الادعاء !

خليل : ولكنى بصفتى وكيل الادعاء الشخصى لا بد لى من أن أتهم، وأنا أتهم القاتل بصراحة، لأن تلك الضحية المسكينة وجدت مقتولة . فلا بد أن يكون هناك قاتل امتدت يده الأثيمة إليها فسلبتها الحياة . والحياة مما كفله الدستور ، وكفل حق الإنسان فيه. ثم كرست هذا الحق عهدة الأطلسى فى الحريات الأربع . . .

فكرى : (مقاطعاً) إلفت نظر المحكمة إلى أن الادعاء قد خرج عن الموضوع . . . فالاعتداء واقع على حياة امرأة ، لا على حريتنا . . .

الرئيس : الحق بجانب الدفاع وإن كان حق الحرية يساوى حق الحياة ، وكلاهما حق طبيعى !

خليل : (مسترسلا) . . . فحياة الزوجة كانت ، كما ثبت للمحكمة ، عرضة للاعتداء . . . أما المعتدى فيبقى مجهولا لأن القانون لا ينفذ إلى ظلمات الوجدان ولا يخترق جدران بعض القصور . . . ولا يطال المتنفذين الذين يحمون المجرمين فيشجعونهم على اقتراف الجنايات .

الرئيس : أطلب إلى الدفاع أن يبقى فى حدود الموضوع !

خليل : (متابعاً) هذه خلاصة دفاعى ، وإننى أرجو أن يوفق القضاء إلى العثور على القاتل بالسهولة التى عثر فيها على القتيلة !

الرئيس : الكلام للنائب العام !

النائب العام : (صراخ يتعالى شديداً فلا يفهم منه إلا كلمات.. المجرم القاتل . . . تطهير المجتمع . . . تطهير الهيئة الاجتماعية . . . السفاك الأثيم .)

ثم يهدأ النائب العام قليلا (بعد أن يبح صوته فيقول بلهجة مفهومة)

النائب العام : إننى وقد اقتنعت هيئتكم الموقرة بأن ثمة قاتلا

اقترف هذه الجريمة دون شك ولا ريب ، وثبت لمحكمتكم الجليلة بالبرهان القاطع أن هناك قتيلة ذهبت ضحية هذا الاعتداء الوحشى ، فلا مندوحة لى من أن ألقى تبعة هذه الجريمة النكراء على شخص من الناس . والشخص الوحيد الذى استطعنا أن نصل إلى القبض عليـــه هو هذا الزوج المـــاثل أمامكم فى قفص الاتهام . فانه هو الذى دبر الجريمة عن سابق تصور وتصميم ، وهو الذى نفذها فى ضحيته البريئة ، وأعمل فى صدرها وبطنها فى صباح يوم من الأيام خنجره تمزيقاً وتقطيعاً . . . هذا المجرم الماثل أمامكم ، بثوب الحمل الوديع ووجه الطفل البرىء ، يستحق عقوبة الإعدام ! نعم إنه يستحق عقوبة الإعدام على ما اقترفت يداه ، وجنت نفسه الشريرة . إننى أطلب الحكم على هذا المجرم بأقصى درجات العقوبة لا انتقاماً منه ، بل قطعاً لدابر الشر فى المجتمع وعبرة لسواه من المجرمين السفاكين !

الرئيس : (وهو يبلع ريقه) إن المحكمة وقد استوفت النظر فى هذه القضية تسأل المتهم السؤال الأخير — هل لك ما تقوله يا سعيد رشيد الكساب ؟

سعيد : يا سيدى الرئيس أنا برىء . . . والله أنا برىء ، لم أقتل زوجتى ، ولم أفكر فى قتلها قبل الحادثة .

فكرى : (مقاطعاً) إذا سمحت لى محكمتكم أن أتابع الكلام عن موكلى، الذى هدت النيابة العامة أعصابه كما ترون ، قلت لكم — إن سعيداً هذا الشاب الماثل أمامكم بتهمة القتل هو أشد وداعة من الحمل ، خلافاً لما يظنه النائب العام ، فليس من المعقول أن يلطخ يديه بدم امرأة أحبها ، وعاشرها معاشرة الأزواج مدة سنة أو تزيد .

وإذا طلبت لموكلى البراءة بعد ذلك فإننى أطلبها ، وأنا واثق من أن وجدانكم الطاهر مقتنع بما أنا مقتنع به ، والبراءة هى الأصل ، أما الإدانة فتحتاج إلى إثبات . ولما كانت محكمتكم لم تتوافر على استثبات هذه الجريمة ، ولم تتوصل إلى أى دليل على وقوعها بيد فاعل ، فقد تكون الشهيدة المأسوف عليها انتحرت إثر نوبة عصبية أصابتها (القضاة يهزون رؤوسهم علامة الاستحسان، والجمهور يهمس — انتحار . . . غير ممكن . . . الانتحار غير وارد) وقد قال موكلى وكرر القول بأن زوجته كانت

مصابة بنوع من الهستريا تعاودها شهراً بعد شهر، قبيل دخولها فى . . . الوضع الدورى الخاص بالنساء. (همس فى الحضور ولغط يضطر الرئيس إلى التنبيه بقوله المعتاد)

الرئيس : الرجاء إلى الحضور أن يحافظوا على الصمت وإلا أمرت بأخلاء القاعة حالا ! !

فكرى : (متابعاً) والجروح التى شوهدت فى جسد المرأة القتيل جروح محدثة بآلة غير حادة . . . كما ثبت للطبيب الشرعى . فقد تكون المرحومة لجأت إلى ما تيسر لها من أدوات المطبخ فانتحرت بها فى ساعة يأس من دائها النسائى الدورى !

أيها القضاة المحترمون ، إننى واثق من اكتمال روح العدالة عندكم ، ومن طهارة وجدانكم ؛ لذلك لا أطلب الرحمة لموكلى بل أطلب له البراءة كاملة غير منقوصة !

الرئيس : المحكمة تنسحب للمذاكرة . . . (يتعالى ضجيج الحضور وهمساتهم. . . وكلمات البراءة. . . الإعدام الإعدام . . . البراءة . . . الإعدام مسكينة . . . قتلها زوجها . . . قتلها أخوها . . . ذهبت ضحية رخيصة . . . . الوزير يكفل القاتل . . . . النائب

يحمى القتلة . . . رشوة . . . وشوشة ، والموسيقى تعزف لحن الانتظار ، دون أن تغطى أصوات الناس وهمساتهم) .

المشهد الخامس

الحاجب: المحكمة ، (تسمع جلبة القضاة والحضور الذين يقفون تحية للقضاة وللاستماع إلى الحكم)

الرئيس : (يتلو الحكم) باسم الشعب — ولما كان سعيد زوج المغدورة قد برهن على براءته مما نسب إليه بدليل أنه كان يدير مقهى البناية التى تقيم فيها دائرة الأمن العام !

وحيث أن القتيلة وجدت مغدورة فى منزلها ، وبآلة لا يمكن أن يستعملها رجل للفتك بزوجته فى السنة الأولى من زواجهما !

وحيث أن الأصل فى القانون هو البراءة حتى تثبت الإدانة .

وحيث أن إدانة القاتل الحقيقى لم تثبت لأن رجال الشرطة والأمن لم يعثروا عليه .

لهذه الأسباب ، حكمنا ببراءة سعيد رشيد

الكساب من التهمة الموجهة إليه ، وبإخلاء سبيله فوراً، إن لم يكن موقوفاً لسبب آخر ، حكماً وجاهياً مبرماً تلى وأفهم علناً .

سعيد : (يصرخ) يحيي العدل !

الجمهور : (ضجيج استنكار ، يسمع خلاله قهقهة خليل وفكرى يهنئ إحداهما الآخر)

خليل : ألم أقل لك إن المحاماة وشوشات فى آذان القضاة ؟

فكرى : ومتى خالفتك يا عزيزى فى حكمك السائرة ؟

نورا : (من بين الحضور) وأنا أشهد على قوة « وشوشتك » يا أستاذ .

خليل : نورا . . . أهذا أنت يانور عينى ويا همسات وشوشتى .

فكرى : أنت الرسول الذى لا يخيب له رجاء !

خليل : وأنت الشفيع الذى لا يرد له دعاء !

نورا : (بصوت مغر) ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزراً مثل الشفيع الذى يأتيك عرياناً !

(وينتهى المشهد بموسيقى تبدأ صاخبة ، تواكب هرج الناس ومرجهم فى الانسحاب من المحكمة، لتنتهى الموسيقى حالمة كالنغم الشارد . . . نفوراً من عدل الأرض ! !)

١٩٤٩

تكريم

حينما ترك « سيمو شنتو » مدرسة تيمورلنك فى إحدى ممالك الصين ، كان فى مقتبل الشباب . ولكن « عطا برتو » ابن الجيران كان قد سبقه إلى ترك المدرسة ، وأخذ يلازم ساحة فى المدينة ، تتوقف فيها العربات العامة لنقل المسافرين . وسرعان ما صار ابن الجيران بعد ذلك « التمرين » ، معدوداً فى الأبطال . فهو يحسن الضرب واللكم ، كما يجيد الشتائم . لذلك تهيبه سكان المدينة ، برغم صغر سنه ، وبرغم كونه لا يحمل خنجراً ولا مسدساً . « فسطوته » تبعث الرعب فى قلوب الكبار والصغار على حد سواء .

وسيمو شنتو أشد ميلا من عطا برتو إلى هذه الحياة الطليقة من القيود ، وإلى هذا النوع من « السطوة » تنقاد له ، بعد أن يقذف الناس بسيل من الألفاظ البذيئة ، الشبيهة فى معانيها بالأغانى التى يرددونها فى الراديو ، ليطربوا الناس من وقت إلى آخر ! ! !

وسرعان ما انقلب سيمو شنتو « بعبع » الساحة ، يخرس

وجوده عطا برتو . . . وسائر « القبضايات » المسيطرين على الموقف قبله ، والذين كانوا يتقاضون من السواقين ، ومن أصحاب العربات الخاصة ، جعالة شبيهة بضرائب البلدية ، لا يستسيغها المكلفون ، ولا يدرون وجوه إنفاقها .

* * *

مضت سنوات على ذلك اليوم الذى غادر فيه سيمو شنتو المدرسة الإمبراطورية لغير رجعة ، وهو لا يذكر أنه ودع رفاقه كما يفعل غيره من الأولاد العاطفيين . ولكنه يذكر تماماً وجه المعلم « ليوتسو » ، وما ارتسم على تقاطيعه من انطباعات الألم ، حينما أدرك أن أحد تلامذته الأذكياء لن يعود .

ويتوقف سيمو شنتو عند باب المدرسة ، يده فى يد المعلم الذى لم يصافحه قبل يومه هذا ، وتترقرق الدمعة فى عينيه الرماديتين . فيخيل للمعلم ليوتسو أن اعتداد هذا الولد « المخيف » وشدته قد تلاشيا أمام العاطفة الصادقة الحنون ، وأن ذاك الذئب الغضوب قد انقلب حملا وديعاً . فيشد المعلم على اليد الصغيرة الصلبة ويقول لسيمو شنتو :

— « اذكر كلما غضبت يا عزيزى أنك إنسان . . . وأن الناس بشر مثلك ! هكذا علمنا بوذا ، وعلينا أن نحقق ذلك

العلم فى أنفسنا ! ! »

فيتمتم سيمو شنتو كلمات غير مفهومة ، وهو ينسحب من الباب ،مرفوع الرأس على غير عادة البوذيين ، وعيناه عالقتان بالأفق البعيد ، عند ذلك المستقبل الذى تراءى له من خلال أحاديث عطا برتو ، وسطوة ابن عمه ، وزعامة كل قوى بطاش ، فى بلد لا حق فيه لغير القوة ، ولا وجاهة لغير المال .

* * *

لم يكن سيمو شنتو قد أتمّ السابعة عشرة من عمره ، حينما اختلف مع أحد الحمالين فى الساحة الكبرى ، أمام قصر الإمبراطور ، اختلافاً اشتد وتأزم ، وجمع حول المتنازعين سائر أهل الساحة ، فضلاً عن المارين من محبي الاستطلاع . ولما ابتعد الجندى الإمبراطورى الموجود هناك ، إلى مسافة كافية ، تجنباً للأخطار ، وجد سيمو شنتو نفسه ينتضى سكيناً حاداً ، ثم يغمده فى بطن الحمال الذى تجرأ على شتمه !

وقد حسب سيمو شنتو أن أحداً لن يزوره فى السجن ، حيث قضى ليلته الأولى ، عقيب استسلامه بعد أسبوع من وقوع الحادث المؤسف .

ولكن ما كان أشد دهشته ، حينما وجد المتزاحمين على

زيارته من الكبراء، والمستفسرين عن راحته من العظماء، يفوقون وزناً جميع الذين استنكروا فعلته الشنعاء من عامة الناس . فهذا زعيم كبير يبادر إلى إرسال الأموال والسجاير والأفيون إلى « السجين» العزيز ، وذاك سياسي خطير يزوره فى سجنه ليعرض عليه معونته ووساطته . وذلك متمول عظيم يسارع إلى كسب ود القبضاى الناشئ ، توطئة للانتخابات القادمة ، التى تعود الناس أن يروا أمثال سيمو شنتو يقومون بها ويوجهونها بالقوة تارة ، وبالإغراء تارة أخرى .

وكانت أم سيمو شنتو أقل الناس حزناً على ولدها ، بما أصابه من تعذيب وقصر حرية . فلما قضت المحكمة ، بعد أربعة أشهر ، ببراءته ، لصغر سنه ، ولموقفه المشروع فى الدفاع عن النفس وعن الكرامة ، كما أفتى بذلك قاضى المدينة ، كانت هذه الأم أشد الناس حزناً ، لسرعة الإفراج عن وحيدها الخطر . وقد سمعتها أم عطا برتو ، تتمتم بين زغرودتين من زغاريدها : « يا رب نجنا من شر هذا الصبي ! »

فى الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين ، بتوقيت الشرق الأقصى ، كانت أبواب السجن الرهيب تنفتح ويخرج منها شاب نحيل ، ضئيل الجسم ، زادته الجريمة اعتداداً . فما مشى خطوات نحو باحة السجن الخارجية التى تحيط بها صخور

شاهقة ، تبدو فى مثل هذه الساعة من نهايات النهار ، فى حمرة القرميد القاتمة ، حتى وجد سيمو شنتو نفسه محاطاً بالعشرات من الرجال والعربات وجياد الخيل المطهمة . . . فما بهره نور الشمس البرتقالى الذى ينعكس على الصخر الأملس ، ولا شدهته حرارة هذا الاستقبال الحافل بالكبراء والوجهاء والقبضايات . وإذا ببعض المستقبلين يحملون البطل « الجديد » إلى أفخم عربة ، ثم يشيعونه إلى منزله ، فى موكب من العربات ورؤوس الخيل ، يصعب تعدادها ، ويعز نظيره .

وماهى إلا دقائق حتى هبّ الناس من منازلهم إلى الشرفات ، ومن مقاهيهم إلى الأرصفة ، يحتشدون بأثوابهم الفضفاضة المزركشة ، كي يستطلعوا الخبر ويعلموا واقع الأمر .

فيقول بعض الناس لبعض :

— هذا رئيس الوزارة . . . وحرسه الخاص !

ويجيب آخرون يصححون الخبر :

— لا بل هذا زعيم التركمان . . . وجماعته من المتطوعين !

ويقول غيرهم لغيرهم :

— هل رأيتموه ما أجمله ، إنه أمير من . . . بلاد النفط والذهب ونساء الحريم ، ومعه حاشيته !

ويقول قوم آخرون :

— بل هذا « رئيس عصابة » من شيكاغو ومعه أتباعه اللصوص !

وما هى إلا لحظات ، ترتفع فيها زغاريد النساء ، حتى تنفجر المدينة بكاملها باروداً وناراً ودخاناً . فيخيل إلى سكان المدن المجاورة أن ثورة قد نشبت فى مدينة تيمورلنك ، أو أن عدواً فاجأها بهجوم صاعق ، فدخلت قواتها مع الغادرين بحرب كلية شاملة . ويتفق رجال الأمن على القول فى تقاريرهم الرسمية « ما رأينا وما سمعنا ! »

* * *

وكان المعلم ليوتسو هو الشخص الوحيد الذى رأى وسمع ، وحاول القيام بعمل إيجابى !

فما أصبح الصباح ، ولاح بنوره الوضاح ، وخف دوى المفرقعات ، حتى غادر ليوتسو منزله وطرق باب سيمو شنتو ، فإذا به لم يغمض له جفن ، هو الآخر ، لأنه سهر الليل بطوله مع ضيوفه ، ومهنئيه من مختلف طبقات الأمة . فهب يفتح بنفسه الباب للطارق ، ويشيع آخر ضيف كان عنده .

فما وقعت عينا المعلم ليوتسو ، على ذلك الضيف . . . حتى صعق وانعقد لسانه . فلقد وجد نفسه وجهاً لوجه أمام نائب الإمبراطور ، الذى حاول مراراً أن يحظى هو بمقابلته ، فلم يتح له

هذا الشرف الرفيع !

وما عاد إلى المعلم وعيه إلا حينما جلس سيمو شنتو بين يديه ، يناديه وهو يداعبه :

— « يا معلمى ! نحن لا ننسى فضلك ! أهلا وسهلا ! شرفتنا وآنستنا ! »

ويحاول ليوتسو أن يركز فكره على الغرض من زيارته ، فيقول لسيمو شنتو مباسطاً :

— « ولكنك نسيت نصائحى يا سيمو شنتو ! » فيجيب الفتى بحزم وعناد :

— « أبداً ؛ نحن تربيتك يا معلم ؛ ونصائحك لا ننساها ؛ ولكن للظروف أحكام ! »

ثم بعد صمت وجيز ، يقول الفتى ، وهو يدخن سيجاراً خيل للمعلم أن فيه كثيراً من حشيشة الكيف :

— « هل تذكر ما قلته لنا يوم ذهبنا مع الرفاق ، فى نزهة إلى النهر المقدس ، وبدأنا نأكل الخس . . . ؟ »

فيقول المعلم ليوتسو حالماً :

— « ماذا قلت لكم ؟ إننى صرت أنسى التفاصيل ! »

— « قلت . . . لا تقشروا الخس . . . كلوا العزوق بأوراقها ! هكذا قال بوذا لأن الفائدة فى الأوراق !

ويجيب المعلم مسروراً :

— « صحيح ! صحيح ! لقد قلت لكم ذلك ! أنني أذكره تماماً ! »

ويتابع الفتى كلامه :

— « أرأيت أنني ما نسيت نصائحك ؟ لقد كنت حتى في السجن أذكر هذه النصائح ، وأعمل بها . . . »

فتنفرج شفتا ليوتسو عن مشروع ابتسامة ساخرة ، ويقول متلعثماً :

— « بورك فيك يا ولدي ! بورك فيك ! »

ثم يقول بصوته العادي ، وقد أيقظه الواقع من سباته وأحلامه المثالية :

— « أحسنت يا ابني ، أحسنت ! هكذا هكذا يكون الوفاء ! »

ويهم ليوتسو بالانصراف ، فيشيعه سيمو شنتو حتى أعلى الدرج ، ويردد له كلمات لم يتبينها المربي وهو في شبه بحران مما يراه من تعارض بين مثاليته التي عايشها ، وحاول أن يحببها إلى الناس ، وبين واقعية هؤلاء الناس الذين يأخذون من تلك القيم بمقدار حاجتهم للوصول إلى أغراضهم ومصالحهم .

وقد عاد إلى ليوتسو كامل وعيه ، حينما دعاه سيمو شنتو

لتوصيله فى سيارة « الكاديلاك » الفاخرة . . . التى أهداها إليه « نائب الإمبراطور » ، على سبيل التكريم . فاعتذر ليوتسو شاكراً ، وآثر أن يتابع سيره على قدميه ، كما كان يفعل منذ خمسين سنة ، قضاها يربى الأطفال ويعد الرجال ، فلا يجد من يكرمه بغير معسول الكلام .

١٩٥٠

الجديد فى المحفوظات العربية

أربعة أجزاء

تأليف

لجنة من أساتذة البلاد العربية

طبعة جديدة معدلة مزينة بالرسوم الملونة تقدم للطالب فى مختلف مراحل التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى مجموعة منتخبة من الشعر والنثر تزوّده بثروة وافرة من الفصحى وتصقل ملكاته وترهف فيه الإحساس والشعور .

دار المعارف بمصر

